إيروثيئوس
مطران نافباكتوس

الطب النفسي الأرثوذكسي

(علم الآباء)



Hierotheos - Metropolitan of Nafpaktos

Orthodox Psychotherapy

The science of the Fathers

ترجمة
دكتورة / نيڤين سعد

الطب النفسي الأرثوذكسي

(علم الآباء)

تأليف

إيروثيئوس

مطران نافباكتوس ـ اليونان

ترجمة

دكتورة / نيڤين سعد

كتاب: الطب النفسي الأرثوذكسي
مترجم بإذن من المؤلف والناشر عن كتاب:
Orthodox Psychotherapy
المؤلف: Hierotheos - Metropolitan of Nafpaktos
الناشر للطبعة الإنجليزية:
Birth of the Theotokos Monastery, 1994, 1995
P.O. 107, 321 00 Levadia, Greece

المترجم: دكتورة نيفين سعد
تصميم الغلاف: مكتب جي سي سنتر (عن غلاف الطبعة الإنجليزية)
للفنان: Yannis Yeremtzes
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٦٣٥ / ٢٠٠٩
رقم الإيداع الدولي: 977-5545-57-9



قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الفهرس

تمهـــيد

إنني أعمل منذ عدة سنوات كطبيبة أخصائية في الطب النفسي . وفي كل مرة أقف على عتبة نفس إنسان جاءني طالباً المشورة أو العلاج متأهبة للدخول إلى أعماقه ينتابني شعور عميق بالرهبة والمهابة وكأن صوتاً يرن في أعماقي: "إخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة" (خر٣:٥) . فالذي يعمل مع النفس البشرية بكل أسرارها وتلافيفها لابد وأن يشعر بكرامة هذا العمل ولا يسعه إلا أن يهتف: " حقاً إن الرب في هذا المكان"(تك ٢٨:١٦) . **فالنفس ليست إلا قدساً وقدس أقداسها هو القلب الذي هو إنسانها الباطني.**

وعلى الرغم من ولعي الشديد بعلم النفس والطب النفسي إلا أنني كلما درست منهما علماً جديداً كلما إجتهدت أن أجد ما يربطه بالكتاب المقدس وبروحانية وطقوس ونسكيات الكنيسة الأرثوذكسية. وفي الحقيقة أستطيع أن أقول أنني نجحت في ذلك مرات كثيرة ولكنني فشلت فيه مرات أكثر. وهكذا بقي داخلي سؤال مُلح لا يجد إجابة شافية وهو: **"كيف تتحقق المعادلة التي تجري مصالحة بين علم النفس والطب النفسي من جهة والروحانية المسيحية من جهة أخرى؟"**.

ومنذ فترة أهداني أحد الآباء الموقرين نسخة إنجليزية من هذا الكتاب الذي لما قرأت عنوانه "الطب النفسي الأرثوذكسي" تخيلت أنه سيتناول الأعراض والأمراض النفسية المختلفة بدءاً من القلق والوسواس والإكتئاب وإنتهاءاً بالهوس والفصام.

إلا أن كاتب الكتاب نيافة الأنبا إيروثيئوس مطران نافباكتوس وسانت فلاسيوس باليونان جذبني بعيداً جداً عن كل هذه المنظومة الطبية وغاص بي في منظومة روحية أكثر عمقاً تنادي بأن الشفاء الحقيقي يكمن في شفاء النفس من الأهواء وفي **"العودة بالعقل إلى داخل القلب"**.

وها هو يجيب أخيراً على سؤالي الحائر ويحقق المعادلة بقوله : " ... **وبالتالي فإن الطب النفسي والعصبي يشفي الإضطرابات على حين أن علم اللاهوت الأرثوذكسي يشفي الأسباب الأكثر عمقاً التي تتولد منها هذه الأمراض**"(ص ١٢). ويقول في موضع آخر من الكتاب : "...... **من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يعطوا معونة**

بدرجة كبيرة طالما أن المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يستعيد العقل المائت بالأهواء" (ص٣٠).

نعم حقاً لا يستطيع الطب النفسي بكل تقنياته أن يستعيد السلام لنفس مضطربة ما لم يدخل المسيح رئيس الكهنة الأعظم إلى قدس أقداسها أي قلبها ويقيم فيه.

وهكذا قررت ترجمة هذا الكتاب العميق بكل ما يحمله من كنوز لنصوص آبائية وبكل ما يوحي به عن كاتبه من عمق وخبرة حية معاشة في اللاهوت الأرثوذكسي.

لعلك ـ أيها القارئ ـ إذا قرأته ومنح نفسك الشفاء الأرثوذكسي الحقيقي تسجد معي شكراً لله وتطلب لي عوناً من قدسه.

د. نيڤين سعد

إستشاري الطب النفسي
وأمراض المخ والأعصاب

تعريف بالكاتب

ولد المطران "إيروثيئوس س. فلاخوس" في "إيونينا" باليونان سنة ١٩٤٥. وتخرج من مدرسة اللاهوت بجامعة تسالونيكي، وسيم قساً سنة ١٩٧١.ثم خدم في المطرانية بأثينا كواعظ وقائد للشباب. ثم أختير أسقفاً على "نافباكتوس" و"سانت فلاسيوس" سنة ١٩٩٥.

قام إيروثيئوس المطران بتدريس اليونانية وإلقاء محاضرات عن الآداب الأرثوذكسية لطلبة مدرسة القديس يوحنا الدمشقي بجامعة بطريركية أنطاكية في شمال لبنان.

كما إهتم في شبابه بآباء الكنيسة إذ كان يعمل حينئذ في تسجيل الكتب في مكتبات دير جبل آثوس. وقد إهتم بتعاليم القديس غريغوريوس بالاماس على وجه الخصوص.

ولقد أدت عدة عوامل في حياته إلى التحقق من أن اللاهوت الأرثوذكسي هو علم شفاء الإنسان، وأن الآباء النساك يستطيعون مساعدة الإنسان المعاصر المضطرب بالعديد من المشاكل الوجودية الداخلية. ومن أهم هذه العوامل: دراسته للنصوص الآبائية وخصوصاً نصوص الآباء السكونيين المنشورة في الفيلوكاليا، وقضاؤه عدة سنين في دراسة القديس غريغوريوس بالاماس، وإختلاطه برهبان الجبل المقدس بشبه جزيرة آثوس، بالإضافة إلى السنين العديدة في خبرته الرعوية.

ولقد قام في هذا الإطار بكتابة عدة كتب كثمرة لعمله الرعوي والتي من بينها هذا الكتاب: **"الطب النفسي الأرثوذكسي"**. وقد تُرجمت بعض هذه الكتب الى عدة لغات كالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والعربية. وهو يقوم من خلال هذه الكتب بنقل روح الفيلوكاليا الأرثوذكسية إلى الإنسان المعاصر المضطرب. وهذا هو السبب الذي جعل هذه الكتب تثير كل هذا الإهتمام.

مقدمة الكاتب

لا يشير تعبير "الطب النفسي الأرثوذكسي" إلى الحالات الخاصة التي تعاني من مشاكل نفسية وعصبية، ولكنه يتعلق بالأحرى بكل الناس. ويرى التقليد الأرثوذكسي أن آدم صار مريضاً بعد السقوط وإظلمّ عقله، وفقد شركته مع الله، وبالتالي دخل الموت إلى كيان الإنسان، وسبَّب العديد من المشاكل الإنسانية والإجتماعية بل وحتى البيئية. وفي مأساة السقوط إحتفظ الإنسان بصورة الله داخله، ولكنه فقد تماماً الشَبَه معه، حيث أن شركته مع الله كانت قد تمزقت. وعلى أية حال، فإن تجسد المسيح وعمل الكنيسة يهدفان إلى جعل الإنسان قادراً على الوصول إلى الشبه مع الله الذي هو إستعادة الشركة مع الله. ويسمى هذا العبور من حالة السقوط إلى حالة الإتحاد بالله "شفاء الإنسان"، لأنه مرتبط بعودته من حالة كونه ضد الطبيعة إلى الحالة الطبيعية والفوق طبيعية. ويستطيع الإنسان بالإلتصاق بالعلاج الأرثوذكسي كما يرى آباء الكنيسة القديسون، أن يتكيف مع الأفكار بنجاح، وبالتالي يحل مشاكله بطريقة شاملة وكاملة.

إنني أود أن أؤكد ثانية على أن تشخيص كل الحالات المرضية النفسية والعصبية ليس هو موضوع هذا الكتاب، لأن هذا يخص مجال الطب النفسي. ومن ناحية أخرى فإن العديد من الأمراض النفسية يأتي من الخوف من الموت، وفقدان معنى الحياة، والضمير المثقَّل بالإحساس بالذنب، وفقدان إتحاد الإنسان بالله. ويستطيع علم اللاهوت الكنسي بكل تأكيد أن يساعد إما بالوقاية أو بشفاء الأشخاص الذين يعانون من مثل هذه المشاكل الوجودية.

وبالتالي فإن الطب النفسي والعصبي يشفي الإضطرابات على حين أن علم اللاهوت الأرثوذكسي يشفي الأسباب الأكثر عمقاً التي تتولد منها هذه الأمراض.

سوف يجد القارئ في هذا الكتاب المسار الذي يصل المرء من خلاله إلى الشركة مع الله، وبالتالي يحقق الهدف من الوجود الإنساني. كما سيجد فيه أيضاً الطريقة التي يستطيع بها أن يقي نفسه من الأمراض البدنية المختلفة.

وبذلك سيصبح الطب النفسي الأرثوذكسي أكثر فائدة **لأولئك الذين يبتغون حل مشاكلهم الوجودية**، الذين أدركوا أن عقلهم قد إظلمَّ، وبالتالي يجب عليهم أن يتحرروا من طغيان أهوائهم وأفكارهم لكي يصلوا لإستنارة عقولهم والشركة مع الله.

ويرتبط كل هذا العلاج النفسي بدرجة وثيقة بتقليد الكنيسة النسكي وبحياتها السكونية كما هو محفوظ في كتابات آباء الكنيسة، وبصورة بارزة في تعليم القديس غريغوريوس بالاماس. ولا يجب على المرء بالتأكيد أن يغفل حقيقة أن الحياة النسكية والسكونية هي نفس الحياة التي نراها في حياة الأنبياء والرسل، كما هي موصوفة في الأسفار المقدسة. وسوف يتضح في تحليل فصول هذا الكتاب أن الحياة النسكية هي في الحقيقة حياة البشائر الأربع.

إنني أؤمن أن المشكلة العظمى للفلسفة الغربية هي أنها توحد بين العقل والذهن، وبين المعرفة الذهنية والمعرفة الوجودية. وفي الواقع فإن التقليد النسكي هو التقليد المشترك بين الشرق والغرب في الفترة التي سبقت التوحيد بين علم اللاهوت والغيبيات. وهذا التقليد النسكي هو الذي يهدئ تماماً روح الإنسان الذي يسعى إلى تحقيق ذاته وإلى السكون والسلام الداخلي. إنه من الضروري أن نجد ونعيش هذا الطريق العلاجي بينما نحن نعيش في ألم وإضطراب عالم اليوم الذي يقهرنا ويؤلمنا ويوصلنا لجوع وعطش حقيقي، وهذا بحسب توصيات آباء الكنيسة القديسين. وبالتأكيد فإن آباء الكنيسة القديسين سبقوا علماء النفس والأطباء النفسيين المعاصرين.

إن الأشخاص الذين شُفوا بالفعل هم الدليل على أن الكنيسة تتدخل في المجتمع بطريقة خلاصية. وهذا هو بالضبط الغرض العظيم الذي تقدمه الكنيسة الأرثوذكسية من خلال علمها اللاهوتي وحياتها. **وطريقة الكنيسة هذه تختلف بوضوح عن الطرق النفسية الأخرى لأنها لا تتمركز حول الإنسان anthropocentric ولكنها تتمركز حول الإنسان المتحد بالله theanthropocentric، ولأنها لا تقوم بعملها من خلال طرق بشرية ولكن بمعونة وقوة النعمة الإلهية، وبدرجة أساسية من خلال التناغم بين الإرادة الإلهية والإنسانية.**

لقد أردت في هذا الكتاب أن أؤكد على بعض الحقائق إذ تمنيت أن أشير إلى جوهر المسيحية، وأيضاً إلى الطريقة التي تستعملها لتحقيق هذا الشفاء. وهدفي الرئيسي هو مساعدة الإنسان المعاصر لكي يجد شفاءه داخل الكنيسة الأرثوذكسية، إذ أننا نحن أيضاً نجاهد لكي نحصل عليه. إنني أدرك أننا جميعاً مرضى ونحتاج لطبيب؛ إننا سقماء ونحتاج للشفاء. والكنيسة الأرثوذكسية هي الملجأ والمستشفى التي يستطيع كل شخص مريض ومتألم أن يُشفَى فيها.

لو أصبح هذا الكتاب وسيلة للبعض للبحث عن شفائهم لدى الكنيسة وتعليمها فإنني سوف أمجد الرب الذي أعطاني الإلهام والقوة لأداء هذا العمل الصعب وسوف أطلب منه أن يرحم ضعفي.

متروبوليت إيروثيئوس س. فلاخوس

تفسير إختصارات المراجع

BEPES: Bibliothiki Ellinon Pateron kai Ekklisiastikon Syggrapheon, مجموعة كتابات آباء الكنيسة باللغة اليونانية، صدرت في أثينا باليونان Athens, 1955

CS: Cistercian Studies. Cistercian Publications, Kalamazoo, Michigan, 1982.

CWS: Classics of Western Spirituality. Paulist Press and London SPCK.

EF: Early Fathers from the Philokalia. London, Faber and Faber, 1954.

EPE: Ellines Pateres tis Ekklisias – مجموعة كتابات الآباء الذين كتبوا باليونانية، صدرت في تسالونيكي باليونان. Thessaloniki.

ET: English translation

FC: Fathers of the Church. Washington DC., Catholic University .

LCC: Library of Christian Classics. Philadelphia, Westminster; London, SCM 1953-66 .

NPNF: A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers.

NPNFns: نفس المجموعة السابقة في طبعة جديدة, new series.

PG: Patrologia Graeca, comp. Migne, J-P. Paris, 1857-66 .

Philok.: Philokalia. Astir, Athens. ET London, Faber and Faber.

RR: Romaioi i Romioi Pateres tis Ekklisias. Pournara, Thessaloniki
مجموعة كتابات الآباء الذين كتبوا باليونانية – صدرت في دار نشر أخرى في تسالونيكي باليونان.

SC: Sources Chretiennes. Les Editions du Cerf, Paris.

SCM: Student Christian Movement .

SPCK: Society for Promotion of Christian Knowledge.

Writings: Writings from the Philokalia on Prayer of the Heart. London, Faber and Faber, 1954.

الباب الأول

الأرثوذكسية علم علاجي

لقد تمت بالفعل صياغة عدة تفاسير للمسيحية وأُعطيت عدة إجابات على الأسئلة التالية : ما هي المسيحية؟ وما هي رسالتها في العالم؟ ولكن أغلب هذه الإجابات غير صحيحة.

سوف نحاول فيما يلي أن نوضح بقدر الإمكان أن المسيحية، والأرثوذكسية بالأخص هي علاج. وسوف نحاول أيضاً أن نصف ما هو العلاج وكيف يمكن الوصول إليه.

١- ما هي المسيحية

يرى الكثيرون من الذين يصفون المسيحية أنها واحدة من عدة فلسفات وأديان معروفة منذ القدم. وبلا شك فإن المسيحية ليست فلسفة بالمعنى السائد اليوم. فالفلسفة تؤسس نظاماً للتفكير ليس له أية علاقة بالحياة في أغلب الأحيان. **والفرق الجوهري بين المسيحية والفلسفة هو أن الفلسفة هي تفكير بشري، على حين أن المسيحية هي إعلان إلهي**. فهي ليست إكتشافاً من الإنسان، ولكنها إعلان من الله نفسه للإنسان. لقد كان من المستحيل على المنطق البشري أن يصل لحقائق المسيحية، لذلك أتى الكلمة ـ الإله ـ الإنسان، أي المسيح كلمة الله حيث كانت الكلمة الإنسانية عاجزة. ولقد تمت صياغة هذا الإعلان الإلهي بمصطلحات الفلسفة المعاصرة. ومع ذلك يجب علينا أن نؤكد ثانية على أن المسيحية ليست فلسفة. **لكن ـ الإله الكلمة ـ الإنسان إتخذ ثيابه من فلسفة هذا الزمان.**

يفسر القديس يوحنا ذهبي الفم قول أشعياء: "فإنه هوذا السيد رب الجنود ينزع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن.... الجبار ورجل الحرب، القاضي والنبي والعراف والشيخ، رئيس الخمسين والمعتبر والمشير والماهر بين الصناع والحاذق بالرقية"(إش ٣: ١-٣)، ويعطي ملحوظة قائلاً: "يبدو هنا أنه يسمي الشخص القادر على التنبؤ بالمستقبل من خلال الذكاء الشديد والخبرة بالأشياء عرَّافاً. وفي الواقع فإن العرافة والنبوة هما شيئان مختلفان. فالنبي يضع ذاته جانباً ويتكلم بوحي إلهي، على حين أن العرَّاف يبدأ مما حدث بالفعل، ويُعمِل ذكاءه، ويرى مُسبقاً العديد من الأحداث المستقبلية مثلما يفعل الشخص الذكي بصورة طبيعية. ولكن الفرق بينهما كبير فهو المسافة التي تفصل بين الذكاء البشري والنعمة الإلهية"[1].

[1] . Commentary on Isaiah. SC 304 p. 154

الفلسفة هي إذاً شيء، والنبوة أو كلمة النبي الذي يتكلم باللاهوت هي شيء آخر. فالأولى هي نشاط بشري، على حين أن الثانية هي إعلان للروح القدس.

يُنظَر للفلسفة في كتابات الآباء وخصوصاً في تعليم القديس مكسيموس على أنها بداية الحياة الروحية. ومع ذلك فإنه إستعمل مصطلح "فلسفة عملية" لكي يعني تطهير القلب من الأهواء الذي هو حقاً المرحلة الأولى في رحلة النفس نحو الله.

بالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن ننظر للمسيحية على أنها دين. فهي على الأقل ليست ديناً يقدم نفسه اليوم. وعادة ما يُصَوَّر الله على أنه ساكن السماء الذي يوجه تاريخ البشرية من هناك، ويضبط الأمور بشدة، ويحصل على سعادته من الإنسان الذي كان قد سقط إلى الأرض في مرضه وضعفه، وأنه يوجد بالتالي حائط يفصل الله عن الإنسان الذي كان عليه أن يتسلقه. ثم جاء الدين ليكون معونة فعالة للإنسان حيث تم توظيف علة طقوس دينية في هذا الغرض.

وتوجد رؤية أخرى تنص على أن الإنسان يشعر بالعجز في الكون، ويحتاج لإله قدير لكي يساعده في ضعفه. وبحسب هذا المفهوم، فإن الله ليس هو الذي يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي يخلق الله. وهكذا وُلِدَ الدين كعلاقة للإنسان مع الإله المطلق بمعنى أنه "العلاقة بين الأنا والآخر المطلق". وبالإضافة إلى ذلك يرى الكثيرون الدين على أنه وسيلة ينخدع بها الكثيرون إذ يحولون رجاءهم إلى الحياة الآتية، وهكذا تستخدم السلطات الغاشمة الدين لكي تضغط على الناس بواسطته.

ولكن المسيحية هي شيء أعلى من هذه التفاسير والنظريات، فهي لا يمكن أن تُحتوَى داخل المفهوم والتعريف المعتاد للدين الموجود في الديانات "الطبيعية". **فالله ليس هو "الآخر" المطلق، ولكنه شخص حي في إتحاد ملموس مع الإنسان**. بالإضافة إلى ذلك فإن المسيحية لا ترجئ المشكلة للمستقبل ببساطة، أو تنتظر سعادة ملكوت السموات بعد التاريخ وبعد إنتهاء الزمان. **فالمستقبل في المسيحية يُعاش في الحاضر ويبدأ ملكوت الله في هذه الحياة**. وبحسب تفسير الآباء فإن ملكوت الله هو نعمة الله الثالوث، وهو رؤية النور الإلهي الأزلي.

لا ننتظر نحن الأرثوذكسيين نهاية التاريخ ونهاية الزمان، **ولكننا من خلال هذه الحياة في المسيح نجري لنقابل نهاية التاريخ**، وبالتالي نحيا بالفعل الحياة المنتظرة بعد المجيء الثاني. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن الذي رأى النور الإلهي وإتحد بالله لا ينتظر المجيء

الثاني للرب ولكنه يحياه. تُعانقنا الأبدية، إذاً، في كل لحظة من الزمان. وهكذا يُعاش الماضي والحاضر والمستقبل بطريقة جوهرية في وحدة لا تتجزأ. وهذا هو ما يسمى بالزمن المكثّف.

لا يمكن إذاً أن نصف الأرثوذكسية على أنها "أفيون الشعوب" لأنها بالتحديد لا تؤجل المشكلة، فهي تقدم حياة وتُحوِّل الحياة البيولوجية، وتقدِّس وتحوِّل المجتمعات. **وحيثما تُعاش الأرثوذكسية بالطريقة الصحيحة وفي الروح القدس، فهناك توجد شركة بين الله والناس، وبين السماوي والأرضي، وبين الحي والميت. وفي هذه الشركة تُحَل كل المشاكل التي تواجهنا بحق.**

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه طالما تشتمل عضوية الكنيسة على أناس مرضى ومبتدئين في الحياة الروحية، فمن المتوقع أن يفهم البعض منهم المسيحية على أنها "دين" بالمعنى المشار إليه فيما سبق. كما أن الحياة الروحية هي رحلة ديناميكية، فهي تبدأ بالمعمودية التي هي تطهير "للصورة"،وتستمر خلال الحياة النسكية التي تهدف إلى الوصول "للشبه" الذي هو الشركة مع الله. يجب علينا على أية حال أن نوضح أنه حتى ونحن لا نزال نتكلم عن المسيحية كدين، يجب علينا أن نفعل ذلك مع بعض الإفتراضات المسبقة الضرورية.

✝ **أول هذه الإفتراضات** هو أن المسيحية هي بصورة رئيسية كنيسة. و"كنيسة" تعني "جسد المسيح". توجد عدة مواضع في العهد الجديد حيث تسمى المسيحية كنيسة. سوف نذكر فقط كلمات المسيح: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي" (مت ١٦:١٨)، وكلمات بولس الرسول لأهل كولوسي: "ورأس الجسد الكنيسة" (كو١:١٨)، ولتلميذه تيموثاوس: "فلكي تعلم كيف يجب أن تتصرف في بيت الله الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وقاعدته" (١تي٣:١٥). وهذا لا يعني أن الله يسكن ببساطة في السماء ويوجه من هناك التاريخ وحياة البشر، ولكنه متحد معنا. لقد أخذ الطبيعة البشرية وقدَّسها، وبالتالي فإن الطبيعة البشرية المقدسة في المسيح هي في اليد اليمنى للآب. فالمسيح إذاً هو حياتنا ونحن "أعضاء المسيح".

✝ **وثاني الإفتراضات** هو أن هدف المسيحي هو الوصول لحالة الإتحاد بالله المباركة. ويتطابق الإتحاد بالله مع "الشَبَه"، أي أن يكون المرء مُشابهاً لله. وعلى أية حال يجب أن يحدث التطهير أولاً حتى يصل المرء للشَبَه، وحتى يحصل على رؤية الله، وحتى لا تكون هذه الرؤية ناراً آكلة بل نوراً مُعطياً للحياة. هذا التطهير والشفاء هو عمل الكنيسة. عندما يشترك المسيحي في العبادة دون أن يخضع للتطهير المعطي الحياة ـ مع أن أعمال

العبادة هذه تهدف أيضاً لتطهير الإنسان ـ فإنه لا يكون عائشاً داخل الكنيسة بحق. المسيحية بدون تطهير هي المدينة الفاضلة. عندما نكون إذاً في عملية تطهير وخصوصاً عندما نكون ساعين للشفاء، فإننا نستطيع حينئذ أن نتكلم عن الدين. ويتمشى ذلك مع كلمات يعقوب الرسول: " إن كان أحد فيكم يظن أنه ديِّن وهو ليس يلجم لسانه، بل يخدع قلبه، فديانة هذا باطلة. الديانة الطاهرة النقية عند الله هي هذه: إفتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم" (يع ١: ٢٦-٢٧).

يعطينا هذا التعفف الحق لأن ندَّعي أن المسيحية ليست فلسفة ولا ديانة "طبيعية"، ولكنها شفاء بصورة رئيسية. فهي شفاء لأهواء المرء بحيث يستطيع أن يصل للشركة والإتحاد مع الله.

أظهر لنا الرب عدة حقائق في مثل السامري الصالح. فعندما رأى السامري الرجل الذي وقع بين اللصوص الذين جرحوه وتركوه بين حي وميت فإنه على الفور "تحنَّن. فتقدم، وضمد جراحاته، وصبَّ عليها زيتاً وخمرا، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق، وإعتنى به" (لو١٠: ٣٣-٣٤). لقد عالج السيد المسيح الإنسان المجروح وأتى به إلى فندق، أي إلى المستشفى التي هي الكنيسة. وهكذا صُور المسيح هنا كطبيب يشفي أمراض الإنسان وقُدمت الكنيسة كمستشفى.

ومن الأمور المتميزة جداً في تحليل القديس يوحنا ذهبي الفم لهذا المثل، أنه يقدم الحقائق التي قدمناها تواً. لقد نزل الإنسان من الحالة السماوية لحالة خداع الشيطان، ووقع بين اللصوص الذين هم الشيطان، والقوى العدائية، والجراحات التي تكبدها هي الخطايا المتنوعة. وكما يقول داود: "قاحت حُبُرُ ضربي من جهة حماقتي " (مز٣٨:٥). إذ أن "كل خطية تجلب كدمات وجراحاً". والسامري هو المسيح نفسه الذي نزل من السماء للأرض لكي يشفي الإنسان المجروح. لقد إستعمل الخمر والزيت للجراحات وهذا يعني "أنه إذ مزج الروح القدس مع دمه، جلب الحياة للإنسان". وبحسب تفسير آخر "فإن الزيت يجلب الكلمة المعزية، والخمر يعطي الغسول المضمِّد، أي التوجيه الذي يجلب تركيزاً للعقل المشتت". لقد أركبه على دابته: "إذ حمل الجسد على كتفيه الإلهيين، رفعه نحو الآب في السماء". وهكذا قاد السامري الصالح، أي المسيح، الإنسان "إلى الفندق الرائع والفسيح أي الكنيسة الجامعة". لقد سلَّمه لصاحب الفندق الذي هو بولس الرسول "ومن خلال بولس لأساقفة ومعلمي وكهنة كل كنيسة"، قائلاً: "إعتنوا بالأمم الذين أعطيتهم لكم في الكنيسة، وإعطوهم الشفاء طالما أنهم مرضى مجروحون بالخطية، وضَعُوا

عليهم جبيرة التي هي أقوال الأنبياء وتعاليم الإنجيل، جاعلين إياهم واحداً من خلال النصح والوعظ الذي للعهدين القديم والجديد". وهكذا وبحسب القديس يوحنا ذهبي الفم، فإن بولس هو الذي يدعم كنائس الله "ويشفي كل الناس من خلال الوعظ الروحي وتوزيع خبز التقدمة لكل واحد...."[2].

إنه أمر واضح جداً في تفسير القديس يوحنا ذهبي الفم لهذا المثل، أن الكنيسة هي مستشفى تشفي أولئك المرضى بالخطية، على حين أن الأساقفة والكهنة هم مانحو الشفاء لشعب الله مثل بولس الرسول.

تظهر هذه الحقائق أيضاً في عدة مواضع أخرى في العهد الجديد. لقد قال الرب: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (مت٩:١٢). يعي بولس الرسول جيداً أن ضمير الناس ضعيف وخصوصاً الناس البسطاء: "وهكذا إذ تخطئون إلى الإخوة وتجرحون ضميرهم الضعيف تخطئون إلى المسيح" (١كو٨:١٢). يقول سفر الرؤيا أن يوحنا الإنجيلي رأى نهراً لماء الحياة يخرج من عرش الله والخروف "... وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ٢٢:٢).

عمل الكنيسة إذاً هو عمل علاجي، فهو يهدف لشفاء أمراض الناس وبالأخص أمراض النفس التي تصرعهم. هذا هو التعليم الرئيسي للعهد الجديد ولآباء الكنيسة. وسوف توضح عدة نصوص من كتابات الآباء هذه الحقيقة فيما يلي في هذا الفصل وفي الفصول الأخرى أيضاً.

أريد أن أؤكد هنا أيضاً على أنه لا يمكن الإستغناء عن الكنيسة. إنني ممتن كثيراً للقس والأستاذ "جون رومانيدس" على تأكيده على ذلك في كتاباته. أنا مقتنع أنه قارئ جيد في كتابات الآباء النساك وخصوصاً في الفيلوكاليا، وبالتالي التقط المعنى الحقيقي للمسيحية. كما أعتقد أن هذه هي مساهمته العظيمة، وذلك لأنه في هذا العصر الذي تُقَدَّم فيه المسيحية على أنها فلسفة، أو لاهوت عقلي، أو تقليد ثقافي أو شعبي، أي علامات وتقاليد، يقدِّم هو هذا التعليم الخاص بالنظام العلاجي والشفاء.

إنه يقول بطريقة ملموسة: "إن الإيمان بالمسيح بدون إجتياز الشفاء في المسيح ليس إيماناً بالمرة. إننا نجد هنا نفس التناقض الذي نجده عندما لا يلتزم شخص مريض بالمرة بالعلاج الذي يصفه طبيبه، والذي يثق هو فيه ثقة شديدة. لو كانت اليهودية والمسيحية قد

[2]. PG 62, col. 755-757

ظهرتا في القرن العشرين لأول مرة لكانتا على الأغلب قد تميزتا، لا كديانات، ولكن كعلوم طبية متعلقة بالطب النفسي، ولكانتا أصبحتا ذات تأثير واسع على المجتمع بسبب نجاحاتهما المتميزة في شفاء أمراض الشخصية التي تعمل بصورة جزئية، وما كانت النبوة اليهودية والمسيحية ستُفسَر على أنها ديانات تستعمل عدة طرق للسحر والمعتقدات لكي تَعِدَ بالهروب من عالم المادة والشر والرياء لعالم روحي من الأمان والنجاح"[٣].

يقول نفس الأستاذ في كتاب آخر:" إن التقليد الآبائي ليس فلسفة إجتماعية، ولا هو نظام أخلاقي ولا هو عقيدة دينية، ولكنه علاج شافٍ. وهو يشبه الطب بدرجة كبيرة من هذه الجهة، وخصوصاً الطب النفسي. **فالطاقة الروحية التي للنفس التي تصلي بلا إنقطاع في القلب، هي أداة فسيولوجية يمتلكها كل شخص وتحتاج لشفاء. ولا تستطيع لا الفلسفة ولا أي علوم معروفة إيجابياً أو إجتماعياً أن تشفي هذه الأداة.** من الممكن أن يحدث ذلك فقط من خلال تعاليم الآباء النسكية. وبالتالي فإن أولئك الذين لم يُشفوا، فإنهم عادة ما لا يعرفون حتى بوجود هذه الأداة"[٤].

وهكذا فإننا نُصنَّف في الكنيسة إلى مرضى، وخاضعين للعلاج، وقديسين شُفُوا بالفعل. "لا يصنِّف الآباء الناس إلى أخلاقيين وعديمي الأخلاق، أو إلى صالحين وأردياء على أساس القواعد الأخلاقية، فهذا التصنيف سطحي. ولكن تنقسم الإنسانية في عمقها إلى مرضى النفس، وأولئك الخاضعين للشفاء، وأولئك الذين شُفُوا". كل الذين ليسوا في حالة إستنارة هم مرضى النفس. ما يصنع الإنسان الأرثوذكسي ليس هو الإرادة الحسنة والعزيمة الجيدة والممارسات الأخلاقية والإخلاص للتقليد الأرثوذكسي، فقط ولكن أيضاً التطهير والإستنارة والإتحاد بالله. تكون مراحل الشفاء هذه هي غاية الحياة الباطنية التي للكنيسة، كما تشهد بذلك النصوص الليتورجية"[٥].

---

[3] . J. Romanides: Jesus Christ the life of the world. (A talk in Greek translation), p. 28f

[4] . J. Romanides: Romaioi i Romioi Pateres tis Ekklisias. Vol.1,p.22f. In Greek

[5] . Ibid.p.27

٢- علم اللاهوت كعلم علاجي

يتضح مما قيل أن المسيحية هي علم يعطي شفاءً أي أنها طريقة علاج نفسي. وينطبق نفس الشيء على علم اللاهوت، فهو ليس فلسفة ولكنه علاج شافي بدرجة أساسية. يظهر علم اللاهوت الأرثوذكسي بوضوح أنه، من جهة، هو ثمرة العلاج، ومن جهة أخرى يشير إلى طريق العلاج. وبمعنى آخر فإن اللاهوتيين هم فقط أولئك الذين شُفوا والذين حصلوا على شركة مع الله، وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يُظهروا للمسيحيين الطريق الحقيقي للوصول "لموضع الشفاء". علم اللاهوت هو إذاً ثمرة وطريقة للعلاج في نفس الوقت.

وهنا نحتاج للتوسع فيما قيل لكي نرى هذه الحقائق بطريقة أوضح. لذلك سوف نقتبس من تعاليم الآباء القديسين الخاصة بعلم اللاهوت واللاهوتيين.

أعتقد أنه يجب علينا أن نبدأ بالقديس غريغوريوس النزينزي إذ أن الكنيسة لم تمنحه لقب اللاهوتي بالصدفة. إنه يكتب في بداية نصوصه اللاهوتية الشهيرة أنه لم يُعطَ لكل واحد أن يتكلم باللاهوت وأن يتحدث عن الله، لأن هذا الموضوع ليس رخيصاً ومتدنياً لهذه الدرجة. لم يوضع هذا العمل لكل الناس ولكن "لأولئك الذين إمتُحنوا وحُسبوا أساتذة في رؤية الله، والذين تنقوا في النفس والجسد من قبل أو على الأقل الذين يخضعون للتنقية". لا يتكلم عن الله إلا أولئك الذين عبروا من العمل إلى التيئوريا (رؤية الله) ومن التطهير إلى الإستنارة. ومتى يحدث ذلك؟ " يحدث ذلك عندما نصبح أحراراً من الدنس والإضطراب الخارجي، وعندما لا تختلط الدوافع الموجودة داخلنا بالغضب والصور الخاطئة". من أجل ذلك ينصح القديس قائلاً: "إنه من الضروري أن يكون المرء هادئاً لكي يعرف الله" [6].

يربط نيلوس الناسك علم اللاهوت بالصلاة، وخصوصاً الصلاة العقلية. إننا نعرف جيداً من تعليم الآباء القديسين أن من اكتسب نعمة صلاة القلب يكون قد دخل أول مرحلة في رؤية الله، إذ أن هناك نوعاً من الصلاة هو صورة من التيئوريا. وبالتالي فإن كل الذين يُصلُّون بالعقل يكونون في شركة مع الله، وهذه الشركة هي معرفة الإنسان الروحية

[6]. Gregory the Theologian. Or.27, 3. NPNFns, vol.7,p.285

لله. وهكذا يقول القديس نيلوس: "لو كنتَ لاهوتياً فإنك سوف تصلي بحق. ولو أنك تصلي بحق فإنك تكون لاهوتياً" [٧].

يقدم القديس يوحنا الدرجي علم اللاهوت الحقيقي في عدة مواضع في كتابه الروحي المبهج "السلم". "إن الطهارة الكاملة هي أساس علم اللاهوت". "عندما تتحد حواس الإنسان بالله بصورة كاملة، فإن ما قاله الله يصبح بشكل ما واضحاً بطريقة سرية. ولكن حيثما لا يوجد إتحاد من هذا النوع مع الله، فإنه يكون أمراً بالغ الصعوبة أن يتحدث الإنسان عن الله" [٨]. وعلى العكس من ذلك فإن الذي لا يعرف الله حقاً، فإنه يتكلم عنه فقط في صورة "إحتمالات" [٩]. وفي الواقع وبحسب تعليم الآباء، فإنه أمر سيء جداً أن نتحدث عن الله في إفتراضات، لأن ذلك يقود المرء للضلال. يعرف هذا القديس كيف ينمو في داخلنا "علم لاهوت الشياطين". تعطينا الشياطين الدنسة "دروساً في تفسير الكتاب" [١٠] في القلوب المحبة للمجد الباطل التي لم تتطهر من قبل بعمل الروح القدس. ولذلك لا يجب على المأسور في الهوى أن "يشتغل بالكلام عن اللاهوت" [١١].

ولقد تلقى القديسون "النِعَم الإلهية بدون تفكير". وبحسب الآباء فإنهم تكلموا باللاهوت **لا بطريقة أرسطو من خلال التفكير ولكن "بطريقة الرسل" أي من خلال عمل الروح القدس**. إن لم يتطهر الشخص من الأهواء مسبقاً وخصوصاً من الخيالات فإنه يكون غير قادر على التحدث مع الله أو الكلام عن الله طالما أن العقل الذي "يكوِّن الإنطباعات يعجز عن الكلام عن اللاهوت". لقد عاش القديسون علم اللاهوت "مكتوباً بالروح القدس".

إننا نجد نفس الكلام في كتابات القديس مكسيموس المعترف. فعندما يحيا المرء في فلسفة عملية التي هي التوبة والتطهر من الأهواء "فإنه يتقدم في الفهم الأخلاقي". وعندما يختبر رؤية الله "فإنه يتقدم في المعرفة الروحية". إنه يستطيع في الحالة الأولى أن يميز بين الفضائل والرذائل، وفي الحالة الثانية تقود التيئوريا (رؤية الله) "المُشارك إلى معرفة الخصائص الداخلية للأشياء الغير متجسمة والمتجسمة". ويمضي القديس مكسيموس إلى القول أن الإنسان "يُمنح نعمة التكلم عن اللاهوت عندما يُحمل على

---

[7] . Evagrius. Philokalia 1, p. 62,61
[8] . Ladder. Step 30. CWS p. 288
[9] .. Ibid.
[10] . Ibid. p.250
[11] . Ibid. p262

أجنحة الحب" في التيئوريا "وبمعونة الروح القدس يدرك صفات الله بالقدر الذي يستطيعه العقل البشري"[١٢].

ينكشف علم اللاهوت أي معرفة الله، للشخص الذي وصل لرؤية الله. وفي الواقع يقول نفس الأب في موضع آخر أن الشخص الذي "يركز بإستمرار على الحياة الداخلية" لا يصبح فقط منضبطاً وطويل الأناة ولطيفاً ومتواضعاً، ولكنه أيضاً "سوف يصبح قادراً على التأمل والتكلم باللاهوت والصلاة" [١٣]. وهنا أيضاً يرتبط الكلام عن اللاهوت بدرجة وثيقة بالتيئوريا والصلاة.

يجب علينا أن نؤكد على أن التكلم عن اللاهوت الذي لا ينتج من التطهير أي من "العمل" هو علم لاهوت شيطاني. وبحسب القديس مكسيموس فإن "المعرفة بدون عمل هي علم لاهوت الشياطين" [١٤].

كتب القديس ثالاسيوس صاحب نفس المنظور قائلاً أنه عندما يبدأ عقل الإنسان بإيمان بسيط "فإنه سوف يصل حتماً لعلم لاهوتي يتجاوز العقل ويتميز بإيمان عال مطرد وإلى رؤية الغير مرئي"[١٥]. **يتجاوز علم اللاهوت المنطق** فهو إعلان الله للإنسان ويُعرِّفه الآباء على أنه التيئوريا. وهنا أيضاً يكون اللاهوت بدرجة رئيسية هو رؤية الله. لقد كتب نفس القديس في موضع آخر أن الحب الحقيقي يولِّد المعرفة الروحية، "ويتبع ذلك شهوة كل الشهوات أي نعمة التكلم عن اللاهوت"[١٦].

ويُقدَّم علم اللاهوت، في تعليم القديس ديادوخوس، الذي من فوتيكي، على أنه العطية العظمى الممنوحة من الروح القدس للإنسان. إن كل عطايا النعمة التي يهبها الله هي "غير خارقة" و"لكن العطية التي تلهب قلبنا وتحركه لكي يحب صلاحه أكثر من أي أحد آخر هي عطية الكلام عن اللاهوت". إذ أن "الكلام عن اللاهوت هو أول مولود للنعمة الإلهية يمنح النفس أعظم العطايا"[١٧].

وبحسب بولس الرسول، فإن الروح القدس يعطي معرفة روحية للواحد وحكمة للآخر(١كو١٢: ٨). ويفسر القديس ديادوخوس ذلك قائلاً أن المعرفة الروحية توحد الإنسان

12 . Philok.2, p. 69, 26
13 . Ibid. p. 108, 64
14 . PG 91, 601 C. Letter 20, to Marinos the Monk
15. Philok.2, p. 330, 80
16 . Ibid. p. 328f, 62
17 . Philok. 1, p. 275, 67

بالله ولكنها لا تحركه لكي يعبِّر خارجياً عن الذي يعرفه. يوجد رهبان يحبون السكون ويستنيرون بنعمة الله "ومع ذلك لا يتكلمون عن الله". إن الحكمة هي إحدى المواهب العظمى والتي يعطيها الله للشخص الذي يمتلك كلاً من التعبير والذهن المتسع. وهكذا تأتي معرفة الله "من خلال الصلاة والسكون العميق والإنعزال الكامل، على حين تأتي الحكمة من خلال التأمل المتواضع في الكتاب المقدس، وقبل كل شيء من خلال النعمة المعطاة من الله"[18].

إن عطية الكلام عن اللاهوت هي عمل الروح القدس، ولكن في تعاون مع الإنسان، حيث أن الروح القدس لا يحقق في الإنسان معرفة روحية للأسرار "بعيداً عن تلك القدرة الموجودة داخله والتي تبحث عن هذه المعرفة بطريقة طبيعية"[19].

وبحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن المدعوين لاهوتيين بحق هم أولئك الذين يرون الله. والتكلم عن اللاهوت ليس هو إلا رؤية الله (التيئوريا). "لأنه توجد معرفة عن الله وعن تعاليمه وهي رؤية الله التي نسميها لاهوتاً"[20]. وهكذا فإن أيٍّ من لا يمتلك معرفة وخبرة عن أمور الإيمان ويقدم عنها تعليماً "بحسب حكمته الشخصية محاولاً من خلال الكلمات أن يُظهر الصلاح الذي يفوق كل الكلمات، فإنه يكون قد فقد كل الصواب". ومن خلال حماقته "يكون قد صار عدواً لله"[21]. وبالإضافة إلى ذلك فإنه توجد حالات بدون أن يكون لأصحابها أعمال، أي بدون أن يخضعوا للتطهير، إلتقوا وسمعوا لرجال قديسين ولكنهم بعد ذلك "حاولوا أن يكوِّنوا لأنفسهم مفاهيمهم الخاصة" وهكذا رذلوا الرجل القديس "وإنتفخوا بالكبرياء"[22].

توضح كل هذه الأشياء أن **التكلم عن اللاهوت هو ثمرة شفاء الإنسان وليس منهجاً منطقياً**. لا يستطيع سوى الشخص الذي تطهر، أو على الأقل الذي هو في مرحلة التطهير، أن يقتحم الأسرار الفائقة الوصف والحقائق العظمى، وأن يتلقى إعلانات، وبعد ذلك ينقلها للناس. وهكذا فإنه بحسب التقليد الآبائي الأرثوذكسي فإن التكلم عن اللاهوت يرتبط ويتوحد بالأب الروحي، والأب الروحي هو اللاهوتي بدون منازع بمعنى أن الذي يختبر أمور الله يستطيع عندئذ أن يقود أولاده الروحيين بطريقة سديدة.

---

18. Ibid. p. 254f, 9
19. St. Maximus the Confessor. Philok. 2, p. 239, 16
20. Triads. 1.3, 15
21. Ibid. 1, 3, 12
22. Ibid. 3, 1, 32. CWS p. 87

يكتب الأب يوحنا رومانيدس قائلاً: "إن اللاهوتي الأرثوذكسي الحقيقي هو الذي يمتلك معرفة مباشرة عن بعض قدرات الله بواسطة الإستنارة، أو يعرفها أكثر من خلال الرؤية. أو أنه يعرفها بطريقة غير مباشرة من خلال الأنبياء والرسل والقديسين، أو من خلال الكتاب المقدس وكتابات الآباء وقرارات وأعمال مجامعهم المسكونية والإقليمية. اللاهوتي هو الذي من خلال هذه المعرفة الروحية المباشرة والرؤية يعرف بوضوح أن يميز بين أعمال الله وأعمال الخليقة وخصوصاً أعمال إبليس والشياطين. لا يستطيع المرء بدون موهبة تمييز الأرواح أن يمتحن الأرواح لكي يرى إن كان الأمر هو عمل الروح القدس أو عمل إبليس والشياطين".

وهكذا فإن اللاهوتي والأب الروحي هما نفس الشخص. من المؤكد أن الشخص الذي يفكر ويتكلم بلحثاً عن فهم عقلاني لتعاليم الإيمان ليس أباً روحياً، ولا نستطيع أن نسميه لاهوتياً بالمعنى الصحيح الذي للكلمة. ليس علم اللاهوت معرفة وممارسة مجردة مثل المنطق والرياضة والفلك والكيمياء، ولكنه على العكس ذو خاصية جدلية مثل المنطق الرمزي والطب. فالأول يهتم بأمور الدفاع والهجوم على شاكلة التدريب العسكري والإستراتيجيات الخاصة بنشر الأسلحة والتحصينات والنظم الدفاعية والهجومية، على حين أن الثاني (الطب) يقاتل الأمراض الذهنية والعضوية لصالح الصحة ووسائل إستعادة العافية.

إن اللاهوتي الغير مطلع على طرق العدو ولا على طرق الكمال في المسيح ليس فقط غير قادر على الكفاح ضد العدو من أجل كماله الخاص، ولكنه أيضاً يكون في وضع لا يسمح له بإرشاد وعلاج الآخرين. يشبه هذا الأمر أن يُدعى المرء جنرالاً أو حتى أن يكون جنرالاً بالفعل، بدون أن يكون قد تدرب أو حارب أو درس فن الحرب، ولكنه إهتم فقط بالمظهر الجميل المجيد الذي للجيش العظيم وبالزي العسكري البراق في حفلات الإستقبال والعروض. كما أن ذلك الإنسان يشبه الجزار الذي يتظاهر بأنه جراح أو مثل الذي يدّعي أنه طبيب بدون أن يعرف أسباب الأمراض أو طرق علاجها أو حالة الصحة التي يجب أن يستعيدها المريض[٢٣].

[23]. Romanides: Dogmatic and Symbolic Theology… p. 85f. In Greek.

٣- ما هو العلاج

يجب علينا الآن أن نحدد بإختصار ما هو العلاج طالما أننا قلنا أن المسيحية وعلم اللاهوت هما علم علاجي بالدرجة الأولى. ماذا تعمل الأرثوذكسية مع علم اللاهوت الخاص بها والعبادة في شفاء داخلنا؟

علاج النفس يعني بصورة رئيسية علاج وتحرير العقل. لقد أصبحت الطبيعة البشرية مريضة من خلال سقوطها بعيداً عن الله. هذا المرض هو بصفة رئيسية عبودية وسقوط العقل. فالخطية الجدية تكمن في إنعزال الإنسان عن الله وفقدانه للنعمة الإلهية مما أدى إلى العمى والظلمة وموت العقل. إننا نستطيع أن نقول بدقة أكثر أن سقوط الإنسان أو حالة ميراث الخطية هي:

أ) فشل قوته العقلية في أن تعمل بطريقة سليمة، أو حتى فشلها في أن تعمل على الإطلاق.

ب) إختلاط هذه القوة مع وظائف العقل والجسد عموماً.

جـ) كنتيجة لذلك، الخضوع للضيق العقلي وللظروف المحيطة.

لقد إختبر كل واحد انهيار طاقته الذهنية بدرجات مختلفة، حينما يتعرض لوسط يحيط به لا تعمل فيه هذه القوة أو تعمل بدرجة ضعيفة. **"يؤدي خلل طاقته الذهنية إلى علاقات سيئة بين الإنسان والله وبين الناس بعضهم البعض. كما أنه يؤدي أيضاً إلى إستغلال الإنسان لله وللإنسان الساقط لكي يدعم أمانه الشخصي وسعادته"**[٢٤].

إن فقدان نعمة الله هذا أمات عقل الإنسان، وأمرضَ طبيعته بكليِّتها، وأورث هذا المرض لنسله أيضاً. هذا هو مفهوم ميراث الخطية في التعليم الأرثوذكسي. يفسر الآباء قول بولس الرسول: "كما بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة" (رو ٥ : ١٩) ليس بمصطلحات قضائية ولكن "طبية". بمعنى أن الطبيعة البشرية أصبحت مريضة. ويفسر القديس كيرلس السكندري هكذا: "بعدما سقط آدم بالخطية وغرق في الفساد، فعلى الفور تدفقت اللذات النجسة، وإنفجر قانون الغابة في أعضائنا. وهكذا أصبحت الطبيعة مريضة بالخطية من خلال معصية الواحد الذي هو آدم. وبعد ذلك صار الكثيرون

24 . Romanides. Jesus Christ the Life of the World, p. 23. In Gk.

خطاة، لا كشركاء في المعصية مع آدم لأنهم لم يكونوا حتى موجودين، ولكن لكونهم من نفس الطبيعة التي سقطت تحت ناموس الخطية. لقد أصبحت الطبيعة البشرية مريضة في آدم من خلال فساد المعصية وهكذا دخلت إليها الأهواء"[25]. يستخدم نفس الأب في موضع آخر صورة الجذر. "لقد أتى الموت لكل الجنس البشري بواسطة آدم تماماً مثلما يُصاب جذر النبات، فيتعين على كل البراعم الصغيرة التي تأتي منه أن تذبل"[26].

يقول القديس غريغوريوس بالاماس :" إن العقل الذي تمرد على الله يصبح إما حيوانياً أو شيطانياً. وبعد أن يتمرد على نواميس الطبيعة فإنه يشتهي ما يخص الآخرين..."[27].

ومن خلال "طقس الولادة من الله" أي المعمودية المقدسة، فإن عقل الإنسان يستنير، ويتحرر من عبودية الخطية والشيطان، ويتحد بالله. هذا هو السبب الذي يجعل المعمودية تسمى إستنارة. ولكن بعد ذلك، وبسبب الخطية، يظلمُّ العقل ويموت ثانية. لذلك توضح كتابات الآباء **أن كل خطية وكل هوى يميت العقل.**

يكتب القديس يوحنا الدرجي أن الأرواح الشريرة تجاهد لكي "تُظلم روحنا"، وخصوصاً شيطان النجاسة "الذي عن طريق إظلام عقولنا التي تقودنا، يدفع الناس لفعل أشياء لا يفكر فيها سوى المجنون"[28].

سوف نركز بالأكثر في فصل آخر على طبيعة عقل الإنسان. إن ما يعنينا هنا هو موضوع الظلمة. يُعلِّم القديس مكسيموس قائلاً: "كما يتكون عالم الجسد من أشياء، هكذا يتكون عالم العقل من صور ذهنية. وكما يزني الجسد مع جسد إمرأة، هكذا إذ يكوِّن العقل صورة لجسده الخاص فإنه يزني مع صورة ذهنية لإمرأة"[29]. هذا هو إظلام وسقوط العقل.

يعلم نفس الأب القديس في موضع آخر أنه "عندما يخطيء الجسد من خلال أشياء مادية وتكون لديه الفضائل الجسدية لتعلمه ضبط النفس هكذا أيضاً العقل عندما يخطيء من خلال الصور الذهنية الشهوانية، تكون لديه فضائل النفس لكي تعلمه"[30]. تُظهر هذه الحقيقة أن سقوط العقل يخلق إرتباكاً لكل الكيان الروحي. إنه يسبب ألماً وإضطراباً

---

25. Commentary on Epistle to the Romans. PG 64, 788f
26. Ibid. 785
27. Homily 51, 10. EPE 11, p. 114f. In Gk.
28. Ladder . Step 15. CWS p. 185
29. Philok. 2, p. 91,53
30. Ibid. p. 76, 64

ويجعل الشخص بوجه عام يعيش السقوط بكل مأساوياته. وهكذا تنبع العديد من المشاكل التي تصيبنا من هذا المرض الداخلي. **من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يعطوا معونة بدرجة كبيرة، طالما أن المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يستعيد العقل المائت بالأهواء.**

ومرة أخرى يحاول القديس مكسيموس أن يُعرِّف بصورة أكثر وضوحاً ما هي نجاسة العقل وبالتالي ما هو سقوطه، ويكتب قائلاً أنها تتكون من أربعة أشياء: "الشيء الأول هو أن يكون لديه معرفة خاطئة، والثاني هو الجهل بأي شيء من الأشياء الكونية، والثالث هو وجود أفكار شهوانية، والرابع هو الموافقة على الخطية"[31].

يحتاج العقل، إذاً، إلى علاج يسميه الآباء **"إحيله وتطهير العقل"**.

يوجد قدر كبير من الحديث عن طهارة العقل والقلب في تعاليم الرب والرسل. لقد قال الرب عن فريسيِّي عصره الذين كانوا يهتمون بالطهارة الخارجية ويهملون الطهارة الداخلية: "أيها الفريسي الأعمى! نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً " (مت٢٣ : ٢٦). ولقد واجه بطرس في إجتماع الرسل في أورشليم مشكلة المسيحيين الأمميين من جهة إن كان يجب عليهم أن يختتنوا أولاً وأن يحفظوا ناموس العهد القديم وقال: "والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً. ولم يميز بيننا وبينهم بشيء إذ طهر بالإيمان قلوبهم" (أع ٥: ٨-٩). ولقد أوصى بولس الرسول مسيحيي كورنثوس قائلاً: "لنطهر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح مكملين القداسة في خوف الله" (٢كو٧ : ١). ودم المسيح سوف : "يطهر ضمائركم من أعمال ميتة" (عب ٩ : ١٤). ويكتب نفس الرسول بالمثل لتلميذه تيموثاوس ويؤكد على أن نتمسك بسر الإيمان: "بضمير طاهر" (١تي٣ : ٩). ويعي بطرس الرسول جيداً أن محبة بعضنا لبعض هي ثمرة القلب الطاهر، وهكذا يقول: "أحبوا بعضكم بعضاً من قلب طاهر بشدة" (١بط١ : ٢٢).

تطهير العقل والقلب هو، إذاً، أمر رئيسي. إننا نكتب عن العقل والقلب حتى رغم أننا نعرف أن هذين الإثنين هما شيء واحد في علم اللاهوت الآبائي. على أية حال سوف نعود ثانية لهذا الأمر في فصل آخر.

---

[31] .Ibid. p. 88, 34

يقسم القديس مكسيموس الحياة الروحية لثلاثة مراحل وهي الفلسفة العملية، والتيئوريا الطبيعية، وعلم اللاهوت الميستيكي، أو الباطني mystical. وبحسب دراسة عن القديس مكسيموس فإن تعليمه عن الإتجاه الشخصي للخلاص ينقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية:

١) "فلسفة عملية" أو العمل praxis.

٢) "تيئوريا (رؤية الله) طبيعية" أو بطريقة أبسط : تيئوريا.

٣) "الإختبار اللاهوتي الميستيكي" أو بطريقة أبسط : اختبار اللاهوت.

والأولى تطهر الشخص من الأهواء وتزينه بالفضائل؛ والثانية تنير عقله بالمعرفة الحقيقية، والثالثة تكلله بأعلى خبرة باطنية والتي يسميها القديس مكسيموس الخبرة الميستيكية أو "الدهش" ecstasy. تشكل هذه الأجزاء الثلاثة المراحل الرئيسية في طريق الخلاص الشخصي للإنسان[٣٢].

ويجب علينا في الواقع أن ننوه إلى أن العديد من الآباء يميزون هذه المراحل الثلاثة في الحياة الروحية وهي الفلسفة العملية أو تطهير القلب والتيئوريا الطبيعية أو إستنارة العقل ثم الاختبار اللاهوتي الميستيكي أو الإتحاد بالله من خلال التيئوريا.

وبحسب تقسيم آخر يظهر في كتابات الآباء، فإن الحياة الروحية تنقسم إلى عمل وتيئوريا (رؤية الله). وهذا ليس تمييزاً معارضاً للسابق ولكنه في الحقيقة نفس الشيء. لأن العمل هو التطهير، والتيئوريا هي إستنارة العقل والإتحاد بالله. وعلى أية حال فإن العمل يسبق التيئوريا التي هي رؤية الله "العمل هو سيد التيئوريا"[٣٣]. وبصورة أكثر تحليلاً "فالعمل الذي يهتم به الجسد هو الصوم والسهر والذي يهتم به الفم هو التسبيح. ولكن الصلاة أفضل من التسبيح، والصمت أكثر قيمة من الكلام. وفي حالة اليدين فإن العمل هو ما تعملانه بدون تذمر..."[٣٤]. "والتيئوريا هي الرؤية الخاصة بالعقل التي هي الإنذهال وفهم كل ما كان وكل ما يكون"[٣٥].

وبالتأكيد فإنه بحسب تعليم القديس مكسيموس فإن التيئوريا ليست مستقلة عن العمل "لا يكون العمل آمناً بدون تيئوريا ولا تكون التيئوريا حقيقية بدون عمل. لأنه

32 . The monk A.Rantosavlievists: The Mystery of Salvation according to St. Maximus the Confessor. p. 122. In Gk.
33 . Gregory the Theologian. Or. 40, 37. NPNFns, vol.7, p. 374, 37
34 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 34, 4
35 . Isaac the Syrian. Epistle 4. GK. Ed. Spanos, p. 384 (not in ET)

يجب على العقل أن يكون مدركاً وعلى التيئوريا أن تكون فعالة...". يؤكد القديس مكسيموس على أنه "في حالة الشخص المتعلم أكثر فإن التيئوريا تسبق العمل على حين أنه في حالة الشخص البسيط يأتي العمل أولاً". على أية حال فإنه في كلتا الحالتين تكون النتيجة حسنة فهما يقودان لنفس النتيجة وهي تطهير وخلاص الإنسان[٣٦].

ونحن في الواقع عندما نتحدث عن تطهير النفس، فإننا نعني أساساً تحريرها من الأهواء[٣٧]، أو بالأحرى تطهيرها من الأهواء. وبالإضافة إلى ذلك فإن التطهير هو أيضاً "النمو المطرد" للكيان الإنساني والذي يؤدي إلى إستنارة العقل. فالتطهير، إذاً، ليس سلبياً فقط ولكنه إيجابيٌّ أيضاً. وخصائص النفس الطاهرة هي "إدراك خالي من الحسد، وطموح خالي من الخبث، وحب لا يتوقف لرب المجد"[٣٨]. وبمعنى آخر، فإننا لو كنا مندفعين بالحسد، ويحتوي طموحنا على خبث، ومحبتنا لله غير مستمره فإن هذا يعني أن قلبنا لم يتطهر بعد.

إن العقل هو على صورة الله ومثاله. ولقد دنسنا هذه الصورة بالخطية، و يجب علينا أن نطهرها. ومن أجل ذلك يطلب الأبَّا دوروثيئوس قائلاً: "فلْنجعلْ صورتنا طاهرة كما تلقيناها"[٣٩]. إننا سوف نعاني من الكدِّ والمرارة الغير محتملة حتى نطهر عقلنا "هذا الكلب الذي يحوم مشمشماً حول محل الجزارة ويعربد في صخب"[٤٠]. لو جاهد إنسان ما لكي لا يخطئ وحارب الأفكار الشهوانية، فإنه يُهان ويتحطم في المعركة "ولكن آلام الجهاد تطهِّره قليلاً قليلاً وتعيده ثانية للحالة الطبيعية"[٤١].

وبالإضافة إلى جهاد الإنسان، فإن لم يحل الروح القدس، فإن العقل الميت لا يمكن أن يتطهر ويعود للحياة، لأن "الروح القدس وحده هو الذي يستطيع تطهير العقل"[٤٢].

وعلى أية حال فإن العقل يتطهر بالعمل المشترك للنعمة الإلهية مع الإرادة البشرية وعندئذ يستنير، طالما أنه "حيث يكون التطهير فهناك تكون الإستنارة"[٤٣]. و بعد التطهير لو حافظ الشخص على عقله من نجاسة الخطية، فإن عقله ينير ويستنير. من أجل ذلك فإنه

36 . PG 90, 1433-1437
37 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 317, 78
38 . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 258, 19
39 . Instructions 16, 171. SC p.466. CS p. 223
40 . Ladder. Step 1. CWS p. 75
41 . Dorotheos. SC p. 412, 144. CS p. 197
42 . Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 260, 28
43 . Gregory the Theologian. Or. 39, 8. NPNFns, vol.7, p. 354

من الممكن أن نسمي حفظ العقل "مُسبِّباً للنور ومسبباً للإستنارة، ومانحاً النور وحاملاً النار"[44].

وبإختصار نستطيع أن نؤكد أن شفاء الإنسان هو في الحقيقة تطهير العقل، والقلب، والصورة، وإستعادة العقل لجماله الأول الأصلي، وبالإضافة إلى ذلك فهو الشركة مع الله. وعندما يصبح الإنسان هيكلاً للروح القدس، فإننا نقول أن الشفاء قد نجح. و الذين شُفُوا يكونون هم قديسو الله.

٤- طريقة الشفاء

بعدما رأينا ما هي المسيحية، وما هي طبيعة علم اللاهوت الأرثوذكسي، وما هو العلاج، سوف نرى الآن ما هي طريقة العلاج الشافي، التي هي طريقة الإيمان الأرثوذكسي. لو أننا حددنا المشكلة بدرجة كبيرة، فإنه يجب علينا الآن أن نبذل قصارى جهدنا لكي نضع قائمة بطرق تحقيق طهارة القلب التي هي طرق الشفاء. لأنه لا توجد فائدة كبيرة من سرد الحالات العليا ما لم نمضِ في إحضارها للوعي وتطبيقها.

كيف تُشفَى النفس إذاً ؟

يجب علينا أولاً أن نؤكد على الإيمان الصحيح. إننا نحن الأرثوذكسيين نعطي أهمية كبرى للحفاظ على الإيمان، لأننا نعلم أنه **عندما يُشوه الإيمان يشوَّه الشفاء تلقائياً**. ولقد أكدنا من قبل على أنه يجب تفسير علم اللاهوت على أنه طب. وعندما يحاول علم الطب أن يرشد الشخص المريض للصحة بوسائل علاجية مختلفة فإنه يضع الشخص السليم في الإعتبار. إننا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن علم اللاهوت. فعلم اللاهوت هو تعليم الكنيسة عن الصحة الروحية، ولكنه أيضا تعليم عن الطريق الذي يجب علينا نحن المرضى أن نتبعه لكي نشفى. **من أجل ذلك نعطي نحن الأرثوذكسيين وزناً كبيراً للحفاظ على العقيدة بلا مساس، ليس فقط لأننا نخاف من إختلال التعليم ولكن لأنه من الممكن عندئذ أن نفقد إمكانية الشفاء وبالتالي إمكانية الخلاص**. بالإضافة إلى ذلك "فإن الصراع بين بالاماس وبرلعام لم يكن بدرجة كبيرة حول نوع العقيدة وإنما حول

[44] . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 192, 171

أساسها المنهجي. لقد إستند برلعام على الغيبيات وعلى المنطق التجريدي، على حين أن **بالاماس** إستند على التحقق والتأكد التجريبيين وعلى نتائجهما الواضحة"[45].

والآن لكي يستطيع المرء أن يُشفَى يجب عليه أن **يشعر أنه مريض**. عندما لا يكون المريض واعياً بمرضه فإنه لا يستطيع أن يلجأ للطبيب. **فمعرفة الذات هي إحدى الخطوات الأولى نحو الشفاء**. يعلم القديس مكسيموس قائلاً: "إن الشخص الذي وصل لمعرفة ضعف الطبيعة البشرية يكون قد اكتسب خبرة عن القوة الإلهية"، وهو يكون مشتاقاً لتحقيق بعض الأشياء، ويكون قد حقَّق بالفعل بعض الأشياء الأخرى بواسطة هذه القوة الإلهية[46]. يقول القديس بطرس الدمشقي واصفاً القيمة العظمى التي لصلاة الليل: "تتحقق ممارسة الفضائل من خلال التأمل فيما حدث أثناء اليوم"، أي عندما نتأمل في الزلات التي حدثت في صخب اليوم، بحيث أننا نستطيع أن نعي - أثناء سكون الليل - الخطايا التي إرتكبناها ونحزن عليها"[47]. إننا لا نحزن على حالتنا إلا عندما نعرفها.

إنها حقيقة غير قابلة للنقاش أن معظم المسيحيين اليوم هم غير واعين لحالتهم الروحية. إننا "مائتون في الخطايا" ولسنا فقط لا ندرك ذلك ولكننا نشعر أننا مملوءون بمواهب الروح القدس ومتزينون بالفضائل. وللأسف فإن هذا الإكتفاء الذاتي الذي يصيبنا يدمر عمل الخلاص. فكيف يمكن للمسيح أن يكلم إنساناً يبرر ذاته؟ إننا نشبه الفريسي الذي كان في أيام السيد المسيح والذي لم يشعر بالحاجة إلى الطبيب. كيف يمكن لنعمة التوبة والحزن العظيمة أن تتجلى في قلب لا يشعر بخرابه، وأنَّ حياته الداخلية غير قادرة على النمو؟

يجب أيضاً أن يصاحب الشعور بالمرض "إدانة الذات"، التي هي عطية تبكيت الذات العظمى. فهي تظهر أنه يوجد تواضع في النفس، لأن "تبكيت الذات يكون ملازماً للإتضاع بإستمرار"[48]. تبكيت الذات هذا هو حِمْل روحي عندما يوضع على النفس "يسحق ويضغط ويعصر نبيذ الخلاص الذي يبهج قلب الإنسان، الذي هو إنساننا الداخلي. وهذا النبيذ هو تأنيب الضمير". إن تبكيت الذات مع الحزن الذي يميزه يسحق

---

[45] . J.Romanides: RR vol. 1, p. 18. In Gk.
[46] . Philok.2, p. 72, 39
[47] . Philok.3, p. 261
[48] . St. Gregory Palamas. To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 108, line 27

أيضاً الأهواء ويملأ القلب بفرح طوباني شديد[49]. "يجب علينا بإستمرار أن ندين وننقد ذواتنا، حتى بالإماتات التي نختارها بإرادتنا نحمي ذواتنا من الخطية الغير مقصودة"[50].

ولكن الإحساس بالمرض ليس كافياً في ذاته. فعلى كل الأحوال يحتاج الأمر لمعالج أيضاً وهذا المعالج هو الكاهن أي الأب الروحي. إنه لابد أن يُشفَى هو أولاً من أمراضه الخاصة، أو على الأقل يكون مجاهداً لكي يُشفَى ثم يَشفي هو أيضاً أولاده الروحيين. لقد قلنا من قبل أنه يجب على الأب الروحي أن يكون لاهوتياً والعكس صحيح. ينطبق إذاً على هذه الحالة القول: "أيها الطبيب إشفِ نفسك" (لو٤ : ٢٣). إن الذي إجتاز حروب الشيطان، يستطيع أن يرشد أولاده الروحيين بأمان. والذي وصل لمعرفة الكنز العظيم المسمَّى الصحة الروحية، يستطيع أن يساعد الآخرين لكي يُشفَوْا هم أيضاً. **إن كان هناك أي أحد قد وجد عقله، فإنه يستطيع أن يساعد الآخرين لكي يجدوه هم أيضاً.** "إن العقل الذي يشبه الطبيب بحق هو الذي يستطيع أن يشفي نفسه أولاً ثم يشفي الآخرين من الأمراض التي شُفي هو منها"[51].

ينظر العديد من المسيحيين المعاصرين للكهنة على أنهم سفراء الله وعلى أنهم موظفو الكنيسة الذين يساعدون في المسائل الإدارية المتعددة، والذين يؤدون الأسرار المختلفة عند الحاجة أو يقيمون القداس الإلهي، ويستطيعون بهذه الطريقة أن يُشبعوا حاجة نفوسهم، أو أن يؤدوا واجباً تقليدياً. إنهم يعتبرونهم وكأنهم سحرة يصنعون سحراً!

إننا علي أى حال نعلم أن **نعمة الله لا تنتقل بطريقة سحرية أو ميكانيكية ولكن بطريقة سرائرية.** صحيح أنه حتى الكاهن العديم الإستحقاق يستطيع أن يؤدي الأسرار ولكنه لا يستطيع أن يشفي. إذ أن غفران الخطايا شيء، ولكن الشفاء شيء آخر. يكتفي أغلب المسيحيين بالإعتراف الشكلي أوالحضور الشكلي للقداس أو حتى بتناول شكلي ولا شيء غير ذلك، لذلك لا يتقدمون نحو شفاء نفوسهم. ولكن الكهنة أو الآباء الروحيين لا يقيمون فقط سر الشركة، ولكنهم يشفون الناس، فهم يقتنون معرفة سليمة عن طريقة الشفاء من الأهواء، ويُعرِّفونها لأولادهم الروحيين. إنهم يُرونهم كيف يستطيعون أن يتحرروا من الأسر، وكيف يتحرر عقلهم من العبودية.

---

[49]. Ibid. p.109, lines 10-14

[50]. Ladder. Step 25, CWS p. 226

[51]. Thalassios. Philok. 2, p. 328,44

وهنا تكمن رؤية الآباء القديسين للأبوة الروحية. **فالكاهن هو أيضاً طبيب.** "الطبيب هو ذاك الذي يكون جسده ونفسه سليمين وفي غير حاجة لضمادات عليهما"[٥٢]. وقول القديس يوحنا الدرجي عما يجب على الكاهن أن يفعله لكي يمنح الشفاء متميز جداً:

" أيها الإنسان الرائع، تعال وخذ ضمادات، وجرعات دواء، ومشارط، ومراهم للعينين وأسفنج، وأدوات لنزيف الدماء وللكَيِّ ومراهم ووصفات للنوم، وسكين ورباطات وأشياء مضادة للغثيان ومضادة للإشمئزاز عند رؤية نتانة الجروح. إن لم نستعمل هذه الأشياء كيف نستطيع أن نمارس علمنا؟ لا يوجد حل آخر لأن الأطباء يتقاضون أجراً لا على أقوال بل على أفعال.

"الضمادة هي شفاء للأهواء الخارجية التي هي أهواء الجسد. وجرعة الدواء هي شفاء للأهواء الداخلية ولكي تصرف خارجاً النجاسة الغير مرئية. أما المشرط فهو الإتضاع الذي يوجع، ولكنه ينقي فساد الإعجاب بالذات. ومرهم العينين هو لأجل تطهير عين النفس التي تعكرت بالغضب. والمرهم عبارة عن تأديب كاو يجلب الشفاء بسرعة. أما نزيف الدماء فهو صرف النتانة الغير مرئية. ومرة أخرى فإن أداة نزيف الدماء هي علاج مكثف وقصير لخلاص المريض. والأسفنج يستخدم بعد نزيف الدماء لكي يشفي المريض ويُنعشه بكلمات الطبيب اللطيفة والوديعة والحانية. والكيُّ هو قانون وتأديب يُعطَى، بحب، للخاطيء لمدة محددة من الزمان من أجل توبته. والمرهم هو المرطب الذي يُقدَّم للمريض مع بضعة كلمات أو بعض التعزية الصغيرة بعد الكي.

"وصفة النوم هي أننا نحمل حمل الشخص، ومن خلال الطاعة نعطيه راحة ونوماً يقظاً وعمى مقدساً من جهة فضائله الخاصة. والرباطات هي لتدعيم وتقوية أولئك الذين ضعفوا ووهنوا بالمجد الباطل. والأداة الأخيرة هي السكين، والتي هي حكم وقرار ببتر عضو متعفن وجسد ميت بالنفس خوفاً من أن ينقل العدوى للآخرين".

"مبارك ومستحق التمجيد عدم الإشمئزاز الذي للأطباء، واللَّاهَوَى الذي بين الرعاة. فالأطباء إذ لا يعانون من الغثيان، يجاهدون بلا تعب لكي يبددوا النتانة، والرعاة سوف يكونون قادرين على أن يعيدوا كل نفس مائتة للحياة"[٥٣].

52 . St. John of the Ladder. To the Shepherd. Moore 1979, p. 232f
53 . Ibid.

يكتب الأب يوحنا رومانيدس قائلاً: "إن التكرار الناجح لخبرة التثبيت، التي هي الشفاء، في علم الطب وعلم الآباء، هو حقيقة كل علم. وكما أنه أمر غير معقول أن نقول أن شخصاً ما لم يُشفي ولا يعرف كيف يعالج، نقول عنه أنه طبيب، هكذا يكون أمراً عديم المعنى أن نعتبره لاهوتياً من هو ليس في حالة إستنارة، على الأقل، ولا يعلم كيف يمكن تحقيق هذه الأشياء وبالتالي لا يستطيع أن يعالج"[٥٤].

يكتب أيضاً الأب يوحنا قائلاً: "من المفترض قبل كل شيء أن يكون المعالجون الذين يرشدون المريض في هذه المراحل من العلاج هم الأساقفة والكهنة على أن يكون الأساقفة عادة من الرهبان. وعلى أية حال فاليوم بعد قرن ونصف من كارثة الهجوم على الرهبان السكونيين (أى الرهبان الملتزمين حياة الهدوء والسكون داخل أديرتهم)، فإن أمثل هؤلاء الإكليروس صاروا قلة إذ لم يَعُد يوجد إلا القليل من الرهبان السكونيين، كما أن الكهنوت الذي وصفه ديونيسيوس الأريوباغي قد اختفى"[٥٥].

الكاهن المعالج يصف أيضاً لأولاده الروحيين طريقاً أرثوذكسياً والذى هو طريق التكريس الأرثوذكسي. من أجل ذلك نريد فيما يلي أن نعود لتلك النقطة لكي نصف الطريقة التي على الشخص المريض أن يتبعها تحت إرشاد أبيه الروحي بهدف الحصول على الشفاء الروحي.

إننا نريد أن نشير إلى النسك على الأخص: "إن غصب النفس على ممارسة ضبط النفس والحب والسكون تبيد الأهواء المختفية في داخلنا"[٥٦]. يصف القديس نيسيتاس ستيثاتوس Nicetas Stethatos تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه الممارسة النسكية، قائلاً أن الإنسان عنده خمس حواس، وبالتالى فإن الممارسات النسكية هي خمسة: الأسهار، والدراسة، والصلاة، وضبط النفس، والسكون. ويجب على الناسك أن يدمج الحواس الخمسة بهذه الممارسات الخمسة: النظر مع الأسهار، والسمع مع الدراسة، والشم مع الصلاة، والتذوق مع ضبط النفس، واللمس مع السكون. وعندما ينجح في هذا الدمج "فهو يطهِّر عقل نفسه بسرعة، ويجعله بهذا التهذيب يصير بلا هوى ومنفتح البصيرة"[٥٧].

---

54 . J. Romanides: RR vol. 1, p. 18f In Gk.
55 . Ibid. p. 27
56 . Thalassios. Philok. 2, p. 319, 8
57 . Practical chapters, Ch. 91

إننا نستطيع أن نقول بإختصار أن ممارسة النسك هي تطبيق ناموس الله، وحفظ وصاياه. والجهاد الذي نمارسه لكي نُخضع إرادة الإنسان لإرادة الله، ولكي يتغير بواسطة ذلك، هذا يسمَّى نسكاً.إننا نعلم جيداً من تعاليم آبائنا القديسين أن كل الإنجيل يتكون من "تعاليم الخلاص". والموجود في الكتاب المقدس هو وصية الله، التي يجب على الذين يطلبون خلاصهم أن يحفظوها. وهذا الأمر واضح في التطوبيات (مت ٥: ١-١٢).

"طوبى للمساكين بالروح" هي وصية المسيح التي تعني أنه يجب علينا أن نتطلع إلى فقرنا الروحي. أي أنه يجب علينا أن نختبر بؤسنا. "طوبى للحزانى الآن "هي وصية الرب أن نبكي على الأهواء الموجودة داخلنا وعلى خرابنا. "طوبى للجياع والعطاش إلى البر" هي وصية الرب أن نجوع ونعطش إلى الإتحاد بالله. "طوبى لأنقياء القلب" هي وصية الرب لنطهر قلوبنا. وعندما يقول "طوبى" فكأنه يقول: "لتكن فقيراً وحزيناً وعطشاناً للبر..." وما إلى ذلك.

إذاً وصية المسيح هي الصلاة الدائمة، وحضور القداس الإلهي واليقظة التي هي إنتباه العقل وطهارة القلب وما إلى ذلك. "الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة" (رو٧ : ١٢). يعلن القديس يوحنا الإنجيلي تلميذ الحب للمسيحيين: "وبهذا نعرف أننا قد عرفناه، إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه. وأما مَنْ حفظ كلمته، فحقاً في هذا قد تكمَّلت محبة الله. بهذا نعرف أننا فيه" (١يو٥ : ٣).

"إن الغرض من رتب الكهنوت هو أن تجعلنا مشابهين لله بقدر الإمكان وأن نتحد به. ولكن الكتاب المقدس يعلمنا أننا سوف نحصل على ذلك، فقط من خلال حفظ وصاياه المملوءة حباً وتأدية الخدمات الإلهية"(كقول للقديس ديونيسيوس الأريوباغي)[٥٨]. ويعلِّم القديس غريغوريوس بالاماس أن معرفة الأشياء المخلوقة تأتي من أعمال الفضيلة. وعندما سئل عن الهدف من أعمال الفضيلة كتب قائلاً: "هو الإتحاد بالله والصيرورة على شبهه"[٥٩]. إن فعل الفضائل يرتبط بحفظ الوصايا. وبالإضافة إلى ذلك يشير هذا القديس المحب للسكون إلى أن محبة الله "تأتي فقط من خلال الأداء المقدس للوصايا الإلهية"[٦٠].

إنني أود أن أذكر فيما يلي بعض أقوال الآباء عن قيمة وصايا الله:

58 . Ecclesiastical Hierarchies, ch.2. CWS p. 200
59 . Gregory Palamas. Triads. 2, 3, 74
60 . Ibid. 2, 3, 77

"إن الغرض الكامل من وصايا المخلص هو تحرير العقل من التشتت والكراهية"[61].

"تفوق وصايا الله كل كنوز العالم، والذي اقتناها داخلياً يجد الرب فيها"[62].

"يولد اللاَّهَوَى من حفظ وصايا الله، ولاهَوَى النفس يحفظ المعرفة الروحية"[63].

طاعة وصية الله هي "القيامة من الموت"[64].

يصف القديس غريغوريوس السينائي الطريقتين الرئيسيتين لعمل الروح القدس اللتين نتلقاهما بطريقة سرية في المعمودية المقدسة، ويرى أن حفظ الوصايا هو إحداهما. "كلما حفظنا الوصايا كلما ألقى الروح القدس نوره الساطع علينا بأكثر وضوح"[65]. تظهر كل هذه الأشياء أهمية الحياة النسكية للشفاء ولتجديد النفس. وكما قلنا من قبل أن هذه الحياة النسكية هى بصورة أساسية حفظ وصايا المسيح المخلِّص.

والوصايا الرئيسية التي تؤدي لشفائنا الروحي هي كما نقول في التسبحة التي نرنمها في الكنيسة : "الصوم والسهر والصلاة".

إذا كان إعطاء الصدقات يشفي قوة النفس الحسية، والصلاة تطهرالعقل، فالصوم يميت الرغبة الشهوانية[66]؛ وبهذا فإن كل النفس تُقدَّم لله وهي صحيحة. والصوم أيضاً يجعل الجسد يتضع "الحرمان من الطعام يذلِّل جسد الراهب"[67]. ومع ذلك فالصوم المفرط ليس فقط يتسبب في إضعاف الجسد ولكنه "يجعل قدرة النفس التأملية تضعف وتكره التركيز"[68].

يتكلم القديس يوحنا الدرجي عن الصوم قائلاً: "الصوم هو غَصْب الطبيعة. إنه إستبعاد أي شيء يرضُي الحلق. الصوم ينهي الشهوات، ويجتث الأفكار الشريرة، ويحرر المرء من الأحلام الشريرة. الصوم يعمل على طهارة الصلاة، من خلال نفس خفيفة و ذهن يقظ، وتحرُّر من العمى.الصوم هو باب الندم، والتنهد المتواضع، والإنسحاق المبهج، وهو نهاية الثرثرة، وفرصة للسكون، وحارس للطاعة، وإضعاف للنوم، وصحة للجسد، ووسيلة للاَّهوى، وغفران للخطايا، و بوابة بل وبهجة الفردوس"[69].

61 . Maximus. Philok.2, p. 107,56
62 . Isaac the Syrian. Ascetical Homilies. P. 42
63 . Thalassios. Philok.2, p. 314, 25
64 . Ibid. p. 328, 48
65 . Gk. Philok.4, p. 67, 3
66 . Maximus. Philok.2, p.61,79
67 . Sayings of the Desert Fathers, p. 68, 2
68 . Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 266, 45
69 . Ladder. Step 14. CWS p. 169

كل هذه الأشياء التي ذكرها تُظهر هدف الصوم، من جهة، ومن جهة أخرى تدل على الثمار التي يجلبها للنفس الجاهلة. وهذا هو السبب الذي جعل كل القديسين يحبون الصوم. ومن المهم جداً أن نذكر أنه عندما يبدأ شخص ما في التوبة، فإنه يبدأ أيضاً في الصوم من تلقاء ذاته، وهذا يُظهر أن الصوم يتمشى مع الصلاة والتوبة.

إننا نؤكد على أن الصوم هو وسيلة وليس غاية فهو "أداة لتدريب أولئك الذين يريدون ضبط النفس"[٧٠]، ولكن بدونه يكون أمراً مستحيلاً تقريباً أن نهزم الأهواء ونحصل على اللاهوى. والقديس يوحنا الدرجي واضح من جهة هذا الأمر. وكما تحرر العبرانيون من فرعون وعملوا الفصح بعد أن أكلوا أعشاباً مرة وفطيراً، هكذا نحن أيضاً سوف نتحرر من الفرعون الداخلي من خلال الصوم والإتضاع: "يجب عليك ألا تخدع نفسك. إنك لن تهرب من فرعون ولن ترى الفصح السماوي ما لم تأكل أعشاباً مُرَّة و فطيراً بإستمرار، إنها الأعشاب المرة التي للجهاد والصوم القاسي، والفطير الذي لذهن متضع"[٧١].

إنه أمر ضروري إذاً أن نحافظ على الأصوام التي وضعتها الكنيسة، ونجاهد لكيلا نعطي إشباعاً كاملاً لمطالب الجسد.

وبخلاف الصوم توجد طريقة أخرى للشفاء وهي **السهر**. فمن خلال السهر، يتطهر الشخص ويُشفَى وهذه هي أيضاً طريقة نسكية للعلاج. لقد علمنا السيد المسيح كيف نصلي ليلاً. لقد أمضى هو نفسه كل الليل في الصلاة على الجبل "وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده" (مت١٤:٢٣).

لقد إختبر الآباء القديسون في حياتهم فائدة السهر. ويقول القديس إسحق في كتاباته النسكية: "إن الراهب الذي يثبت في السهر بعقل فطين يبدو وكأنه غير لابس الجسد لأن هذا هو في الحقيقة عمل رتبة الملائكة". إن النفس التي تعمل وتتفوّق في ممارسة السهر "سوف تقتني أعين الشاروبيم أي أنها تستطيع في كل حين أن تتطلع إلى وترى رؤى سماوية"[٧٢].

يقدم القديس يوحنا الدرجي بكل دقته المميزة نموذج الراهب اليقظ وفوائد السهر قائلاً: "اليقظة تُبقي على الذهن نقياً، على حين يوثق النعاس النفس. إن الراهب اليقظ يحارب الزنا، على حين أن النعسان يعيش معه. اليقظة هي إطفاء الشهوة، والخلاص من

---

70 . Diadochos. Philok. 1, p. 267,47

71 . Ladder. Step 14. CWS p. 169

72 .`Isaac the Syrian. Ascrtical Homilies, p. 101

الخيالات، وهو العين الباكية والقلب الوديع اللطيف، والأفكار المكبوحة، والطعام المهضوم، والأهواء المروَّضة والأرواح الخاضعة، واللسان المنضبط، وخيالات الكسل المُبعَدة. إن الراهب السهران هو صياد للأفكار، وفي هدوء الليل يستطيع أن يلاحظها ويتحكم بها"[73].

والصلاة أيضاً تمضي جنباً إلى جنب مع السهر. وهي الطريقة المتميزة في شفاء أمراض النفس. لأن نعمة كبيرة تأتي لنفس الإنسان من خلال الصلاة. ولكننا سوف نتعرض لموضوع الصلاة العقلية والطريقة التي نستعملها لكي نحرر العقل ونرى الله، وذلك عندما نأتي للباب الذي عنوانه **"السكون كطريقة للعلاج"**. وذلك لأننا نرى أنها أهم وسيلة لخلاص الإنسان.

توجد أيضاً طرق علاجية أخرى لشفاء كل نوع من أهواء النفس. ولكننا سوف نتعرض لها على مدى باب كامل عنوانه **"علم الأمراض الأرثوذكسي"**.

ربما يظن القارئ أن كل هذه الطرق العلاجية التي هي مراهم لعين القلب (راجع رؤ٣ : ١٨) لا يمارسها إلا الرهبان. وهذا ليس صحيحاً بالتأكيد. فكل شخص حتى نحن الذين نعيش في العالم، يستطيع أن يعيش بوصايا المسيح. ووصايا المسيح هي الصلاة والتوبة والحزن والإنسحاق والصوم والسهر وما إلى ذلك. وهذا يعني أن كل شخص يستطيع أن يحيا بها. لم يقل المسيح أشياء مستحيلة على الإنسان. يؤكد القديس غريغوريوس بالاماس متكلماً عن نقاوة القلب قائلاً: "من الممكن حتى للمتزوجين أن يتبعوا هذه النقاوة ولكن بصعوبة كبيرة"[74]. يستطيع كل واحد أن يحيا حياة بحسب الإنجيل بأن يتكيف بالطريقة الملائمة.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لو وُجد أسقف وقداس إلهي، فهذا يعني أن الخلاص ممكن. لماذا توجد الكنيسة وتعمل؟ يوجد أيضاً تطبيق لوصايا المسيح مناسب لكل إنسان. توجد العديد من هذه القصص في الأدب الآبائي. إن الآباء الذين شُفوا إكتسبوا نعمة التمييز وينصحون كل إنسان لكي يجد طريقه الذي هو أساساً طريق التقليد الأرثوذكسي.

يتكلم القديس يوحنا الدرجي بصورة مميزة في هذه النقطة. فهو يحكي أنه رأى طبيباً أحمقاً قاد مريضاً منكسراً ومتواضع الروح لليأس. وفي نفس الوقت رأى طبيباً روحياً "فهيماً" أجرى عملية روحية "لقلب متكبر" بسكين الإهانة وخلصه بالتالي من كل

---

73 . Ladder. Step 20. CWS p. 196
74 . To Xeni. GK. Philok.4, p. 20-22

رائحة شريرة. وهو يقول أيضاً أنه رأى نفس المريض يعالج نجاسته في بعض الأحيان بدواء الطاعة وفي أحيان أخرى يشفي "عين نفسه المريضة" بالسكون والصمت[٧٥]. ويبدو هنا بوضوح أن نفس الرجل المريض إحتاج للطاعة في وقت ما وللسكون والصمت في وقت آخر. يجب إذاً أن تُعطى الأدوية المناسبة في الوقت المناسب.

ويقول القديس أيضاً كأب إعتراف مفرز: "إن دواء شخص ما قد يكون سُماً لشخص آخر". وبالإضافة إلى ذلك فإن نفس الدواء بالنسبة لنفس الشخص قد يكون في وقت ما علاجاً وقد يكون في وقت آخر سُماً، فهو عندما يُعطَى في وقت مناسب يؤدي وظيفة العلاج، ولكنه عندما يُعطَى في وقت خاطئ يكون سُماً[٧٦].

وهكذا فإننا نؤكد مرة أخرى على أن مُعالجاً أرثوذكسياً مفرزاً (أب إعتراف طبيب) هو أساسي لتوليف الدواء وإعطاء الإرشاد العلاجي المناسب.

أود فيما يلي أن أستشهد ببعض أقوال آباء البرية التي تظهر بوضوح أنه يوجد تنوع في الممارسة النسكية وإمكانية كبيرة للتوفيق.

سأل شخص ما القديس أنطونيوس: "ماذا يجب على المرء أن يفعل لكي يرضي الله؟" فأجاب: "ضع الله أمام عينيك أينما تذهب، ولتكن الأسفار المقدسة شاهدة عليك في كل ما تقول وتفعل، وأينما تكون لا تترك المكان بسرعة. إحفظ هذه الثلاثة وسوف تخلص"[٧٧].

سأل أخ آخر الأنبا نيستريون: "ما هو العمل الحسن الذي أستطيع أن أعمله؟" فأجاب: "أليست كل الأعمال متساوية؟ يقول الكتاب المقدس إن أبرآم أضاف الغرباء وكان الله معه؛ وداود كان متواضعاً وكان الله معه؛ وأحب إيليا السلام الداخلي وكان الله معه؛ إفعل إذاً أي شيء تريده نفسك بحسب الله وإحفظ قلبك"[٧٨].

ويقول يوسف الطيبي: "ثلاثة أعمال مكرمة في عيني الله: الأول عندما يكون شخص ما مريضاً وتقع عليه تجارب ويستقبلها بشكر، والثاني عندما يعمل شخص ما كل عمله في حضرة الله دون أن يعمل حساباً لأي شيء بشري، والثالث هو عندما يبقى المرء خاضعاً لأب روحي في تخلٍ كاملٍ عن إرادته الخاصة. وفي الواقع سيحصل هذا الأخير على إكليل سامٍ". ثم إسترسل قائلاً: "وأما بالنسبة لي أنا فقد إخترتُ المرض"[٧٩].

75 . Ladder. Step 27. CWS p. 233
76 . Ibid.
77 . Sayings of the Desert Fathers p. 2,3
78 . Ibid. p. 130,2
79 . Ibid. p. 94, 1

ويقول الأنبا بيمن بالمثل: "لو وجد ثلاثة رجال في نفس المكان وحافظ أحدهم على السلام الداخلي، وشكر الثاني الله في المرض، وخدم الثالث بذهن نقي فإن أولئك الثلاثة يفعلون نفس الشيء"[80].

توضح كل هذه الأمثلة أن جهاد الإنسان مشترك، ولكن طرق الجهاد متنوعة. يجب على الجميع أن يحفظوا كلمة الله أي وصايا الله وأن يحافظوا على نقاوة قلوبهم في أي شيء يعملونه. توجد بالإضافة إلى ذلك تطبيقات متنوعة يستطيع الأب الروحي أن يعملها.

قد ينظر إلينا على أننا تسببنا في خلل بعدم وضع **التناول المقدس** في قائمة العلاجات الشافية. ولكن يجب علينا أن نؤكد ونشدد على حقيقة أننا ننظر للإفخارستيا التي هي التناول من جسد ودم المسيح على أنها أمر لا غنى عنه بالنسبة للإنسان. لقد أكد الرب قائلاً: "إن لم تأكلوا جسد إبن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم" (يو ٦: ٥٣). ولكن من المعروف جيداً أن التناول المقدس يسبقه التطهير والإستعداد ولو لم يأتي العلاج الذي نتكلم عنه هنا أولاً فإن تناول جسد ودم المسيح يكون "مستوجباً الحكم والدينونة".

لا يمكن أن نفهم طبيعة الكنيسة Ecclesiology وعلم الأخرويات Eschatology بدون تدريب علاجي. نحن لا نقلل إذاً من قيمة التناول المقدس ولكننا إذ نؤكد على قيمة الممارسة النسكية والعلاج فإننا نرفع من شأن عطية الإفخارستيا العظيمة. ومن ناحية أخرى، فإن الهدف مما كتبناه هو في الأساس أن نوضح الطريق المحدد الذي ينتهي عند المذبح بحيث يصبح التناول المقدس نوراً وحياة.

إنني أتمنى أن تكون هذه الكلمات القليلة قد أظهرت بوضوح أن المسيحية هي علم علاجي، فهي تشفي الإنسان المريض. وهذا المرض يظهر واضحاً في العقل. والكنيسة تحرر العقل بتعليمها والعبادة والنسك والأسرار، وتجعله هيكلاً للروح القدس. ولقد طبق كل القديسين هذه الطريقة العلاجية وأكدوا عليها، إذ أنها الطريق الوحيد الذي يقود لله. **إنني أعتقد أن فقدان التقليد يتضح بصورة رئيسية في فقدان الطريقة العلاجية وفقدان المعالجين الحقيقيين.** وطريق العودة للتقليد الأرثوذكسي هو بصورة رئيسية طريق العودة لهذين الأساسين.

---

80 . Ibid. p. 144, 29

الباب الثاني

المعالج الأرثوذكسي

أتمنى أن نكون قد رسخنا إلى حدٍ ما حقيقة أن المسيحية هي بصورة رئيسية علم علاجي إذ أنها تطلب الشفاء الروحي للإنسان. وكما أن الممارسة الصحيحة للطب تتطلب طبيباً ماهراً، أي طبيباً متخصصاً، هكذا أيضاً يكون الحال مع الشفاء الروحي إذ يجب أن يكون هناك طبيب ماهر الذي هو الأسقف والكاهن.

وكما أشرنا من قبل فإن الناس يشعرون اليوم أن وظيفة الكاهن هي تمكينهم من المشاركة في الأسرار المقدسة. فهم يشعرون أنه دُعي من الله كخادم له بحيث يستطيعون أن يعترفوا بخطاياهم ويحصلوا على الحرية الروحية. إنهم يشعرون أنه وكيل الله المدعو للصلاة له حتى تتبارك أعمالهم وما شابه ذلك. وبالتأكيد لا يستطيع أحد أن ينكر أن الكاهن سوف يفعل هذا العمل أيضاً ولكن يبدو أن الناس عادة ما ينظرون للكاهن كما لو كان ساحراً (لو جاز لي هذا التعبير). **لأننا عندما ننظر لحياة العبادة مفصولة عن الشفاء والعلاج فإنها تكون أكثر ميلاً لأن تكون ضرباً من ضروب السحر!**

على أية حال فإننا لكي نوضح الأمور نكرر أيضاً أن الكاهن هو طبيب روحاني بحق يشفي أمراض الناس. ويجب أن نضع العبادة والأسرار داخل طريقة الشفاء والعلاج.

والكاهن حتى في كونه أب إعتراف فهو مُعالج بدرجة رئيسية. فسر الإعتراف ليس مجرد حِل شكلي، وخصوصاً كما في الأسلوب الغربي من الإعتراف، كما لو كان الله غاضباً ويطلب تكفيراً! إنه أكثر من ذلك. فسرُّ الأعتراف، جزء من العملية العلاجية. يوجد العديد من المسيحيين الذين يمارسون سر الإعتراف على مدى سنوات عديدة ومع ذلك لم يُشفوا من أمراضهم الروحية. وما يساهم في ذلك هو جهل الناس وعدم معرفة الرعاة.

إن مهمة الأسقف أو الكاهن أو أب الإعتراف هي أن يقود الناس للخروج من مصر إلى أرض الموعد مثل موسى. هذا الإرشاد وهذه القيادة يحتاجان إلى كدٍّ وعمل وحرمان وضيق. فهو بصورة رئيسية إشراف علاجي. يصر الآباء على هذه الحقيقة بشدة. فلنأخذ مثلاً القديس يوحنا الدرجي/ الذي ينصح أن "من يريد أن يخرج من مصر ومن فرعون يحتاج لوساطة مع الله لكي يقف بين العمل والتيئوريا ولكي يبسط ذراعيه لله، حتى أن أولئك الذين يقودهم يستطيعون عبور بحر الخطايا ويحاربون عماليق الأهواء". ويسترسل القديس قائلاً أن أولئك الذين يعتمدون على قوتهم الذاتية ويدَّعون أنهم لا يحتاجون لإرشاد، إنما يخدعون أنفسهم[1].

---

[1]. Ladder. Step 1. CWS p. 75

إننا نعلم من قصة العهد القديم ما تكبله موسى وكيف قاد هذا الشعب الصلب الرقبة. موسى الروحي هذا هو طبيب. بالإضافة إلى أننا نحن جميعاً مرضى نحتاج للعلاج والطبيب.

يوضح القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه الحقيقة عند كلامه مع الرهبان. وكما نعلم من التقليد الأرثوذكسي فإن الأديرة هي مستشفيات حقيقية. ومن الأفضل أيضاً أن نقول أنها مدارس طبية. ونحن باعتبارنا مرضى لابد أن نُشفَى أولاً وبعد ذلك نتعلم كيف نعالج. وهذا هو السبب الذي جعل الكنيسة الأولى تختار الكهنة من الأديرة التي هي مدارس طبية لتجعلهم في وظيفة الناظر من أعلى التي يحملها الأسقف.

وهكذا في حديث القديس سمعان للرهبان لم يتردد في أن يقول أننا جميعاً فقراء ومحتاجون. ثم بعد ذلك يعلن كيف أننا جميعاً الموجودين في القلالي مصابون ومتأثرون بأمراض مختلفة. وبالتالي لا نستطيع أن نفعل أي شيء بل أن نصرخ ليلاً ونهاراً لطبيب النفوس والأجساد لكي يشفي قلوبنا المجروحة ويهبنا الصحة الروحية. يكتب القديس قائلاً: "وهذا ليس كل شيء؛ فبخلاف كوننا فقراء وعرايا فنحن مع الأسف مجروحون ومصابون بأمراض متنوعة أو نتحرك بصعوبة في قلالينا أو أديرتنا كما لو كنا في العديد من مستشفيات وبيوت العجائز. إننا نبكي ونئن وننتحب وندعو الله الذي هو طبيب النفوس والأجساد حتى يأتي ويشفي قلوبنا المجروحة ويعطي الصحة لنفوسنا التي ترقد في فراش الخطية والموت. ونحن نفعل ذلك بقدر ما نكون واعين لآلام جروحنا وأمراضنا لأنه يوجد أناس لا يعرفون حتى أنهم مصابون بمرض أو علة. وكما يقول الرسول القديس أن الجميع أخطأوا وأعوزهم رحمة ونعمة الله"[2].

لقد إستشهدنا بهذا النص بكامله لأن رسالة الأديرة والكنيسة، بالإضافة إلى عمل الرعاة، قد ظهرتا بوضوح في هذا النص. هذه الرسالة هي بصورة رئيسية مهمة علاجية. فنحن مرضى في فراش الخطية والموت. وكلُّ من لا يشعر بهذه الحقيقة فهو "مختل". لذلك، فالمسيحيون الذين لا يمكثون في الكنيسة بهدف الشفاء أو الذين يشعرون بأنهم على ما يرام هم "مختلون".

ويرى القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن القس هو طبيب، فالمرء يأتي "للطبيب الروحاني وقد أتلفه الهوى وذهنه شارد بالكلية..."[3]. "والطبيب الماهر الذي هو إنساني

---

[2]. SC 129, 174
[3]. SC 129, 140

ورؤوف، يفهم ضعف أخيه، والإلتهاب الناتج عن المرض والورم، ويرى الشخص المريض تحت قبضة الموت بكُلِّيته". ثم يصف القديس الطريقة التي يتعامل بها الطبيب الروحي الماهر مع المرض وكيف يعالجه[4].

لقد أشرنا من قبل لصورتين رئيسيتين تميزان عمل الراعي: الأولى أنه موسى الذي يقود أولاده الروحيين، والثانية أنه كلاً من عالم وطبيب متعاطف بآن واحد. تحتوي إحدى قصائد القديس سمعان على كل هذه الصفات حيث يصف علاجه هو ذاته بواسطة أبيه الروحي أي موسى "الشخصي" الخاص به. وهو يُطبِّق على حياته رحلة شعب بني إسرائيل وقيادة موسى ويكتب قائلاً:

" لقد جاء ووجدني عبداً وغريباً
وقال: تعالى يا إبني سوف آخذك لله!"
ثم سأل موسى الخاص به لكي يطمئنه أنه يستطيع أن يفعل هذا الشيء:
" لقد قربني منه وعانقني بشدة
ثم قبَّلني بقبلة مقدسة
وكان عطر عدم الموت يفوح منه
لقد آمنت وأحببت أن أذهب معه
وإشتقت أن أخدمه وحده...
وأخذني بيدي ومشى قدامي
وهكذا بدأ يعبر بي الطريق".

وبعد رحلة طويلة نجح القديس سمعان في مواجهة الأهواء والتحرر منها من خلال تدخل أبيه الروحي وإستعطفه قائلاً:

" تعالَ يا سيدي فلن أبتعد عنك
لن أعصَ أوامرك بل سأحفظها جميعاً"[5].

وعلى أية حال فلكي يصبح شخص ما معالجاً أرثوذكسياً ويشفي الأمراض الروحية لأولاده الروحيين، يجب عليه هو نفسه أن يُشفَى أولاً بقدر الإمكان، ويجب عليه أن يقف

---

[4] . SC 129, 140-142
[5] . SC 174, 86-92. Hymn 18. pp. 82 and 84

"في الوسط بين العمل والتيئوريا". **فكيف يستطيع شخص ما أن يعطي شفاءً دون أن يُشفي هو أولاً أو دون أن يتذوق بداية الشفاء؟** وهكذا يتهم القديس سمعان أولئك الذين ينظرون لذواتهم على أنهم مرشدون روحيون قبل أن يمتلئوا بالروح القدس، فيندفعون في تلقيٍّ إعترافات الآخرين، ويتجرأون على إدارة أديرة أويشغلون وظائف قيادية أخرى "دافعين أنفسهم للأمام بطريقة مخجلة بواسطة الآلاف من المكائد لكي يصيروا مطارنة وأساقفة ليقودوا شعب الله... "قبل أن يروا العريس" في حجرة العرس "وقبل أن يصيروا "أبناء النور وأبناء النهار"[6].

كل هذه الأمور أوضحها القديس غريغوريوس اللاهوتي بطريقة منقطعة النظير قائلاً: "من الضروري أن يتطهر المرء أولاً ثم بعد ذلك يُطهِّر؛ أن يصبح حكيماً ثم يجعل الآخرين حكماء؛ أن يصير نوراً ثم ينير؛ أن يقترب من الله ثم يجلب الآخرين إليه؛ أن يتقدس ثم يُقدِّس..."[7].

كتب القديس يوحنا ذهبي الفم الذي أُعتبر خبيراً في الكهنوت في نص مشهور يطلب فيه أن يبرر رفضه لأن يصير أسقفاً قائلاً أنه يعي ضعف وصغر نفسه بالإضافة إلى أهمية وصعوبة قيادة الناس: "أنا أعرف ضعف وضآلة نفسي. وأعلم أهمية هذا الكهنوت وعظم صعوبته"[8].

وفي حواره مع القديس باسيليوس سأله ألا يشك في صدق ما قاله، أنه على حين هويحب المسيح إلا أنه يخاف من إثارة عثرة بقبول هذه الخدمة الروحية "طالما أن عجز روحي يجعلني غير مؤهَّل لهذه الخدمة"[9]. لقد جعَلَته نقاوة أفكاره ومشاعره الكبيرة يحس بأن ضعف نفسه يجعله غير كفء لهذه الخدمة العظيمة. لأنه في الواقع وكما سنرى فيما بعد، هذه الأهواء التى لم تُشفَى تمنع الكاهن من مساعدة أولاده الروحيين في الشفاء.

فإذا لم يكن المعالج قد شُفي أولاً فإنه يكون من "العامة". "إنهم ببساطة يأخذون عامة الشعب ويعطونهم مسئولية هذه المهام...."[10].

---

[6]. SC 129, 116-118
[7]. Or. 2, 71. NPNF ns, vol. 7, p. 219
[8]. On the Priesthood III, 7, p. 77
[9]. Ibid. II, 4, p. 60
[10]. Ibid. III, 15, p. 91

كل هذه الأمور التي تكلمنا عنها بالفعل تشير إلى الحقيقة العظمى أن الكهنة الذين يريدون شفاء أمراض الناس يجب عليهم أن يُشفَوا هم أولاً من هذه الأمراض، أو على الأقل أن يكونوا قد بدأوا في الشفاء، ويجب عليهم أن يشعروا بقيمة الشفاء وإمكانيته.

يجب علينا أن نوضح بطريقة كافية أننا لا ننوي أن نفحص كل درجات الكهنوت أو دور الكهنة. وليس هدفنا أن نشرح قيمة وأهمية الكهنوت، ولكن أن ننظر لهذه الرتبة العظيمة والمسئولة من وجهة نظر أنها علم علاجي عمله الرئيسي شفاء الناس. فإذا بدا في نقطة معينة أننا نحاول أن نؤكد على أهمية الكهنوت، فإننا فعلنا ذلك فقط لكي ننظر لهذا الجانب الذي نتمنى أن نؤكد عليه هنا.

١ – متطلبات دور الكاهن المعالج

إن ما يتمم شفاء المسيحيين المرضى هو الروح القدس، وبالتحديد نعمة الثالوث القدوس. فالكاهن هو خادم هذا الشفاء. وكل نظام الكنيسة هو إلهي ـ إنساني. وبالإضافة إلى ذلك فإن نعمة الله تعمل سرياً في الكاهن، وهو يعرف بالخبرة هذا العمل الخفي لنعمة الله.

قيمة الكهنوت

إن قيمة الكهنوت عظيمة. ولذلك يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: "على الرغم من أن عمل الكهنوت يتم على الأرض إلا أنه يصنف بين الطقوس السماوية"، طالما أن الكاهن لم يُدعَى لا بإنسان ولا بملاك ولا برئيس ملائكة ولا بقوة مخلوقة أخرى ولكن بواسطة "الباراقليط نفسه"[١١].

"وكما تتفوق الشمس على النجوم" هكذا يفوق القداس الذي يصليه الكاهن على كل "تسبيح وصلاة" وهو يختلف عن كل الخدمات الأخرى. وذلك لأننا من خلال سر الإفخارستيا نقدم ذبيحة الإبن الوحيد ذاته الذي ذُبح لأجل خطايانا[١٢]. إن من يقيم "الأسرار المخوفة والممجدة بطريقة صحيحة، سوف يحصل على فوائد منها أعظم من تلك التي يحصل عليها من أي عمل أو من التيئوريا"[١٣].

---

[11]. Ibid. III, 4, p. 70
[12]. St. Theognostos. Philok. 2, p. 376, 72
[13]. Ibid. 71

تنبع قيمة الكهنوت الذي يستطيع أن يقدم العجل المسمَّن كذبيحة، من حقيقة أنه يساعد الإنسان على التقدم من كونه على صورة الله إلى التشبه بالله. فهو يستطيع أن يقوده للإتحاد بالله، الذي هو في الواقع شفاء الإنسان، أو بالأحرى يُظهر هذا الشفاء.

يقارن الآباء بين الكهنوت وبين العديد من الأعمال الأخرى، معتبرين إياه الأعظم لأن الخدمات الأخرى تساعد الإنسان على حل المشاكل العالمية، على حين أن الكهنوت يقوده للإتحاد بالله. وبالتالي فإن "الكهنوت أعظم حتى من مملكة"، طالما أن الكاهن "يحكم أشياء إلهية والملك يحكم أشياء أرضية"[١٤].

وفي الواقع وكما أشرنا من قبل فإن الكهنوت في العمل الرعوي هو كهنوت المسيح نفسه. والكهنة بدورهم يعطون هذه النعمة للناس وهذا ما يجعلهم قادرين على غفران وشفاء الخطايا.

وعلى أية حال لم نُشِرْ إلا إلى أشياء قليلة عن قيمة الكهنوت، لأنه لم يكن هدفنا في هذا الباب أن نؤكد على قيمة هذا العمل العظيم.

دعوة ورسامة الرسل

لقد دعا الرب الأشخاص المناسبين لهذا العمل، ومنحهم كهنوته. وهكذا كان أوائل الأساقفة هم الرسل. ولقد دعاهم الرب للدرجة الرسولية، وأبقاهم معه طيلة ثلاث سنوات، ثم أعطاهم الروح القدس ليغفروا الخطايا، ثم أرسلهم ليكرزوا "لكل الأمم" وليقودوا الناس. وهكذا جعلهم صيادين للناس ومبشرين بالإنجيل. هذا الإختيار والإرسالية للخارج هو ما صنع منهم رسلاً. لا يوجد لدينا دليل في الكتاب المقدس على أن الرب إستعمل طقساً خاصاً ليمنح الخدمة الكهنوتية للرسل. ولكننا على أية حال نستطيع أن نقول أن "الرب في حال كونه هونفسه مؤسس الأسرار، لم يكن مقيَّداً بها ولكنه كان قادراً على جعلها فعالة من خلال تعبير بسيط عن إرادته"[١٥]. وفي كل الأحوال فإن الحقيقة هي أن دعوة الإثني عشر رسولاً من قِبَل المسيح وظهوره لهم بعد القيامة، وموهبة غفران الخطايا وحلول الباراقليط في يوم الخمسين، كل هذه الأمور أقامتهم كرعاة لشعب الله.

---

14 . Isidor of Pelusium, in Nikodemos, Commentary on the Epistles. Vol. 1, p. 227, note 2. In Gk

15 . Trempelas, Dogmatics vol. 3, p. 293. In Gk.

لدينا أيضاً كمثال بولس الرسول، الذي لم يكن تلميذاً للمسيح في زمن حياته على الأرض، ولكنه هو أيضاً دُعي للدرجة الرسولية. وهو ذاته اعتبر نفسه رسولاً ليسوع المسيح: "بولس رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح..." (١تي١ :١). وهو في الواقع يكتب في موضع آخر قائلاً: "لأني أحسب أني لم أنقص شيئاً عن فائقي الرسل" (٢كو١١ : ٥). ويكتب نفس الرسول في موضع آخر قائلاً: "وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذي قوّاني أنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة" (١تي١ : ١٢). لقد كان على يقين أنه كان شاهداً أميناً للقيامة، لأنه في طريقه لدمشق رأى المسيح القائم. وبالتالي في تسجيله لظهورات المسيح القائم تجرأ وقال: "وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لي أنا" (١كو١٥ :٨). لقد حسب نفسه من بين شهود القيامة.

إن ظهور السيد المسيح لبولس ليس فقط منحه درجة الرسولية، ولكنه حقق رسامته ككاهن للمسيح.

يكتب الأستاذ رومانيدس قائلاً: "بحسب بولس الرسول، فإن الأنبياء في إبروشية (١كو١٤ : ١٩) هم أولئك الذين مثلهم مثل الرسل (١كو١٥: ٥- ٨) قد حققوا الإتحاد بالله، ورؤية المسيح في مجد الثالوث القدوس. يوضح بولس الرسول ذلك بوضوح فيما كتبه عن سر المسيح "الذي في أجيال أُخر لم يُعَرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح" (أف٣ : ٥). فى هذا السياق تُفهم قائمة عضوية جسد المسيح. "فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه وإن كان عضو واحد يكرم فجميع الأعضاء تفرح معه" (١كو١٢ : ٢٦). بمعنى أن العضو المكرم يتحد بالله ويصير نبياً من قِبَل الله. هذا هو السبب الذي جعل بولس الرسول يعدد الأعضاء المتنوعة لجسد المسيح مبتدئاً بالرسل والأنبياء ومنتهياً بأولئك الذين يتكلمون بألسنة ويفسرونها (١كو١٢ : ٢٨)، التي هي أشكال العبادة العقلية (أف٥ : ١٩). وبتعبير بولس الرسول فإن الذي يتنبأ هو الذي يفسر العهد القديم (لم يكن كتاب العهد الجديد موجوداً بعد) على أساس خبرة الصلاة العقلية التي تُدعى "أنواع ألسنة مختلفة". وعلى العكس فإن النبي هو الذي حقق الإتحاد بالله. هذا هو بالضبط التمييز الآبائي اللاحق بين التكلم باللاهوت وبين علم اللاهوت نفسه. وكل أولئك من أول بولس الرسول إلى الشخص الذي يتنبأ ويفسر كان لديهم "ألسنة متنوعة"، أي أنواع مختلفة من عبادة الروح القدس داخل القلب. وهكذا دعاهم الله أعضاء جسد المسيح وهياكل الروح القدس. ولكونهم مدعوين من الله صاروا مختلفين عن "العاميين" (١كو١٤ : ١٦) الذين لم يتلقّوا بعد مسحة افتقاد الروح القدس الذي

يصلي بغير إنقطاع في القلوب، وبالتالي لم يصيروا بعد هيكلاً للروح القدس. لقد ظهروا كمعتمدين بالماء لمغفرة الخطايا ولكن غير معتمدين بالروح القدس، أي غير ممسوحين بالميرون. ربما كان سر الميرون قد أُقيم لكي يتم التأكيد على أن الروح القدس قد حلّ ليصلي داخلهم وبالتالي سُمي الميرون "تثبيتاً".

"لقد شكّل جميع الرسل والأنبياء المتحدين بالله والأنبياء والمعلمين المستنيرين، مع أصحابِ القوات ومواهب الشفاء والأعوان والتدابير وأنواع الألسنة (١كو١٢ : ٢٨) بصورة علنية الإكليروس الممسوح، والكهنوت الملوكي، كما تقول خدمة الميرون المقدس. أما الباقون فهم "الشعب" كما يشهد الآباء. ومن الواضح أن المقصود "بأولئك الذين عيّنهم الله في الكنيسة" (١كو١٢ : ٢٨) هم أولئك الذين حلّ عليهم الروح القدس فجعل الرسل والأنبياء متحدين بالله وأعطى إستنارة للباقين، وليس فقط من خلال عمل ليتورجي"[١٦].

المتطلبات الرئيسية للرسامة

من المؤكد أن الرسل نقلوا كهنوت المسيح وذلك من خلال سر محدد يسمى سر الكهنوت المقدس. وحددت الكنيسة أيضاً المتطلّبات القانونية لأي شخص لكي يتلقى هذه النعمة العظيمة ولكي يمارس هذه الوظيفة العليا.

وأحد هذه الرسامات كانت هي رسامة الشمامسة في كنيسة أورشليم الأولى. وكما يقول سفر أعمال الرسل أنهم اختاروا سبعة شمامسة "وأقاموهم أمام الرسل وصلوا ووضعوا عليهم الأيادي" (أع٦ : ٦). وهنا نجد وضع الأيادي والصلاة. يحلل القديس يوحنا ذهبي الفم هذا النص قائلاً: "لم يخبرنا الكتاب بأية طريقة فعلوا ذلك ولكنهم رُسموا بالصلاة لأن هذا هو معنى وضع الأيادي؛ فاليد توضع على الشخص ولكن كل العمل هو لله..."[١٧].

يجب علينا أن نلاحظ في هذه الحالة أنه تم إختيارهم بواسطة كل هيئة مسيحيي الكنيسة الأولى. لقد تطلب ذلك عدة مؤهلات. وكان المؤهل الرئيسي هو إمتلاؤهم من الروح القدس. ونجد في سفر الأعمال مكتوباً من جهة إختيار إستفانوس: "فإختاروا إستفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس" (أع٦ : ٥)

---

[16]. Romanides: RR, p. 27f. In Gk

[17]. Hom. 14 on Acts. LF vol. 33, p. 198

وبالتالي فإنهم لم يتلقوا الروح القدس في وقت الرسامة فقط، ولكنهم كانوا قبلاً يقتنون نعمة الروح القدس .

ويفسر القديس يوحنا ذهبي الفم ذلك قائلاً أنه كان يقتنى نعمة الروح القدس "من جرن المعمودية". لم تكن هذه النعمة وحدها كافية ولكنه كان محتاجاً للرسامة بوضع اليد: "حيث حصل على إمتلاء إضافي من الروح القدس"[١٨]. إنه يقول أيضاً أن إستفانوس تلقى نعمة أكثر من باقي الشمامسة: "لأنه على الرغم من أن الرسامة كانت مشتركة له ولهم إلا أنه إجتذب لنفسه نعمة أعظم"[١٩]. وكان ذلك بسبب نقاوته العظيمة وحضور الروح القدس في داخله.

يشير هذا بدون شك إلى أن المرشحين لوظيفة الكهنوت العظمى هذه لم يكونوا ينتظرون ببساطة يوم رسامتهم لكي يتلقوا الروح القدس، ولكن كان لابد أن يكونوا قد فتحوا ذواتهم للروح القدس أولاً.

تقيم الكنيسة وزناً كبيراً لهذا الأمر. ونرى ذلك أيضاً في رسائل بولس الرسول التي كتبها لتلميذه تيموثاوس قائلاً: "إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي ولكني موقن أنه فيك أيضاً" (٢تي١ : ٥). إننا نعلم جيداً أن الإيمان ليس تعليماً مجرداً ولكنه "فهم ورؤية للقلب". إنه حياة الروح القدس في نفوسنا.

يكتب أيضاً بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس الذي رسمه أسقفاً بنفسه: "لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية" (١تي٤ : ١٤). ويكتب في موضع آخر قائلاً: "هذه الوصية أيها الإبن تيموثاوس أستودعك إياها حسب النبوات التي سبقت عليك" (١تي١ : ١٨).

يقدم القديس ثيئوفيلاكتوس هذا التفسير: "رتبة الكهنوت التي تهتم بتعليم وحماية الناس هي عظيمة وعالية لذلك تتطلب أن يحصل المرشح لها على الموافقة من الله من فوق. ولذلك السبب أيضاً كان الذين يصيرون كهنة وأساقفة في الأزمنة القديمة يصيرون هكذا بموجب نبوّات إلهية اي بواسطة الروح القدس"[٢٠].

---

18. Hom. 15 on Acts. Ibid. p. 207
19. Ibid.
20. St. Nikodimos of the Holy Mountain. Commentary on the Epistles, vol. 3, p. 95. In Gk

يتضمن إختيار الكهنة والأساقفة لهذه الوظيفة العظمى إعداداً كبيراً وشروطاً عديلة. ويعظ بولس الرسول قائلاً: "إن كان أحد بلا لوم" (تي١ : ٦) فَلْيُقام كاهناً أو أسقفاً. وهو أيضاً يطلب أن مثل هذا الشخص يجب عليه ألا يكون "حديث الإيمان" (١تي٣ : ٦) لأنه يجب أن يكون لديه خبرة روحية سابقة وبالتالي يكون قد تعمد لهذه الوظيفة العظمى، ويجب عليه أن يكون قد تطهر هو نفسه، كما سنرى فيما يلي، وعندئذ فقط يستطيع أن يتقدم للرسامة.

وفي الواقع يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً أنه يجب على الكاهن أن يكون لديه يقظة وقوة روحية أكثر من النُسَّاك. لأنه إن كان النُسَّاك الذين تحرروا من "المدينة والسوق والناس" ليسوا آمنين روحياً، فكم بالأحرى يحتاج الكاهن لقوة أكبر في الجهاد، لكي يكون قادراً على إنتزاع نفسه بعيداً عن كل تلوث، وعلى الحفاظ على جماله الروحي غير مشوَّه". من أجل ذلك يؤكد على أن الإكليروس الذين يعيشون في العالم يحتاجون لطهارة أكثر حتى من الرهبان[21].

إن موضوع حماية طهارة الكهنوت سوف نتناوله فيما بعد. ولكننا نتمنى هنا أن نؤكد على الصفات التي يجب على المسيحي أن يقتنيها في حالة رسامته كاهناً. لأنه لو لم يكن هو ذاته قد شُفي فكيف سيكون قادراً على شفاء *الضعفاء والمرضى* روحياً؟

يشكل الإستعداد للكهنوت أحد المواضيع الرئيسية في كتابات القديس سمعان اللاهوتي الجديد: "إن الذي لم يتخلى عن العالم ولم يُحسب مستحقاً لحلول الروح القدس كما كان الرسل القديسون، ولم يخضع للتطهير والإستنارة ولم يوجد مستحقاً "لتأمل النور الذي لا يُدنى منه "لا يجب عليه أن يتجرأ ويقبل الكهنوت والسلطان على النفوس أو أن يدفع نفسه ليقبل مثل هذا!"[22].

إننا نجد نفس التعليم في كتابات القديس ثيئوغنوسطس فهو يقول: "لو أن القس لم يتيقَّن بعد بواسطة الروح القدس أن يكون وسيطاً مقبولاً بين الله والإنسان، فلا يجب عليه "أن يتجرأ بوقاحة ويقيم الأسرار المخوفة والأكثر قداسة"[23].

كان الآباء يهربون إلى الجبال عندما كانوا يشعرون بقرب الرسامة كما رأينا في حياة وتعليم القديس غريغوريوس اللاهوتي ففي كتابه " دفاع عن الهروب إلى بونتوس"

---

21. Ibid. p. 118 note 1
22. SC 196, 294-296
23. Philok. 2, p. 257, 14

يحاول أن يدافع عن هذا الفعل ويقول أنه لا يستطيع أي أحد أن يتولى مسئولية رعاية القطيع الروحي ما لم يكن قد سبق وأصبح هيكلاً لله الحي أي "مسكناً للمسيح في الروح القدس"، أومَنْ لم يكن قد عبر "بالخبرة والتأمل" في كل ألقاب وقوى المسيح وتعلم "حكمة الله المخفية في سر" وإلا فإنه لا يزال طفلاً "يرضع اللبن"[٢٤].

وبلا شك لم يكن الآباء القديسون غير واعين لحقيقة أن الكثيرين كانوا قد رُسموا بدون أن يستوفوا هذه الشروط المثالية وبدون أن يكونوا قد تطهروا أو شُفوا. من أجل ذلك نبعت العديد من الرسامات "ليس من نعمة الله ولكن من طموح بشري"[٢٥]. وفي الواقع إن قول القديس يوحنا ذهبي الفم معروف جيداً عن أن "الله لا يرسم الجميع ولكنه يعمل من خلال الجميع"[٢٦].

درجات الكهنوت الثلاثة

يبدو من دراسة المراجع وخصوصاً الأدب الآبائي أن درجات الكهنوت الثلاثة (الشماس – الكاهن – الأسقف) مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالدرجات الثلاث الرئيسية للحياة الروحية. وهذا يعني أن الشخص الذي نما في الشفاء يصعد السلم الروحاني الذي للنعمة والبركة الكهنوتية. هذا هو على الأقل تعليم الآباء. يجب علينا أن نتناول بأكثر إستفاضة هذه النقطة الأساسية التي للتعليم الآبائي بأن نتحدث عن نعمة الكهنوت الشافية.

لقد أكدنا في الباب السابق على أن الحياة الروحية تنقسم إلى ثلاث درجات: التطهير، والإستنارة، والإتحاد بالله. إننا نجد هذا التقسيم في العديد من كتابات الآباء وإن كانوا يعطونها أسماءً مختلفة. وعلى سبيل المثال يكتب القديس نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً أنه توجد ثلاث مراحل للتقدم نحو الكمال: المرحلة الأولية المُطهِّرة، والمرحلة المتوسطة المنيرة، والمرحلة الأخيرة المعطية للكمال السري. وإذ يتقدم المسيحي خلال هذه المراحل فإنه ينمو في المسيح. أما عمل التطهير فيهدف إلى إخضاع الجسد وتجنُّب أية خطية تثير الهوى، وهو يؤدي إلى التوبة والدموع وما إلى ذلك. أما مرحلة الإستنارة فهي ترى بداية اللاهَوى الذي يتميز بالبصيرة أي "تأمل العناصر الباطنية للخليقة" و"شركة مع الروح القدس". ومهمتها هي " تطهير العقل... وفتح عينيّ القلب... وإستعلان أسرار ملكوت

24 . Or. 2, 97-99. NPNF ns, vol. 7, p.224.
25 . Chrysostom. On the Priesthood ch. 4, 1, p. 108
26 . Homily 2 on 2Tim. NPNF vol. 13, p. 481, 3

السموات". أما "المرحلة المعطية للكمال السري" فهي تجعل الإنسان قادراً على "البحث عن أسرار الله الخفية" وتملأه " بألفة الروح القدس" وتريه كيف يكون "لاهوتياً حكيماً في وسط الكنيسة العظيمة" وما إلى ذلك[٢٧].

وهكذا فإن الشخص الذي يعيش في الكنيسة والذي تساعده النعمة الإلهية يطهر الجزء الحسي من نفسه، وبالتالي يستنير عقله ويرتقي إلى المعرفة السرِّية للاهوت، وحالة الإتحاد بالله المباركة.

ويعبِّر عن هذه الدرجات الثلاث في علم لاهوت القديس مكسيموس المعترف كفلسفة عملية (تطهير سلبي وإيجابي) وتيئوريا طبيعية (إستنارة للعقل) وعلم لاهوت سري (إتحاد بالله). وإذ ابتعد آباء الكنيسة عن كل الخليقة، ارتقوا إلى رؤية الله وحيث تصل هذه الرؤية لأعلى درجاتها في "علم اللاهوت" أو"علم الأسرار اللاهوتية" أو "علم اللاهوت السري"، الذي يسمى أيضاً "المعرفة الروحية التى لايمكن نسيانها"[٢٨]. وبالتالي يكون الآباء العائشون في التيئوريا هم اللاهوتيون الحقيقيون أو هم علم اللاهوت الحقيقي ذاته، طالما أن معرفة اللاهوت تملأ كل كيانهم.

ويرى القديس مكسيموس أن موسى النبي كان لاهوتياً، لأنه أقام خيمته خارج المعسكر "أي أنه عندما ثبت إرادته وعقله خارج عالم الأشياء المرئية بدأ في عبادة الله". والتلاميذ الثلاثة الذين أختيروا للصعود على جبل طابور أثبتوا أنهم لاهوتيون عندما وُهبوا أن يروا نور الألوهية كالشمس. وكان بولس الرسول أيضاً الذي إختُطف للسماء الثالثة لاهوتياً. ويشرح القديس مكسيموس أن السموات الثلاثة تتمشى مع درجات صعود الإنسان السرية وهي الفلسفة العملية، والتيئوريا الطبيعية، واللاهوت السري[٢٩].

لقد قدمنا هذا التعليم الآبائي لكي نمضي في إيجاد الصلة بينه وبين الموضوع الذي يعنينا في هذا الباب. يربط القديس مكسيموس الدرجات الثلاثة للحياة الروحية بدرجات الكهنوت الثلاثة. ويكتب قائلاً: "إن الذي يكرس عقله للجهاد الروحي ويطرد كل الأفكار الشهوانية خارجه يقتنى صفة الشموسية، والذي ينير عقله بمعرفة الكائنات المخلوقة ويحطم المعرفة الخاطئة لفظياً يقتنى صفة الكاهن؛ والذي يجعل عقله كاملاً بالدهن المقدس الذي لمعرفة وعبادة الثالوث القدوس يقتنى صفة الأسقفية"[٣٠].

---

27 . Gnostic chapters, ch. 41-44. Gk. Philok. 3, p. 335-337
28 . Rantosavlievits: Th e mystery of salvation according to Maximus the . Confessor, p. 165. In Gk
29 . Ibid. p. 171-172. cf. Philok. 2, p. 133, 84
30 . Philok. 2, p. 68, 21

إنني أود الآن أن أقارن بين ما قرأناه تواً وبين تفسير آخر للقديس نيقوديموس من الجبل المقدس، حيث أنه أمر رئيسي بالنسبة للممارسة الكنسية أن يقوم قديس بتفسير أقوال قديس آخر، وهكذا تجد الكنيسة من خلال قديسيها تعبيراً عن خبرتها المشتركة. يكتب القديس نيقوديموس قائلاً: "يرى القديس مكسيموس الملهم من الله أن مهمة الشماس أن يطهر الآخرين من أهوائهم وأفكارهم الشريرة من خلال الجهود الأخلاقي. وأن مهمة الكاهن أن ينير الآخرين من خلال التيئوريا الطبيعية للمبادئ الأولية التي للأشياء. وأخيراً فإن مهمة الأسقف هي إعطاء الكمال للآخرين في نور المبادئ الأولية التي لعلم اللاهوت... على الأسقف إذاً لا أن يكون مجرد فيلسوفاً أخلاقياً وطبيعياً أو متأملاً، ولكن يجب عليه أيضاً أن يكون لاهوتياً طالما أن هذه المهام تخص الشماس والكاهن"[٣١].

يجب علينا أن نشير إلى أن ربط درجات الكهنوت الثلاث بدرجات الحياة الروحية الثلاث مذكور في كتابات القديس ديونيسيوس الأريوباغي التي تحتوي على تقليد الكنيسة. وطالما أن هذه الكتابات تمثل مقياس الكنيسة في القرون الأولى فإنه يبدو واضحاً أن الدرجات الثلاث للحياة الروحية تتمشى مع درجات الكهنوت الثلاث ولذلك تعين عليّ أن أختار هذا الموضوع لكي أظهِر هذا الإرتباط.

يصف القديس ديونيسيوس الأريوباغي في كتابه "الرتب الكنسية" الدرجات الثلاث للحياة الروحية التي هي التطهير، والإستنارة، والكمال. والكمال يعادل الإتحاد بالله: "درجة الأسقفية هي التي تمتلك سلطان رسامة الكهنة. ومهمة الأسقف ليست فقط هي الرسامة ولكن التكميل. ودرجة الكهنوت هي منيرة وجالبة للنور على حين أن مهمة الشمامسة هي التطهير وتمييز غير الكاملين"[٣٢]. إن عمل الإكليروس هو الليتورجية والتقديس والتكميل طالما أن الحياة الروحية للإنسان تنمو من خلال الأسرار. وبتعبير آخر فإن طقوس الكنيسة المقدسة ليست شكليات، ولكنها تطهِّر وتنير وترفع الإنسان لحالة من الكمال.

يرتبط إذاً عمل الشمامسة والكهنة والأساقفة بالنمو الروحي للمسيحيين. وبحسب طقس المعمودية كما يقدمه القديس ديونيسيوس (ونحن نعتقد أنه يعكس إستعماله في القرون الأولى للكنيسة) فإنه عندما يأتي شخص طالباً المعمودية فإن الشمامسة يخلعون عنه ثيابه وهذا يُظهر دورهم في الكنيسة كمطهرين. وأما الكهنة فيمسحون كل جسد المرشح للمعمودية بالزيت وهذا يُظهر دورهم في الكنيسة كمانحي إستنارة. بينما يقوم

---

[31] . Handbook of Coucil (in Greek) p. 154, note 1

[32]. Ecclesiastical Hierarchy, ch. 5, parts 6-7. CWS p. 237

الأساقفة بتكميل المتقدِّم إلى الكمال من خلال تعميده وهذا يظهر دورهم كمانحي الكمال[33]. إن درجة الأساقفة "تؤدي كل رسامة كهنوتية، وهي تعلِّم الآخرين بوضوح أن يفهموا الأمور المقدسة ومعالمها المتناسبة وقواها المقدسة". وأما رتبة الكهنة "فتقود المبتدئين إلى الرؤى الروحية التي للأسرار" ولكنها ترسل للأسقف "أولئك الذين يشتاقون لفهم كامل للطقوس الإلهية التي يتأملون فيها". وهكذا فإن الكاهن يعطي إستنارة للمسيحيين تحت سلطان الأسقف ولكنه يرسل له أولئك الذين يبتغون الكمال طالما أن درجة الأسقفية الإلهية هي أول من ينظر الله. وأما الشمامسة فقبل أن يقودوا المرشحين للمعمودية إلى الكاهن" فإنهم يطهرون كل من يقترب بإبعاده بعيداً عن أي مداعبة مع ما هو شرير وهذا يجعله متفتحاً للرؤية الطقسية وللشركة"[34].

يرى القديس ديونيسيوس أنه أمر هام أن لا يعتني الأساقفة فقط بمهمة التكميل ولكن أن يعطوا الإستنارة والتطهير أيضاً. وبالمثل فإن الكهنة يمتلكون الفهم لكي يعطوا كلاً من الإستنارة والتطهير، على حين أن الشمامسة يعرفون فقط كيف يطهِّرون. "لا يجب على الدرجات الأقل أن تتعدى على وظائف رؤسائها"[35]. وهكذا فإن واجبات كل رتبة من رتب الكنيسة منظمة بطريقة محددة في أن كل رتبة تقتني علمها الخاص ومعرفتها بالحياة الروحية. إنني أعتقد أنه يجب علينا أن نضع هنا النص المتميز الذي يلخص فيه ديونيسيوس هذا التعليم عن عمل الرتب الثلاثة بجملته: "تنقسم رتبة الكهنوت المقدسة بالطريقة التالية: يتكون سلطانهم الأول من تطهير المبتدئين بواسطة الأسرار. وسلطانهم الثانى هو الذى يجلب الإستنارة لأولئك الذين تطهروا. وأخيراً فهم يمتلكون أروع سلطان وهو الذى يحتضن كل من يشترك في نور الله، إنه السلطان على تكميل هؤلاء بالفهم الكامل الذي عندهم، أكثر من الفهم الذى كان عندهم حينما تعمدوا"[36].

وإذ ندرس تعاليم القديس ديونيسيوس، فإننا نصل لأن نرى أن كل رتبة من رتب الكهنوت الثلاثة تقابل مرحلة من الحياة الروحية. وطالما أن مهمة الشماس هي تطهير الآخرين من الأهواء، فيجب عليه هو نفسه أن يكون قبل رسامته قد وصل لمرحلة من التطهير بحيث يكون هو نفسه نموذجاً حياً لهذه الحكمة العملية. وحيث أن مهمة الكاهن بحسب تعاليم الآباء هي إنارة الآخرين فإنه يُفترض أن يكون عند رسامته ذا ذهن مستنير

---

[33] . Ibid. ch. 2. CWS p. 202-203
[34] .Ibid. ch. 5. CWS p. 236-237
[35]. Ibid. p. 238
[36]. Ibid. p. 235

الذي كما رأينا من قبل هو درجة من درجات التيئوريا. يجب على الكاهن إذاً أن يتذكر الله في الصلاة بلا إنقطاع، ويجب عليه أن يعرف العمل الروحي، وأن يكون متمكنًا من الكتاب المقدس، وأن يكون قادراً على التبصُّر في المبادئ الباطنية لكل المخلوقات. وأما بالنسبة للأسقف فلأن مهمته الرئيسية هي تكميل الناس بأعماق علم اللاهوت، فيجب عليه أن يختبر علم اللاهوت السري، وأن يعيش في شركة مع الله، بحيث تجعله هذه العلاقة الوثيقة مع الله نبياً وخبيراً إلهياً قادراً على أن ينقل بطريقة باطنية كلمة الحق لشعب الله.

يشير طقس رسامة الشمامسة والكهنة والأساقفة بنفس الدرجة إلى الحالة الروحية التي يفترض أنهم وصلوا إليها لكي يؤدوا هذه المهمة الرئيسية. لأنه كيف يحصل الشعب على معونة لو كان المُعينون لا يمتلكون خبرة شخصية بالمهمة التي يجب عليهم أن يقوموا بها؟[37].

ينطبق ذلك بالأكثر على الأسقف الذي هو أداة للنعمة بلا منافس "ويجب عليه في كل عمل يخص الرسامات الكهنوتية الأسقفية أن يكون ملهماً من الله ذاته بصورة مباشرة"[38]. لم يعطي موسى "تكريساً كهنوتياً" لهارون أخيه إلا عندما أمره الله أن يفعل ذلك. لقد كان خاضعاً لله كمانح رئيسي للرسامة الكهنوتية ولم يكن سوى مُنفِّذٍ للتكريس الإلهي بواسطة طقس كهنوتي[39].

وهكذا يرى القديس ديونيسيوس، الذي يعبِّر عن تقليد الكنيسة، أن الأسقف هو المعلِّم الأسمى للحياة الروحية. إنه الذي يرى الله وله خبرة شخصية بالإتحاد بالله. "وبالتالي فإن الأسقف في رتبتة الإلهية هو أول الذين يعاينون الله. وعلى الرغم من كون هذه الرتبة الأولى إلا أنها الأخيرة أيضاً"[40]. الأسقف هو ثمرة الإتحاد بالله. وإذ قد إتحد هو ذاته بالله، فهو بواسطة النعمة يساعد أخاه المسيحي طوال رحلته نحو الإتحاد بالله. "إن كينونة ورتبة الكهنوت الكنسي تكمل فيه، ثم تنتقل بعد ذلك لأولئك الذين تحته بحسب إستحقاقهم، على حين أن الإتحاد المقدس بالله يحدث فيه، من الله مباشرة"[41]. "عندما نتحدث عن الأسقف فإننا نعني رجلاً مقدساً وملهماً وشخصاً يفهم كل المعرفة المقدسة وشخصاً يكمل فيه ويُعرف كل الكهنوت"[42]. ينال الأسقف القدرة الراسخة على أن يشكل نفسه تماماً

---

37. Ibid. p. 239-243
38. Ibid. p. 241
39. Ibid.
40 . Ibid. p. 236
41. Ibid. ch. 1. CWS p. 196
42. Ibid. p. 197-198

بحسب صورة ما هو إلهي وذلك بكل محاولة دؤوبة للوصول للواحد(الله) بواسطة الإماتة التامة والتخلص من كل ما يضاد الإتحاد الإلهي"[43]. وهكذا فإن الأسقف كثمرة للتطهير والإستنارة هو الشخص الملهم من الله الذي وصل للكمال وهكذا يقاد من الله بصورة شخصية. إنه"الناطق بلسان الحق"، وهو الذي يجلس وهو"في صورة ومكان المسيح".

إننا لا نستطيع أن نقاوم الرجوع إلى نص متميز للقديس ديونيسيوس يقول فيه أن الأشعة الإلهية تُمنح لأولئك الأكثر شبهاً بالله والأنسب لنشر النور والإشتراك فيه. إن مهمة أولئك الذين يرون الله هي أن يعلنوا للكهنة " بحسب طاقتهم" الرؤى الإلهية التي رأوها. وبالمثل فإن مهمتهم هي أن" يعلنوا كل ما يخص رتبتهم الكهنوتية طالما أنهم أخذوا قوة لكي يعطوا هذا التعليم"[44]. وهذا يعني أنه بعد تحقيق الكمال الشخصي فقط يستطيع المرء أن يرتفع لوضع أعلى؛ وهذا الوضع الأعلى يشغله الشخص الملهم من الله والذي يعرف الله من خلال الخبرة.

لقد كانت هذه هي المؤهلات الحقيقية للمسيحيين لكي يدخلوا الكهنوت. إذ كان يجب عليهم أولاً أن يعبروا خلال هذه المراحل الثلاث لكي يحصلوا على شهادة وتأكيد أنهم شُفوا وأصبحوا قادرين على شفاء شعب الله. هذه الأمور تُظهر بدقة أن **الأسقف والكاهن والشماس ليسوا مجرد أشخاص مرسومين لكي يتمموا الأسرار ولكنهم أطباء روحيين يساعدون الناس على التطهر والتقدس وعلى التقدم نحو الشركة مع الله**. لقد كتب القديس سمعان اللاهوتي الجديد قائلاً أن المرء يستطيع أن يمضي في إقامة الليتورجية عندما يقيمها " بضمير يخص قلب طاهر لمجد الثالوث الطاهر والقدوس والنقي"، عندما يكون قد رأى المسيح، ويكون قد نال الروح القدس، ويكون "قد أتى للآب بواسطة هذين الإثنين"[45].

الدخول في الكهنوت هو إذاً دعوة واضحة من الله. وهذه الدعوة ليست مجرد إحساس غامض بالدعوة من الله لخدمة شعبه ولكنها الثقة في القدرة على رعاية الناس من خلال تحول المرء ذاته، **ليكون قادراً على رعاية الناس، التى هي بصورة رئيسية شفاء الناس**. وبالتالي فبدون الشفاء، لا يستطيع شخص ما أن يصل لله ولا يستطيع أن يرى الله. وبالتالي لا يمكن لهذه الرؤية أن تتحول لنور ينيره، بدلاً من أن تتحول لنار تحرقه. يشير القديس ثيوغنسطس إلى "نعمة الكهنوت العلوية"[46] قائلاً أنه لو أن شخصاً ما لم يشعر

---

[43]. Ibid. ch. 2. CWS p. 207
[44]. Ibid. ch. 5. CWS p. 236
[45]. Hymn 19. SC 174, 98-100
[46]. St. Theognostos. Philok. 2, p. 370, 51

بهذه الدعوة من فوق، بمعنى أنه لو لم يكن قد شُفي، فعندئذ "يكون الحمل ثقيلاً فعلاً لأن الذي يحمله يكون غير جدير به، ويتجاوز هذا الحِمْل قدرته"[47].

يتكلم الناس عادة عن التقليد الرسولي والتسلسل الرسولي، الذي هو بوضع الأيدي. ولا يوجد في الواقع من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة. ولكن توجد في نفس الوقت حقيقة أكيدة وهي أن التسلسل الرسولي لم يكن مجرد سلسلة من وضع الأيادي، ولكنه كان تقليداً لكل حياة الكنيسة. لم يقم الرسل ثم الآباء بمجرد نقل نعمة الكهنوت فحسب، ولكنهم نقلوا المسيح وكل حياة المسيح. إنهم توالدوا. من أجل ذلك حمل الأسقف ويحمل نعمة الحق. يعطي الأستاذ يوحنا رومانيدس ملحوظة قائلاً: "لم يكن أساس التقليد والتسلسل الرسولي هو وضع الأيادي هذا، ولكن ما صاحب ذلك من جيل إلى جيل وهو إنتقال تقليد الشفاء والإستنارة والإتحاد بالله. لقد كان تنظيم المجمع الإيبارشي والمجمع الإقليمي يتم لكي يتوحد المعالجون الحقيقيون، ولكي يعزلوا عن الإكليروس الأنبياء الكذبة الذين كانوا يدَّعون امتلاك مواهب الروح القدس، ولكي يحموا القطيع من الهراطقة. وكان إختيار وفحص المرشح هو الجزء الأكثر أهمية للرسامة"[48].

لقد كان هذا أساس الكنيسة. وكان المبدأ الرئيسي عند إختيار أسقف أن يكون بالأخص مختاراً من بين الرهبان **لأن الرهبنة هي بمثابة كلية الطب التي يأتي منها الأطباء المهرة القادرون على شفاء أمراض الناس.**

يكتب كاليستوس وير أسقف ديوكلية قائلاً: "إستطاع أحد الأديرة العشرين الرئيسية (ربما يقصد الدير الكبير Great Lavra في الجبل المقدس آثوس) أن ينجب وحده ستة وعشرين بطريركاً ومئة وأربعة وأربعين أسقفاً. وهذا يعطي فكرة عن أهمية جبل آثوس للكنيسة الأرثوذكسية"[49].

يكتب القديس نيقوديموس الذي من الجبل المقدس شارحاً هذا التقليد المقدس الذي للكنيسة في مقدمة كتابه "دليل المجمع" قائلاً: "ما أسعد الأوقات التي كان يسود فيها التقليد المقدس لإختيار من سيرتقى الكرسي الرسولي ومن سيؤتمن على رعاية النفوس من بين أكثر رتب الرهبان تواضعاً (بإستثناء بعض أعضاء الكنيسة المسمِّين بالعلمانيين الذين إختيروا بسبب فضيلتهم الفائقة). يعكس محضر جلسات مجمع القديسة صوفية

47. Ibid. p. 371 52
48. Romanides: RR vol. 1, p. 28-29. In Gk
49. "Orthodox Witness" Sept. – Dec. 1985. p. 12. In Gk

مثل هذا التقليد إذ أن ممثلي الكنيسة في قيصرية وخلقيدونية أخبروا وكيل البابا يوحنا قائلين: "لو لم يخرج من الشرق راهب فلن يكون هناك لا أسقف ولا بطريرك"[٥٠].

ولكن يجب علينا أن نؤكد على أنه في كل تاريخ الكنيسة لم تكن الأمور "وردية" إلى هذه الدرجة. لقد كانت هناك مواقف فقدت فيها هذه الحقيقة وكان الناس في ظلام الجهل. لم يكونوا يعلمون بوجود مثل هذا الشيء المسمى الشفاء الروحي ولا كيف كان يحدث هذا الشفاء لأنه لم يكن هناك رجال لكي يُعَلِّموا طريقة الشفاء. وكان إيسيذوروس الفارمي مبكراً جداً في القرن الرابع يشير إلى كيفية إختلاف الرعاة الأوائل عن رعاة ذلك الوقت. لقد قال أنه في ذلك الوقت كان الرعاة يموتون لأجل الرعية؛ على حين أنهم اليوم يذبحون الرعية. وإسترسل في ذلك وكتب قائلاً: "كان محبو الفضيلة فيما مضى يدخلون الكهنوت؛ ولكن محبو المال هم الذين يفعلون ذلك الآن. لقد كانوا قديماً يفرُّون من الوظيفة بسبب عظمها؛ ولكنهم الآن يجرون وراءها بكل سرور. كانوا يفتخرون بفقرهم الإختياري ولكنهم الآن يخزنون المال بفرح وطمع ؛ كانت عدالة الله أمام أعينهم، ولكنها الآن شيء عديم القيمة. كان الكهنة فيما مضى موضوعين للضربات؛ ولكنهم الآن يتسببون فيها. هل أحتاج للإستمرار في الحديث؟ يبدو أن رتبة الكهنوت تحولت إلى طغيان: إذ تحول الإتضاع إلى كبرياء، والصوم إلى ترف، والتدبير إلى إستبداد؛ لأنهم ليسوا أكفاء للإدارة كمدبرين، ولكنهم يختلسون لكونهم مستبدين"[٥١].

يكتب الأستاذ جون رومانيدس الذي إهتم بالأخص بهذا الموضوع عن فقدان التقليد الأرثوذكسي قائلاً: "على أية حال ومع مرور الوقت لم يكونوا يستطيعون أن يجدوا في أي مكان وعلى الدوام أشخاصاً متحدين بالله أو حتى مستنيرين لكي يُرسموا أساقفة وكهنة. وحتى لو وُجِد هؤلاء الرجال لم يكن الناخبون يريدونهم.

كانوا يفضلون في مرات كثيرة الرجال الذين ليسوا إلا ذوي خلق وصالحين دون أن يمتلكوا التعليم التقليدي العلاجي عن الإستنارة والإتحاد بالله. لقد كان الأساقفة في عصر سابق يختارون من عامة الشعب، دون أن يكونوا يقتنون الروح القدس الذي يصلي في قلوبهم بغير إنقطاع. هذه هي الطريقة التي يشرح بها القديس سمعان اللاهوتي الجديد الأمور. "حرض القديس سمعان على التمرد ضد الوضع الذي وصفه، ونتيجة لذلك تم إستعادة رسالة الكنيسة العلاجية وإستعادة وضعها الرئيسي في الأرثوذكسية، وتولى الآباء

---

50. Handbook of Council (in Gk) p. 15
51. Ibid. p. 112-113 note 1

محبو السكون رتب الكنيسة ثانية، كما توقع القديس ديونيسيوس الأريوباغي. لقد إنتعشت الكنيسة والأمة تحت قيادة الآباء محبي السكون بعد إنحلال الإمبراطورية **لأن التدريب العلاجي الآبائي الذي وصفناه أعطى الكنيسة القوة لكي تزهر في الأوقات العصيبة لحكم العرب والفرنجة والأتراك.**

"وهذا يعني أن المعلمين كأشخاص متحدين بالله وكمعالجين كانوا مثل فريق من أطباء مستشفى إختير أحدهم كرئيس دون أن يؤدي ذلك إلى عدم مساواة. لقد حدث نفس الشيء بين الرسل. كان لبطرس المقام الأول على الرغم من أن يعقوب كأسقف للكنيسة المحلية هو الذي رأس إجتماع الرسل في أورشليم.

"عندما بدأت الإبروشيات في التكاثر ولم يكن يوجد معلمون بحسب مفهوم بولس الرسول، كان على الكنيسة أن تحل إشكالية إن كان صحيحاً أن يُرسم أساقفة من الرجال الذين لم يكونوا قد إتحدوا بالله ولكنهم كانوا قد إستناروا فقط. وفي مواجهة هذا المأزق إختارت الكنيسة أن ترسم كهنة لكي يرأسوا الإجتماعات الرعوية فى الكنائس. وهكذا إكتسب الأساقفة بالتدريج مسئولية الإشراف على الكهنة الذين يرأسون الكنائس. يشبه ذلك أطباء في مستوصف طبي يجعلون زوار المستوصف في مركز الرئاسة. ولأن المجمع لم يجد عدداً كافياً من الأطباء لكي يشرفوا على كل المستوصفات الطبية عُيِّن الزوار ككهنة. ودعوة الشخص الزائر ليصير طبيباً هي بمثابة دعوة الشخص الذي لم يتحد بالله ليصير أسقفاً، وهذا أمر غير واقعي ويؤدي إلى إنحلال العمل العلاجي الذي للكنيسة.

"وعلى أية حال فإنه مع مرور الوقت ظهر أساقفة وكهنة لم يصل أي واحد فيهم ولا حتى لمرحلة الإستنارة. لقد كانت تلك الحالة هي التي أثارت الثورة التي دعا إليها القديس سمعان اللاهوتي الجديد وأدت إلى تولى السكونيين مسئولية رتب الكهنوت ولكن هذا لم يتحقق كلية حتى زمن القديس غريغوريوس بالاماس.

"لقد كان العلاج الرسولي مصوناً في حقبة ما بعد الرسل وحتى ظهور الفرنجة والإمبراطورية والأرثوذكسية اليونانية الحديثة Neo-Hellenic، من خلال التركيز على هذا التقليد الرسولى فى الرهبنة. بمعنى أن التدريب العلاجي على الإستنارة والإتحاد بالله إنتقل من إبروشية العالم التي أصبحت ضعيفة، إلى إبروشية الرهبنة. وفي نفس الوقت تحولت مقار المطرانيات والإبروشيات إلى أديرة. وهذا هو السبب الذي من أجله سُميت كنيسة القديسة صوفية الدير الكبير حتى في تقليد العامة. لقد أصبحت الرهبنة نوعاً من

المدرسة الطبية حيث درس المرشحون للأسقفية طرق العلاج الرسولية. وبالإضافة إلى ذلك كانت مهمة كل إبروشية في المدن أن تقتدى بالإبروشية الرهبانية على قدر إستطاعتها، لأن الإستنارة والإتحاد بالله لا يمكن الإستغناء عنهما لشفاء كل الناس طالما أن للجميع عقولاً مظلمة.

ولا يوجد فرق عقائدي بين الإبروشيات في المدينة وبين الإبروشيات الرهبانية من جهة الأسرار المقدمة والحاجة للشفاء، بل يكمن الفرق في كمية ونوعية النجاح في الشفاء"[٥٢].

٢- إعادة إضرام عطية الروح

لقد أظهرنا أن الكهنوت هو عطية عظيمة معطاة لأولئك الذين تعافَوْا من الأهواء، ووُضعوا في وضع الأطباء لكي يشفوا أهواء الشعب.

وكما أن الطبيب يحتاج لتجديد مستمر وإلا لن يستطيع أن يشفي أمراض الناس بطرق جديدة؛ هكذا ينطبق نفس الشيء إلى حد ما على حالة الكهنة. فالأمر يتطلب جهاداً عظيماً للحفاظ على موهبة الكهنوت هذه في كل الأوقات. يحمل الكاهن في داخله كهنوت المسيح ويجب عليه أن يحافظ عليه غير مدنَّس وهذا له معنى عميق.

يوجد كهنة لم يُعزلوا وبالتالي يستطيعون أن يقيموا القداس ويمارسوا الأسرار بنعمة الله. وحقاً إن كهنوتهم غير ممنوع ظاهرياً لأنهم لم يُدانوا من قبل الكنيسة؛ إلا أنه عديم القوة لأنهم دنسوه بحياتهم. إنهم يستطيعون تقديس القرابين ولكنهم لا يستطيعون هم أنفسهم أن يتقدَّسوا بها كما يقول نيكولاس كاباسيلاس.

أين يظهر هذا الضعف الروحي؟ إنه يظهر بصورة رئيسية في حقيقة أنهم لا يستطيعون المعالجة ولا يعرفون كيف يعالجون. إن إقامة الأسرار هي عمل نعمة الله المعطاة في سر الكهنوت. ولكن شفاء أمراض الناس هو عمل نعمة الله المعطاة للشخص الذي يجعل عطية المعمودية فعَّالة، والذي يستعمل العطية الملوكية التي للنعمة. **وهذا يفسر لماذا لا يعرف العديد من الكهنة كيف يعالجون أهواء الناس ولماذا يكونون غير قادرين على ذلك**. إنهم لايعرفون أية طريقة يطبقون، وليس لديهم أية فكرة عن ماهية القلب والعقل ولا كيف يمكن أن يُسبَى العقل ولا كيف يموت القلب. إنهم ينظرون بإستمرار لهذه

---

52. Romanides. RR, p. 29-31. In Gk

التعاليم على أنها تخص الرهبان وهكذا يصنفون تعاليم المسيح والآباء إلى تعاليم رهبانية وتعاليم علمانية. ولكن لا يوجد مثل هذا التمييز في تعاليم كنيستنا الأرثوذكسية.

إننا نود فيما يلي أن نوضح تعليم الكنيسة من خلال الرسل والآباء عن ضرورة أن يُنمّي الكاهن عطية الكهنوت لكي يعيد إشعال النعمة التي تلقاها في سر الكهنوت وإلا لن يستطيع شفاء أمراض الناس الروحية.

الصفات الرئيسية للكاهن المعالج

لقد نصح بولس الرسول تلميذه تيموثاوس قائلاً: "لا تهمل الموهبة التي فيك" (١تي٤ : ١٤) وهذه النصيحة مشابهة لنصيحته للمسيحيين: "فإذ نحن عاملون معه نطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً" (٢كو٦ : ١)، ومشابهة أيضاً لكلمات نفس الرسول: "ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة" (١كو١٥ : ١٠) وهو أيضاً يعلم تيموثاوس الرسول قائلاً: "فلهذا السبب أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يدي" (٢تي١ : ٦).

يتناول بولس الرسول هذا الموضوع كثيراً في رسائله. فيجب على الأسقف والإكليروس بوجه عام أن يخدموا الله والناس بطريقة لائقة ويحرسوا الميراث المقدس من خلال جهادهم للحفاظ على موهبة الكهنوت.

إننا نود أن نستشهد بالعديد من النصوص المميزة: "روض نفسك للتقوى" (١تي٤ : ٧)، "... تكون خادماً صالحاً ليسوع المسيح متربياً بكلام الإيمان والتعليم الحسن الذي تتبعته" (١تي٤ : ٦)، "كن قدوة للمؤمنين في الكلام في التصرف في المحبة في الروح في الإيمان في الطهارة" (١تي٤ : ١٢)، وهو يطلب من تيموثاوس أن يحفظ عمله "بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح" (١تي٦ : ١٤) كما يحثه على أن يحفظ التقليد: "إحفظ الوديعة الصالحة بالروح القدس الساكن فينا" (٢تي١ : ١٤). المحافظة على التقليد من خلال الروح القدس الساكن في تيموثاوس هي إذاً أمر واجب. وهو يحثه على أن يكون لديه يقظة وإنتباه وسهر لكي يحيا بحسب دعوة الله العظمى: "وأما أنت فاصْحُ في كل شيء إحتمل المشقات. إعمل عمل المبشر. تمم خدمتك" (٢تي٤ : ٥).

تتناول التعاليم الآبائية كل الصفات الرئيسية التي يجب أن يتحلى بها الكاهن لكي يصبح قادراً على أن يحيا بحسب مهمته العظيمة ودعوته العليا. وسوف نحاول فيما يلي أن

نختار من هذه التعاليم وخصوصاً من كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم والقديس ثيئوغنوسطس إذ تعبرِّ تعاليم هذين القديسين عن كل الكنيسة الأرثوذكسية.

يرى القديس ثيئوغنوسطس أنه يجب على الكاهن ليس فقط أن يكون ممتلئاً من التقاليد البشرية، ولكن يجب عليه أيضاً أن تكون نعمة الله مخفية باطنياً فيه: "فيما تمارس الأسرار تأكد من أنك لا تعتمد فقط على التقاليد البشرية، ولكن دَعْ نعمة الله تملأك داخلياً، وبصورة خفية، بمعرفة الأمور العليا"[٥٣]. "إن كرامة الكهنوت مثل ملابس الكهنوت ممتلئتان من المجد، ولكن يتحقق ذلك فقط عندما يكون الكاهن مستنيراً من الداخل بنقاوة النفس"[٥٤]. من أجل ذلك يجب على الكاهن أن يحافظ على هذه العطية الإلهية: "كما يحافظ على حدقة عينه" وأن يحافظ على كرامته غير مُلوَّثة[٥٥].

هذه الأمور توضح أن يقظة عظيمة مطلوبة من الكاهن، وهذا يتطلب معاناة كثيرة. يجب على الكاهن أولاً وقبل كل شيء أن يقيم القداس الإلهي من أجل نفسه "بيقظة ومثابرة"[٥٦].

يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على هذا الإنتباه المستمر لحفظ النعمة الكهنوتية. وهو يقول أنه يجب على الكاهن أن يكون وقوراً وذا بصيرة وأن يمتلك "آلاف الأعين التي تنظر في كل إتجاه"[٥٧]. يجب عليه أن يتشبه بالشاروبيم الممتلئين أعيناً لكي يعبد رب الجنود بطهارة. كما يجب عليه أن يكون محاطاً بأسوار من كل الإتجاهات وأن "يكون ذا غيرة شديدة وإعتدال في الحياة مستمر" لكي لا يصيبه أذى[٥٨]. ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم أنه تماماً كما تتطلب النار وقوداً "هكذا تتطلب النعمة نشاطنا، لكي تكون متَّقدة دائماً". هذه النعمة هي تحت سلطاننا لكي نطفئها أو نُضرمها. تنطفئ نعمة "رئاسة الكنيسة" بسبب " الكسل والتواني"، ولكنها تبقى مشتعلة "باليقظة والجهاد"[٥٩].

لا يمكن الإستغناء عن اليقظة حتى يحفظ المرء نفسه نقياً، ولكي تدوم بالتالي نعمة وبركة الكهنوت. ويقول القديس ثيئوغنوسطس أن الكهنوت "يتطلب منا طهارة ملائكية ودرجة من التمييز وضبط النفس أكبر من التي كانت في حياتنا السابقة"[٦٠]. ويرى القديس

53. Philok. 2. p. 362, 18
54. Ibid. 372, 56
55. Ibid. p. 370, 50
56. Ibid. p. 373, 60
57. On the Priesthood. III, 12, p. 82
58. Ibid. 14, p. 86
59. Hom. 1 on 2 Tim, 1. NPNF vol. 13, p. 477, 2
60. Philok. 2, p. 370, 49

يوحنا ذهبي الفم أنه يجب على الكاهن أن يكون نقياً كما لو كان واقفاً في السماء ذاتها في وسط القوات الملائكية[61] ويجب أن تكون نفس الكاهن أطهر من أشعة الشمس "حتى لا يتركه الروح القدس مهجوراً أبداً"[62].

التوبة هي صفة روحية أخرى لا غنى عنها للكاهن. فليصبح الكاهن أبيض أكثر من الثلج "بمجاري الدموع"، وبعد ذلك فلْيلمسْ القُدسات بقداسة "وبضمير نقي"[63].

يجب على طهارة الكاهن أن تسطع وتشعَّ على المسيحيين. كما يجب عليه أن يكون نقياً من الأهواء "وخصوصاً النجاسة والضغينة، وأن يحفظ ذهنه خالياً من الأهواء"[64]. يؤكد العديد من الآباء على أن هذين الهويين (النجاسة والضغينة) لا يجب أن يقتربا من الكاهن، وإلا فإن نعمة الله لن تعمل لشفاء أولاده الروحيين، ومن ثم يظل الكاهن مريضاً كما أوضحنا. يجب عليه أن يسلم "نفسه للموت عن الأهواء والشهوات الحسية"[65]. وبالإضافة إلى ذلك وبحسب الأنبا دوروثيئوس فإن "كل شيء يقدم كذبيحة لله سواء كان خروفاً أم بقرة أو ما شابه ذلك فهو ذبيحة"[66]،وبالتالي يكون على الكاهن أن يتقدَّس لله كلية.

وحيث أن الكاهن هو خادم الإنجيل يجب عليه وقبل كل شيء أن يطبق الإنجيل الذي يصف رحلة المسيحي المجاهد لكي يصل للإتحاد بالله. فلابد أن تكون الحياة النسكية للكنيسة التي نصفها في هذا الكتاب، أن تكون معروفة لرعاة الكنيسة. وعندما نقول "معروفة" فإننا لا نعني أنه يجب عليها أن تكون معروفة في الذهن من خلال محاضرات أو قراءات، ولكن من خلال خبرتهم الحية. **لأن ما يحدث داخل قلب الكاهن يساعد المسيحيين المؤمنين.** يقدم شخص ما دمه لآخر لكي ينقذه. إنها مشاركة مع الآخرين،وهي تملأ الناس.

على أية حال وبالإضافة إلى تطهيره وتوبته ووقاره ويقظته، فإنه يجب على الكاهن أن يكون ممتلئاً بكل نعم الروح القدس وكل الفضائل. والفضيلة الرئيسية هي الإتضاع المقدس الذي، بحسب القديس إسحق السرياني، هو "ثوب الألوهية" طالما أن الله لكي

61. On the Priesthood. III, 4, p. 70
62. Ibid. VI, 1, p. 137
63. Theognostos. Philok. 2, p. 362-3, 18
64. Ibid. p. 362, 17
65. Ibid. p. 361, 13
66. SC 92, p. 476, 175

يخلِّص الإنسان "وضع ذاته" كما يقول الرسول. وبالإضافة إلى ذلك فإن الإفخارستيا التي يقيمها الكاهن تُظهر لنا هذا الإتضاع الذي للمسيح.

إننا نستطيع من خلال الإفخارستيا أن ندخل في هذا الإتضاع المقدس وأن نكتسب طريقة الحياة الباذلة هذه. وبالتالي فإننا **عندما نحتفل بالليتورجية المقدسة فإننا لسنا نتطلع فقط إلى تحوُّل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح ولكننا نطلب أن نكتسب طريقة المسيح في الحياة، وهذا هو الإتضاع. إننا نطلب أن نلتحف بروح الإفخارستيا التي هي إخلاء الذات.**

ينصح القديس ثيئوغنوسطس في هذا المضمار قائلاً: "ضَعْ ذاتك مثل الخروف المهيَّأ للذبح، ناظراً إلى كل الناس على أنهم أفضل منك حقاً"[٦٧]. وفي الواقع يعظ نفس الأب قائلاً: "أنظر لنفسك على أنك تراب ورماد أو نفاية أو كمثل كلب"[٦٨]. يجب على الكاهن أن يؤدي خدمة الكهنوت "بخوف ورعدة"، وبهذه الطريقة يُفصِّل كلمة الحق باستقامة ويحقق خلاص نفسه[٦٩]. وعلى أية حال فإن آباء الكنيسة يدركون الحقيقة الواقعة فهم ليسوا غير واعين لوجود العديد من الكهنة الغير أكفاء، الذين يتجرأون على إقامة السر المقدس بدون أن يمتلكوا هذه الصفات الرئيسية. ويرى القديس يوحنا ذهبي الفم **أن الكهنوت لا يغطي على أهواء الكاهن بل يكشفها ويجعلها ظاهرة.** وكما تمتحن النار المعادن، "هكذا يفرق الكهنوت بين نفوس الناس. فلو كان هناك شخص حاد المزاج أو مغروراً أو متبجحاً أو أي شيء مما يشبه ذلك، فإن الكهنوت يعرِّي حالاً كل هذه النقائص ويكشفها. **وليس فقط أن الكهنوت يعرِّيها، ولكنه يجعلها أيضاً أكثر صلابة وصعبة المراس**"[٧٠].

ويقول القديس يوحنا الدرجي أنه رأى كهنة كبار السن "مخدوعين من الشياطين"[٧١].

لا يتردد الآباء في كشف عقوبة الكهنة الغير مستحقين؛ أولئك الذين يمارسون هذه الرتبة بدون إختبار حقيقي ولا إعداد ولا حياة. ذلك لأنهم بدلاً من أن يشفوا نفوس القطيع يتسببون في تجربتها.

يكتب القديس إيسيذوروس الفارمي قائلاً: "دعونا لا نستهين بالإلهيات"[٧٢].

---

67. Philok. 2, p. 376, 70
68. Ibid. p. 362, 16
69. Ibid. p. 371, 53
70. On the Priesthood VI, 8p. 147
71. Ladder. Step 14. CWS p. 166
72. Nicodemos of the Holy Mountain. Commentary on the Epistles. Vol. 3, p. 112, note 1. In Gk

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "قد تتسبب رتبة الكهنوت في إدانتنا بعدم التعامل معها بطريقة صحيحة"[٧٣].

يخاطب القديس ثيئوغنوسطس الكاهن الغير قابل للتغيير والذي يتمسك بالكهنوت المقدس قائلاً :"إنتظر الوقوع في يدي الله الحي وإختبار غضبه، فلن يعفيك الله لكونه حنوناً"[٧٤]. إنه يخبرنا أن : "العديد من الغير أكفاء إختطفوا بعيداً بموت مفاجئ وأرسلوا إلى الدينونة"[٧٥].

يوجد في ذهني مثالان لكهنة غير أكفاء إنتهوا بنهايات مختلفة: كان أحدهما يبدو مكرماً بين الناس من الظاهر وعلى الرغم من ذلك "كان من الداخل فاسقاً ومدنساً" وهكذا في وقت تسبحة الشاروبيم عندما كان يقول :"لأنه ليس أحد مستحقاً.... "مات فجأة"[٧٦].

وأما الآخر فكان قد سقط في هوى النجاسة وأصبح بالتالي مريضاً غير قابل للشفاء، وكان مشرفاً على الموت. وعندما تحقق من عدم إستحقاقه ونذر أن يكف عن إقامة الأسرار "شُفي في الحال بحيث لم يبقَ ولا حتى أثر واحد لمرضه"[٧٧].

لقد إستفضنا في هذا الموضوع على الرغم من أنه كان يبدو بعيداً عن موضوع دراستنا، لأننا أردنا أن نؤكد بالأخص على أن الكهنوت هو خدمة رعوية للشعب. يقتني الكاهن والأسقف هذا المجد العظيم الذي لخدمة الناس، التي هي أولاً وقبل كل شيء شفاء. **إن وجود الكنيسة يهدف لا إلى مجرد عمل إجتماعي وخدمة إحتياجات الناس الإجتماعية ولكنه يهدف إلى قيادتهم إلى الخلاص أي إلى شفاء نفوسهم.** يتطلب هذا العمل العديد من المواصفات. ويجب على الكاهن أن يكون مسكناً لنعمة الله. **فهو غير موجود هنا لمجرد أن يؤدي الأسرار، ولكنه أيضاً لكي يتقدس بواسطتها بحيث أنه إذ يتقدس يستطيع أن يقدس الناس بوجوده.** هذا العمل سامي جداً، ومن أجل ذلك يعلن القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: "إنني لا أعتقد أنه يوجد العديد من الكهنة الذين خلصوا، ولكن يوجد العديد من الكهنة الذين يهلكون وذلك لأن هذا الأمر يتطلب نفساً عظيمة"[٧٨].

---

73. On the Priesthood. III, 9 p. 78
74. Philok. 2 p. 371, 54
75. Ibid. p. 363, 21
76. Ibid. p. 363, 21
77. Ibid. p. 372,55
78. Hom. 3 on Acts. LF vol. 33 p. 48, 4

٣- الكهنوت الروحي

لقد قلنا من قبل أن للكاهن مهمة مزدوجة: الأولى هي إقامة الأسرار والثانية هي شفاء الناس بحيث يستطيعون أن يقتربوا من التناول المقدس بإستحقاق. وبالإضافة إلى ذلك أشرنا إلى أنه يوجد العديد من الكهنة الذين هم كهنة من الخارج ويؤدون عملهم بدون موانع ولكنهم دنسوا الكهنوت في الجوهر وأن هذا واضح من حقيقة كونهم غير قادرين على الشفاء. إنهم يؤدون الأسرار وتتقدس القرابين من خلالهم ولكنهم لا يستطيعون شفاء الآخرين أو تخليص نفوسهم هم ذواتهم.

ومن جهة أخرى **يوجد علمانيون ورهبان لا يقتنون الكهنوت الذي يمارس الأسرار، ولكنهم يستطيعون شفاء الناس لأنهم يقتنون كهنوتاً روحياً**. إننا نود أن نقف قليلاً عند هذه النقطة.

يلبس كل المسيحيين المسيح من خلال المعمودية، كما يقول القديس بولس، ومن خلال الجهاد لحفظ الوصايا. وعن هذا الطريق فإننا نشترك في الخدمة الكهنوتية العظيمة للمسيح وملوكيته ونبوَّته.

هذا التعليم مسجل في نصوص العهد الجديد. يكتب يوحنا الإنجيلي في سفر الرؤيا قائلاً:" ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه. له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين" (يو١: ٥-٦). ويقول بطرس الرسول: "وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب إقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١بط٢ : ٩). وكتب بولس الرسول إلى مسيحيي روما قائلاً: "فأطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية" (رو١٢:١).

إننا نجد أيضاً في العديد من كتابات الآباء هذا التعليم عن أن كل شخص هو كاهن للمسيح بالمعنى الذي عرفناه والذي سوف نتناوله بأكثر إستفاضة فيما يلي. يقدم القديس يوحنا ذهبي الفم إبراهيم ككاهن أيضاً لأنه "لماذا نشك في كهنوته بينما توجد نار ومذبح وسكين؟". لقد كانت ذبيحة إبراهيم مزدوجة فقد قدم كلاً من إبنه الوحيد والكبش "وفوق كل ذلك قدَّم مشيئته الخاصة". لقد قدَّس يده اليمنى بدم الكبش، وقدس نفسه بذبح إبنه (الذي كان قد قرر أن يفعله). "وهكذا رُسِم كاهناً بدم إبنه الوحيد وبذبيحة الحمل". وبعد ذلك على الفور يحث القديس يوحنا ذهبي الفم سامعيه قائلاً: "وهكذا جُعلْتَ أنت أيضاً

ملكاً وكاهناً ونبياً في جرن المعمودية: ملكاً إذ أنك تطرح أرضاً كل أفعال الشر وتذبح خطاياك، وكاهناً لأنك تقدم ذاتك قرباناً لله وتقدم جسدك ذبيحة، وأنت ذاتك تُذبحَ أيضاً"[79].

إن كل المؤمنين المعمدين بإسم الثالوث القدوس والذين يعيشون بحسب إرادة الله المثلث الأقانيم هم كهنة ولهم كهنوت روحي. إننا نفضل تعبير "كهنوت روحي" على التعبيرات الأخرى مثل كهنوت "عام" أو كهنوت "علماني" لأن كلاً من الإكليروس وعامة الشعب يستطيعون أن يقتنوا هذا الكهنوت، ولأن ليس كل المعمَّدين يقتنونه ولكن فقط أولئك الذين صاروا مسكناً للثالوث القدوس. **إن المؤمن الذي يؤدى صلاة عقلية يقتني كهنوتاً روحياً**، وخصوصاً أولئك الذين وصلوا لدرجة من النعمة بحيث يصلُّون من أجل العالم كله. هذه هي الخدمة الروحية لصالح العالم. **إن صلوات أولئك الذين يضحون بأنفسهم مُصلِّين من أجل الجميع، تسند العالم، وتشفي الناس، وهكذا تطرد الأرواح الشريرة وتُخرج الشياطين التي تسود في المجتمعات البشرية.** هذا هو العمل العظيم لأولئك الذين يصلُّون بغير إنقطاع من أجل العالم كله.

كتب القديس غريغوريوس السينائي عن هذا الكهنوت الروحي الذي هو أيضاً الدعامة الرئيسية لسر الكهنوت. لأنه كما قلنا من قبل، فإن أولئك المؤمنين الذين شُفُوا ولهم صلاة عقلية، هم مختارون لتلقِّي نعمة الكهنوت الخاصة أيضاً. ويرى القديس غريغوريوس أن الصلاة العقلية هي "الليتورجية السرية التي للذهن"[80]. يشعر الشخص الذي عنده موهبة الصلاة العقلية بعمل النعمة في داخله، التي هي مُطهِّرة وواهبة للإستنارة، وسرِّية.

إن كل الذين يبلغون هذه الحالة هم كهنة: "المذبح الحقيقي هو قلب تحرر من الأفكار الشريرة، ويتلقى عمل الروح القدس، لأن كل ما يقال ويعمل في هذا القلب هو روحاني"[81].

يدفعني هذا النص الذي للآباء القديسين إلى أن أقول أن الكهنوت الروحي هو ذاك الذي يكتمل في الدهر الآتي في ملكوت السموات. لا أود البقاء عند موضوع الكهنوت الذي لا يمحى والذي هو خارج الأسرار ولكنني أؤكد على حقيقة أن سر الكهنوت هو لصالح العامة لكي يخدم إحتياجاتهم، على حين أن الكهنوت الروحي هو ذاك الذي سوف

---

79. Hom. On 2 Cor. LF vol 27 50-51
80. Acrostics, 111. Writings from the Philokalia. P. 61
81. Ibid. p. 38, 7

يستمر في المذبح السماوي في الحياة الآتية. إن كل الذين يمتلكون كهنوتاً روحياً هم "إكليروس حقيقي" الآن وإلى الأبد.

من الممكن أن يشتمل هذا الكهنوت على كل فئات الرجال والنساء. من أجل ذلك هو أمر بلا قيمة كبيرة عدم قدرة النساء على تلقي سر الكهنوت في التقليد الأرثوذكسي، لأنهن يمتلكن إمكانية أن يَصِرْن "إكليروساً حقيقياً".

يوضح القديس غريغوريوس السينائي في موضع آخر قائلاً: "كما مُسِح ملوك وكهنة العهد القديم بصورة رمزية، هكذا يُمسح كلٍ الملوك والكهنة المخلصين في تجديد المعمودية بحق". لقد كان كهنة العهد القديم "رموزاً حقيقية ترمز لحقيقتنا" ولكن "ملكوتنا وكهنوتنا" ليسا "بنفس الطابع والشكل" [82].

عندما يُكتشف عقل إنسان ما ويتحرر من أَسْرِه، ويتلقى الروح القدس، فإن ذلك يكون "كهنوتاً روحياً". وبعد ذلك يقيم ليتورجية سرية في مذبح نفسه ويكون له شركة مع الحمل في عرس الله. إنه يأكل حمل الله في هذا الكهنوت الروحي في مذبح نفسه الروحي، ولكنه يصبح في نفس الوقت مثل الحَمَل. وهكذا نفهم جيداً أنه **عندما تعمل الصلاة العقلية فينا، تكون هناك ليتورجية إلهية غير منقطعة تغذي كل كياننا**. يكتب القديس غريغوريوس السينائي قائلاً: "إن عمل النفس العقلي هو ليتورجية روحية مثل العروس أمام الفرح الآتي الذي يفوق كل فهم. وهذه الليتورجية يؤديها العقل الذي يقدِّم ذبيحة سرية، وهي حمل الله على مذبح النفس ويشارك فيها. ويعني أكل حمل الله على مذبح النفس الداخلي ليس فقط أن يفهمه وأن يشارك فيه، ولكن أيضاً أن يصبح مشابهاً له في الحياة الآتية. إننا هنا نستمتع بكلمات الأسرار، ولكن هناك نترجّى أن نتلقى جوهرها الحقيقي" [83].

يكتب أيضاً نفس القديس قائلاً أن ملكوت السموات يشبه خيمة إجتماع مصممة من قِبَل الله لأجل موسى "لأنها سيكون لها أيضاً حجابان في الدهر الآتي". وكل "كهنة النعمة" سوف يدخلون الخيمة الأولى ولكن لن يدخل الخيمة الثانية إلا أولئك الذين يقيمون القداس من الآن فصاعداً "في غياهب اللاهوت بالتدرج في الكمال" حيث يكون يسوع هو الكاهن والأسقف الأول أمام الثالوث [84].

---

82. Ibid. p. 72, 133
83. Ibid. p. 60-61, 112
84 : Acrostics, 43

وهكذا فإن كل الذين إكتسبوا نعمة اللاهوت، كما شرحنا من قبل، أي كل الذين دخلوا في الظلام الإلهي بعد التيئوريا الطبيعية هم أنفسهم كهنة لله ويشكلون هذا الكهنوت الحقيقي والروحي. وحيث أنهم كهنوت روحي فهم يستطيعون أن يشفوا المريض.

يعلم نيسيتاس ستيثاتوس أنه لو أن أي كاهن أو شماس أو حتى راهب يشترك في النعمة الإلهية بكل الإفتراضات المُسبقة الموضوعة من قِبَل الآباء "فإنه يكون أسقفاً حقيقياً" حتى لو لم يكن قد سيم أسقفاً من قِبَل الناس. وعلى العكس من ذلك فإن أياً من يكون خاملاً في الحياة الروحية "فإنه يسمى أسقفاً بالخطأ حتى لو كان بالرسامة قد وُضِع في مرتبة أعلى من الآخرين ويسخر منهم ويتصرف بكبرياء"[85].

ربما يكون ما إقتبسناه بأعلى عن أن "كل ما يشكل الكهنوت الروحي يستطيع أن يشفي المريض" لم يُقْبَل جيداً. على أية حال فإن تعليم القديس سمعان اللاهوتي الجديد بخصوص هذه النقطة هو واضح جداً.

يكتب القديس عن أن سلطان الحل والربط يخص فقط الأساقفة الذين تلقوه بالتسليم من الرسل. ولكن "عندما صار الأساقفة عديمي الفائدة إنتقلت هذه الوظيفة المرعبة للكهنة الذين عاشوا حياة بلا لوم جديرة بنعمة الله". وعندما سقط الكهنة أيضاً مثلهم مثل الأساقفة في الخطأ الروحي "إنتقلت هذه المهمة لرجال الله المختارين أي الرهبان (أي تم إختيار الأساقفة من الرهبان حيث كانوا يختارون في عصر سابق من عامة الشعب) وليس أنها نزعت من الكهنة والأساقفة ولكنهم غَرَّبوا أنفسهم عنها"[86].

يرى القديس سمعان أن سلطان الحل والربط لم يُعطَ لهم "لمجرد أنهم قد رُسِموا". إن وضع الأيدي لم يُعطَى للمطارنة والأساقفة إلا للسماح بإقامة الإفخارستيا، وأما سلطان مغفرة الخطايا فقد "أُعطي فقط للكهنة والأساقفة الذين كانوا قد حُسبوا بين تلاميذ المسيح بسبب طهارتهم"[87].

إننا نعتقد أن القديس سمعان نادى بهذا التعليم هادفاً أولاً إلى التأكيد على أن سر الكهنوت لم ينقل بطريقة سحرية سلطان مغفرة الخطايا حتى لو كان الرجل لا يقتني كهنوتاً روحياً داخلياً، وثانياً لكي يُظهِر حالة الإكليروس البائسة في ذلك الحين، وثالثاً لكي

85. Mantzarides. Palamika. P. 279-280. In Gk
86. Krivocheine: In the Light of Christ. P. 134f
87. Ibid. p. 136

يؤكد على قيمة الكهنوت الروحي الذي يكمن في الصلاة العقلية ورؤية الله. وهذه مع الأسف قد أُهملت في ذلك الوقت كما هو الحال الآن أيضاً. ورابعاً لأنه هو نفسه كانت له خبرة روحية عن ذلك إذ أن أباه الروحي الذي لم يكن قد سيم من قِبَل أسقف كان يقتني نعمة الروح القدس وكان قادراً على شفائه من الخطايا.

بالإضافة إلى ذلك فإن أباه الروحي "سمعان التقي" لم يعاين سر الكهنوت. يكتب القديس سمعان اللاهوتي الجديد قائلاً : "أنا أعلم أن نعمة الحل والربط تُمنح من الله لأولئك الذين هم أبناء بالتبني ولخدامه القديسين. أنا أيضاً كنت تلميذاً لأب لم توضع عليه اليد من قِبَل الناس ولكنه من خلال يد الله أي الروح القدس أدرجني بين التلاميذ وأهَّلني لأن توضع عليَّ اليد من قِبَل الناس بحسب طقس الكهنوت؛ أنا الذي دفعني الروح القدس نلحية هذا الأمر الواقع منذ وقت طويل".

"وإذ سمع وصايا المسيح أصبح شريكاً في نعمته وعطاياه وتلقى منه موهبة الشفاء من الخطايا التى أضرمها فيه الروح القدس"[٨٨].

عندما نتكلم عن غفران الخطايا يجب علينا أن نفهمه بالدرجة الأولى على أنه الشفاء من الأهواء. من أجل ذلك نرى اليوم بوضوح أن الرهبان "الموهوبين" يعطوننا الشفاء دون أن يقتنوا سر الكهنوت ولأنهم ذوو رؤية نفَّاذة، فإنهم يدركون المشكلة التي تزعجنا ويعطوننا علاجاً وطريقة للشفاء، وهكذا نُشفَى مما كان يؤرقنا داخلياً. **إن وجود مثل أولئك الرجال القديسين يعطي تعزية للشعب.**

٤- البحث عن معالجين

إننا نصل الآن للجزء الرابع من هذا الفصل والذي هو البحث عن معالجين. وطالما أننا أصبحنا واعين للمرض الروحي وللقيمة العظمى للكهنة المعالجين، فإنه يجب علينا أن نبحث عنهم لكي نتحرر من قروح نفوسنا. ويحتاج المرء بحق لمجهود كبير لكي يجد أولئك القادة الحقيقيين للشعب، أطباء نفوسنا وأجسادنا، طالما أنه وبدون شك يوجد العديد من أمراض الجسد التي لها أصل روحي.

---

88 . Ibid. p. 137

ينصح القديس غريغوريوس بالاماس في عظته على إنجيل الأحد الجديد قائلاً: "ليطلب كل مسيحي بإجتهاد بعد حضور الكنيسة يوم الأحد شخصاً يحاكي الرسل الذين كانوا في العلية بعد الصلب، حيث يبقى مُغلقاً علي نفسه تماماً معظم الوقت، راغباً في أن يكون مع الرب في صلاة صامتة وتسبيح بالإضافة إلى طرق أخرى". فليقترب إذاً المسيحي منه وليَدَعْه يدخل بيته بإيمان "كما لو كان مكاناً سماوياً يقتني داخله قوة الروح القدس المقدسة". فليجلس مع الرجل الذي يعيش هناك وليبقَ معه أطول وقت ممكن سائلاً إياه عن "الله والأمور المختصة بالله" متعلماً منه بإتضاع، وطالباً صلاته. وبعد ذلك يقول القديس: "أنا أعلم أن الله سيأتي إليه بطريقة غير مرئية، ويمنح سلاماً داخلياً لأفكار نفسه، ويُزيد من إيمانه، ويعطيه معونة. وسوف يحسبه في ملكوت السموات في الدهر الآتي"[89].

إنه أمر ضروري أن يطلب المرء مثل هذا الأب الروحي. ومن الجدير بالإهتمام أن ننصت لما يقوله القديس سمعان اللاهوتي الجديد في هذه النقطة. إنه يقول: إسأل الله لكي يظهر لك رجلاً "قادراً على إرشادك جيداً لكي تدين له بالطاعة". يجب علينا أن نطيع الشخص الذي يظهره لنا الله "بصورة سرية في شخص ما أو بصورة مُعلَنة من خلال خادمه" وأن نحترمه " كما لو كان هو المسيح نفسه"[90].

يجب علينا أن نُظهِر لأبينا الروحي الذي هو بلا هوى نوع الثقة والحب الذي يُظهره الشخص المريض لطبيبه منتظراً منه العلاج والشفاء. بل يجب علينا أن نشعر نحوه بثقة وحب أكبر من ذلك، حيث أنه يوجد فرق بين النفس والجسد. **فالمسيح نفسه يكون حاضراً في الأب الروحي إذ أنه يكون بمثابة "فم الله".**

بالإضافة إلى ذلك يربط القديس سمعان بين موقف الرسل من جهة المسيح والموقف الذي يجب علينا أن نتخذه من جهة أبينا الروحي، لأن هذه هي الطريقة التي يمكن لنفوسنا أن تُشفى بها. وكما تبع الرسل المسيح فلنفعل نحن أيضاً هكذا. لا يجب علينا أن نترك أبانا الروحي عندما يحقر منه الناس ويسخرون منه. وكما أخذ بطرس سيفه وقطع الأذن "خذ سيفك ومد يديك وإقطع ليس فقط أذن بل ولسان ذاك الذي يحاول أن يتكلم ضد أبيك أو يلمسه"، وإبكِ مثل بطرس لو أنكرته، ولو رأيته مصلوباً فلْتَمُتْ معه إنْ إستطعت. ولو كان ذلك غير مستطاع فلا تشترك مع الناس الخونة والأشرار. "ولو أنه خرج من السجن فلترجع إليه ثانية ووقره بالأكثر مثل شهيد. ولو أنه مات من معاملة

[89]. Palamas. Hom. 17, 22. EPE vol. 9, p. 512-514. In Gk

[90]. SC 104, p. 334. CWS p. 232

سيئة، فلتطلب إذاً جسده بجرأة وقدِّم لـه كرامـة أكثـر ممـا عنـدما كـان حيـاً. وهكـذا إدهنـه بالطيب، وضَعْه في قبر ثمين"[91].

إنه أمر مميز أن يوضع الأب الروحي الذي هو المعالج في مكان المسيح.

يستعمل أيضاً القديس سمعان نوعاً من الصلاة يطلب فيها أن يجد مرشـداً روحيـاً مناسباً يقدم له الشفاء الروحي:

" أيها الرب الذي لا يشاء موت الخاطئ بل أن يعود ليحيا؛

أنت الذي نزل للأرض لكي يستعيد الحياة لأولئك المطروحين في موت الخطية

لكي تجعلهم مستحقين لرؤيتك أنت النور الحقيقي بقدر ما هو متاح للإنسان...

إرسل لي رجلاً يعرفك بحيث أنني إذ أخدمه وأخضع له بكل قوتي كما لو كنت

خاضعاً لك، وإذ أصنع مشيئتك من خلاله؛ أستطيع أن أُرضيك أنت الإله الحقيقي

الوحيد، وبذلك، وحتى رغم كوني خاطئاً أستحق أن أدخل ملكوتك"[92].

لو صلى المسيحي بهذه الطريقة فإن الله سوف يُظهر له الأب الروحي المناسـب لكـي يعتني بأمراض وجراحات نفسه.

ومما لا شك فيه أنه لا يجب على المرء أن يغفل حقيقة أن مثل أولئك المعالجين في كـلٍّ من زمن القديس سمعان وزمننا نادرون. إنه يقول: **"في الواقع أولئك الذين يمتلكون مهـارة إرشاد وشفاء النفوس العاقلة نادرون وخصوصاً في الوقت الحالي"**[93].

وباختصار يجب علينا أن نقول أنه من الـضروري أن نطلـب ونجـد مثـل هـؤلاء مـن الأطباء العلماء أو المعالجين أو حتـى المرشـدين لكـي نـشفى روحيـاً. لايوجـد طريـق آخـر للشفاء. فالله هو الشافي الحقيقي، **ولكن أصدقاء المسيح هم كذلك الـذين هـم القديـسون الذين يسكن فيهم الله الثالوث نفسه.**

---

91 . Ibid. p. 340-342. CWS p. 235
92 . SC 129, p. 186-188
93 . SC 104, 346. CWS p. 236

الباب الثالث

العلاج النفسي الأرثوذكسي

يجب علينا عندما نعرض موضوع العلاج النفسي الأرثوذكسي في هذا الباب أن نرى ماهية النفس وكيف يتم شفاؤها. ثم ماهية طبيعة العلاقات المتداخلة بين صورة الله فى الإنسان، والنفس، والعقل، والقلب، والذهن. كما يجب علينا أيضاً أن نرى كيف يتم شفاء العقل والقلب والذهن.

إنني أعتقد أن هذه هي الموضوعات الأساسية والأكثر أهمية لكي نعرف التطهير الداخلي وعلاج النفس ولكي نعرف أيضاً كيفية تحقيقهما.

١- النفس

SOUL (PSYCHE)

ما هي النفس؟

إن كلمة "نفس" Soul هي إحدى أكثر الكلمات صعوبة في الكتاب المقدس وفي الكتابات المسيحية[1]. توجد عدة معاني لكلمة "نفس" في الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء. ويقول الأستاذ كريستوس ياناراس: "لقد تمت ترجمة الكلمة العبرية Nephesh إلى الكلمة اليونانية "نفس" Psyche في الترجمة السبعينية ؛ والأخيرة تحمل عدة معاني. فأي شيء حي يسمى "نفس" أي كل حيوان. ولكن الإستعمال الأكثر شيوعاً في الكتاب المقدس يخص الإنسان. إنها تعني الطريقة التي تظهر بها الحياة في الإنسان.

وهي لا تعني مجرد وجه واحد من أوجه الوجود الإنساني (أي الروحاني بالمقارنة بالمادي) ولكنها تعني الإنسان بكليته كشخص واحد حي.

"لا تقبع النفس في الجسد فحسب ولكن يعبّر الجسد عنها. وهي بدورها تقابل الذات مثل اللحم والدم أو القلب أي الطريقة التي نتحقق بها من الحياة. إن الإنسان نفس؛ فهو كيان إنساني... إنه شخص...."[2].

ليست النفس هي علة الحياة ولكنها بالأحرى حاملة الحياة[3].

---

[1]. Christos Yannaras: Elements of Faith p. 55
[2]. Ibid.
[3]. Ibid.

والنفس هي الحياة الموجودة في كل الخليقة سواء كانت نباتاً أم حيواناً. النفس هي الحياة الموجودة في الإنسان كما أنها أيضاً كل إنسان له حياة. النفس هي أيضاً الحياة المعبَّر عنها من خلال العنصر الروحي في وجودنا إذ أنها العنصر الروحي في وجودنا.

وحيث أن كلمة "نفس" تعني علة معاني، فإنه توجد مواضع عديدة لم يتم توضيح الأمور بها.

سنحاول فيما يلي أن نتأمل في بعض إستعمالات مصطلح "نفس" Psyche في نصوص من العهد الجديد وفي نصوص من كتابات آباء الكنيسة.

لقد إستعمل هذا المصطلح من قبل الرب والرسل **بمعنى الحياة**. قال ملاك الرب ليوسف خطيب والدة الإله: "قم وخذ الصبي وأمه وإذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي"(مت٢ : ٢٠). ويصف الرب نفسه قائلاً: "أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف" (يو١٠ : ١١). بالإضافة إلى ذلك كتب بولس الرسول عن بريسكلا وأكيلا قائلاً: "اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياتي" (رو١٦ : ٤).

إن المصطلح المستخدم في هذه الأحوال الثلاثة للتعبير عن الحياة هو "نفس" Psyche.

وكما قلنا من قبل فإن كلمة "نفس" تستخدم أيضاً للإشارة إلى **العنصر الروحي في وجودنا**. وسوف نثبت ذلك بالإستشهاد ببعض النصوص الكتابية.

لقد قال الرب لتلاميذه: "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم" (مت١٠ : ٢٨). لا يستطيع الرجال إذاً أن يقتلوا النفس على حين يستطيع الشيطان أن يفعل ذلك. مما يعني أن النفس تكون مائتة لو كانت بدون الروح القدس. إن الشيطان هو روح مائتة لذلك ليس له نصيب في الله وهو ينقل الموت لكل الذين يلتصقون به. إنه كينونة حية لكنه في وجوده ليس له علاقة بالله. قال الرب للرجل الغني الشاب في المثل: "يا غبي! هذه الليلة تُطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟"(لو١٢ : ٢٠).

يظهر في تعاليم المسيح الأخرى الفرق بين النفس (كعنصر روحي في الوجود الإنساني والذي هو مائت بالطبيعة ولكنه غير مائت بالنعمة) وبين الحياة: "فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يُهلك نفسه من أجلي يجدها" (مت١٦ : ٢٥).

يستخدم الرب في بعض الأحيان المصطلح "نفس" ليعني العنصر الروحي في وجودنا وأحياناً أخرى ليعني الحياة. ويصلي بولس الرسول في رسالته إلى تسالونيكي قائلاً: "وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام. ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح" (١تس٥ : ٢٣). ليست المسألة هنا هي مسألة ما يسمى بالتركيب الثلاثي للإنسان ولكن المصطلح "روح" Spirit مستعمل ليعني نعمة الله أو القدرة الخارقة التي تتلقاها النفس.

ما نريد الإشارة إليه هنا هو أنه يوجد فرق بين النفس والجسد. يكتب القديس يوحنا الإنجيلي في رؤياه: "رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتِلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم" (رؤ٦ : ٩).

لقد قُتِل الجسد، ولكن النفس قريبة من الله وهى بلا شك تتحادث معه مثلما يقول الإنجيلي فيما يلي ذلك.

تستخدم كلمة "نفس" أيضاً للإشارة **للإنسان بكُلِّيته**. يوصي بولس الرسول قائلاً: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة" (رو١٣ : ١).

أعتقد أن هذا التحليل الصغير يوضح أن مصطلح "نفس" له عدة معاني في الكتاب المقدس. فهو يستعمل لكي يعني الإنسان كله، كما يعني العنصر الروحي في وجوده، بالإضافة إلى الحياة الموجودة في الإنسان والنباتات والحيوانات وفي كل الأشياء التي تشترك في طاقة الله المعطية الحياة.

يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن النور الغير مخلوق الذي يأتي ليكون في النفس الحاملة الله من خلال "الله الكامن فيها"، ويقول أن هذه هي طاقة الله وليس جوهره. وحيث أن الجوهر يسمى نوراً فإن الطاقة أيضاً تسمى نوراً. نفس الشيء صحيح من جهة النفس. فكِلا الحياة الروحية والحياة البيولوجية تسمى "نفساً"، ولكننا نعي تماماً أن الروحي والبيولوجي مختلفان: "مثلما تعطي النفس الحياة للجسم الحي ونسمي هذه الحياة "نفساً" على حين أننا ندرك أن النفس الموجودة فينا والتي تعطي الحياة للجسد تختلف عن الحياة ذاتها، هكذا فإن الله الذي يقيم في النفس الحاملة الله يعطيها النور"[4].

---

[4]. Triads, I, 3, 23. CWS p. 39

لقد أوردنا هذا النص لكي نوضح أن الآباء كانوا على وعي جيد بأن مصطلح "نفس" يشير إلى كلٍ من العنصر الروحي في وجودنا وإلى الحياة ذاتها وأنه يوجد فرق كبير بين المعنيين. وسوف نرى ذلك بصورة أفضل فيما بعد عندما نفحص الفرق بين نفس الحيوان ونفس الإنسان.

وفي محاولة لتعريف النفس على أنها العنصر الروحي في وجودنا نعود إلى القديس يوحنا الدمشقي الذي يقول: "النفس هي مادة حية بسيطة غير جسدانية ذات طبيعة غير مرئية للعينين الجسديتين وهي تستعمل الجسد كعضو لها وتعطيه حياة مكللة بالإرادة. وهكذا أيضاً الذهن بالنسبة للنفس فقد مُنح الإرادة والقدرة على العمل وهو الذي يقوم بالتغيير أي بتغيير الإرادة لأنه هو أيضاً مخلوق: "وهذا قد أخذه بحسب الطبيعة من خلال هذه النعمة التي للخالق التي بواسطتها أخذ أيضاً كلاً من وجوده وكينونته الطبيعية كما هي"[5]. النفس بسيطة وصالحة" لأنها مخلوقة على هذا النحو من قِبَل ربها"[6].

كان القديس غريغوريوس أسقف نيصص قد أعطى من قبل نفس هذا التعريف تقريباً الذي للقديس يوحنا الدمشقي: "النفس هي جوهر مخلوق حي عقلاني تنقل من ذاتها قوة الحياة والتمسك بالأشياء المعقولة إلى الجسد المنظم ويستمر ذلك طالما أنها مكوَّن طبيعي قادر على التماسك معاً"[7].

يشرح القديس غريغوريوس بالاماس قول بولس الرسول: "صار آدم الإنسان الأول نفساً حية" (١كو١٥ : ٤٥) ويقول أن نفساً حية تعني "أبدية خالدة أي عاقلة إذ أن الخالد هو عاقل. وليس ذلك فقط ولكنها أيضاً مباركة بالنعمة الإلهية. هكذا هي النفس الحية"[8].

إنه يقول أن النفس خالدة ونحن نعي تماماً أن فكرة خلود النفس ليس لها أصل مسيحي ولكن قَبِلهَا المسيحيون بعلة شروط وعدة إفتراضات ضرورية.

يكتب الأستاذ يوحنا زيزولاس قائلاً: "على الرغم من أن فكرة خلود النفس ليس لها أصل مسيحي إلا أنها دخلت في تقليد كنيستنا وإخترقت حتى تراتيلنا. لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الفكرة دون أن يجد نفسه خارج الجو الأكثر سيادة في الكنيسة... لم تقبل الكنيسة

5 . The Orthodox Faith. FC vol. 37. p. 236
6 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170. 43
7 . On the Soul and Resurrection. FC vol. 58 p. 205-206. PG 46,29
8 . Pālamas: On the Holy Spirit ch. 2,8

هذه الفكرة الأفلاطونية بدون شروط وإفتراضات مسبقة والتي تشتمل من بين أشياء أخرى على ثلاثة نقاط أساسية: الأولى أن النفس ليست أبدية ولكنها مخلوقة؛ والثانية أنه لا يجب بأي حال من الأحوال أن نُعرِّفها على أنها الإنسان (ليست نفس الإنسان هي الإنسان فالنفس شيء والإنسان الذي هو كيان نفسجسماني شيء آخر). أما النقطة الثالثة والأكثر أهمية هي أن خلود الإنسان لا يستند على خلود النفس ولكن على قيامة المسيح وعلى القيامة العتيدة للأجساد"[9].

لقد أكدنا على أن **نفس الإنسان خالدة بالنعمة وليس بالطبيعة**، ومع ذلك يجب علينا أن نشدد على أن **خلود الإنسان في التقليد الآبائي الأرثوذكسي ليس هو حياة النفس بعد الموت ولكنه تجاوز الموت بواسطة نعمة المسيح**. إن الحياة في المسيح هي التي تجعل الإنسان خالداً لأنه بدون الحياة في المسيح يكون موت طالما أن نعمة الله هي التي تعطي حياة للنفس.

والآن بعد أن قدمنا عدة عناصر لتعريف النفس يجب علينا أن ننتقل لموضوع "خلقة النفس". فالنفس مخلوقة طالما أنها صنعت بواسطة الله. إن مرجعنا الأساسي هو الإعلان الذي أعطي لموسى: "وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية" (تك٢ : ٧). يصف هذا النص خلقة نفس الإنسان وفي تفسير هذا النص يقول القديس يوحنا ذهبي الفم أنه من الضروري أن نرى ما قيل بعيني الإيمان وأن هذه الأشياء قيلت: "بتلطفٌ شديد وبسبب ضعفنا". فالجملة "صنع الله الإنسان ونفخ فيه" غير جديرة بالله ولكن الكتاب المقدس يشرحها بهذه الطريقة من أجلنا وبسبب ضعفنا نازلاً إلى مستوانا بحيث أنه إذ يجعلنا مستحقين لهذا التنازل قد نجد القوة لكي نرتفع إلى هذا العلو"[10].

الطريقة التي صنع بها الله جسد الإنسان وجعله نفساً حية هي إذاً كما هي موصوفة في الكتاب المقدس، طريقة فيها تنازل وهي موصوفة هكذا بسبب ضعفنا.

يكتب القديس يوحنا الدمشقي قائلاً أنه مهما يقال عن الله من خلال مصطلحات بشرية فهو يقال "بطريقة رمزية" مع أنه يحمل معنى أعلى حيث أن ما هو إلهي هو "بسيط وبلا شكل". وطالما أن الكتاب المقدس يقول أن الله نفخ في وجه الإنسان،

---

[9]. Synaxi No. 6. p. 81-82. (in Gk.)
[10]. Homily 12 on Gen. 2. FC vol. 64, p. 164. PG 53, 102-105

نستطيع أن ننظر إلى تفسير القديس يوحنا الدمشقي بخصوص فم الله: "دعونا نفهم تعبيره بكلمة "فم" والكلام بالقياس إلى تعبيرنا الخاص عن أفكارنا الداخلية بكلمة فم وكلام"[11]. الفم والكلام هما بلا شك شيئان مختلفان عن بعضهما البعض ولكني أذكر ذلك كدليل طالما أنه يوجد علاقة وإرتباط بينهما.

وبوجه عام وكما يقول القديس يوحنا الدمشقي فإن كل ما قيل عن الله بمصطلحات جسدية بإستثناء ما قيل عن وجود كلمة الله في الجسد فهو "يحتوي على بعض المعاني التي تعلمنا أشياء تفوق طبيعتنا"[12].

وهكذا خُلقت النفس من قِبَل الله تماماً مثل الجسد[13]. ويفسر القديس يوحنا ذهبي الفم نفخة الله هذه في وجه آدم بقوله إنه ليس فقط عديم المعنى ولكنه أيضاً في غير محله، أن نقول أن ما نُفِخ في آدم كان هو النفس وأن النفس إنتقلت للجسد من جوهر الله. **لو كان ذلك صحيحاً لما كانت النفس عاقلة في إنسان، ومختلة وعديمة العقل في إنسان آخر، أو بارة في إنسان، وغير بارة في إنسان آخر**. إن "جوهر الله ليس منقسماً ولا متغيراً ولكنه غير متغيِّر". **لقد كانت النفخة الإلهية إذاً هي "فعل أو قوة الروح القدس"**. ومثلما قال السيد المسيح: "إقبلوا الروح القدس"، هكذا أيضاً النفخة الإلهية المسموعة بشرياً هي الروح القدس المكرَّم". وهكذا بحسب قول القديس يوحنا ذهبي الفم فإن **النفس ليست قطعة من الله، ولكن الروح القدس هو الذي خلق النفس بدون أن يصير هو ذاته نفساً**. ويكمل القديس يوحنا قائلاً: "إن هذا الروح القدس لم يصر نفساً ولكنه خلق النفس. إنه لا يتحول إلى نفس ولكنه خلق النفس. ولأن الروح القدس خالق فإن له نصيباً في خلقة الجسد وخلقة النفس. لأن الآب والإبن والروح القدس يخلقون الخليقة بالقوة الإلهية"[14].

توجد نقطة أخرى يؤكد عليها الآباء القديسون وهي أنه لا وجود للجسد بدون نفس ولا وجود للنفس بدون جسد، لأنه في اللحظة التي خلق فيها الله الجسد خلق النفس أيضاً. يقول القديس أنسطاسيوس السينائي: "لا الجسد وُجد قبل النفس ولا النفس وُجدت قبل الجسد"[15]. ويؤكد القديس يوحنا الدمشقي على ما هو مضاد لرؤية أوريجانوس

---

11. The Orthodox Faith. FC vol. 37, p. 192
12. Ibid. p. 192-193
13. Hesychios. Philok. 1, p. 196. 192
14. Festal Menaion (in Greek) p. 73, note 1
15. Q 91. PG 89, 724

قائلاً: "لقد تكوَّن الجسد والنفس في نفس الوقت، ليس الواحد أولاً والآخر بعده"[١٦]. ويقول القديس يوحنا الدرجي نفس الشيء أيضاً[١٧].

الإنسان مخلوق على صورة الله. وبلا شك لا تشير هذه الصورة إلى الجسد، ولكنها تشير أولاً وأساساً إلى النفس. **فصورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة لأنه كما سوف نرى لاحقاً أن نفس الإنسان تعطي الحياة للجسد المتصل بها.** ونستطيع أن نقول بوجه عام أن النفس على صورة الله، وحيث أن الله مثلث الأقانيم: عقل وكلمة وروح هكذا أيضاً نفس الإنسان لها ثلاث قوى : العقل، والنفس، والروح[١٨].

يوجد في كل الطبائع نموذج مصوَّر للثالوث القدوس[١٩] ولكنه يظهر بالأكثر في الإنسان. فصورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة. يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن عماد السيد المسيح في نهر الأردن شارحاً لماذا أن "سر الإنسان المخلوق والمتجدد يعلن عن سر الثالوث القدوس". ويكتب أن هذا حدث ليس فقط لأن الإنسان هو المخلوق الأرضي الذي يقدم العبادة للثالوث القدوس ولكن أيضاً لأنه "هو وحده على صورته". إن الحيوانات ذات الحس والغير عاقلة لها فقط روح حية وهذه لا تستطيع أن توجد بذاتها وهي ليس لديها لا عقل ولا كلمة. **أما الملائكة ورؤساء الملائكة فلهم عقل وكلمة طالما أنهم عقلانيون وعاقلون، ومع ذلك لا يوجد لديهم روح معطي للحياة، إذ أنهم لا يقتنون جسداً ليستقبل الحياة من الروح.** وهكذا، وحيث أن الإنسان له عقل وكلمة وروح معطي للحياة يعطي حياة للجسد المتصل به، فإنه "هو وحده على صورة الثالوث"[٢٠].

ينادي القديس غريغوريوس بالاماس بنفس التعليم في كلامه عن الطبيعة واللاهوت. فكما أن الله الثالوث هو عقل وكلمة وروح، هكذا هو الإنسان. فروح الإنسان التي هي القوة الواهبة للحياة في جسده هي "الحب العقلاني للإنسان"، إذ أنها "من العقل ومن الكلمة كما أنها موجودة في الكلمة والعقل وتقتني كلاً من الكلمة والعقل داخل ذاتها"[٢١]. وعلى الرغم من أن الطبيعة العقلانية العاقلة للملائكة لها عقل وكلمة

[16] . FC vol. 37, p. 235
[17] . Ladder, Step 26, note 2, p. 136, Gk. edition
[18] . 150 Chapters, ch. 36-37
[19] . Monk Amphilochios Rantovits: The Mystery of the Holy Trinity according to St. Gregory Palamas, p. 38 (in Greek)
[20] . St. Gregory Palamas: Homily 60. EPE 11, p. 512 (Gk.)
[21] . 150 Chapters. Ch. 38

وروح إلا أنها "لا تقتني هذه الروح كواهبة للحياة"[٢٢]. ومثلما أشرنا فإن كلمة "صورة الله" تشير أساساً إلى النفس. ولكن حيث أن الجسد يأخذ الحياة من الروح فإن الصورة في الإنسان هي أقوى منها في الملائكة.

يرى القديس غريغوريوس أيضاً الفرق بين الصورة في الإنسان والصورة في الملائكة من وجهة نظر أخرى. فالمعروف عن تعليمه أنه ينادي بوجود جوهر وطاقة في الله وهذان متصلان بإنفصال ومنفصلان بإتصال. هذا هو سر إتحاد الجوهر والقوة الغير منقسم. لا يشارك الإنسان الله في جوهره على حين أنه يشاركه في قواه. وحيث أن الإنسان على صورة الله فهذا التعليم عن الجوهر والقوى ينطبق أيضاً على النفس. تنقسم النفس إذاً إلى جوهر وقوة بغير إنفصال.

ويقارن القديس غريغوريوس نفس الإنسان بنفس الحيوانات قائلاً أن الحيوانات تقتني نفساً ليست كجوهر ولكن كطاقة "نفس كل واحد من الحيوانات الغير عاقلة هي الحياة للجسد الذي تحييه وهكذا فإن الحيوانات تقتني الحياة ليس بالجوهر ولكن كطاقة." نفس كل واحد من الحيوانات الغير عاقلة هي إذاً الحياة للجسد الذي تحييه. وبذلك تمتلك الحيوانات الحياة ليس بالجوهر ولكن كطاقة، طالما أن هذه الحياة معتمدة على شيء آخر وليست قائمة بذاتها. "وهكذا طالما أن نفس الحيوانات تمتلك طاقة فقط فهي تموت مع الجسد. وعلى العكس فإن نفس الإنسان لا تقتني فقط طاقة بل وجوهر أيضاً: "تمتلك النفس حياة ليس فقط كنشاط ولكن أيضاً كجوهر طالما أنها تحيا في ذات جوهرها. ولهذا السبب عندما يموت الجسد لا تفنى النفس معه "بل تبقى خالدة. إن النفس العاقلة والعقلانية مركبة "حيث أن نشاطها مُوجَّه نحو شيء آخر خارجاً عنها".[٢٣]

يقول القديس مكسيموس المعترف في تعليمه أن النفس لها ثلاث قوى:

(١) قوة التغذية والنمو

(٢) قوة الخيال والغريزة

(٣) قوة الذكاء والعَقْلنة.

---

22 . Ibid.
23 . Ibid. ch. 30-33

تشترك النباتات في الأولى من هذه القوى، وتشترك الحيوانات في الثانية أيضاً، على حين أن الإنسان عنده كل هذه القوى الثلاث[24]. يوضح ذلك قيمة الإنسان الكبرى بالمقارنة بالحيوان الغير عاقل. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما قيل من قبل، يُظهر بوضوح كيف أن الملائكة تختلف عن الإنسان. وهكذا عندما صار المسيح إنساناً إتخذ جسداً بشرياً وليس شكلاً ملائكياً، وصار إلهاً متأنساً وليس إلهاً ملاكاً.

إن ما قيل يعطينا إمكانية أن نرى إنقسام النفس. إننا لا ننوي التوسع في هذا الموضوع ولكننا سوف نقدم هذه الأشياء التي تحتوي على هذا الموضوع بوجه عام.

يقول القديس يوحنا الدمشقي أن النفس مدركة وعاقلة. لقد أعطى الله للإنسان "نفساً مدركة وعاقلة لكي تحيا جيداً"[25]. إن أحد التعاليم الرئيسية للآباء هي أن العقل والإدراك هما طاقتان متوازيتان للنفس. يستند القديس غريغوريوس بالاماس على حقيقة أن النفس على صورة الثالوث القدوس، ويكتب أن الثالوث القدوس هو عقل وكلمة وروح، ويقول أن النفس المخلوقة على صورة الله قد وُهبت عقلاً وكلمة وروحاً". من أجل ذلك يجب على النفس أن تحافظ على درجتها وتتصل كلية بالله. ويجب عليها أن تتطلع لله وحده، وأن تزيّن نفسها بتأمل مستمر وبمحبته الأكثر حرارة والأكثر توهُّجاً[26].

تتحطم النفس بالشهوات والخطايا. لذلك يجب عليها أن تتحد بالله وتبذل ذاتها له. يحدث هذا الإتحاد بعدة وسائل، ويتم ذلك بصورة رئيسية عن طريق الممارسة العملية لكلمة المسيح. يشدد ثيوليبتوس مطران فيلادلفيا على قيمة الصلاة على الأخص: "بعد أن توحد الصلاة النقية العقل والكلمة والروح في ذاتها، تستحضر إسم الله من خلال الكلمات، وتتطلع إلى الله الذي تتضرع إليه بعقل خالي من التشتت، وتُظهر الندم والتواضع والحب. وهكذا تستميل نحوها الثالوث الأبدي الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد"[27].

إننا نتذكر بإستمرار إسم المسيح من خلال الكلمة وننظر الله من خلال عقل خالي من التشتت ونحوز على التوبة والتواضع والحب من خلال الروح.

---

24 . Philok. 2, p. 88, 32
25 . FC vol. 37, p. 235
26 . 150 Chapters, ch. 40
27 . Wrirings, p. 391,20

هكذا تتحد قوى النفس الثلاث وتُقدَّم للثالوث القدوس. هذه هي الطريقة التي يحدث بها شفاء النفس، وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بأكثر إستفاضة فيما بعد. **تشتيت النفس إذاً هو المرض، وتوحيدها هو الشفاء.**

يقسم نيسيتاس ستيثاتوس النفس إلى ثلاثة أجزاء ولكنه يتكلم عن إثنين بصورة أساسية، وهما جزءا الإدراك، والحس. الجزء الإدراكي هو غير مرئي وغير مرتبط بالحواس "كما لو كان موجوداً داخل الحواس وخارجها بآن واحد". أعتقد أنه يشير هنا إلى العقل. سوف نفرق فيما بعد بين الإدراك والعقل، ولكن يجب علينا الآن أن نؤكد على أن العقل له علاقة بالله، فهو يستقبل القُوى الإلهية. فالله يعلن عن ذاته للعقل، على حين أن الإدراك، باعتباره طاقة، هو الذي يصيغ ويعبِّر عن خبرات العقل. أما الجزء الحسِّي للنفس فينقسم إلى الأحاسيس والأهواء. ويسمى هكذا لأنه " معرض للأهواء"[٢٨].

يتناول القديس غريغوريوس السينائي قوى النفس بالتحليل ويصف بدقة ما يتولى قيادة كل جزء، فيقول أن الأفكار الشريرة تعمل في قوة الإدراك، بينما الأهواء البهيمية تعمل في الجزء القابل للإثارة، وتتجمع الشهوات الحيوانية في الجزء المثير للشهوة، والخيالات في الجزء العقلي، والأفكار في الجزء المفكر[٢٩].

يقول نفس القديس أنه عندما خلق الله النفس المدركة والعاقلة بنفخته الواهبة للحياة، " لم يصنعها وفيها الغضب والشهوة الحيوانية؛ ولكنه منح النفس قوة النزوع نحو الآخر والشجاعة لكي تنجذب بالحب"[٣٠]. وعندما خُلقت النفس "لم تكن لا الشهوة ولا الغضب من ضمن كيانها"[٣١] ولكن حدث ذلك كنتيجة للخطية.

سوف نكتفي بهذا الحديث عن موضوع إنقسام النفس لأننا سوف نتكلم عن هذا الموضوع بإستفاضة أكثر في الباب الرابع الذي يتحدث عن الأهواء. لقد كان علينا أن نتكلم هنا قليلاً عن إنقسام النفس طالما أننا كنا نتحدث عن موضوع النفس بالذات.

وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد علاقة وإرتباط بين النفس والجسد. لكن ما هي طبيعة هذه العلاقة وإلى أى مدى هي متواجدة؟ هذا هو الموضوع الذي سوف نبحثه هنا.

---

28. Gnostic Chapters, ch. 9. Philok. 3, p. 328 (in Gk)
29. Acrostics, 63. Writings, p. 48
30. Ibid. p. 52, 82
31. Ibid. p. 52, 81

الإنسان مخلوق من جسد ونفس ولايستطيع أي عنصر بمفرده أن يكوِّن الإنسان. يقول القديس يوستين Justin الفيلسوف والشهيد أن النفس في حد ذاتها ليست هي الإنسان، ولكنها تُدعى "نفس الإنسان". وبالمثل لا يُسمَّى الجسد إنساناً، ولكنه يُدعى "جسد الإنسان": "على الرغم من أن الإنسان في ذاته ليس واحداً منهما، إلا أن إتحاد الإثنين يسمى: إنساناً. لقد دعا الله الإنسان للحياة والقيامة وهو لم يدعو جزءاً منه، ولكنه دعاه بكليته أي النفس والجسد"[٣٢].

ومثلما أشرنا من قبل فإن النفس خُلقت مع الجسد عند الحبل بالإنسان: "يُمنح الجنين نفساً عند الحبل به". تُخلق النفس وقت الحبل "وتكون النفس في هذا الوقت بنفس درجة نشاط الجسد. ومثلما ينمو الجسد، تُظهر النفس طاقاتها بإطراد"[٣٣].

يوجد فرق كبير بين النفس والجسد طالما أن "النفس ليست جسداً ولكنها غير متجسمة"[٣٤]. بالإضافة إلى أنه يكون من المستحيل على الجسد والنفس أن يوجدا أو أن يُدعيا جسداً أو نفساً بصورة منفصلة عن بعضهما البعض: "إذ أن العلاقة بينهما ثابتة"[٣٥].

لقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون أن النفس توجد في مكان معين في الجسد، وأن الجسد هو سجن النفس، وأن خلاص النفس هو في تحررها من الجسد. أما آباء الكنيسة فيعلِّمون بأن النفس موجودة في كل مكان في الجسد. يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن الملائكة والنفس هي كائنات غير متجسدة "فهي غير موجودة في مكان، ولا هي موجودة في كل مكان". والنفس التي تحمل الجسد الذي خُلقت معه "موجودة في كل مكان في الجسد، وليس كما لو كانت في مكان ما من الجسد، أو كما لو كانت محتواة داخله، ولكن كحاملة وحاوية ومُعطية الحياة للجسد لأنها تقتني هذه الحياة أيضاً في صورة الله"[٣٦].

يرى نفس القديس أنه يوجد البعض (الهيلينيون) الذين يضعون النفس في المخ كما لو كانت في قلعة حصينة، وأن البعض الآخر يضعونها في عمق القلب: "وهكذا في هذا العمق ـ بحسب مفهومهم ـ تتطهر النفس من نسمة النفس الحيوانية وتكون في أفضل وعاء". ويقول القديس أننا نعرف جيداً أن الجزء المدرك من النفس هو في القلب وليس كما في وعاء، حيث أنه غير متجسد ولا خارج القلب طالما أنهما متحدان. إن قلب الإنسان هو

---

32 . Justin Martyr. On Resurection. BEPES vol. 4, p. 229 (in Gk.)
33 . Ladder, Step 26, note2, p. 136, Gk. edition
34 . See St. Gregory The Theologian, P.G. 10, 1141
35 . St. Maximus: philosophical and theological studies, vol. 1, p. 222. (in Gk.)
36 . 150 Chapters. Ch. 61

العضو المهيمن وهو إكليل النعمة مثلما يقول القديس غريغوريوس بالاماس. وفيه يوجد العقل وكل أفكار النفس. ويؤكد القديس على أننا تلقينا هذا التعليم من السيد المسيح ذاته ذاك الذي خلق الإنسان. فهو يُذكِّرنا بقول السيد المسيح: "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان" (مت١٥ : ١١). وقوله: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة" (مت١٥ : ١٩). ويضيف القديس أن القديس مقاريوس قال: "القلب يوجِّه كل الكيان. وعندما تتملك النعمة من القلب، يسود على كل الأفكار وكل الأعضاء، إذ أنه هنا في القلب يقيم العقل والنفس "ويقول أنه بالتالي يكون الغرض الرئيسي من العلاج هو إستعادة العقل "الذي كان قد تشتت خارجاً بواسطة الحواس من خارج القلب" الذي هو "موضع الأفكار"، "والعضو المدرك الأول في الجسد"[٣٧].

سوف نعود لهذا الموضوع فيما بعد ولكننا نتمنى بصفة أساسية أن نؤكد على أنه بحسب تعاليم الآباء، فإن النفس تستعمل القلب كعضو لها وتوجه كل الجسد. وهي متحدة مع الجسد وليست غريبة عنه. ويعلم نيميسيوس الذي من إيميسا أن "النفس غير جسدانية وليست محدودة في جزء معين من الفراغ، ولكنها منتشرة بكاملها في كل مكان من الجسد مثل الشمس التي تنتشر أينما يصل نورها، الذي ينتشر أيضاً في جسم الشمس، دون أن تكون جزءاً من الكل الذي تنيره، كما لو لم تكن موجودة فى كل ذرَّة فيه". بالإضافة إلى ذلك فإن "النفس متحدة مع الجسد، ومع ذلك فهي تبقى متميزة عنه"[٣٨].

تنشط النفس وتوجه كل الجسد وكل أعضائه. فأحد تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية أن الله يوجه كل العالم بنفسه بدون وسطاء مخلوقين، بل بواسطة قدرته الأزلية. وهكذا مثلما يُنشِّط الله كل الخليقة، فإنه بنفس الطريقة "تُنشِّط النفس أيضاً أعضاء الجسد، وتحرك كل عضو بحسب عمل هذا العضو[٣٩]. وهكذا مثلما هو عمل الله أن يدير الكون، هكذا أيضاً "عمل النفس أن تقود الجسد"[٤٠].

يمعن القديس غريغوريوس بالاماس كثيراً في فكرة العلاقة بين النفس والجسد ويقول أن ما يحدث بواسطة الله هو ما يحدث بواسطة النفس. تقتني النفس داخلها بصورة مبسطة "كل القُوى الإلهية التي للجسد". وحتى لو أصيبت بعض أعضاء الجسد أو لو قُلعت العينان أو صُمَّت الأذنان، فالنفس لاتقتني القوى الإلهية التي للجسد بنفس الدرجة. ليست

[37] . Triads, 1,2,3. CWS p. 42-43
[38] . The Nature of Man. Ch. 3. LCC vol. 4, p. 298. PG 40, 597 and 600
[39] . Acrostics. Gk. Philok. 4, p. 42, 81. Writings, p. 52, 81
[40] . Thalassios. Philok. 2, p. 308 31

النفس هي القوى الإلهية ولكنها تقتني قوى إلهية. وعلى الرغم من وجود القوى الإلهية في داخلها، فهي "واحدة وبسيطة وغير مؤلَّفة من أجزاء، وليست مُركَّبة، ولا مُصنَّعة"[41].

إن ما يميز هذا النص هو أن القديس غريغوريوس يربط ما يحدث للجسد من خلال النفس، بما يحدث لكل الخليقة من خلال الله. يقود الله العالم بواسطة قُوى عنايته الإلهية، وهو يقتني هذه القدرات الإلهية حتى قبل خلقة العالم. ومع ذلك فإن الله ليس فقط يقتني قوى عديدة، ولكنه هو ذاته كلي القدرة[42]. وهذا يوضح أن النفس هى "على صورة الله". ما يحدث في الله يحدث بالمشابهة في النفس البشرية.

يقول القديس غريغوريوس النيصي أن النفس هي غير مادية وغير جسدانية، "فهي تعمل وتتحرك بطريقة تتناسب مع طبيعتها الخاصة، وتظهر هذه الإنفعالات الخاصة من خلال أعضاء الجسد"[43]. ويُعلِّم نفس القديس بطريقة شعرية أن **النفس ليست محمولة بالجسد ولكنها تحمل الجسد**؛ فهي ليست داخل الجسد كما لو كانت في وعاء أو حقيبة، ولكن الجسد بالأحرى هو الموجود داخل النفس. فالنفس توجد في كل الجسد "وليس جزء مستنير بها، إلا وتكون موجودة فيه بالكلية"[44].

وهكذا نستخلص إستنتاجاً عاماً من جهة العلاقة بين النفس والجسد وهو أن النفس موجودة في كل الجسد، ولا يوجد أي قطاع من جسد الإنسان إلا وتوجد فيه النفس، وأن القلب هو الموضع المدرك الأول للنفس، وأن مركز النفس موجود هناك ليس كما في وعاء ولكن كما في عضو يقود كل الجسد، وأن النفس على حين كونها متميزة عن الجسد إلا أنها الأكثر إتحاداً به بصورة حميمية.

لقد قلنا كل هذه الأشياء لأنها مرتبطة كثيراً بالموضوع الذي ندرسه إذ أننا لا نستطيع أن نفهم سقوط ومرض النفس لو لم نعرف ماهية النفس ولا كيفية إتحادها مع الجسد.

مرض النفس وموتها

إننا عادة ما نتكلم في الكنيسة عن سقوط الإنسان وعن الموت الذي حدث كنتيجة للسقوط. لقد حدث الموت الروحي أولاً ثم تبعه الموت الجسدي. وفقدت النفس نعمة الله

41. Triads, 3, 2, 22
42. Ibid.
43. On the Soul and Resurrection. FC. Vol. 58, p. 206. PG 46,29
44. On the Soul. PG 45, 217B

وكَفَّت عن أن تكون على علاقة مع الله، ومن ثَمَ أظلمت. ثم انتقلت هذه الظلمة وهذا الموت للجسد. ويرى القديس غريغوريوس السينائي أن جسد الإنسان كان قد خُلِق على غير فساد وأنه "سيقوم على هذا النحو"، وأن النفس كانت قد خُلِقَت بلا هَوَى. وحيث أنه كانت هناك رابطة متماسكة جداً بين النفس والجسد بسبب تداخلهما وتواصلهما، فإنهما دخلا معاً إلى الفساد: "إكتسبت النفس سمات الأهواء أو بالأحرى سمات الشيطان وأصبح الجسد مثل الحيوانات الغير عاقلة بسبب الحالة التي سقط فيها وبسبب سيادة الفساد". وحيث أن النفس والجسد قد فسدا، فإنهما كوّنا معاً "كياناً حيوانياً واحداً غير عاقل وعديم الحس معرضاً للغضب والشهوة". هذه هي الطريقة التي يشرح بها الكتاب المقدس كيف صار الإنسان "متحداً بالحيوانات ومشابهاً لهم"[45]. لقد إمتلأت نفس الإنسان بالأهواء من خلال السقوط وصار جسده مثل الحيوانات وإرتدى ثوب الإنحلال والموت، وصار مثل الحيوانات الغير عاقلة.

لقد وصف الآباء بطريقة رائعة هذا المرض والعبودية وعدم الطهارة والموت الذي للنفس. إن كل خطية هي تكرار لخطية آدم، ومع كل خطية نعانى من ظلمة وموت النفس الساقطة.

دعونا نتأمل عن قرب حالات السقوط هذه التي للنفس: عندما يترك المرء حواسه في حرية، ومن خلال هذه الحواس تصير نفسه خارج قلبه، فعندئذ تصير هذه النفس أسيرة. " وتراخي القبضة على الحواس، يُحكِمُ القيود على النفس". وتكون هذه القيود معادلة للظلمة. وكما يعقب غروب الشمس الليل، هكذا عندما ينسحب المسيح من النفس وتتمكن ظلمة الأهواء منها، فعندئذ "تمزقها الحيوانات الغير مادية إرباً إرباً"[46]. تقع نفس الإنسان في ظلمة مدلهمة، وتعمل الشياطين فيه، ويجد الإنسان نفسه في ليل بلا قمر. هذا أيضاً يشكل مرض النفس. يقول القديس ثالاسيوس:**"إن مرض النفس هو التفكير في الخطية على حين أن موتها هو فعل الخطية"**[47]. وهكذا تنقاد النفس المريضة خطوة بخطوة إلى الموت.

إن مرض النفس هو في الحقيقة نجاستها: "تكمن نجاسة النفس في ألا تعمل بحسب الطبيعة. وهذا هو السبب الذي يجعل أفكار اللاهوى تنبع من العقل"[48]. ويقول القديس مكسيموس: "النفس الممتلئة من أفكار الشهوة الحسية والكراهية هي غير طاهرة"[49].

---

45 . Acrostics, 82. Writings, p. 52
46 . Theoleptos. Philok. 4, p. 6. (In Gk.). Writings p. 386, 9
47 . Philok. 2, p. 318, 89
48 . Ibid. p. 89, 35

يصف القديس هيزيخيوس الطريقة التي تمرض بها النفس، ثم تُقتَل في النهاية: لقد خلق الله النفس بسيطة وصالحة ولكنها تبتهج بغوايات الشيطان "وعندما تنخدع، تنغمس في شيء شرير وكأنه حسنٌ". وبهذه الطريقة " تختلط أفكارها بخيالات الشيطان". ثم تخضع النفس للإثارة، محاولة أن تحوِّل هذه الخيالات العقلية الغير شرعية إلى فعل ملموس من خلال الجسد، وهذا يكون لدينونتها"[٥٠].

يستعين القديس غريغوريوس بالاماس بنصوص من الكتاب المقدس مثل كلمات بولس الرسول: "ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح" (أف٢ : ٥) وكلمات يوحنا الإنجيلي: "توجد خطية للموت" (١يو٥ : ١٦). وكلمات المسيح لتلميذه: "دع الموتى يدفنون موتاهم" (مت٨ : ٢٢). ويقول أنه على الرغم من أن النفس خالدة بالنعمة، إلا أنها "عندما تصير منغمسة في الملذات، ومتروكة للَّذات ومتساهلة، تكون مائتة حتى ولو كانت حية". هذه هي الطريقة التي يفسر بها كلمات بولس الرسول: "وأما المتنعمة فقد ماتت وهي حية" (١تي٥ : ٦). وعلى الرغم من أن النفس تكون حية، إلا أنها تكون ميتة، طالما أنها لا تقتني الحياة الحقيقية التي هي نعمة الله[٥١]. عندما إبتعد أبوانا (آدم وحواء) عن تذكر ورؤية الله وأغفلا وصيَّته وإنحازا لروح الشيطان المميتة، تعرَّيا من "الثياب النورانية الحية التي للبهاء السماوي وأصبحا مع الأسف أيضاً مائتين بالروح مثل الشيطان"[٥٢]. تسيرالأمور دائماً على هذا المنوال. فعندما يتحد شخص ما مع الشيطان ويفعل مشيئته، تموت نفسه بسبب أن الشيطان ليس فقط روح موت ولكن لأنه أيضاً يجلب الموت على أولئك الذين يصيرون بقربه[٥٣].

تموت النفس عندما لا تعمل بحسب الطبيعة: "... عندما لا تكون بصحة جيدة وعلى الرغم من أنها تحتفظ بصورة الحياة فإنها تموت.... هل أستطيع أن أقول أن لك نفساً عندما لا تكون معتنية بالفضيلة بل تكون جشعة ومتعدية على الناموس؟ هل لمجرد أنك تمشي؟ ولكن المخلوقات الغير عاقلة تفعل ذلك أيضاً. هل لأنك تأكل وتشرب؟ ولكن هذا أيضاً تفعله الحيوانات المتوحشة. هل لأنك تقف منتصباً على قدمين؟ إن هذا يقنعني بالأحرى بأنك حيوان في صورة إنسان"[٥٤].

---

49 . Ibid. p. 54, 14
50 . Philok. 1, p. 169f, 43
51 . 150 chapters, ch. 45
52 . Ibid. ch. 46
53 . Ibid.
54 . Homily 6 on 2 Corinthians. NPNF vol. 12 p. 307f

يسمى الإنسان "الميت" في تعاليم بولس الرسول"جسداني" أو "طبيعي". إنه يكتب في رسالته إلى أهل كورنثوس: "ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله" (١كو٢ : ١٤). ويكتب أيضاً: "فإنه إذ فيكم حسد وخصام وإنشقاق ألستم جسديين وتسلكون بحسب البشر" (١كو٣ : ٣). يرى الأستاذ يوحنا رومانيدس أن الكلمات المستعملة في "طبيعي" psychikos و "جسداني" sarkikos و "يسلك بحسب البشر" لها نفس المعنى[٥٥]. ويكتب في موضع آخر من كتابه قائلاً: "إن الإنسان الجسداني والنفساني هو الإنسان بكُلِّيته بنفسه وجسده الذي يفتقد لطاقة الروح القدس التي تجعل الإنسان عديم الفساد"[٥٦]. عندما لا يتبع الإنسان الروح القدس يصير محروماً من قوة الله الواهبة الحياة ويصير نفسانياً غير روحي"[٥٧].

علاج النفس

يحتوي كل تقليد الكنيسة الأرثوذكسية على شفاء النفس وإعطائها الحياة، هذه النفس التي ماتت بالخطية. وتساهم كل الأسرار وكل الحياة النسكية في هذا الشفاء. إن من لا يعي هذه الحقيقة لا يستطيع أن يدرك روح التقليد الأرثوذكسي. وسوف نرى فيما يلي ما هي الصحة وما هو إنعاش النفس. كما سنرى عدة طرق للحصول عليها وكيف تعمل النفس الحية السليمة.

تتكون صحة النفس من اللاهَوَى والمعرفة الروحية[٥٨]. "تكون النفس كاملة عندما تتغلغل فيها الفضائل"[٥٩]. وتكون النفس كاملة "لو كان الجانب الحسيٌّ منها متوجه ناحية الله"[٦٠]. والنفس النقية هي "تلك التي تحب الله"[٦١]. والنفس النقية هي "تلك المتحررة من الأهواء وتتمتع بالحب الإلهي بإستمرار"[٦٢].

---

55 . John Romanides: The Ancestral Sin (in Greek) p. 131
56 . Ibid. p. 130
57 . Ibid. p. 131
58 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313, 2
59 . Ibid. p. 316, 54
60 . St. Maximos. Philok. 2, p. 99, 98
61 . St. Thalassios. Philok. 2 p. 317 79
62 . St. Maximus. Pilok. 2 p. 56,34

يصف الآباء القديسون أيضاً عدة طرق لإحياء النفس وشفائها. إن الحزن المقدَّس أو التوبة يضع نهاية للذة الحسية ولكن "تحطيم اللذة الحسية هو قيامة النفس"[63]. يقول القديس أنطونيوس خادم الله العظيم أنه يجب علينا أن ننقي أذهاننا "إذ أنني أعتقد أنه عندما يكون الذهن نقياً تماماً وفي حالته الطبيعية، فإنه يكتسب بصيرة خارقة، ويرى أفضل وأوضح من الشياطين، حيث أن الله يعلن أشياءً له "[64]. يعني ذلك أن خادم النفس القديس هذا يوصينا أن ننقي أذهاننا. لقد لوحظ أنه لو حافظ شخص ما على عقله نقياً من الأفكار الشريرة والصور المتنوعة فإنه يستطيع إذاً أن يحفظ نفسه نقية.

يعلم ثيؤليبتوس مطران فيلادلفيا قائلاً: "عندما تتغلب على التشتيت الخارجي، فإنك تستطيع أيضاً أن تسيطر على الأفكار الداخلية، فيصبح عقلك منجذباً نحو الأعمال والكلمات الروحية". تؤدي المحاولات للحفاظ على العقل نقياً ولتحرير المرء من التشتتات المتعددة، إلى ظهور العقل في الداخل، ذاك الذي كان ميتاً وغير مرئي. من أجل ذلك ينصح أيضاً ثيؤليبتوس قائلاً: "ضع حداً للإختلاط بالعالم الخارجي وحارب الأفكار الداخلية حتى تجد موضعاً للصلاة النقية والمسكن حيث يقيم المسيح"[65]. إن القلب، كما سنشير فيما بعد، هو المسكن الذي يقيم فيه المسيح. سوف نكتشف ذلك فقط عندما نجاهد لكي نحيا في هدوء وعندما نجاهد ضد الأفكار التي تتأرجح في داخلنا. إن نقاء العقل هو أمر هام جداً. هذه الطريقة بسيطة ولكنها شاملة وتجلب فائدة عظيمة لنفس الإنسان طالما أنها تجعلها هيكلاً للروح القدس.

تُشفَى النفس عندما تتخلص من العلاقات مع الدنيويات وتلتصق بالحب مع ذاك الكائن الأسمى[66].

يفسر القديس غريغوريوس بالاماس كل تقليد الكنيسة الأرثوذكسية قائلاً أنه من خلال التعدي والخطية فقدنا تشابهنا مع الله "ولكننا لم نفقد الصورة". وبالتدقيق، لأننا لم نفقد الصورة نستطيع إذاً أن نجدِّد النفس. إن النفس عندما تتحرر من العلاقات مع الدنيويات وتلتصق بالحب مع ذاك الكائن الأسمى وتخضع له من خلال الأعمال وطرق الفضيلة فإنها "تتلقى منه الإستنارة، والتزيُّن، والإصلاح، وتطيع إرشاداته وتحذيراته التي

[63]. St. Thalassios. Philok. 2 p. 309, 39
[64]. Hesychios the Priest. Philok. 1 p. 194, 179
[65]. Philok. 4, p. 6 (in Gk.). Writings, p. 385f
[66]. Gregory Palamas. 150 chapters, ch. 39

تتلقى من خلالها الحياة الأبدية الحقيقية"[٦٧]. وعندما تطيع النفس ناموس الله تصبح معافاة تدريجياً، وتستنير وتحصل على الحياة الأبدية.

يقدم أيضاً نيسيتاس ستيثاتوس وسيلة أخرى لشفاء النفس، بالإضافة إلى الوسيلة العملية، وذلك من خلال "التيئوريا". فحيث يكون حب الله وعقل نشط وشركة مع النور الذي لا يُدنى منه "فإنه يكون هناك أيضاً سلام في قُوى النفس، وتطهير للعقل وسُكنَى الثالوث القدوس"[٦٨]. وهكذا، فإنه بالإضافة إلى المحاولات للحفاظ على العقل نقياً فمن الضروري أن يتعود العقل على الفعل الداخلي والصلاة الداخلية، لكي يكتسب حب الله ونقاء العقل، لأنه حيثما يسكن الحب، يأتي السلام لقُوى النفس.

سوف نتكلم في موضع آخر من هذا الكتاب بصورة أكثر تحليلاً عن كيفية شفاء النفس عندما تتحرك بحسب الطبيعة، وسوف نصف الحركة الطبيعية لكل جزء من النفس. أما الآن فحيث أننا نتحدث عن شفاء النفس فإننا سوف نؤكد بإختصار على بعض الحقائق.

يكتب القديس غريغوريوس بالاماس أننا نجاهد لكي نطرد ناموس الخطية إلى خارج أجسادنا، ولكي نحل محله مراقبة العقل. وبهذه الطريقة نضع قانوناً مناسباً لكل قوة من قوى النفس ولكل عضو من أعضاء الجسد.

أما من جهة الحواس فإننا ننصح بضبط النفس. ومن جهة الجزء الحسي من النفس فبالحب. إننا نُصلح الذهن بأن نرفض كل شيء يعوق صعود العقل نحو الله وهذا ما نسميه nepsis. لو أن شخصاً ما نقى جسده من خلال ضبط النفس، وجعل من مشاعره ورغباته فرصة للفضيلة، وقدم لله ذهناً نقياً بالصلاة، فإنه "يكتسب ويرى في نفسه النعمة التي وعد بها الله أولئك الذين تطهَّرت قلوبهم"[٦٩].

ينصح القديس مكسيموس في التقليد الأرثوذكسي قائلاً: "إكبح قوة الغضب في نفسك بالحب، وإقمع شهوتها بضبط النفس، وإعطِ أجنحة للذهن بالصلاة، وعندئذ سوف لا ينطفئ نور عقلك أبداً"[٧٠].

---

67 . Ibid.
68 . Natural chapters, ch. 2. Gk. Philok. 3, p. 298
٦٩ 69 . Triads, 1, 2, 2. CWS p. 42
٧٠ 70 . Philok. 2, p. 110, 80

ليست النصائح ولا العقاقير هي التي تشفي النفس المريضة والتى تعطي الحياة للعقل الميت، والتى تطهر القلب النجس، ولكن منهج الكنيسة النسكي المتمثل في ضبط النفس، والحب، والصلاة، وحفظ العقل من غوايات الشيطان خلال الأفكار الشريرة. ولذلك فإننا نعتقد أن التقليد الأرثوذكسي مهم جداً لزمننا هذا، لأنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يحرر الإنسان ويشفيه من القلق والإحساس بعدم الأمان الذي جلبه موت النفس.

٢- العلاقات المتداخلة بين النفس، والعقل، والقلب، والذهن

يوجد بعض الخلط في نصوص الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء القديسين، ولكن يوجد أيضاً تمييز، بين مصطلحات نفس، وعقل، وذهن، وقلب . إن أي أحد يتلذذ بكتابات الآباء وبالعهد الجديد يواجه أولاً مشكلة الخلط بين هذه المصطلحات والمفاهيم المتبادلة. لقد كنت مشغولاً بهذا الموضوع لسنوات عديدة وحاولت أن أجد حلاً. وعندما قرأت المراجع في هذا الموضوع وجدت أن المفسرين بإستثناء البعض القليل كانوا غير قادرين على تحديد العلاقة والتمييز بين هذه المصطلحات . من أجل هذا سنحاول في هذا الفصل أن نفرق بينها، وأن نصف الإطار الذي يتحرك كل مصطلح في داخله .

لقد شرحنا من قبل أن نفس الإنسان مخلوقة على صورة الله، وحيث أن النفس تعطي حياة للجسد الملتصق بها، فإن صورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة. وحيث أن النفس موجودة في كل الجسد، فإننا يمكن أن نرى أن كلاً من الإنسان بكلِّيته وجسده ذاته كلاهما على صورة الله. إن اللحن الذى ألّفه القديس يوحنا الدمشقي والذى يُرتّل في خدمة الجناز مميَّز :" إنني أبكي وأنتحب عندما أفكر في الموت، وأتأمل جمالنا المخلوق على صورة الله، وهو قابع في القبر مشوهاً، وبلا كرامة، وعديم الشكل". من الواضح أنه في هذا اللحن يقصد بصورة الله الجسد الموضوع في القبر.

العقل والنفس Nous and Soul

توحِّد نصوص العهد الجديد وكتابات الآباء بين النفس والعقل. فمصطلحا "عقل" و"نفس" يتبادلان. يكتب القديس يوحنا الدمشقي قائلاً أن العقل هو أكثر أجزاء النفس نقاوة، فهو عين النفس: "لا تقتني النفس العقل كشيء متميز عنها، ولكن كأكثر أجزائها نقاوة. فمثلما تكون العين للجسد هكذا يكون العقل للنفس". إنه يقول إذاً أن النفس تقتني العقل كعين لها[71].

يستعمل القديس غريغوريوس بالاماس مصطلح "عقل" بمعنيين: إنه النفس بجملتها والصورة، كما أنه أيضاً قوة النفس، مثلما شرحنا من قبل في موضع آخر. لأنه كما أن الله الثالوث هوعقل وكلمة وروح، هكذا أيضاً النفس لها عقل وكلمة وروح. وبذلك يقول هذا القديس أن العقل يتطابق مع النفس ولكنه أيضاً هو قوة النفس.

سوف أستشهد بنص مميز يحتوي على هذه المفاهيم. يكتب القديس أنه بعد خلقة الإنسان، رأى الملائكة بأعينهم "نفس الإنسان وهي متحدة بالحواس والجسد، وكانوا يرون إلهاً آخر ليس فقط أتى للوجود على الأرض من خلال الصلاح الإلهي ولكنه تحول أيضاً من خلال نعمة وجود الله لكي يكون في نفس الجسد والعقل والروح، بحيث تكون النفس على صورة الله ومثاله ومتحدة تماماً في العقل والكلمة والروح"[72].

تظهر النقاط التالية في هذا النص: إنه يتحدث أولاً عن النفس المتحدة بالجسد والحواس، وبعد ذلك بقليل يحدث تداخل بين مصطلحي "عقل" و"نفس". فبدلاً من كلمة "نفس" يستعمل كلمة "عقل". ثم بعد ذلك يستعمل التقسيم: جسد وعقل وروح جاعلاً الروح هي نعمة الروح القدس طالما أن الله لم يخلق الإنسان من نفس وجسد فقط"، ولكنه منحه النعمة الإلهية أيضاً. من أجل ذلك تكون تلك هي النفس الحية بالحقيقة"[73]. ويكتب بعد ذلك أن النفس في كونها على صورة الله ومثاله، تكون "متحدة تماماً في عقل وكلمة وروح".

يبدو واضحاً إذاً في هذا النص أن النفس هى على صورة الله، وأن العقل في بعض الأحيان يكون متطابقاً مع النفس، وفي أحيان أخرى يُرى على أنه قوة النفس أو عين النفس كما يقول القديس يوحنا الدمشقي.

---

71 . The Orthodox Faith. FC vol. 37, p. 236

72 . St. Gregory Palamas. On the Holy Spirit 2,9

73 . Ibid. 8

يظهر تطابق كلمة عقل مع كلمة نفس في نص آخر للقديس غريغوريوس بالاماس حيث يكتب في أحد الفصول قائلاً: "ليس التركيب الجسدي ولكن الطبيعة العقلية هي التي تقتني صورة الله تلك، ولا يوجد شيء في طبيعتنا أعلى من العقل"[٧٤].

إن نفس الإنسان في كونها على صورة الله هي ثالوثية، فهي عقل، وكلمة، وروح. وحيث أن كلمة "عقل" و"نفس" تتوحدان بمعنى عام، فإن كلمة "عقل" أيضاً لها ثلاث قوى. فبينما أن العقل هو أحد قوى النفس، إلا أنه هو في نفس الوقت النفس بجملتها. وسوف نستعين بنص متميز للقديس غريغوريوس الذي يقول: "عندما تصير وحدانية العقل ثلاثية بينما تبقى واحدة، فإنها تكون متحدة بالله الواحد الثالوث. فوحدانية العقل تصير ثلاثية بينما تبقى واحدة عندما تعود لنفسها، وترتفع من خلال ذاتها لله"[٧٥]. فالنفس هي إذاً "واحدة رغم أن لها عدة قوى"[٧٦]، إحداها هي العقل، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن النفس تسمى أيضاً بجملتها مع قواها الثلاثة عقلاً.

لقد رأينا بالفعل كيف أن الآباء يشيرون إلى النفس عندما يتكلمون عن صورة الله. ولكن يقال أيضاً في نفس الوقت أن الصورة يُقصَد بها العقل: "ليس التركيب الجسدي ولكن الطبيعة العقلية هي التي تقتني صورة الله تلك"[٧٧] .

ومثلما فى الله جوهر وقوة، هكذا أيضاً النفس التي هي على صورة الله، لها جوهر وقوة. وحيث أنه، مثلما رأينا، يتم التوحيد بين العقل والنفس، فإن العقل أيضاً له جوهر وقوة.

يحلل القديس غريغوريوس بالاماس هذه الحقيقة بكل حكمته وتمييزه، قائلاً أن القلب هو جوهر النفس، ونشاط العقل الذى يتضمن أفكاراً وصوراً عقلية هو قوة النفس لذلك، فالعقل أيضاً له جوهر وقوة. ويُستعمل، إذاً، مصطلح "عقل" في بعض الأحيان ليعني جوهر وفي أحيان أخرى ليعني قوة أو طاقة أو فعل. يكتب القديس بتمييز: "إن ما يسمى عقلاً هو أيضاً نشاط العقل، ويتضمَّن أفكاراً وصوراً عقلية. العقل هو أيضاً القوة التي تؤدي إلى ذلك والتي تسمى في الكتاب المقدس القلب"[٧٨]. وعندما قام

---

74 . 150 chapters, ch. 27
75 . On the Hesychasts. Cf. EF p. 409f. Gk. Philok. 4, p. 133
76 . Ibid. EF p. 410, 3
77 . 150 chapters, ch. 27
78 . EF p. 410,3

معاصرو القديس غريغوريوس بلومه عندما تكلم عن عودة العقل للقلب، كتب: "يبدو أن مثل أولئك لا يدركون أن جوهر العقل شيء، بينما طاقته هي شيء آخر"[79].

العقل والقلب Nous and Heart

يسمى العقل أيضاً جوهر النفس، أي القلب. يوجد تطابق بين العقل والقلب في عدة نصوص من الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء، حيث أن هذه المصطلحات تُستعمل بالتبادل. يبارك الرب أنقياء القلب قائلاً: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت٥ : ٨). الله يُستعلن في القلب، وحيث يستطيع الإنسان أن يعرفه. ويكتب بولس الرسول قائلاً أن إستنارة الله توجد هناك: "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو٤ : ٦). ويصلي نفس الرسول قائلاً: "كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين" (أف١: ١٧-١٨). إذاً القلب هو الذي يتلقى إعلان معرفة الله. وتُستبدل كلمة قلب في مواضع أخرى بكلمة عقل. عندما كان الرب وسط تلاميذه بعد القيامة: "فتح ذهنهم Nous ليفهموا الكتب" (لو٢٤ : ٢٥). وطالما أن الإنسان يأتي لمعرفة الله من خلال فتح عيني قلبه وتطهير قلبه فإن عبارة "فتح ذهنهم ليفهموا" هي نفسها عبارة "فتح قلوبهم". وبالمثل عبارة "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" هي ذاتها بحسب إعتقادي مرتبطة بالنص الرسولي القائل: "تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم Nous" (رو١٢ : ٢).

وبنفس المعنى يسمى العقل أيضاً "قلب". والمصطلحان متبادلان. يفسر القديس مكسيموس قول السيد المسيح: "بل أعطوا ما عندكم صدقة فهوذا كل شيء يكون نقياً لكم" (لو١١ : ٤١) قائلاً: "ينطبق هذا على أولئك الذين لا يعودون يقضون وقتاً في الأمور المتعلقة بالجسد ولكنهم يجاهدون ليطهّروا العقل (الذي يدعوه السيد المسيح 'القلب') من الكراهية والتشتيت. لأن هذه تدنس العقل ولا تدعه يرى المسيح المقيم في داخله بنعمة المعمودية المقدسة"[80].

إذاً يسمَّى العقل جوهر النفس، الذي هو القلب. وبهذا المفهوم، يكون العقل والقلب متطابقين طالما أن المسيح يسكن في العقل.

---

[79] . Triads, 1, 2, 5. CWS p. 44
[80] . Philok. 2, p. 109, 73

العقل والذهن Nous and reason

تسمى طاقة العقل التى تتضمن الأفكار والصور العقلية عقلاً أيضاً. يكتب بولس الرسول إلى أهل كورنثوس قائلاً: "لأنه إن كنت أصلي بلسان، فروحي تصلي، وأما ذهني فهو بلا ثمر. فما هو إذا، أصلي بالروح وأصلي بالذهن أيضاً. أرتل بالروح وأرتل بالذهن أيضاً" (١كو١٤: ١٤-١٥). نرى في هذا النص أن روح الصلاة هي عطية التكلم بألسنة، وأن العقل هو الذهن. تتطابق، إذاً، هنا كلمة عقل مع كلمة ذهن. كما توجد نصوص عديدة في الكتاب المقدس لها نفس المعنى.

حينما يعطي القديس مكسيموس المعترف إسم "عقل" للذهن وللقلب الذي هو مركز كياننا والذي من خلاله نكتسب معرفة الله، فإنه يقدم تمييزاً ونوع نشاط كل وظيفة: "العقل النقي يرى الأمور بصورة صحيحة بينما يقوم الذهن المدرَّب بترتيبها"[٨١]. إن العقل(القلب) هو الذي يرى الأمور بوضوح ولذلك يجب عليه أن يكون مُطهَّراً، بينما الذهن هو الذي يصيغ ويُعبِّر عما رآه العقل.

من خلال هذا النص نصل لتأكيد أنه لكي يصبح المرء واحداً من آباء الكنيسة فإنه من الضروري أن يكون لديه ليس فقط عقل نقي، ولكن أيضاً التعبير الصحيح الذي هو الحديث المحنَّك لكي يستطيع أن يُعبِّر بقدر الإمكان عن هذه الحقائق الفائقة للطبيعة.

العقل والإنتباه Nous and Attention

يستعمل بعض الآباء كلمة "عقل" ليصفوا الإنتباه الذي هو أكثر حدة من الذهن[٨٢]. يربط ثيوليبتوس الذي من فيلادلفيا بين العقل والإنتباه وبين الكلمة والتوسل وبين الروح والندم والحب. عندما تعمل قوى النفس بهذه الطريقة فإن"كل باطن الإنسان يخدم الله. ولكن يحدث أحياناً أنه بينما يكون الذهن مقدِّماً كلمات الصلاة، يكون العقل (الإنتباه الأكثر حدة) غير متماش معه أي لا يثبِّت نظره على الله الذي تتحدث معه كلمات الصلاة، بل يكون مشتتاً بأفكار عديدة بدون أن يدرك ذلك. يقول الذهن إذاً الكلمات على سبيل العادة، ولكن العقل يكون محمولاً بعيداً عن معرفة الله. وبالتالي تبدو النفس أيضاً غير واعية وغير منظمة، طالما أن العقل يكون مشتتاً في خيالات مختلفة ويكون متورطاً في أمور تخدعه أو في أمور يشتهيها"[٨٣].

---

81 . Philok. 2, p. 82, 97
82 . Triads, 1, 2, 7. CWS p. 46
83 . Philok. 4, p. 8 (in Gk.). Writings, p. 388f

لذلك يجب على العقل الذي ليس هو مجرد أفكار، ولكنه إنتباه أكثر حدة، أن يعود للقلب أي لجوهر النفس، الذي هو كامن في القلب اللحمي كعضو، طالما أن القلب اللحمي هو موضع الذهن وهو " العضو العاقل الأول في الجسد". ويجب علينا بالتالي أن نركز عقلنا المشتت خارجاً بالحواس، وأن نعيده إلى "القلب الذي هو موضع الأفكار"[٨٤].

إننا لم نقم بتغطية موضوع العقل كلية. لقد أردنا فقط في هذا الفصل أن نقوم بطريقة ما بالتفريق بين مصطلحات عقل وقلب ونفس وأن نحدد العلاقة والفرق بينهم. سوف نعود لهذه المفاهيم عندما نتحدث بأكثر استفاضة عن العقل والقلب والأفكار.

نريد في هذا الفصل أن نؤكد بإختصار على أن مصطلح "عقل"Nous له عدة معاني في التقليد الكتابي الآبائي. فالعقل يتطابق مع النفس، ولكنه في نفس الوقت هو طاقة النفس. وكما هو الحال مع النفس، هكذا أيضاً العقل هو على صورة الله. وتماماً مثلما تنقسم النفس إلى جوهر وطاقة هكذا أيضاً العقل. ومثلما هو الحال في الله حيث أن جوهره وطاقته متميزان ولكن بغير إنفصال، هكذا الحال مع العقل.

من أجل ذلك يصف الآباء في بعض المواضع العقل كجوهر، الذي هو القلب، حيث يوحدون بين العقل والقلب، على حين أنهم في مواضع أخرى يصفون العقل كطاقة، أي صور عقلية، وأفكار، وإنتباه أكثر حدة والذي يتشتت من خلال الحواس، حيث يجب عليه أن يعود للقلب. ولكن يتكلم الآباء بوجه عام عن العقل على أنه القلب والنفس، بدون إستبعاد المعاني الأخرى التي أشرنا إليها من قبل.

لقد فقدنا تقليدنا الخاص بذلك، ويوحِّد الكثيرون منا بين العقل والذهن. إننا لا نتوقع بالمرة أن يكون هناك بخلاف الذكاء قوة أخرى ذات قيمة أعلى والتي هي العقل أو القلب. **إن كل الحضارة هي حضارة تنادي بفقدان القلب. ولا يستطيع المرء أن يفهم ما هو ليس موجوداً داخل قلبه.** لقد مات القلب، وإظلمَّ العقل، ولا نستطيع أن ندرك وجودهما. من أجل ذلك كان هذا التوضيح ضرورياً.

ولكن الشخص الذي يحمل الروح القدس داخله، وهو في حالة "الإستعلان"، ليس محتاجاً لتوضيحات كثيرة، لأنه هو ذاته يعلم بخبرته بوجود وحضور العقل أي القلب في داخله.

---

84 . Triads, 1, 2, 3. CWS p. 43

٣- العقل والقلب والأفكار

Nous, Heart and Thoughts

إن ما قلناه من قبل هو مقدمة لتحليلنا وتفسيرنا للحياة الداخلية للنفس. ومرض وشفاء النفس هما أساساً مرض وشفاء العقل والقلب والأفكار. ومايتبع ذلك يدور حول هذا الموضوع. وسوف نتعرض لهذا الموضوع فيما يلي وسوف ندرس العقل والقلب والأفكار كلاً على حدة. وأظن أن هذا التحليل سوف يساعدنا على فحص ذواتنا الداخلية.

(أ) العقل

لقد أكَّدنا بالفعل على أن مصطلح " عقل" Nous له عدة معاني في كتابات آباء الكنيسة. أحياناً ما يتم تطابقه مع النفس، وأحياناً أخرى يكون كطاقة للنفس، وعين النفس، وأحياناً ثالثة يوحي التعبير بجوهر النفس أو بطاقتها وفي أحيان أخرى يعني الإنتباه واليقظة التي هي أكثر حدة من الذهن. في هذا الفصل سوف ننظر للعقل على أنه عين النفس. سوف نتناول هذا التعبير لنعني به بصفة رئيسية قوة النفس[85] بالإضافة إلى كونه أكثر أجزاء النفس نقاوة، الذي هو عين النفس، بحسب أقوال القديس يوحنا الدمشقي: "لا تقتني النفس العقل كشيء منفرد عنها، ولكن كأكثر أجزائها نقاوة، لأنه مثلما تكون العين للجسد هكذا يكون العقل للنفس"[86]. إن عين النفس هذه التي هي العقل، والتي تعمل من خلال الحواس، هي التي تتدنس وتمرض وتحتاج للشفاء. مثلما يظلم كل الجسد عندما تمرض عين الجسد، هكذا يكون الحال مع عين النفس، التي هي العقل، حيث تظلم كل النفس فى الإنسان حين يكون العقل مريضاً. إن هذا هو ما عناه السيد المسيح حين قال:" إن كان النور الذي فيك ظلاماً، فالظلام كم يكون" (مت٦:٢٣). **عندما يترك العقل القلب ويبتعد عن الله، فإنه يمرض ويموت، ومن ثم تموت كل النفس.** سوف نرى ذلك بطريقة أكثر تحليلاً فيما يلي.

85 . Ibid. CWS p. 42

86 . The Orthodox Faith. FC vol. 37 p. 236

الحياة الطبيعية للعقل

يحدد الآباء حياة العقل الطبيعية بوضوح ويقول نيسيتاس ستيثاتوس : "إن الله عقل عديم الهوى وفوق كل عقل وكل لا هوى. إنه النور ومصدر النور الصالح، إنه الحكمة والكلمة والمعرفة كما أنه معطي الحكمة والكلمة والمعرفة"[87]. وحيث أن الإنسان هو صورة الله فهو أيضاً يقتني عقلاً عديم الهوى عندما يكون عقله في "حالته الطبيعية ولا يتحرك خارج درجته وطبيعته". وهكذا يرغب ويريد عقل الإنسان أن يكون متحداً بالله "الذي منه أخذ بدايته"، ومن خلال صفاته الطبيعية يعود إليه "ويشتهي أن يحاكيه في بساطته وحبه للإنسان". ومثلما ولد الآب الكلمة الذي يلد ويجدد خلقة الإنسان هكذا أيضاً عقل النفس يلد الكلمة، "ويجدد نفوس البشر من نفس جنسه ويجعلهم أقوياء ليثابروا في الفضائل النشطة". والعقل لا يقوم فقط بتجديد نفوس البشر الآخرين من خلال الكلمة فقط ولكنه يعطيهم الحياة "بنفخة فمه". وهكذا فإن عقل الإنسان الذي يتحرك نحو الله يجدد النفوس الأخرى، ويحاكي الله" الذي يُظهر هو ذاته كخالق للخليقة العاقلة وللكون العظيم"[88].

يُظهر هذا النص الذي لنيسيتاس ستيثاتوس أنه عندما يتحرك العقل طبيعياً نحو الله ويتحد به، يصبح هو أيضاً بالنعمة في نفس حال العقل السماوي(الله) بالطبيعة.

إن إتحاد العقل بالله هو وقوف، ولكنه في نفس الوقت حركة، طالما أنه لا يمكن إتمام الكمال أبداً بوجه عام. يكتب القديس مكسيموس عن الوقوف الدائم الحركة والحركة الساكنة. طالما الإنسان يثبت في الله فهو في حركة مستمرة. يقول نيسيتاس ستيثاتوس نفس الشيء عن العقل :" **كل العقول الثابتة فى الله العقل الأول تكون في وقوف دائم وحركة لانهائية**". لا يكون الحال هكذا مع العقل الغير نقي، ولكن مع العقل النقي والغير دنس[89]. عندما يتحد العقل بالعقل الأول(الله) يصير صالحاً وحكيماً. "الله وحده هو الصالح والحكيم بطبيعته ولكنك لو بذلت ذاتك فإن عقلك أيضاً يصير صالحاً وحكيماً بالشركة"[90].

ولكى نصف الحالة الطبيعية للعقل، لابد أن نحدد بوضوح ماهى حركاته الطبيعية. وغير الطبيعية، والفائقة للطبيعة. يصف القديس مرقس الناسك الحركات الثلاث التي

---

87. Gnostic chapters, 1. Gk. Philok. 3 p. 326, 1
88. Ibid. p. 329, 12
89. Ibid. p. 332, 28
90. St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 37

للعقل قائلاً: "يتغير العقل من واحدة لأخرى من ثلاثة حالات مختلفة وهي: تلك التي بحسب الطبيعة، والتي هي فوق الطبيعة، وما هي ضد الطبيعة". فعندما يدخل العقل الحالة التي بحسب الطبيعة، يجد أنه هو ذاته علة الأفكار الشريرة، ويعترف لله بخطاياه، فاهماً بوضوح أسباب الأهواء. وعندما يدخل في الحالة التي هي ضد الطبيعة، فإنه ينسى عدل الله ويحارب الناس ويعتقد في ذاته أنه يُعَامَل بغير عدل. ولكنه عندما يرتفع للحالة التي هي فوق الطبيعة فإنه يجد ثمار الروح القدس"[91]. وحياة الروح تُظهر الحالة الطبيعية التي للعقل، وهي التي ترسم نموه الطبيعي. وعندما يثابر شخص ما في جعل عقله يتحرك بحسب الطبيعة، فإنه يبقى نقياً من النطاق المادي ويكون "مزيناً بالوداعة والتواضع والحب والحنو ويكون مستنيراً بنور الروح القدس"[92].

يقول القديس مكسيموس المعترف:" يعمل العقل بحسب الطبيعة عندما يبقى متحكماً في الأهواء ويتأمل في الجوهر الداخلي الذي للكائنات المخلوقة ويبقى ثابتاً في الله"[93].

يؤكد الآباء القديسون أيضاً على حقيقة **أن العقل يتغير مع كل صورة عقلية للأشياء التي يقبلها**. فهو عندما يتأمل الصور العقلية للأشياء بطريقة روحية، "يتحول بطرق متنوعة حسبما يتأمل في أيٍ منها". وعندما يتحد بالله يفقد الصورة والشكل معاً[94]. من أجل ذلك **فإنه من المهم جداً للعقل أن يتعلم أن يتلقى الصور العقلية للأشياء بطريقة روحية لأنه لو لم يحيا في حالته الطبيعية فإنه يتشوه وعندما يتشوه العقل الذي هو عين النفس فمن الطبيعي أن تتشوه كل النفس**. إذ أنه عندما تتدنس إحدى قوى النفس وتصبح مريضة فإن كل القوى الأخرى تتشوه وتمرض طالما أن " النفس واحدة"[95].

العقل هو إذاً ما يحدد الحالة الكاملة للمرء لأنه هو مُغذي النفس. يقع عقلنا بين شيئين: الفضيلة والرذيلة، الملاك والشيطان، وكل واحد فيهما يعمل لصالحه الخاص. عندما تتحد النفس بالحرية "يكون لديها السلطة والقوة لكي تتبع أوتقاوم أيهما بحسب ما تريد"[96]. **والذي يقسم النفس هو العقل**. يمرض العقل أولاً ثم يدنس كل النفس ويؤدي إلى ضلالها. "تذهب النفس أينما يعطي العقل قوة دافعة لأي هوى بشري"[97]. **ومن**

---

91 . Philok. 1, p. 132, 90
92 . Nicetas Stethatos, Gnostic chapters, 13. Gk. Philok. 3. p. 329
93 . Philok. 2, p. 105, 45
94 . Ibid. p. 98, 97
95 . St. Gregory Palamas. EF p. 410, 3
96 . St. Maximus. Philok. 2. p. 98,92
97 . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters, 17. Gk. Philok. 3, p.330

الأشياء المميزة للعقل أنه عندما يصير شيء ما هو إهتمامه الدائم فإنه يزدهر هناك ويحول بالتالي الرغبة والحب في هذا الإتجاه. وقد يكون هذا إما في إتجاه ما هو إلهي وعقلاني ومتناسب مع طبيعته أو في إتجاه الأهواء وأمور الجسد[98].

عندما يكون هوى الحب خاطئاً فإنه يشغل العقل بالأمور المادية، ولكنه عندما يكون موجهاً في الإتجاه الصحيح "فإنه يجعله يتحد بما هو إلهي"[99]. من أجل ذلك يعطي النسك الأرثوذكسي أهمية كبرى لتقدم وتحرك العقل. لأنه عندما يتحول العقل ويتطلع نحو الأمور المادية ويتدنس بالصور العقلية للأشياء فإنه يمرض وينقل هذا المرض لكل قوى النفس.

نستطيع أن نقول بوجه عام أن حركات العقل هي بحسب الطبيعة وفوق الطبيعة وضد الطبيعة. يتحرك العقل بالحرية التي يمتلكها وبحسب رغبته الخاصة، ويتغير بحسب الطريق الذي يتبعه والمكان الذي يبقى فيه، وبعد ذلك يغير النفس إما سلبياً أو إيجابياً: "يوجه الناس أذهانهم إما لخطاياهم أو للمسيح أو للناس"[100]. أعتقد أن ذلك سيصبح أكثر وضوحاً فيما يلي عندما نتحدث عن مرض وشفاء العقل.

يعلم القديس غريغوريوس أسقف نيصص قائلاً :" .... العقل ليس قاصراً على أي جزء فينا لكنه موجود بالتساوي في الكل وخلال الكل...". يمثل إتحاد العقل بالجسد إتصالاً يفوق الوصف ولا يُعبِّر عنه "ليس أنه موجود في داخله (لأن الغير جسداني لا يمكن أن يُحتوى داخل جسد) وليس أنه يحوطه من الخارج (لأن الغير جسداني لا يحتوي أي شيء داخله)، ولكنه إذ يقترب من طبيعتنا بطريقة غير مفهومة وإذ يتحد بها، فهو يُرى على أنه موجود فيها وحولها معاً وليس مزروعاً في داخلها ولا مطوياً معها"[101].

يشرح القديس غريغوريوس بالاماس نص القديس مكاريوس الذي يعلِّم أن العقل وكل أفكار النفس موجودة في القلب اللحمي كما يشرح أيضاً نص القديس غريغوريوس أسقف نيصص الذي يعلم أن العقل لكونه عديم الجسد فإنه غير موجود في الجسد، ويكتب أن هذيْن النصيْن ليسا متعارضين معاً ولكنهما يكملان بعضهما البعض. يمتلك القديسان مكاريوس وغريغوريوس أسقف نيصص إفتراضين مختلفين. أي أن القديس مكاريوس يتكلم عن العقل في الجسد بمعنى معين، على حين أن القديس غريغوريوس يتكلم عن العقل خارج الجسد بمعنى آخر. تماماً مثلما يقول شخص ما أن الله الغير

---

98 . St. Maximus. Philok. 2, p. 94, 71
99 . Ibid.
100 . Abba Ilia. Sayings. P. 60, 5
101 . The Making of Man, ch. 15. NPNF ns vol. 5. p. 403f. PG 44, 177BC

جسداني ليس موجوداً في مكان بعينه ويكون هذا القول غير متعارض مع قول القائل أن الكلمة كان موجوداً في وقت ما في العذراء الطاهرة والدة الإله. هكذا الحال مع هذه النصوص الآبائية التي تتكلم عن العقل. فعقل الإنسان يكون خارج الجسد لكونه عديم الجسد ولكنه داخل الجسد أيضاً مستعملاً القلب بطريقة غير موصوفة كعضو الجسد الأول"[١٠٢]. لقد شرحنا في فصل آخر أن العقل له جوهر وطاقة وأنه موجود في القلب كجوهر على حين أنه يعمل في الأفكار كطاقة، وهكذا فإنه يأتي خارج الجسد ويلد الصور العقلية للأشياء. يدخل العقل القلب في الحالات الطبيعية وتدخل الطاقة الجوهر وهكذا ترتفع نحو الله. هذه هي الحركة الدائرية للعقل التي سنتحدث عنها بعد قليل.

لا يمتلك العقل الذي على صورة الله حياة إلا عندما يتحد بالله وعندئذ يصبح حكيماً وصالحاً. هذه هي حياة العقل. يكتب بولس الرسول قائلاً:" لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه وأما نحن فلنا فكر المسيح"(١كو٢ : ١٦). الحالة الطبيعية للعقل هي بالنسبة له أن يتحد مع عقل المسيح وبالتالي يستنير ويستضيء. توجد "الحياة الحقيقية والطاقة الحقيقية للعقل" عندما ينشغل فكر النفس بالرؤى الإلهية ويرفع تسبيحاً وشكراً لله وعندما يلصق نفسه بالله بتذكر دائم له"[١٠٣].

الابتعاد عن الله يجعل العقل ميتاً على حين أن حياة العقل هي الشركة والإتحاد به. يقول القديس مكسيموس أن نور المعرفة الروحية هو حياة العقل وحيث أن هذا النور يتولد عندما نحب الله. فإنه لا يوجد شيء أعظم من أن نحب الله"[١٠٤].

مثلما يحتاج الجسد للخبز لكي يحيا، وتحتاج النفس للفضيلة لكي تحيا، هكذا أيضاً تكون الصلاة الروحية غذاءً للعقل"[١٠٥]. تغذي الصلوات العقل وتعطيه حياة. عندما يتحرك العقل نحو الله ويتحد به فإنه يكون حياً وسليماً وفي هذه الحالة فإنه يتلقى تعزية الله. يحصل العقل على الصحة والإدراك في الله. وتتكون هذه القدرة الإدراكية من "القدرة على التمييز بدقة بين مذاقات الحقائق المختلفة"[١٠٦].

من الضروري في الحياة الروحية أن يمتلك العقل حياة بحيث يكون قادراً على التمييز بين الأفعال والتعزيات الصادرة من الله وتلك الصادرة من الشيطان. عندما يكون العقل

102 . St. Gregory Palamas. Triads, 2, 2, 29
103 . Ibid. 2, 2, 23
104 . Philok. 2, p. 54, 9
105 . Evagrius. Philok. 1, p. 67, 101
106 . St. Diadochos of Photiki. Philok. 1, p. 261, 30

سليماً ويكرس نفسه بإستمرار للحقائق الإلهية "يصير الجزء الحسي من النفس سلاحاً إلهياً"[١٠٧]. وبالتالي تصير النفس بكليتها سليمة. **فالعقل هو عربة تجر النفس إما نحو الله أو نحو الشيطان وأفعال الرذيلة**. على أي الأحوال عندما تكون النفس سليمة فإنها تحصل على الإطمئنان من الله. إن وصية بولس الرسول عن إمتلاك عقل نقي وحي واضحة:" فليتيقن كل واحد في عقله"(رو١٤ : ٥).

على الرغم من أن العقل هو أحد قوى النفس بالمعنى الذي يعنينا في هذا الفصل إلا أنه يمتلك قوى وطاقات أخرى. يعلن نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً أن للعقل أربعة قوى: الفهم والفطنة والإدراك وسرعة البديهة. يجب أن تتحد هذه القوى الأربعة للعقل بفضائل النفس الأربعة العامة: يجب أن يتحد فهم العقل بضبط النفس، والفطنة بالحس الأخلاقي، والإدراك بالعدل، وسرعة البديهة بالشجاعة. تُكوِّن هذه معاً "المركبة النارية العابرة للسموات" والتي تواجه الأهواء الثلاثة التي للبخل والشهوانية والطموح[١٠٨].

أجزاء العقل هذه هي بلا شك غير مفهومة بالنسبة لنا إلا أن الآباء من خلال جهاداتهم ومن خلال إستنارة الروح القدس ميزوا وحددوا هذه القوى وصاروا على علم بالتركيب الداخلي الكامل للنفس. يصل الشخص الذي يحيا "في الإعلان" ويستنير بالروح القدس إلى معرفة كل أعماق النفس وكل قوى العقل الغير معروفة والغير معبر عنهما لمن يكون بعيداً عن النعمة. وبالإضافة إلى ذلك يكون الإنسان بكُلِّيته غامضاً ومجهولاً بالنسبة لمن يكون بعيداً عن الله.

تُظهر كل الأمور التي أشرنا إليها الحالة الطبيعية للعقل كما تعمل في الإنسان الطبيعي في إنسان الله. "إن مهمة العقل هي رفض أي فكر يحتقر القريب في السر"[١٠٩]. وعندما يكون العقل في الحالة الطبيعية فإنه يصد الأفكار النابعة من الشيطان ويصد بوجه عام كل فكر مضاد للحب. وهكذا تصير النفس كاملة عندما تغتني بمعرفة الله: "تصير النفس كاملة عندما تتغير بالمعرفة الروحية"[١١٠]. هذه المعرفة هي معرفة الله ومعرفة الأشياء المخلوقة بطريقة تعلو فوق المعرفة. "إن العقل الكامل هو الذي من خلال إيمان حقيقي وبطريقة تفوق كل المعرفة يعرف ذاك الغير معروف ويفحص كل خليقة الله "[١١١].

107 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 49
108 . Practical chapters, 12. GK. Philok. 3, p. 275
109 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 327, 38
110 . Ibid. p. 316, 54
111 . St. Maximus. Philok. 2, p. 99, 99

مرض العقل

لقد إسودَّ العقل وإظلمَّ ومرض بالسقوط وكفَّ عن أن يكون كاملاً. ويحدث نفس الشيء في كل مرة يرتكب فيها الإنسان خطية.

إن حرب الشيطان الأولى هي مع العقل. فالشياطين تحاول أن تستعبده عندما يوافقها الإنسان ويرتكب الخطية. يعلِّم القديس مكسيموس أن الشياطين تستغل فرصة وجود الأهواء بالنفس فتثير الأفكار الشهوانية التي من خلالها تحارب العقل وتجبرها على أن توافق على الخطية. تشن الشياطين حرباً كبيرة لكي تأسر العقل وتجذبه ليصبح فكراً شهوانياً. وعندما ينهزم العقل "فإن الشياطين تقوده للخطية في الفكر وعندما يحدث ذلك فإنها تدفعه وهو في حال أسره أن يرتكب الخطية بالفعل". ولكن الشيطان لا يتوقف عند هذا الحد، فبعد أن تدمر الشياطين القلب بواسطة الأفكار الشهوانية فإنها تنسحب. وعلى الرغم من ذلك يبقى صنم الخطية في العقل. يقول القديس مكسيموس مُعلقاً على كلمات السيد المسيح: "... متى نظرتم رجسة الخراب ... قائمة في المكان المقدس" (مت٢٤ : ١٥) أن عقل الإنسان هو هيكل الله الذي "تقيم فيه الشياطين صنم الخطية من خلال تدمير النفس بواسطة الأفكار الشهوانية"[١١٢].

هذا هو مرض العقل. ليس فقط أنه مأسور ولكنه أيضاً مريض طالما أن صنم الخطية يبقى كجرح مستمر وكسبب لخطية جديدة. إننا نقول أن العقل في هذه الحالة يكون قد سُبي بالشيطان والأهواء "والعقل الذي تسوده الأهواء يفكر أفكاراً دنيئة". يظهر ذلك في الكلمات والأفعال"[١١٣].

+ **كل ما يقوله الإنسان أو يفعله يُظهر مرض أوصحة العقل. من أجل ذلك يدرك الذين يمتلكون موهبة التمييز حالة عقل كل إنسان من خلال حركاته الخارجية وكلماته.**

إن إرتباط العقل بالحواس "يستعبده للذات الجسدية"[١١٤]. وبدلاً من أن يتجه العقل نحو الله ويتحد به فإنه **يتجه ليتحد بالحواس** ويصبح بالتالي عبداً. وهذه العبودية وهذا الأسر هو مرض العقل ومن الطبيعي أن يؤدي هذا المرض لموت العقل.

سوف نستشهد فيما يلي بنصوص آبائية لكي نصف **بعض أحوال ومواصفات** مرض العقل.

---

112 . Ibid. p. 70, 31
113 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 319, 4
114 . Ibid. p. 316, 55

يتكلم الكتاب المقدس عن العقل **الفاسد**: "ومنازعات أناس فاسدي الذهن وعادمي الحق" (١تي٥ : ٦). وأيضاً الذين يقاومون الحق "أناس فاسدة أذهانهم" (٢تي٣ : ٨). يتحدث بولس الرسول عن أحد الهراطقة في عصره ويقول عنه أنه : "منتفخاً باطلاً من جهة ذهنه الجسدي" (كو٢ : ١٨). يؤكد هذا النص بوضوح على أنه عندما يكون الإنسان شهوانياً ومحروماً من عمل الروح القدس كما يشير علم لاهوت بولس الرسول فإنه يكون ذا عقل جسداني. بالإضافة إلى ذلك فإن العقل المبتعد عن الله يوصف على أنه "مرفوض" (رو١ : ٢٨). ولا يريد بولس الرسول أن يعيش المسيحيون مثل الأمميين "ببطل ذهنهم" (أف٤ : ١٧).

ويتكلم أيضاً الآباء مثل القديس ثالاسيوس عن كيفية تحرك العقل بعيداً عن مجال المعرفة الروحية عندما يبتعد الجزء الحسي من النفس عن فضائله[١١٥].

يوصف أيضاً مرض العقل بكلمة " **ظلمة**". فالعقل يكون مستنيراً بسبب كونه على صورة الله. ولكن عندما ينفصل عن الله ويفقد حالته الطبيعية، فإنه يسودُّ ويظلمُّ. يعلِّم هيزيخيوس القس أن الثمانية أفكار الرئيسية التي للشيطان والذي يصنف تحتها أيُّ فكر شرير، تقترب من مدخل القلب فإذا وجدت العقل غير محروس، فإنها تدخل القلب واحدة تلو الأخرى، كل فكر في حينه. وعندما تدخل أي فكرة منها فإنها "تدخل سرباً من أفكار شريرة أخرى وبذلك يظلم العقل فتثير الجسد وتحرضه على أعمال آثمة"[١١٦]. ويعلم هيزيخيوس أيضاً في موضع آخر قائلاً أنه عندما يحيا الإنسان حياة شريرة وفاسقة فإنه "يُدخل الظلام لعقله"[١١٧]. وهكذا تنصحنا تعاليم الآباء أن نراقب أفكارنا بحيث "لا يظلم عقلنا بل على العكس يصير بصيراً"[١١٨].

نستطيع إذاً أن نتكلم عن **العمى** وعدم قدرة العقل على رؤية الأشياء بوضوح. وعندما يظلم عقلنا لا نجد طريقاً نقياً مفتوحاً نحو القريب. بل يصير كل شيء مُدنساً ومظلماً ومصحوباً بنتائج مزعجة ومخيفة في حياتنا. وتماماً مثلما تحجب السحب الشمس هكذا تجلب الأفكار الشريرة ظلالاً على الذهن وتفسده[١١٩]. يظلم عقلنا ويبقى عديم الثمر إما عندما نتكلم بكلمات العالم أو عندما نستضيف مثل هذه الكلمات في أذهاننا ونتحد

115. Ibid. 56
116. Philok. 1, p. 194, 177
117. Ibid. p. 174, 69
118. St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 86
119. Ladder. Step. 26, Summary. CWS p. 257

بها أو عندما يتورط جسدنا مع العقل في أمور حسية. وعندئذ نفقد في الحال حماسنا ووخز ضميرنا وحميميتنا مع الله والمعرفة الروحية. وهكذا "بمقدار ما نركز إنتباهنا في العقل بمقدار ما نستنير. ولكن عندما لا نكون منتبهين له فإننا نكون في الظلام"[١٢٠].

الظلام يسمَّى أيضاً عمى، لأنه عمى حقيقي للعقل. ويصبح العقل أعمى بالثلاثة أهواء التي هي الطمع، والكبرياء، واللذة الحسية[١٢١]. ويقول نيسيتاس ستيثاتوس أن جهل العقل الأرضي الذي هو ضباب وظلام عميق "يغطي أعين النفس ويجعلها مظلمة ويعتم إدراك ما هو إلهي وما هو إنساني بحيث يصير غير قادر على التطلع في أشعة النورالإلهي أو التمتع بهذه الأشياء الحسنة التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر"[١٢٢]. العقل والنفس بوجه عام غير قادرين على تأمل الله وعلى الإستنارة. وهذا هو المرض والموت. وفي هذه الحالة لا يستطيع الإنسان أن يجد الحق. يُعلِّم القديس باسيليوس الكبير أن العين لا تستطيع أن ترى شيئاً بوضوح عندما تبقى متحركة أحياناً جانباً وأحياناً أخرى لأعلى وأسفل بإستمرار. وهكذا يكون الحال مع عين النفس التي هي العقل "الذي إذ يتشتت بآلاف الإهتمامات العالمية لا يستطيع أن يبصر الحق بوضوح"[١٢٣].

يوجد مرض آخر للعقل وهو **التصلب وعدم الحساسية والتبلد**. يقول القديس يوحنا الدرجي: "إن إمتلاك قلب غير حساس هو إمتلاك عقل متبلد"[١٢٤].

عندما تأتي الشياطين للنفس وتطفئ نور العقل لا يعود بعد في داخلنا لا رزانة ولا بصيرة ولا معرفة الذات أو الخجل، بل نُترك مع "التبلد وعدم الحساسية واللاتمييز والعمى"[١٢٥].

العقل المتوعك يكون **أسيراً وسجيناً**: "الأهواء الشريرة تأسر العقل وتربطه بالأشياء الحسية"[١٢٦]. يقول القديس مكسيموس أنه مثلما لا يستطيع العصفور المربوط من رجليه أن يطير مهما يحاول فهو ينجذب للأرض. "بالمثل عندما يطير العقل الذي لم يصل بعد للاَّهوى مرتفعاً ناحية المعرفة الروحية فإنه يمسك بواسطة الأهواء وينجذب لأسفل نحو

120 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 184, 127
121 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 184, 127
122 . Natural chapters, ch. 87. Philok. 3, p. 320 (in Gk.)
123 . St. Basil the Great. FC vol. 13, p. 9. Letter 2
124 . Ladder. Step 6. CWS p. 133
125 . Ibid. Step. 26. CWS p. 230
126 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 321, 41

الأرض"[١٢٧]. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك مهما حاول أن يطير للمعرفة الروحية لو لم يتحرر من الأهواء التي تربطه وتبقيه أسيراً للأرض. يصير العقل مُجبراً على الأهواء المختلفة ولا يستطيع أن يصلي لله صلاة نقية[١٢٨]. "العقل المغرور هو غيوم بلا مطر محمول برياح الكبرياء والفخر"[١٢٩]. والعقل المريض بهوى الكبرياء هو تحت الوهم إذ يحاول أن يحصر الإلهي في صور وأشكال[١٣٠].

يصف هيزيخيوس القس أيضاً الطريقة التي يصبح بها العقل أسيراً. فهو عندما يكون عديم الخبرة وبلا يقظة يبدأ فوراً في إستضافة أي خيال شهواني يظهر فيه وهذا ما يجلبه الخيال معه. وبعد ذلك يتحاور معه ثم يستجيب له، وهكذا "تصبح أفكارنا الخاصة متحدة مع الخيال الشيطاني". **وإذ ينمو الخيال ويزدهر يمرض العقل**[١٣١].

وبخلاف الحالات المرضية للعقل التي أشرنا إليها بالفعل توجد أيضاً **النجاسة**. يقول بولس الرسول:" كل شيء طاهر للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم"(تي١ : ١٥). من الممكن أن يتنجس العقل ليس فقط بخطية عظيمة مميتة ولكن أيضاً بكلمة واحدة تقال بلا مبالاة. ولكن لا يحدث ذلك في الأغلب إلا مع ذاك الذي ذاق سعادة وتأثير الصلاة[١٣٢].

يتكلم القديس يوحنا الدرجي عن **ضربة سريعة للعقل** والتي يتمكن فيها إلحاح شهواني مفاجئ من ضحيته بدون أي كلمة أو صورة وفي وقت قصير. فمن الممكن أن يثار الهوى في عقل الإنسان بحركة بسيطة بدون أن يسبقه أي فكر مُركَّب[١٣٣].

وهكذا يتضح مما قيل أن مرض العقل هو الفساد والظلام والعمى واللامبالاة وعدم الحساسية والأسر والوهم والنجاسة والضربة السريعة للعقل. إن كل ما يستعبد العقل ويجعله ينحرف عن حركته الطبيعية هو مرض يؤدي إلى موت العقل. وفي هذه الحالة يكون الإنسان مريضاً ومدنساً ومائتاً بالكلية.

---

127 . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 85
128 . Evagrius. Philok. 1, p. 61, 51
129 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 326, 26
130 . Evagrius. Philok. 1, p. 68, 116
131 . Philok. 1, p. 187, 144
132 . Ladder. Step 28. CWS p. 279f
133 . Ibid. Step 15. CWS p. 182

شفاء العقل

تقتضي الحياة الأرثوذكسية فوق كل شيء ضرورة شفاء القوة العقلية. وحيث أنه عندما يظلم العقل تظلم النفس وتتدنس بكليتها، فإن شفاء العقل يؤدي إلى شفاء الكيان كله. دعونا نتناول الآن موضوع شفاء العقل.

سوف نحصر أنفسنا في نقطتين رئيسيتين لكي نوضح الموضوع. الأولى هي كيف يمكن الحصول على هذا الشفاء والثانية هي النتائج.

إن أحد التعاليم الرئيسية لقديسينا هي أن شفاء العقل يتم من خلال **حراسته** وهذا ما يسمى "باليقظة". فحراسة العقل هي" برج مراقبة لكل حياتنا الروحية"[١٣٤]. ولقد سُميت حراسة العقل "بالمُحدِثة للنور، والمحدثة للإستنارة، والواهبة النور، والحاملة النار". وهي تفوق فضائل كثيرة. وحراسة العقل هي التي بقوة المسيح تستطيع أن تغير الإنسان من حالة الخطية وعدم المخافة والتجديف والجهل وعدم الفهم وعدم الإستقامة إلى حالة الإستقامة والتجاوب والنقاوة والقداسة والحكمة. وبالإضافة إلى هذه الأمور فإن حراسة العقل تجعل الإنسان قادراً على "التأمل الباطني والهذيذ بالإلهيات"[١٣٥].

من خلال حراسة العقل يصير الإنسان طاهراً ويصبح بذلك مقدساً وقادراً على الهذيذ بالإلهيات. يرى القديس فيلوثيئوس السينائي أنه يجب علينا أن نحرس عقولنا بصرامة شديدة. ويجب علينا عندما نرى فكراً شريراً أن ندفعه وأن ندعو المسيح في الحال. وسوف يقول يسوع في حبه اللطيف" تماسك فأنا بجانبك ومستعد لمساعدتك". من المهم والضروري إذاً أن نحرس العقل[١٣٦].

على أية حال ليست حراسة العقل هي فقط الجهاد ضد الأفكار الشريرة التي تأتي وتأسر العقل، ولكنها أعمال أخرى متنوعة. وحيث أن الأفكار الشريرة تأتي من الأهواء فإن حراسة العقل تبدأ بضبط النفس في الطعام والشراب ورفض كل فكر شرير، وكذلك سكون القلب[١٣٧].

---

134 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 175, 76
135 . Ibid. p. 192, 171
136 . Philok. 3, p. 26,26
137 . Hesychios the priest. Philok. 1, p. 191, 165

تكون حراسة العقل مصحوبة باليقظة وبصلاة يسوع لأنه "لا يوجد أي تقدم بأي حال من الأحوال في حراسة العقل بدون يقظة وإتضاع وصلاة يسوع"[١٣٨]. وهذا يعني أن هذه الحراسة لا يمكن أن تتم ما لم يبذل الشخص مجهوداً لكي يتحرر من الأهواء ولكي يكتسب الفضائل.

شفاء العقل الميت يتطلب **شجاعة**. ويشدد الآباء على أهمية الشجاعة في الحياة الروحية. المجاهد الشجاع لا يستسلم أو يفقد شجاعته حتى في الظروف التي ينحني فيها أمام الشرير ولكنه يضع رجاءه في الله: "النفس الشجاعة تقيم عقلها المحتضر"[١٣٩]. عندما يُمتطى الحصان الجيد يتحفز ويزيد من سرعته وهكذا فإن ترتيل المزامير هو السرعة والعقل الراسخ هو الحصان[١٤٠]. والشجاعة هي وحدها فقط التي تعطي للإنسان القدرة على إحياء عقله المائت من الخطية.

على أية حال توجد عدة مهام للعقل: فيجب عليه أن **يحفظ وصايا المسيح** لكي يحيا. لأنه إن كان موت العقل يأتي من خلال عدم حفظ الوصايا، فإن قيامته وإستعادته للحياة تتم من خلال حفظها. يجب على المرء أن يهتم بأن يحب الله وأن يتذكر الله ويتذكر الملكوت وغيرة الشهداء القديسين ويتذكر حضور الله والقوى الروحية المقدسة ويتذكر رحيله من هذه الحياة والحكم والدينونة والعقاب[١٤١].

إن السكينة والصلاة والحب وضبط النفس هي "مركبة تجرها أربعة أحصنة (جمع حصان) تحمل العقل للسماء"[١٤٢]. يستنير العقل عندما لا يهمل الشخص **ممارسة الفضائل**"[١٤٣].

يقول نيسيتاس ستيثاتوس تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن "الطريق القصير للمبتدئين لإكتساب الفضيلة هو صمت الشفاة والأعين والآذان المغلقة". سكينة الحواس هذه تساعد (من خلال غلق المداخل) العقل على أن يرى نفسه بوضوح وأن يميز الحركات. وهكذا يكون العقل "مثل القائد الذي يقف بنفسه بين الأفكار يحكم ويفصل الأفكار الصالحة من الأفكار الشريرة" ويقبل الصالحة منها "مستخرجاً الخيرات الروحية"

---

[138]. Ibid. p. 192, 168
[139]. Ladder. Step 13. CWS p. 161
[140]. Ibid. Step. 28. CWS p. 279
[141]. Ibid. Step 6, CWS p. 134
[142]. St. Thalassios. Philok. 2, p. 308, 24
[143]. St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 48

التي يتغذى ويتقوى بها ويمتلئ من النور ثم يلقي الأفكار الأخرى في لجة النسيان "مزعزعاً مرارتها"[١٤٤].

يستحق هذا النص إنتباهنا الكامل فهو يوضح أن العقل المتحرر من عبودية الحواس من خلال صمت الشفاة وعدم الإستجابة للمثيرات الخارجية يصير هو قائد النفس. إنه لا يسمح للأفكار الشيطانية الفاسدة أن تدخل لما يسمى اللاشعور الذي هو عمق النفس. أما الأفكار الصالحة التي تغذي وتعطي حياة للشخص فتدخل في عمق النفس. وهكذا بالتالي تصير كل الصور العقلية والأعمال الخاصة بالشخص الذي يقوده العقل طاهرة.

ينصح القديس مكسيموس المحارب الروحي قائلاً: "فلتكبح جماح نفسك بالحب، ولتقمع شهوتها بضبط النفس، ولتعطي لعقلها أجنحة بالصلاة، وعندئذ سوف لا ينطفئ نور عقلك أبداً"[١٤٥]. ومن التعاليم الرئيسية للآباء أنه يجب علينا في بداية عملنا الروحي الداخلي لشفاء العقل أن نحافظ عليه طاهراً. ويجب أن يستمر ذلك أيضاً فيما بعد. يُعلّم القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "أضبط عقلك الطائش في جسدك المشتت... ثبت عقلك في نفسك كما لو كان في خشبة الصليب، وإضربه بضربات المطرقة المتتالية مثل سندان الحداد... أرجع عقلك المشغول جداً بإهتماماته الخاصة"[١٤٦]. ولكن يجب أن يكون هذا العمل مرتبطاً بالجهاد لحماية حقوق الله في حياة الإنسان. يجب علينا أن نؤكد على أن **الإنسان العملي يُخضع عقله بطريقة مختلفة عن الإنسان المستنير**. وبالمثل يوجد إختلاف بحسب العمر الروحي للإنسان والعمل الذي يعمله، ليضبط عقله. "يستطيع الشخص المنخرط في الممارسة النسكية أن يُخضع عقله للصلاة، بينما المنخرط في التأمل يخضع لعقله"[١٤٧].

هذا العمل يحقق شفاء العقل وهو ما يسمى **التطهير**، في لغة الآباء. يجب على العقل الذي تدنس بالأهواء أن يتطهر. وعمل التطهير هذا يتم بواسطة الروح القدس: "الروح القدس وحده هو الذي يستطيع تطهير العقل". من أجل ذلك فإنه من الضروري قبل كل شيء أن يسكن الروح القدس فينا "بحيث نستطيع أن نقتني مصباح المعرفة الروحية مشتعلاً دائماً داخلنا". عندما يدخل القدير إلى النفس فإنه يهزم المخرب ثم يحرر كل ما تم أسره، ومن المستحيل أن يتم ذلك بطريقة أخرى"[١٤٨].

---

144 . Practical chapters, ch. 26. Gk. Philok. 3, p. 278
145 . Philok. 2, p. 110, 80
146 . Ladder . Step 4. CWS p. 104
147 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 48, 9
148 . St. Diadochos of Photiki, Philok. 1, p. 260, 28

يصف نيسيتاس ستيثاتوس طريقة تطهير العقل: "حيث أننا نمتلك خمس حواس فإننا نمتلك أيضاً خمسة ممارسات نسكية في المقابل. الخمسة ممارسات نسكية هي السهر، والتأمل، والصلاة، وضبط النفس، والسكون. يحتاج المرء لأن يدمج الإبصار بالسهر، والسمع بالتأمل، والشم بالصلاة، والتذوق بضبط النفس، واللمس بالسكون. يتطهر ويتهذب العقل بهذه الطريقة بسرعة ويصبح عديم الهوى وحاد الذهن"[149].

يعطي هيزيخيوس القس أهمية عظمى **لصلاة يسوع** لأنها تنقي العقل من الأفكار الشريرة. عندما يضطرب أحد بسبب طعام مثير للغثيان فإنه يأخذ العلاج المناسب ويتخلص منه. يحدث نفس الشيء عن طريق الصلاة من جهة العقل المدنس. فعندما يتلقى العقل الأفكار الشريرة ويبتلعها ويشعر بمرارتها "فإنه يستطيع أن يتقيَّأها بسهولة والتخلص منها تماماً بواسطة صلاة يسوع الصادرة من عمق القلب"[150].

تطهير العقل ليس هو إذاً مجرد العثور على الأفكار التي دخلت إليه، بل وأيضاً تقيؤها. هذا لا يتم من خلال التحليل والأفكار المنطقية ولكن فقط من خلال صلاة يسوع. وعندما نتكلم عن "الصلاة" فإننا نعني عمل الروح القدس الذي يأتي داخل القلب عندما يتذكر الشخص المسيح في قلبه.

يؤكد القديس غريغوريوس بالاماس على أن عمل العقل المتكون من الأفكار يتطهر بسرعة "بتكريس وقت للصلاة وخصوصاً صلاة تتكون من كلمة واحدة". عندما يكرس شخص نفسه للصلاة فإن عمل ذهنه يشفى. قد تكف الأفكار الشريرة ولكن تبقى النفس بجملتها غير نقية. لا يمكن أن تتنقى القوة التي تحدث الفعل ما لم تتنقى "كل قوى النفس الأخرى". يجب على كل هذه القوى أن تتنقى من خلال ضبط النفس والحب وما إلى ذلك. لأنه ما لم يحدث ذلك يكون المرء موهوماً لو ظن أنه تنقى[151]. يساهم في هذا التطهير أن يحدَّ المرء من نومه أي يبقى يقظاً: "العين الساهرة تجعل العقل نقياً"[152].

جهل العقل الذي هو ظلام دامس يُغطي على بصيرة النفس ويجعلها معتمة، ويظلم فهم الأمور الإلهية والإنسانية. ولكن **التوبة** هي التي تشفي هذا الجهل. هنا أيضاً نستطيع أن نرى القيمة العظمى للتوبة. من أجل ذلك يقدم لنا القديس نيسيتاس ستيثاتوس الذي

149. Practical chapters, ch. 91. Gk. Philok. 3. p. 295
150. Philok. 1, p. 196, 188
151. EF p. 410, 3. Gk. Philok. 4, p. 133, 3
152. Ladder. Step 20. CWS p. 196

يصف ظلمة العقل طريقة للشفاء من خلال التوبة. "ولكن عندما تنتزع الأغطية عن عيني النفس من خلال التوبة فإنها ترى هذه الأمور بوضوح وتصغي لها بمعرفة وتدركها بفهم"، وتكتسب في نفس الوقت معرفة الله وبالتالي " تخبر الجميع بعجائب الله من خلال حكمة الله"[١٥٣]. أما ما يكشف النقاب عن عيني النفس لترى أمور الله العظمى، فهي التوبة التي تحدث من خلال الحزن العميق الممتزج بالإعتراف.

يوجد في كتابات الآباء كلام كثير عن **عودة العقل للقلب أي عودة الطاقة للجوهر**. يحتوي خطاب القديس باسيليوس الكبير لصديقه القديس غريغوريوس على هذا النص الشهير القائل:" لأنه عندما لا يكون العقل مرتبطاً بأمور خارجية ولا منتشراً في العالم كله من خلال الحواس فإنه يرتاح داخل ذاته. بعد ذلك يصعد تدريجياً للإهتمام بالله. وإذ يستنير بهذا المجد ينسى طبيعته الخاصة. وعندئذ لا يعود يجر النفس لأسفل سواء لأفكار الإهتمام بالطعام ولا لأفكار الإهتمام بلباس الجسد بل يتمتع بالحرية من الإهتمامات الأرضية ويحوّل كل غيرتها نحو إكتساب الخيرات الأبدية"[١٥٤]. لقد إقتبست هذا النص كله لأنه مُعبِّر ولأن القديس غريغوريوس بالاماس كان قد إستعمله في جداله مع برلعام. يقول القديس باسيليوس الكبير أن العقل الغير مشتت في أمور العالم الخارجي من خلال الحواس، يعود إلى ذاته، ومن خلال ذاته يصعد لرؤية الله. وعندئذ إذ يستنير ويسطع بالجمال فإنه لا يهتم بالأمور الأرضية بل ينسى حتى طبيعته الخاصة.

إن عودة العقل المشتت إلى القلب الذي هو عودة الطاقة إلى الجوهر هو شفاء العقل. إنه هناك حيث يجد العقل سلامه الحقيقي. وعند عودته يجد أولاً القلب اللحمي ثم القلب الروحي: "ينزل الناسك أولاً داخل قلبه الداخلي أي داخل قلبه الطبيعي أولاً ومن ثم ينزل بعد ذلك داخل تلك الأعماق الغير لحمية بالمرة. إنه يجد قلبه العميق ويصل لجوهر كيانه الروحي الغير مرئي العميق وإذ يتطلع فيه يرى أن وجود الإنسان ليس شيئاً غريباً ولا خارجاً عنه ولكنه متحداً بكيانه الخاص بطريقة لا يمكن وصفها"[١٥٥]. إن عودة العقل للقلب هي في الواقع توحيد للعقل الذي هو إتحاد العقل والقلب. يتأكد هذا الإتحاد بدموع التوبة والإحساس العذب بمحبة الله: "تكون دموع الندم أثناء الصلاة هي علامة أكيدة على أن العقل متحد بالقلب وأن الصلاة النقية وجدت مكانها الأول الذي هو الخطوة الأولى في

[153] . Practical chapters, ch. 87. Gk. Philok. 3, p. 320
[154] . Letter 2. FC vol. 13, p. 7
[155] . Archim. Sophrony: Saint Silouan. P. 47

الصعود لله. من أجل ذلك يصنف النساك الدموع في مكانة عالية جداً"[156]. عندما يدخل العقل القلب فإنه ينتزع نفسه من كل الصور البصرية والعقلية[157]، وتقفل أبواب القلب أمام كل عنصر غريب و "تخترق النفس غياهب الطبيعة الخاصة الهادئة. وتصبح بالتالي مستحقة للوقوف أمام الله بعقل نقي بما يفوق الوصف"[158].

عندما نناقش موضوع عودة العقل للقلب أي عودة الطاقة للجوهر يجب علينا أن نتكلم عن الحركات الثلاث للعقل كما يصفها القديس ديونيسيوس الأريوباغي. فهو يقول أن النفس والعقل لهما ثلاث حركات: الحركة الأولى هي الحركة الدائرية التي هي "الدخول داخل الذات بعيداً عن كل ما هو في الخارج وبالتالي يوجد تركيز داخلي لقواها الروحية". في هذه الحركة تعود النفس لذاتها أولاً وتجمع كل قواها وترتفع بهذه الطريقة نحو الله الذي هو بلا بداية ولا نهاية والذي هو فوق كل الأشياء. إن هذه الطريقة ثابتة وهي لا تدع الذهن يطيش، وبهذا ينجمع ويرتفع بالتالي إلى الله. يتحرر العقل حينئذ من كل شيء مخلوق، ويلفظ كل حركة من الخليقة وكل خيال، ويتحد بالقلب من خلال التوبة، وهناك يُستعلن الله طالما أن العقل يكون متحداً بالله. هذه هي حركة ما يسمى " علم اللاهوت الإيجابي" Apophatic theology.

أما الحركة الثانية فهي في خط مستقيم حيث أن النفس "إذ تتقدم نحو الأشياء المحيطة بها، ترتفع من الأشياء الخارجية باعتبارها رموزاً ملونة ومتعددة، لتسمو إلى تأملات بسيطة موحِّدة". وهذا ما يسمى رؤية الله فى الطبيعة أو " علم اللاهوت السلبي" Catapathic theology الذي يرى الله في الطبيعة. فمن خلال تأمل الطبيعة ترتفع النفس نحو الله. ولكن هذه الطريقة معرضة للضلال لأن العديد من الأشخاص الذين تعلموا بهذه الطريقة أن يتطلعوا مباشرة في خليقة الله ضلُّوا ووصلوا لعبادة الأشياء المخلوقة دون الخالق.

أما الحركة الثالثة فتسمى حركة حلزونية، وهي تربط بين الحركتين السابقتين. يعطي الآباء الأولوية للحركة الأولى المسماة الحركة الدائرية لأنها تُكوِّن دائرة إذ يعود العقل للقلب ومن خلال القلب يرتفع لرؤية الله وبهذه الطريقة يتم تجنُّب الضلال[159].

---

156 . Ibid. p. 133
157 . Ibid. p. 151
158 . Ibid. p. 145
159 . St. Dyionysios the Areopagite. Divine Names, ch. 4, 8f. CWS p. 46

ويصل المرء لهذه الحركة الدائرية من خلال الصلاة العقلية التي يجاهد فيها المجاهد الروحي "لكي يعيد العقل لذاته لكي يدفعه لا في خط مستقيم ولكن في حركة دائرية غير قابلة للخطأ"[١٦٠].

تتحقق عودة العقل للقلب من خلال الصلاة وخصوصاً الصلاة العقلية عندما يكون العقل طاهراً من أية أفكار فيصلي لله بدون تشتت. من أجل ذلك يبارك نيلوس الناسك ذلك العقل الذي يصلي لله بلا طياشة وبدون صور مادية: "مبارك هو العقل الذي يخلو تماماً من الأشكال أثناء الصلاة. مبارك هو العقل الذي لا يتشتت في صلاته فيكتسب إشتياقاً أعظم لله. مبارك هو العقل الذي يكون أثناء الصلاة حراً من المادة ويتجرد من كل المقتنيات. مبارك هو العقل الذي إكتسب حرية كاملة من الأحاسيس أثناء الصلاة"[١٦١].

حيث أننا تناولنا الطرق التي يحدث من خلالها شفاء العقل، فسوف نرى فيما يلي **نتائج هذا الشفاء**. وهذا يعني أننا سوف نرى من خلال أعمال الآباء ما يحدث للعقل مباشرة بعد الشفاء أو أثناء عملية الشفاء.

وأحد أول الثمار هو **اللاَّهَوَى** فالعقل العديم الهوى هو "ذاك الذي تغلب على أهوائه والذي **يتسامى فوق الحزن والفرح**". وفي هذه الحالة عندما تأتي المحن فإنه يبتهج، وعندما تأتي الأفراح فإنه يضبط نفسه ولا يتعدى الحدود"[١٦٢]. إن هذا اللاهوى هو الموت المحيي للرب (٢كو٤ : ١٠) الذي يأتي من خلال الروح القدس"[١٦٣]. عندما يتحرر العقل من المؤثرات الخارجية ويتنقى من نجاسات الخطية فإنه يرى الأمور بأكثر وضوحاً. إنه يرى كل طرق الشيطان بل وحتى اللحظة الذي يعدُّ فيها الشيطان الحرب. فهو يقتني معرفة واضحة لكل غوايات الشيطان"[١٦٤]. إن العقل عديم الهوى "يكوِّن صوراً عقلية هي أيضاً خالية من الهوى سواء كان الجسد نائماً أو مستيقظاً"[١٦٥]. ويكون الضمير النقي غير مضطرب بأفكار شهوانية أثناء النوم حين يكون العقل غير نشط.

والتطهير أيضاً يرتبط بشدة باللاهوى: "العقل الطاهر هو عقل منفصل عن الجهل ومستنير بالنور الإلهي"[١٦٦]. تطهير العقل هو أمر مهم لأن المرء يكتسب معرفة الله بهذه الطريقة.

---

160 . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 2, 8. CWS p. 46
161 . Philok. 1, p. 68, 117-120
162 . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 92
163 . Ibid. Natural chapters, ch. 20
164 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 167
165 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 56, 33
166 . St. Maximus. Philok. 2, p. 56, 33

أحياناً ما يتعلم العقل النقي من الله وأحياناً أخرى من القوى الملائكية وأحياناً ثالثة من "طبيعة الأشياء التي يتأملها"[167]. يقول القديس مكسيموس أن العقل النقي "يكون منشغلاً إما بصور عقلية للأمور الإنسانية خالية من الهوى أو بنور الثالوث القدوس"[168]. إنه يفهم ما يقوله الكتاب المقدس: "حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب" (لو٢٤ : ٤٥).

ويرى القديس مكسيموس أنه توجد جاذبية بين العقل النقي والمعرفة: " من خلال الحب تجذب معرفة الله العقل النقي لذاتها طبيعياً "[169]. يجد الروح القدس العقل النقي "ويحفِّزه بالتالي لأسرار الدهر الآتي"[170]. وهكذا يصبح الشخص لاهوتياً إذ أن علم اللاهوت لا يُعطَى من خلال المعرفة الإنسانية والحماس، ولكن من خلال عمل الروح القدس الذي يسكن في القلب النقي. إن العقل الذي تنقى "يصبح بالنسبة للنفس سماءً ممتلئة بالنجوم المصنوعة من الأفكار المجيلة المنيرة مع شمس البر الساطعة فيها والتي ترسل أشعة اللاهوت على العالم في الخارج"[171].

من أجل ذلك رد الأنبا شيشوى على سؤال الأنبا آمون عما إذا كان من الضروري في قراءة الكتاب المقدس أن يركز المرء على الكلمات كما لو كان مستعداً للإجابة على أسئلة قد تُطرح قائلاً: "هذا ليس ضرورياً.. من الأفضل أن تربح نفسك من خلال طهارة الروح وأن تكون بلا همّ وبعد ذلك تتكلم"[172].

اللاهوت الحقيقي ليس ثمرة التركيز المادي ولكنه استعلان الروح القدس. عندما يتنقى عقل شخص فإنه يستنير، وإذا كانت لعقله المقدرة التي هي الحكمة فإنه يستطيع أن يتكلم باللاهوتيات. وهكذا نقول أن كل حياته بل وحتى جسده ذاته يكونا مصبوغاً بكلام اللاهوت. إن الإنسان المتطهر يكون استعلاناً للاهوت بجملته. أحياناً يستخدم الآباء أقوال الآباء الأولين ليس لأنهم لم يكن لديهم خبرة هم ذواتهم ولكن لكي يؤكدوا هذه الخبرة، وخصوصاً في الوقت الذي كان يوجد فيه أناس ينكرونها.

من خلال تطهير العقل نكتسب أيضاً **معرفة ذواتنا**. أصر برلعام الفيلسوف على أن القداسة والكمال لا يمكن الوصول إليهما "بدون تصنيف وإستنتاج وتحليل". وهكذا

---

[167]. Ibid. p. 98,94
[168]. Ibid. p. 64, 97
[169]. Ibid. p. 56, 32
[170]. St. Thalassios. Philok. 2, p. 329, 75
[171]. Nicetas Stethatos. Natural chapters, ch. 67
[172]. Sayings. P. 181, 17

إعتقد أنه يجب على من يريد أن يمتلك القداسة أن يتعلم "مناهج التمييز والإستنباط والتحليل". ولكن القديس غريغوريوس بالاماس عارض هذه الرؤية وإعتبرها "هرطقة للرواقيين والفيثاغورسيين". ونادى بأننا نحن المسيحيين لا ننظر للمعرفة الموجودة في الكلمات والبراهين على أنها معرفة حقيقية، ولكن تلك التي تظهر من خلال الأعمال والحياة، والتي ليست فقط هى حقيقية، ولكنها أيضاً أكيدة وغير قابلة للدحض". ومضى لحد أن قال أنه لايوجد أي أحد يستطيع أن يعرف ذاته من خلال التمييز والبراهين والتحليل ما لم يصبح عقله حراً من الخيالات والشر وذلك بواسطة التوبة القاسية والنسك الشديد. ولا يمكن لشخص لم يحرر عقله من الخيالات والشر أي ما لم يطهر عقله، فإنه لن يستطيع أن يدرك فقره الذي هو بداية مفيدة لمعرفة النفس"[173].

هذا النص مهم جداً لأن **العديد من الأشخاص يُعَلِّمون في هذه الأيام أن المرء يستطيع أن يصل لمعرفة النفس من خلال تحليل الإنسان لنفسه، ومن خلال عملية التحليل النفسي**. ولكن هذا ضلال ويقود المرء إلى نتائج مرعبة. **فعندما يحلل الشخص نفسه فإنه غالباً ما ينتهي إلى أن يصاب بالجنون**. أما الطريقة النسكية فهي بسيطة. وبإستعمال الطرق التي وصفناها التي هي حراسة العقل وتنقيته وإعادته إلى القلب من خلال التوبة والصلاة العقلية وحفظ وصايا المسيح، فإننا نحاول أن نحرر العقل من خيالاته ومن أسره للأمور الحسية بحيث أنه إذ يعود للقلب يستطيع أن يرى خِواءه الداخلي.

تأتي معرفة الذات من خلال عمل الروح القدس. فنحن لا نعرف كل تفاصيل كياننا إلا عندما تعمل نعمة الله مع جهادنا على إنارة النفس. وهكذا يعلن شفاء العقل عن وجود الأهواء، وإذ نستنير بالروح القدس ونتقوى به نستطيع أن نشن الحرب على هذه الأهواء. عليه حرباً. وعندما يُشفى العقل فإنه يُترك نقياً وحراً من الخيالات والضعف"[174].

توجد ثمرة أخرى لشفاء العقل وهي **الحرية**. فالعقل الذي كان سجيناً من قبل، يصير الآن حراً "ومملوءاً فرحاً يشق طريقه نحو المملكة السماوية التي هي وطنه"[175]. وعندما يتحرر من الأهواء فإن أي شيء يفعله سوف يحسب قرباناً نقياً لله"[176].

عندما يتحرر العقل من الأهواء التي فيها موته، فإنه يُقام. نستطيع إذاً أن نتكلم الآن عن **قيامة العقل**. يربط نيسيتاس ستيثاتوس هذه القيامة بمعجزة إقامة لعازر. فتماماً مثلما

---

173 . Triads, 1, 3, 13
174 . St. Diadochos. Philok. 1, p. 267, 49
175 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 61, 113
176 . Ibid. p. 48, 10

مات لعازر هكذا يموت العقل بالخطية ويدفن. وكما أتى المسيح إلى بيت عنيا ليقيم لعازر هكذا يأتي لعقلنا الميت ليقيمه من الفساد الناتج عن الأهواء، ومثلما ذهبت مريم ومرثا أختا لعازر لملاقاة يسوع وهن يبكين وينتحبن هكذا "تأتي لملاقاة الرب الحكمة والعدل. المغموران بالأسى على موت عقلنا". العدل هو المشقّات والعمل المتحمس، على حين أن الحكمة هي العمل الروحي والتأمل[١٧٧].

إننا نجد هذا الإرتباط بين المعجزتين، أي إقامة لعازر وإقامة العقل الميت في العديد من تسابيحنا الأرثوذكسية التي ترتل في الكنيسة. والتي أريد أن أقتبس إثنتين منهما:

"دعونا نسرع لنرفع ثيئوريتنا وجهادنا المقترنين بالصلاة للمسيح حتى من خلال سلطانه المعطي للحياة نستطيع أن نقدم له عقلنا الميت والمدفون مثل لعازر كأنه سعف البر صارخين: مبارك الآتي بإسم الرب"[١٧٨]. في هذا تظهر مرثا أنها الجهاد، ومريم أنها الثيئوريا اللتان من خلالهما ندعو المسيح ليقيم العقل الميت. "دعونا باقتداء مخلص لمرثا ومريم نرسل أعمالاً حارة كمبعوث للرب سائلين إياه أن يأتي ويقيم عقلنا الراقد بشاعة ميتاً في القبر، بلا حس مُهمِلاً مخافة الله والذي صار الآن عديم المشاعر تماماً وبلا طاقة حياة ونصرخ: أنظر يا رب ومثلما أقمت لعازر حبيبك بحنوك من قبل بكل سلطان، هكذا إعطنا جميعاً الحياة بمراحمك العظيمة"[١٧٩]. فلنحض ذواتنا على أن نرسل مرثا ومريم أي الأعمال للمسيح ليقيم العقل إذ أنه مائت في القبر وليس له طاقة حياة.

والعقل الذي له سلطان على ذاته أي القائم من الموت يصير هيكلاً للروح القدس[١٨٠]. وفي هذه الحالة يستنير العقل النقي[١٨١] ويتملكه الفرح. إنه يفرح برؤية الله ويتكلم مع الرب. وعندما يتحدث الآباء عن فرح ودهش العقل فإنهم لا يعتبرون أن العقل يخرج خارج الجسد، ولكنهم يرون أنه يتحرر من الإهتمامات الجسدية والعالمية ويقدم ذاته لله دون أن يفقد وعيه بالعالم. إن الذي يقتني الصلاة الدائمة يختبر دهش العقل، وهذا الدهش يسمى فرحاً وهو شكل من أشكال رؤية الله.

العقل النقي يستضيء ويستنير، لذلك نرى أنه من الضروري أن نتكلم عن هذا النور وخصوصاً نور العقل الذي تتكلم عنه كتابات الآباء.

---

177 . Gnostic chapters, ch. 98f

178 . Thursday Matins before Palm Sunday. Gk. Phos edition, p. 357

179 . Wednesday Vespers before Palm Sunday. Ibid. p. 355

180 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 322, 55

181 . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters, ch. 18

القديس ديادوخوس وهو خبير في علم اللاهوت السرِّي Mystical theology يتحدث عن هذا النور الذي للعقل قائلاً: "يجب عليك ألا تشك في أنه عندما يبدأ العقل في أن ينشط بقوة النور الإلهي فإنه يصبح شفافاً تماماً لدرجة أنه يرى نوره الخاص بوضوح تام". ولكنه يعني أن ذلك يحدث: "عندما تتحكم قوة النفس في الشهوات"[١٨٢]. ويقول أيضاً بالمثل في موضع آخر: "يستطيع أولئك الذين يتأملون بلا إنقطاع في هذا الإسم القدوس الممجد في أعماق قلبهم أن يبصروا نور عقلهم في بعض الأحيان"[١٨٣].

يتبنى أيضاً كاليستوس وأغناطيوس زانسوبولس هذا التعليم الذي للقديس ديادوخوس[١٨٤].

ويعلم القديس نيلوس الناسك أنه: "عندما يأتي لنا ملاك الله فإنه يضع حداً لكل طاقة مضادة داخل العقل وذلك لمجرد حضوره كما أنه يجعل نوره يُنشط بدون ضلال"[١٨٥].

إن العقل هو على صورة الله. وبمقدار ما يكون الله نوراً بمقدار ما يقتني العقل نوراً أيضاً. يتحدث القديسون في هذا المفهوم قائلين أن الإنسان يستطيع أن يبصر نور عقله، ولكن هذه الأمور تحدث للإنسان الطبيعي، على حين أن العقل يكون مظلماً في الإنسان الساقط بسبب الشهوات التي تظلمه وتخفيه. وعلى أية حال فعندما يتحرر الإنسان من الشهوات ويستنير بالله فإنه يستطيع إذاً أن يرى نور عقله أثناء الصلاة.

يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن هذا الموضوع فى كتابه عن الثالوث في عدة مواضع. وهو إذ يستشهد بعدة كلمات للقديسين فإنه يختم بقوله: "هل تفهم يا أخي بوضوح أن العقل عندما يتحرر من الشهوات يستطيع أن يرى ذاته كنور أثناء الصلاة ويشرق بالنور الإلهي؟"[١٨٦]. في الواقع "إذ يرى العقل ذاته فإنه يرى ذاته كنور"[١٨٧]. ولكن القديس غريغوريوس يسترسل قائلاً: "هكذا تكون كل طبيعة مطهرة وغير مغطاة بحجاب الشر". وعندما لا يكون مرتدياً حجاب الشر "فإنه يرى ذاته كنور روحاني".

تحدث رؤية نور العقل هذه من خلال عمل الروح القدس. "عندما يشترك[١٨٨] العقل المُطهَّر والمستنير في نعمة الله، فإنه يبصر أيضاً رؤى أخرى سرية وفائقة للطبيعة. لأنه إذ

---

182 . Philok. 1, p. 265, 40
183 . Ibid. p. 270, 59
184 . Writings, p. 265, 95
185 . Philok. 1, p. 64, 75
186 . Triads, 1, 3, 7
187 . Ibid. 1, 3, 8
188 . Ibid.

يرى ذاته يرى ما هو أبعد من ذاته. إنه لا يدرك ببساطة شيئاً آخر ولا مجرد صورته الخاصة، ولكن بالأحرى المجد المطبوع على صورته الخاصة بواسطة نعمة الله"[189].

يشير هذا التعليم إلى أن العقل النقي يرى لا صورته الخاصة ولكن مجد المسيح المنعكس فيه بواسطة نعمة الله. يرى القديسون هذه الصورة تتغير من مجد إلى مجد "أي في نوعية الإشراق فينا إذ يصير البهاء الإلهي واضحاً أكثر فأكثر"[190]. وتماماً مثلما لا تستطيع العين الجسدية أن تعمل ما لم يشرق عليها النور من الخارج هكذا لا يستطيع العقل أن يرى بإدراكه العقلي ما لم يشرق النور الإلهي عليه[191].

نستطيع أن نقول بإختصار أن القديس غريغوريوس بالاماس يرى أن العقل في حال كونه صورة الله هو نور، ولكنه يَظلمُ بالأهواء. عندما يسطع النور الإلهي ويتطهر العقل حينئذ فقط لا يرى العقل نوره الخاص فقط ولكن أيضاً الإنارة التي تحدث في صورته بنعمة الله. لا يمكن أن تكون الرؤية الحسية في ذاتها ذات أية قيمة للشخص ما لم يصاحبها نور حسي. بالمثل يكون الحال من جهة رؤية النور الإلهي في عقل الإنسان. يُعلِّم القديس غريغوريوس بالاماس بكل هذه التعاليم لأن برلعام الفيلسوف أصر على أن المرء يستطيع أن يرى الله ويكتسب معرفة الله من خلال المعرفة البشرية بواسطة توسيع الفكر البشري. ولكن هذا الرأي خاطئ تماماً.

يكتب الأرشمندريت صوفرونيوس في كتابه: "القديس سلوانس الآثوسي" عن هذا النور الطبيعي الذي للعقل قائلاً: "عندما يصل الإنسان لهذه الحدود حيث يتصل النور بالظلمة (أى ٢٦ : ١٠) فإنه يتأمل جمال عقله الخاص الذي قد يتحد مع الكيان الإلهي. إنه يرى نوراً ولكنه ليس النور الحقيقي الذي "ليس فيه ظلمة البتة". إنه النور الطبيعي المميز لعقل الإنسان المخلوق على صورة الله. هذا النور الذي للعقل والذي يتفوق على كل نور معرفي آخر، قد يسمى أيضاً ظلاماً لأنه ظلام التجريد والله غير موجود فيه. وفي هذه الحالة يجب علينا أن ننصت لتحذير الرب :"أنظر إذاً لئلا يكون النور الذي فيك ظلمة" (لو١١ : ٣٥). لقد حدثت الكارثة الكونية الأولى فيما قبل التاريخ عند سقوط يوسيفوروس إبن كوكب الصبح الذي أصبح أمير الظلام. وكان ذلك بسبب تأمله المفتون لجماله الخاص والذي إنتهى بتأليهه لذاته"[192].

---

189 . Ibid. 2, 3, 11. CWS p. 58
190 . Ibid. 1, 3, 7
191 . Ibid. 1, 3, 9
192 . Archim. Sophrony, Saint Silouan, p. 162

يكتب نفس الراهب في مكان آخر عن النور الطبيعي الذي هو ظلمة التجريد: "لو أردنا أن نحدد مكان هذا الظلام فإننا نستطيع أن نقول أنه موجود على مشارف النور الأزلي. ولكن عندما تمارس صلاة السكون بدون توبة حقيقية وبدون أن تكون الصلاة موجهة بكليتها نحو الله فإن النفس إذ تتجرد من كل التخيلات قد تبقى لوهلة صغيرة في هذا "الظلام الذي للتجريد" دون أن تبصر الله لأن الله لا يوجد في هذا الظلام بذاته.

"إذ يبقى العقل في ظلام التجريد فإنه يجد بهجة وسلاماً خاصيْن. ولو أنه إستدار لذاته عند هذه النقطة فإنه يستطيع أن يتلقى شيئاً قريباً للنور ولكنه على أي الأحوال ليس هو النور الإلهي الأزلي ولكنه خاصية طبيعية للعقل المخلوق على صورة الله.

إذ يتأمل العقل خارج حدود الزمان فإنه يصل لمعرفة الغير زائل وهكذا يمتلك الإنسان معرفة جديدة ولكنها مازالت تجريدية. الويل لذاك الذي يستبدل معرفة الله الحقيقي بهذه الحكمة والتأمل من أجل الشركة في الكيان الإلهي. الويل له **لأن ظلام التجريد الموجود على حدود الرؤية الحقيقية يصبح طريقاً لا يمكن إختراقه وحاجزاً بينه وبين الله** أقوى من الظلام الناتج من الشهوة العظيمة أو الظلام الناتج عن فقدان النعمة والتخلي من الله. الويل له لأنه سوف يشرد بعيداً ويسقط في الضلال، إذ أن **الله لا يوجد في ظلمة التجريد، ولكنه يعلن نفسه كنور وفي النور**"[193].

من الصعب علينا أن نعقد مقارنة بين نصي القديس غريغوريوس بالاماس والأرشمندريت صوفرونيوس بخصوص موضوع نور العقل، إذ أننا نفتقر للخبرة الخاصة بهذا الموضوع. وعلى حين يبدو أنه يوجد إختلاف خارجي بين النصين، إلا أننا نؤمن أنه مجرد إختلاف في الأسلوب. كما أننا نؤمن بشدة أن كلاً منهما يصف جانباً مختلفاً لهذه الخبرة. إن لدينا شعوراً بدون أن نكون متأكدين تماماً أن الأرشمندريت صوفرونيوس يتكلم بالأكثر عن الذكاء الذي يؤلهه الإنسان ويحبه في ذاته. وبالتالي فإنه يشدد بإحكام على أن ظلام التجريد يشكل "حائطاً وغطاءً للإلهيات لا يمكن إختراقه" ويفصل الإنسان عن الله أكثر من الأهواء ومن الإيحاءات الشيطانية أو من التخلي الإلهي. وفي الواقع نور العقل هو ظلام، وبقوله هذا فإنه يتفق تماماً مع القديس غريغوريوس بالاماس مثلما يتفق تماماً مع تعليمه عن أن الثيئوريا هي عمل إلهي صرف في الإنسان. "... إن رؤية النور الإلهي الأزلي تكون مستحيلة ما لم يكن المرء في حالة إستنارة من قِبَل النعمة. إنها حالة فضيلة

193 . Ibid. p. 179

يكون فيها عمل رؤية الله هو في ذاته فوق كل شيء. إنه "الشركة مع الله" أي الإتحاد بالحياة الإلهية"[١٩٤].

إننا لا نستطيع شخصياً أن نجد عدم إتفاق بين هذين الشاهدين. إنهما يُعبِّران ببساطة عن نفسيهما بكلمات مختلفة ولهما في ذهنهما مفاهيم مختلفة أرادا أن يدحضاها.

على أية حال هو أمر واقع أنه حينما يصبح عقل الإنسان متحداً بالله "فإنه يرى الأمور الروحية بوضوح"[١٩٥]. وحالة اللاهوى التي للعقل تحثه على إكتساب المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة[١٩٦]. وإذ يتحرر العقل من الهوى ويبقى مستنيراً بإستمرار من خلال تأمل الكائنات المخلوقة، فإنه يصير مثل النور[١٩٧].

العقل الذي حصل على الشفاء ينال رؤية الله. فهو لا يرى جوهر الله طبيعياً ولكنه يرى فعله فقط. عندما يرى القديسون النور فإنهم يرونه "عندما يكتسبون شركة الروح المؤلِّهة". وهذا يعني أنهم حينما يتحدون بالله فإنهم يرون ثوب تأليههم، أي "عقلهم المتمجد والممتلئ من نعمة الله الكلمة، والذي يكون جميلاً بما يفوق القياس في مجد الله"[١٩٨]. هذه هي الطريقة التي يتمجد بها العقل.

ومن بعد ذلك يزدهر الفرح الروحي في العقل "عندما ينخرط العقل في رؤية الحقائق العقليه فإن فرحه بها يكون لدرجة أنه يصعب زحزحته بعيداً عنها"[١٩٩]. وإذ يتحد بالله فإنه يصبح "حكيماً، صالحاً، قوياً، شفوقاً، رحيماً، طويل الأناة. وبإختصار فإنه يحتوي في داخله على كل الصفات الإلهية تقريباً. ولكن عندما يبتعد العقل عن الله ويلتصق بالأشياء المادية فإنه يصبح إما متساهلاً مثل بعض الحيوانات الأليفة أو يحارب الناس مثل الحيوانات المتوحشة ليحصل على هذه الأشياء"[٢٠٠].

وكنتيجة لشفاء العقل **يحصل الجسد أيضاً على الشفاء**. ومن الطبيعي أنه عندما نتكلم عن شفاء الجسد فإننا لا نعني تحرره من المرض حتى ولو كان ذلك ممكناً بدرجة معينة. إننا نقول "بدرجة معينة" **لأن العديد من الأمراض وخصوصاً الأمراض العصبية**

---

194 . Monk of Mt. Athos p. 113. cf. Saint Silouan p. 173
195 . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 17
196 . St. Thalassios. Philok. 2. p. 326, 20
197 . Ibid. p. 310, 50
198 . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 5,. CWS p. 33
199 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 46
200 . St. Maximus. Philok. 2, p. 64, 52

يكون فيها عمل رؤية الله هو في ذاته فوق كل شيء. إنه "الشركة مع الله" أي الإتحاد بالحياة الإلهية"[194].

إننا لا نستطيع شخصياً أن نجد عدم إتفاق بين هذين الشاهدين. إنهما يُعبِّران ببساطة عن نفسيهما بكلمات مختلفة ولهما في ذهنهما مفاهيم مختلفة أرادا أن يدحضاها.

على أية حال هو أمر واقع أنه حينما يصبح عقل الإنسان متحداً بالله "فإنه يرى الأمور الروحية بوضوح"[195]. وحالة اللاهوى التي للعقل تحثه على إكتساب المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة[196]. وإذ يتحرر العقل من الهوى ويبقى مستنيراً بإستمرار من خلال تأمل الكائنات المخلوقة، فإنه يصير مثل النور[197].

العقل الذي حصل على الشفاء ينال رؤية الله. فهو لا يرى جوهر الله طبيعياً ولكنه يرى فعله فقط. عندما يرى القديسون النور فإنهم يرونه "عندما يكتسبون شركة الروح المؤلِّهة". وهذا يعني أنهم حينما يتحدون بالله فإنهم يرون ثوب تأليههم، أي "عقلهم المتمجد والممتلئ من نعمة الله الكلمة، والذي يكون جميلاً بما يفوق القياس في مجد الله"[198]. هذه هي الطريقة التي يتمجد بها العقل.

ومن بعد ذلك يزدهر الفرح الروحي في العقل "عندما ينخرط العقل في رؤية الحقائق العقليه فإن فرحه بها يكون لدرجة أنه يصعب زحزحته بعيداً عنها"[199]. وإذ يتحد بالله فإنه يصبح "حكيماً، صالحاً، قوياً، شفوقاً، رحيماً، طويل الأناة. وبإختصار فإنه يحتوي في داخله على كل الصفات الإلهية تقريباً. ولكن عندما يبتعد العقل عن الله ويلتصق بالأشياء المادية فإنه يصبح إما متساهلاً مثل بعض الحيوانات الأليفة أو يحارب الناس مثل الحيوانات المتوحشة ليحصل على هذه الأشياء"[200].

وكنتيجة لشفاء العقل **يحصل الجسد أيضاً على الشفاء**. ومن الطبيعي أنه عندما نتكلم عن شفاء الجسد فإننا لا نعني تحرره من المرض حتى ولو كان ذلك ممكناً بدرجة معينة. إننا نقول "بدرجة معينة" **لأن العديد من الأمراض وخصوصاً الأمراض العصبية**

---

194 . Monk of Mt. Athos p. 113. cf. Saint Silouan p. 173
195 . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 17
196 . St. Thalassios. Philok. 2. p. 326, 20
197 . Ibid. p. 310, 50
198 . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 5,. CWS p. 33
199 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 46
200 . St. Maximus. Philok. 2, p. 64, 52

تنبع من موت العقل، ولكننا نتكلم بالأكثر عن تحرر الجسد من الشهوات الجسدية. يقول القديس مكسيموس: "عندما ترى أن عقلك يتأمل في الصوره العقلية للعالم بوقار وبر فإنك تستطيع أن تتأكد أن جسدك أيضاً يظل طاهراً وبلا خطية"[٢٠١].

إن العقل الذي يتأمل في النور الإلهي يحفظ أيضاً الجسد نقياً مما يسمى بالشهوات الجسدية. أولا يتلقى العقل عربون الخيرات الآتية ثم يصعد بعد ذلك نحو "العقل الأول"، وإذ يتقدس فإنه "يتحول هو ذاته مع الجسد المتصل به ليجعله أكثر إلهية". وهكذا فإنه يُعَد "لإحتواء الجسد بالروح القدس في الدهر الآتي". وطالما أن الجسد سوف يتذوق الأشياء الأبدية الحسنة فإنه من الضروري أن يُعَد لهذا أيضاً في هذه الحياة الحاضرة[٢٠٢].

وكل القديسين الذين يحيون هذه الحياة يتبعون نفس الطريقة لشفاء وتطهير العقل وهكذا فإنهم يتلقون نفس التعليم. إننا نؤمن أن القديسين ليس لهم رؤيتهم الذاتية الخاصة بهم وليس لهم أوضاع عقائدية مختلفة. بل لأن لهم نفس الخبرة، فإن لهم نفس التعليم. ولو كنا نرى إختلافات في بعض النقاط فذلك مرجعه أننا نفسر تعاليمهم بإفتراضات مسبقة خاطئة. لو أننا حاولنا أن نرى التعبير المختلف لكل قديس (طالما أنه على الرغم من أنهم يقتنون جميعاً نفس معرفة الله إلا أنهم لا يقتنون نفس الحكمة)، وإذا حاولنا أن نتقصى عن المعنى الحقيقي لكل كلمة، فلن نجد تعاليم مختلفة. نحن في الواقع مشتتون وبلا خبرة في الأمور الروحية وبعيدون عن التقليد الكنسي الحي، لذلك فنحن نرى إختلافات لدى الآباء القديسين.

يكتب بولس الرسول قائلاً: "... بل كونوا كاملين في فكر واحد ورأي واحد" (١كو١ : ١٠). يفكر القديسون بنفس الطريقة. ويؤكد القديس غريغوريوس بالاماس على أن "هذه المعرفة التي تفوق المنطق مشتركة لدى كل أولئك الذين آمنوا بالمسيح فوق المفاهيم"[٢٠٣].

يوضح كل ما أوردناه أن العقل الذي تأثر بالشهوات هو مريض وضعيف ومائت ومحروم من حالته الطبيعية، ومحتاج للشفاء. تصف الطريقة الأرثوذكسية النسكية كيفية شفاء العقل. هذا الشفاء لا غنى عنه لأنه من خلاله يتطهر العقل ويكتسب معرفة الله الروحية، وهذه المعرفة الروحية هي التى تتضمن خلاص الإنسان.

---

201 . Ibid. p. 91, 52
202 . Triads, 1, 3, 33
203 . Ibid. 2, 3, 66

(ب) القلب

إن أحد تضرعاتنا الرئيسية للرب هو بخصوص الخلاص: "فلنُصلِّ للرب من أجل السلام السماوي ومن أجل خلاص نفوسنا". وهكذا فإن أغلب الأواشي (الصلوات الشفاعية أثناء القداس) تنتهي بالكلمات: "صلوا من أجل خلاص نفوسنا". ليس خلاص النفس هو خلع شيء ما، ولكنه لِبسْ المسيح. إنه ليس حالة سلبية ولكن إيجابية، وبصورة رئيسية هو الشركة والإتحاد مع المسيح. هذه الشركة تحدث بصورة أساسية في القلب. **وبالتالي لكي يحصل الإنسان على الخلاص يجب عليه أن يجد قلبه**. وعندما يمنحنا الله أن نجد قلبنا نكون سائرين في طريق الخلاص. إن كلمات الأنبا بامبو في هذا الموضوع مميزة: "**إنك تستطيع أن تخلص لو كنت تقتني قلباً**"[٢٠٤]. أن يقتني المرء قلباً يعني أن يجد قلبه الذي من خلاله سيقوده الله.

يفسر القديس مرقس الناسك كلمات الرب: "ها ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧ : ٢١) قائلاً: "إنه من الضروري في المقام الأول أن يقتني المرء نعمة الروح القدس التي تنشط القلب وهكذا يدخل ملكوت السموات بمقدار هذه الطاقة المنشِّطة"[٢٠٥]. من أجل ذلك يجد العديد من الآباء أنه من الضروري أن يجد المرء مكان القلب الذي ينشط بنعمة الله لأنه عندئذ يصير الله معلماً للمسيحي، وينقاد بالروح القدس في أمان.

ما هو القلب

عندما يتكلم الكتاب المقدس والآباء عن القلب فإنهم يعنون القلب الروحي، ولكن أحياناً أيضاً القلب الجسدي. فالقلب هو كلا الإثنين. فهو كلاً من العضو الجسدي، وكذلك مركز وجودنا الذي فيه نشترك ونتحد بالله. هذان المعنيان يلتقيان معاً عند نقطة ما ولكنهما مختلفان في نفس الوقت. وسوف نتناول ذلك بتحليل أكثر فيما يلي.

فلنتناول قبل كل شيء القلب الروحي. من الصعب على أي أحد أن يعطي تعريفاً للقلب الروحي لأن "القلب هو حقاً هاوية لا يمكن قياس عمقها"[٢٠٦]. الإنسان الجسداني الذي يحكمه المنطق ويعيش في ظلمة الحياة بعد السقوط من المستحيل أن يعرف هذا

204 . Sayings, p. 166

205 Philokalia 1, p. 138, 149

206 . St. Makarios. Philok. 3, p. 321, 83

القلب الروحي. وهكذا يكون من غير الممكن أن نجد تعريفاً قادراً على وصف الواقع الذي *يختبره الإنسان الروحاني. لا يستطيع المرء سوى أن يصيغ مواصفات وصور.*

الإنسان الروحاني الذي يحيا بالصلاة يكتشف "أن قلبه ليس فقط عضواً لحمياً أو مركز حياته النفسية ولكنه شيء من الصعب تعريفه ومع ذلك فهو قادر على أن يكون على إتصال بالله مصدر كل وجود"[٢٠٧].

القلب هو المكان الذي تنمو فيه كل الحياة الروحية وهو المكان الذي تنشّطه قوة الله. "هذا القلب العميق" يكون مجهولاً لدى الكثيرين ليس فقط للآخرين ولكن لنفس الإنسان أيضاً **لأن نعمة الله تصنع خلاص الإنسان في قلبه سراً.** وللأرشمندريت صوفرونيوس قول مميز: "إن أرض المعركة في الحرب الروحية هي أولاً وبصورة رئيسية قلب الإنسان ذاته والذي يحاول أن يكتشف قلبه الخاص سوف يُقدِّر قول داود النبي أن "القلب عميق" (مز٦٤ : ٦). تُعاش حياة المسيحي الحقيقية في هذا القلب العميق مخفية ليس فقط عن الأعين الغريبة ولكن أيضاً عن صاحب القلب ذاته. **يجد الشخص الذي يدخل هذه الخبايا السرية نفسه في مواجهة مع سر الوجود. كل من أمعن في تأمل ذاته الداخلية بكثرة وبقلب طاهر يعلم كيف يكون من المستحيل أن يكتشف حركات القلب الروحية لأن القلب في أعماقه لا يستطيع أن يلم بحالة الوجود حيث لا توجد حركات"**[٢٠٨].

يسمي بطرس الرسول القلب الإنسان الخفي: "إنسان القلب الخفي" (١بط٣ : ٤). إنه حقاً المكان الذي يتقدس فيه الله: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم" (١بط٣ : ١٥). كما أن نعمة الله تشرق في القلب: "...إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بط١ : ١٩). وعلى الرغم من إتحاد الإنسان بالله في القلب يبقى القلب "الأصغر" ويبقى الله "الأكبر" : "لأن الله أعظم من قلوبنا" (١يو٣ : ٢٠).

لقد أشرنا لهذه النصوص الكتابية لا لكي نُظهر كيف يصف الكتاب والآباء القلب، وهذا ما نستطيع أن نفعله في فصل آخر، ولكن لكي نوضح أن عدة نصوص في الكتاب المقدس وكتابات الآباء تتكلم عن القلب.

لقد قلنا من قبل أن العقل هو عين القلب، وأشرنا في عدة مواضع إلى أن الآباء يربطون العقل بالقلب. وفي الحقيقة فإن القلب والعقل شيء واحد. يقول القديس

---

207 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 233

208 . Ibid. p. 10

مكسيموس المعترف: "... لكي ننظف العقل الذي يسميه الرب "القلب" "[209]. **العقل هو عين النفس والقلب هو مركز الوجود الإنساني** ومركز العالم الروحاني. ولكن يبدو أن هذين متحدان معاً. إنه أمر واضح جداً أن القديس غريغوريوس بالاماس عندما يتكلم عن نقاوة القلب يمضي في تحليل العقل ونقاوته"[210].

ومن المؤكد أنه يجب علينا أن نضع في أذهاننا ما فحصناه في الفصل السابق عن أن الآباء يسمون العقل جوهر النفسْ الذي هو في القلب، كما يسمونه أيضاً نشاط النفس الذي يتكون من الأفكار: "يسمى أيضاً نشاط العقل المتكون من أفكار وصور عقلية عقلاً. العقل هو أيضاً القوة المحركة لهذه الأشياء والتي يسميها الكتاب المقدس قلباً"[211]. القديس نيسيفوروس المتوحد يحلل الإنتباه ويصفه قائلاً أن بعض الآباء يصف الإنتباه على أنه حفظ العقل، ويسميه البعض الآخر حفظ القلب، والآخرون اليقظة، والبعض الآخر السكون الروحي." ولكن كل هذه الأسماء تعني نفس الشيء ومثلما يحدث عندما يتحدث أحد عن الخبز فإنه إما يسميه رغيفاً أو لقمة أو قطعة هكذا أيضاً نفهم هذا الأمر"[212]. وهكذا بحسب قول القديس نيسيفوروس المتوحد فإننا سواء نقول حفظ العقل أو حفظ القلب فكلاهما شيء واحد. وهذا يعني أن العقل يتحد بالقلب ويتطابق معه في علم لاهوت الآباء. وبالتالي فإن كل ما كتبناه في الفصل السابق عن العقل ينطبق أيضاً على القلب بالمثل ولكننا سوف نتكلم هنا بالأكثر عن القلب.

يظهر أيضاً الإرتباط بين العقل والقلب في تعليم القديس ديادوخوس الذي من فوتيك. فهو يعلم أنه منذ لحظة العماد فإن نعمة الله "تكون مخفية في أعماق القلب" وفي نفس الوقت تخفي وجودها عن إدراك العقل. وعندما يبدأ شخص ما في أن يحب الله "بصدق كامل" فإنه "من خلال إدراك العقل تنقل النعمة شيئاً من غناها للنفس". ولكنه عندما يفرغ نفسه من كل غناه المادي "فإنه يكتشف عندئذ المكان الذي تختفي فيه نعمة الله"[213]. يقول القديس ديادوخوس في فصل آخر أن النعمة تأتي من خلال المعمودية لتقيم في أعماق النفس "أي في العقل". وعندما نتذكر الله بحرارة "نشعر بالشوق الإلهي ينبع في داخلنا من أعماق قلبنا"[214].

---

209 . Philokalia 2, p. 109, 73
210 . EF p. 409-10
211 . Ibid. p. 410, 3
212 . Writings, p. 32. Gk. Philok. 4, p. 26
213 . Philok. 1, p. 279, 77
214 . Ibid. p. 280, 79

وهكذا توضح هذه النصوص الرابطة بين العقل والنفس والقلب.

يميز القديس ديادوخوس بين ما هو معروف في الكتاب المقدس وبين ما يُحسُّ بواسطة العقل حيث سادت في عصره هرطقة الـ Messalians (فكرة وجود نعمة الله والشيطان معاً في نفس المكان في النفس). وهو يؤكد على أنه " قبل المعمودية تحث النعمة النفس على الخير من الخارج على حين يكمن الشيطان في أعماقها محاولاً أن يسد كل طرق العقل للإقتراب مما هو إلهي. ولكن منذ لحظة الميلاد الثاني من خلال المعمودية يبقى الشيطان خارجاً والنعمة في الداخل"[٢١٥]. لا تتواجد إذاً النعمة مع الشيطان في نفس المكان. النعمة الإلهية تبهج الجسد بفرح يفوق الوصف من خلال خاصية الإدراك التي للعقل، على حين أن الشياطين من الخارج تأسر النفس بالقوة من خلال الحواس الجسدية وخصوصاً عندما تجدنا متراخين في الحرب الروحية[٢١٦].

عندما نتصرف بحسب شهوات الجسد تختفي نعمة الله الموجودة في أعماق قلبنا الروحاني منذ المعمودية. وبالتالي فإننا نجاهد لكي نُظهر هذه النعمة من خلال حياة الجهاد المكلل بالنعمة. وهذا يعني أنه يجب علينا أن نجاهد لكي نُبعد الضباب الذي يغطي قلبنا بعيداً. يتساءل القديس ديادوخوس أنه طالما أن الشيطان طُرد خارج القلب بالمعمودية" فكيف يستطيع إذاً ذلك المتطفل المطرود خارجاً بهذه الطريقة المشينة أن يعود ويقيم مع السيد الحقيقي الذي يعيش الآن بحرية في مسكنه الخاص؟!"[٢١٧].

لقد وضعنا هنا تعليم القديس ديادوخوس هذا لكي نوضح أن نعمة الله تدخل القلب العميق في داخل عمق القلب الروحي من خلال المعمودية. وعندما يختفي هذا القلب بالشهوات يكون علينا أن نجاهد بشدة لكي نُظهره.

يعلم ثيئوليبتوس مطران فيلادلفيا أن القلب أي العقل يُستعلن عندما يحيا المرء في حياة السكون: "عندما تضع حداً للتشتيت الخارجي ونتحكم أيضاً في الأفكار الداخلية فإن العقل سوف يبدأ في الإرتفاع للكلمات والأعمال الروحية"[٢١٨]. إنه يحثنا قائلاً: "ضع نهاية للأحاديث مع العالم الخارجي وصارع مع أفكارك الداخلية حتى تجد موضع الصلاة النقية والمسكن الذي يقيم فيه المسيح"[٢١٩].

---

215 . Ibid. p. 279, 76
216 . Ibid. p. 280, 79
217 . Ibid. p. 285, 84
218 . Writings, p. 385f, 8. Gk. Philok. 4, p. 6
219 . Ibid. p. 386, 9

يبدو في هذا النص أن القلب هو المكان الذي يُستعلن من خلال الجهاد المكلل بالنعمة والمكان الذي يصير فيه المسيح ظاهراً. هذا الأمر معروف للإنسان الذي نقى قلبه من الشهوات ومن كل الأعمال الآثمة. **أما بالنسبة للشخص الساقط الذي يحيا بعيداً عن الله فإن القلب يكون مخفياً وغير معروف بالمرة وهو لا يعلم حتى إن كان موجوداً على حين أن الشخص الذي يعيش حياة إلهية يعرف القلب كواقع.**

يقودنا هذا التعليم لنرى أن كشف القلب هو في الحقيقة كشف الشخص. فعندما يكتشف شخص ما القلب حيث يُستعلن المسيح ويملك من خلال الجهاد المكلل بالنعمة فإنه يصبح "شخصاً" طالما أن الشخص هو إلى حد بعيد على مثال المسيح. **كشف القلب هو إذاً كشف الشخص.**

إننا لا ننوي في هذه النقطة أن نعرض علم الوجود الإنساني كما هو معروض في كتابات آباء الكنيسة الذين كتبوا دراسات مهمة في هذا الموضوع. إننا نؤمن كما ورد في تعاليم الآباء (عن الكتاب المقدس) أن صورة الله هي (إمكانية أن نصير على مثال) الله وأن التمثل بالله هو الصورة على صعيد الواقع. وبنفس الطريقة فإن الإنسان المخلوق بالله والمتجدد خلال المعمودية في الكنيسة هو شخص بحسب الطاقة الكامنة فيه. وعندما يحصل على المثال أو التشابه من خلال الجهاد الشخصي ونعمة الله في الأساس فإنه يصير إذاً شخصاً حقيقياً. وهكذا فإننا نؤكد على أن كل الناس هم "أشخاص" من جهة علم الوجود بل ولكن **من جهة علم اللاهوت الخلاصي فلسنا جميعاً "أشخاصاً" طالما أننا لم نصل بعد إلى المثال أو الشبه مع الله.** إننا نريد أن نؤكد في هذه النقطة بالذات على حياة الشخص النسكية التي غالباً ما يتجاهلها اللاهوتيون المعاصرون. ولكننا نفعل ذلك دون أن نريد أن نتجاهل "وجود " الشخص.

إن كل كتابات الأرشمندريت صوفرونيوس عن هذا الموضوع مميزة: "في الكيان الإلهي يشكل الأقنوم عنصر الوجود السري الأكثر عمقاً. وبالمثل في الكيان البشري فإن الأقنوم هو الأساس الجوهري. "الشخص" Persona هو" إنسان القلب الخفي في العديمة الفساد..... الذي هو قدام الله كثير الثمن" (١بط٣ : ٤). إنه الجوهر الغالي في وجود الإنسان بجملته والذي يظهر في قدرته على معرفة الذات، وحرية الإرادة، وفي اقتنائه لطاقة الإبداع، وفي موهبته للمعرفة ليس فقط للعالم المخلوق ولكن أيضاً للعالم الإلهي. وإذ

يستغرق الإنسان في الحب فإنه يشعر بالإتحاد مع محبوبه الذي هو الله. ومن خلال هذا الإتحاد يعرف الله، وهكذا يندمج الحب مع المعرفة في فعل واحد"[٢٢٠].

إن الشخص هو " إنسان القلب الخفي". هذه هي الصيغة الوحيدة التي يمكن صياغتها عن الشخص لأنه لا يمكن تعريفه بمصطلحات علمية إذ أنه، شركة وإتحاد باطني مع المسيح. **وتماماً مثلما لا نستطيع أن نعطي تعريفاً للكنيسة ولكننا نعرفها فقط على أنها جسد المسيح هكذا الحال بالنسبة للشخص الإنسان أي القلب الذي يحدث فيه شركة باطنية بين الله والإنسان.**

"من الممكن صياغة معرفة علمية وفلسفية، ولكن الشخص Person هو فوق التعريف وبالتالي لا يمكن التعرف عليه من الخارج، ما لم يستعلن هو ذاته عن ذاته. **وحيث أن الله هو السري هكذا يقتني الإنسان أعماقاً** سرية. ليس الإنسان هو صانع الوجود ولا هو نهايته. فالله هو الألف والياء وليس الإنسان. تكمن خاصية مشابهة الإنسان مع الله في نمط وجوده. ومثال الله في الوجود هو المثال أو الشبه الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس (تكوين ١ : ٢٦)"[٢٢١]. وبمقدار ما لا يمكن تعريف الشخص، كذلك لا يمكن أيضاً تعريف القلب الذي هو الشخص.

فالشخص هو حقيقة يولد بنعمة الله: "يولد الشخص من فوق وبالتالي لا يخضع لقانون الطبيعة. يسمو " الشخص" فوق الحدود الأرضية ويتحرك في مجالات أخرى. ولا يمكن حسبانه من الأرض فهو مفرد فريد في نوعه "[٢٢٢]. وحيث أن الشخص هو القلب فإننا نستطيع أن نقول أن القلب أيضاً يولد ثانية من فوق. هذه ليست حالة طبيعية **لكنها فقط بواسطة نعمة الله التي تجعل الإنسان قادراً على تمييز مكان القلب.**

هذا الميلاد الثاني للشخص هو في الواقع إستعلان من الله. فالشخص هو "مولود جديد من فوق. توجد زهرة شديدة الحساسية تتجلى في داخلنا وهي الأقنوم أو "الشخص". ومثل ملكوت الله لا يأتي الشخص بمراقبة"(لو١٧ : ٢٠).

العملية التي فيها تدخل الروح البشرية في مجال الأبدية تتنوع من واحد لآخر منا"[٢٢٣]. **وهكذا يولد "الشخص" من فوق مثل القلب.**

---

[220] . Archim. Sophrony. His life is mine, p. 44
[221] . Ibid. p. 43
[222] . Ibid. p. 43
[223] . Ibid. p. 42

"الله يستعلن نفسه أساساً من خلال القلب، كحب ونور". في هذا النور يتأمل الإنسان مبادئ الإنجيل كإنعكاس للأبدية السماوية على الأرض، ومجد المسيح في حال كونه الإبن الوحيد للآب؛ هذا المجد الذي رآه التلاميذ على جبل طابور. هذا الإعلان الشخصي يجعل الإستعلان العام للعهد الجديد مألوفاً روحياً"[٢٢٤].

لقد فحصنا هذه الأمور لكي نوضح أنه عندما يكتشف شخص ما قلبه فإنه يكون عندئذ بالحقيقة "شخصاً". لقد أردنا أيضاً أن نوضح أن القلب هو المكان الذي ينكشف من خلال حياة الجهاد المكلل بالنعمة والذي فيه يُستعلن الله. إنه هناك حيث يدرك الإنسان نور الله، وهناك حيث ينخر القلب بحب الله له وبمحبته لله **يحصل الإنسان على إدراك القلب، ولكن من المستحيل أن يفهم كل الحياة الموجودة هناك.**

وبحسب تعاليم الآباء فإن هذا القلب الروحي موجود في القلب الجسدي باعتباره عضواً في الجسد. لقد قلنا اللازم عندما درسنا من قبل مكان النفس والعقل. ونفس الأشياء تنطبق على القلب الروحي أيضاً. يشير القديس غريغوريوس بالاماس إلى كلمات الرب: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف" (مت١٥ : ١٩). وقول القديس مقاريوس : " القلب يوجه كل الأعضاء. وعندما تمتلك النعمة القلب، فإنها تسود على كل الأفكار وكل الأعضاء، لأنه هناك في القلب يكمن العقل وكل أفكار النفس" ويكتب أن: **"قلبنا هو مكان القوة العقلية، وهو العضو العقلي الأول في الجسد"**[٢٢٥]. يدعِّم القديس غريغوريوس التعليم القائل أن القلب الروحي موجود في عضو القلب الجسدي مشيراً إلى كلمات بولس الرسول: "أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس. ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا، مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي، لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية" (٢كو٣: ٢-٣) وإلى تعليم القديس مكسيموس المعترف القائل: "عندما يأتي الله ليقيم في قلب مثل هذا فإنه يكرِّمه بأن يحفر فيه كلماته الخاصة من خلال الروح القدس تماماً مثلما فعل في لوحي العهد"[٢٢٦].

عندما يعود العقل من تشتته، فإنه يجد القلب اللحمي أولاً ثم يدخل بعد ذلك القلب الروحي الذي هو القلب العميق. هذه هي الخبرة المشتركة لكل الذين يمارسون صلاة يسوع والعمل المقدس لعودة العقل للقلب. "يتعلم الناسك أسرار الروح العظيمة من خلال

---

[224] . Ibid. p. 44
[225] . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 2, 3, CWS p. 43
[226] . Triads, 1, 3, 41

الصلاة النقية. إنه ينزل داخل قلبه الداخلي، في داخل قلبه الطبيعي أولاً، ثم يتوغّل في تلك الأعماق التي هي ليست لحمية بالمرة. إنه يجد قلبه العميق، ويصل لجوهر وجوده الروحي العميق الفائق للطبيعة، وإذ يتطلع فيه فإنه يرى أن **الوجود الإنساني ليس شيئاً غريباً وخارجاً عنه ولكنه مرتبط بوجوده الخاص إرتباطاً وثيقاً**"[٢٢٧].

وهكذا يستطيع المجاهد في حياة السكون هذه أن يميز بين القلب الروحي والقلب اللحمي. إنه يدرك وجود وطاقة كلاً من هذين القلبين. في البداية يجد العقل القلب الجسدي أولاً ثم يكتشف أيضاً القلب الروحي، ويكون قادراً على إدراك حركات كلا القلبين في نفس الوقت. لذلك لا يوجد خلط في هذه الحالة.

يقول القديس نيقوديموس من الجبل المقدس والذي ينتمي للتقليد الأرثوذكسي، أن القلب الجسدي هو مركز طبيعي وخارج عن الطبيعي وفائق للطبيعة[٢٢٨]. إنه مركز طبيعي لأن القلب هو الوحيد من كل أعضاء الجسد البشري الذي صُنع أولاً. يقول القديس باسيليوس: "إن القلب هو الأول الموجود بالطبيعة في الخليقة الحيوانية"[٢٢٩]. إنه مركز خارج عن الطبيعة لأن منه تأتي كل الشهوات وأفكار التجديف. يجب علينا بالطبع أن نفسر ذلك لنعني أنه بحسب ما قيل أنه بعد المعمودية المقدسة تكون نعمة الله موجودة في مركز القلب، على حين يعمل الشيطان من الخارج. لقد قال بطرس الرسول لحنانيا: "يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس...؟" (أع٥ : ٣). ولقد إقتحم الشيطان قلب يهوذا : "فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه.." (يو١٣ : ٢). وبالمثل أيضاً فإن تعاليم السيد المسيح عن القلب معروفة: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف" (مت١٥ : ١٩). والقلب هو أيضاً مركز فائق للطبيعة لأن نعمة الله تعمل هناك. يقول بولس الرسول: "أرسل الله روح إبنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب" (غل ٤ : ٦). ويكتب في موضع آخر: "محبة الله قد إنسكبت في قلوبنا" (رو٥ : ٥). ويكتب القديس ثالاسيوس أن القلب الصالح يُخرج أفكاراً صالحة لأن أفكاره تتناسب مع مخزن كنزه[٢٣٠].

إن حقيقة خروج الأفكار الصالحة وتلك الشريرة من القلب لا تعني أن النعمة والشيطان موجودان في نفس المكان وفي نفس الوقت: "يُخرج القلب أفكاراً صالحة

227 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 47
228 . Handbook of Council. CWS p. 154-157
229 . Ibid. CWS p. 154
230 . Philok. 2, p. 312, 85

وشريرة من ذاته". ولكن الأفكار الشريرة لا تتولد من طبيعته ولكن كنتيجة لتذكار الشر. القلب يتخيَّل أغلب أفكاره الشريرة من هجمات الشياطين. إننا نشعر في أي واقعة مثل هذه أنها تنبع من القلب"[231].

يؤكد القديس ديادوخوس أيضاً على أن نعمة الله التي تأتي من المعمودية تخفي وجودها في أولئك الذين تعمدوا "منتظرة لترى أي طريق سوف تخضع له النفس". عندما يحفظ شخص ما وصايا المسيح ويتذكر إسم المسيح بلا توقف، فإن نار النعمة الإلهية تشتعل حتى إلى أعضاء الإدراك الخارجية للقلب التى للمعرفة، وتحرق "الزوان الموجود في حقل النفس". وفي هذه الحالة تطفئ نفخة الروح القدس سهام الشيطان قبل أن تصل للجسد. إنها تطفئ السهام النارية بينما لا تزال تكون في منتصف الطريق"[232].

تحدث إذاً المعركة العظمى في القلب. عندما يغلب المسيح هناك وينهزم الشيطان يأتي السلام الداخلي والخارجي. لذلك أهم عمل للمحارب هو أن يدخل إلى قلبه الخاص ويشن حرباً مع الشيطان هناك وأن يبغضه"[233]. القلب الذي هو المركز الطبيعي والخارج عن الطبيعة والفائق للطبيعة، هو مصدر الحياة الجسدية والروحية، ولكنه من الممكن أن يكون أيضاً مصدر الموت الروحي.

سمات القلب

يتضح مما كتبناه أننا لا نستطيع أن نعطي تعريفاً دقيقاً للقلب الروحي إلا أننا نستطيع أن نقول أن القلب هو ذلك المكان الذي يُستعلن من خلال حياة الجهاد المكلل بالنعمة والذي فيه يستعلن الله ذاته ويقيم. هذا المكان مدرك حسياً للشخص العائش بصورة أساسية في التقليد الأرثوذكسي.

لقد أعطى الآباء القديسون الذين اختبروا هذه الحقيقة عدة سمات وصور لهذه الحياة. سوف نحاول فيما يلي أن نتأمل هذه السمات أو التعريفات التي تُظهر القلب ودوره في الحياة الروحية بكليتها بصورة أوضح.

231 . St. Diadochos of Photiki. Philok. 1, p. 284, 83
232 . Ibid. p. 285, 85
233 . St. Makarios. Gk. Philok. 4, p. 24

إن القلب هو **المكان الذي يسكن فيه الله**: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف٣ : ١٧). "لأن محبة الله قد إنسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعُطَى لنا" (رو٥ : ٥). وتماماً مثلما يولِّد الفحم اللهب "هكذا يفعل الله الذي يسكن في قلبنا منذ معموديتنا". وإذا وجد مجال فكرنا خالياً من رياح الشر وإذا كان فكرنا محروساً بحفظ العقل، عندئذ سيُلهب عقلنا بالثيئوريا مثلما يضيء اللهب الشمعة"[234]. وطالما أن الله يقيم هناك فإن "كل كنوز الحكمة والمعرفة الروحية" تختبئ هناك. "إنها تُستعلن في القلب بمقدار تطهيرنا بواسطة الوصايا"[235]. وفي مرآة النفس "يُصوِّر يسوع المسيح وينعكس بنور ذاك الذي هو حكمة وقوة الله الآب". يجب علينا أن نطلب ملكوت الله داخل قلبنا ولو نظفنا عين العقل فسوف نجد حقاً ملكوت الله والبذرة واللؤلؤة والخميرة وأشياء أخرى كثيرة. سوف نجد اللاهوتية في قلوبنا : "قال المسيح أن ملكوت السموات في داخلنا مشيراً إلى أن اللاهوتية تقيم في قلوبنا"[236].

وإذ يسكن الله في قلوبنا، فإنه يُعلِّم ويكتب تعاليمه وناموسه. وهكذا يكون القلب هو **المكان حيث تكتب وصايا الله**. يتكلم بولس الرسول عن أولئك "الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم" (رو٢ : ٥). "يكتب الله نواميسه الخاصة في القلب"[237] وهناك لا يعرف الشخص فقط "الجواهر ولكنه أيضاً بعدما يمر خلالها جميعاً فإنه سوف يرى الله ذاته بمقدارٍ ما"[238]. عندما يأتي الله ليقيم في قلب مثل هذا "فإنه يمجده بأن ينقش كلماته الخاصة عليه من خلال الروح القدس"[239]. وهكذا إذ احتضن القديسون الله في قلوبهم صاروا مستحقين أن يُكتب ناموس الله في قلوبهم، إكتسبوا فكر المسيح بحسب ما هو مكتوب : "وأما نحن فلنا فكر المسيح" (١كو٢ : ١٦). فكر المسيح الذي تلقاه القديسون لا يجلب معه فقداناً للقوة العقلية ولا يأتي "كجزء مكمل مضافاً لعقلنا "ولا "يعبر بصورة جوهرية أساسية في عقلنا، ولكنه بالأحرى يضيء قوة عقلنا بطبيعته الخاصة ويطابق نشاط عقلنا على نشاطه". وهذا يعني أن **قوة عقلنا تضاء بطاقة المسيح دون أن تفقد**. "أن نمتلك فكر المسيح" يعني كما يقول القديس مكسيموس " أن يكون لنا الفهم بحسب ذاك الذي

---

234. Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 180, 104
235. St. Maximus. Philok. 2, p. 109, 70
236. Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 25, 23
237. Maximus, Philok. 2, p. 158, 81
238. Maximus, Philok. 2, p. 158, 80
239. Ibid.

للمسيح، وفهم المسيح من خلال كل الأشياء"[240]. فيفكر الشخص بحسب إرادة الله ويتذكر الله على الدوام. ينطبق نفس الشيء على قوة الرغبة فيرغب الشخص بإستمرار فيما يرغبه الله، ويرغب في الله بلا شبع. يشير القديس بطرس الدمشقي للقديس باسيليوس الكبير الذي يقول أنه عندما يجد الله قلباً خالياً من كل أمور وتعاليم العالم فإنه عندئذ "يكتب عليه تعاليمه الخاصة كما لو كان لوحاً نظيفاً"[241]. وبالتالي تكون المسألة في هذه الحالة مسألة "وعي بالتعاليم". يعرف المرء تعاليم الكنيسة من الخبرة طالما أن له حياة الله في قلبه. يجب علينا أن نجاهد لكي نجعل المسيح يقيم في قلبنا لأنه عندئذ سوف يقوم الله بنفسه "بتعليمنا كيف نثبت في نواميسه"[242].

إن القلب هو **الجحيم الذي ينزل إليه المسيح ويحرر نفس الإنسان**. ومثلما نزل المسيح إلى الجحيم وحرَّر نفوس الأبرار، هكذا ينزل المسيح إلى عمق القلب. يعلِّم القديس مقاريوس أنه عندما نسمع أن الرب نزل إلى الجحيم وحرر النفوس يجب أن نفكر أن هذه الأشياء ليست بعيدة عما يحدث الآن. فالقبر هو القلب. والرب يأتي "إلى النفوس الموجودة في الجحيم والتي تدعوه "أي في أعماق القلب وبعد حوار مع الموت، "إذ يرفع الحجر الثقيل الذي يحزن النفس ويفتح القبر فإنه يقيمنا لأننا كنا أمواتاً بالحقيقة ويحرر نفسنا السجينة من سجنها المظلم"[243].

إن القلب هو **الأرض التي تُزرع فيها حبة الحنطة بيد الرب**. ويقول القديس مكسيموس: "حبة الحنطة هي الرب الذي يُزرع روحياً في قلوب أولئك الذين يقبلونه بواسطة الإيمان"[244].

القلب هو **الكنيسة والمذبح**، ذلك المكان المقدس الذي فيه يتمجد ويتقدس الرب. يُعلِّم بطرس الرسول قائلاً: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم" (١بط٣ : ١٥). ويرى القديس مقاريوس أن كل الأمور المنظورة هي إنعكاس للأمور الخفية. فالكنيسة المرئية ترمز وتعكس صورة كنيسة القلب. والكاهن الذي يرفع الأسرار هو رمز "الكاهن الحقيقي لنعمة المسيح "[245]. وفي هذه الكنيسة الروحية الحقيقية التي هي أعماق القلب تستمر عبادة أبدية في الإنسان القائم: "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، مترنمين

---

240 . Ibid. 83
241 . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 154
242 . Abba Philemon. Philok. 2, p. 349-350
243 Philok. 3, p. 337
244 . Philok. 2, p. 140, 11
245 . Philok. 3, p. 334, 113

ومرتلين في قلوبكم للرب" (أف٥ : ١٩). القلب الخالي من الأفكار الشريرة والذي ينشط بالروح القدس "هو قُدس حقيقي حتى قبل الحياة الآتية"[٢٤٦]. فالقلب هو كنيسة ومذبح. يُعلِّم القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "أن تقيم حراسة منظمة على القلب شيء، ولكن أن تكون أسقفاً على القلب فهذا شيء آخر". في الحالة الأولى يكون العقل مُشرِّعاً ولكن في الحالة الثانية يكون العقل أسقفاً يقدم ذبائح روحية[٢٤٧]. القلب هو أيضاً قُدْس حيث تكون النار[٢٤٨]. إن هذا ما شعر به التلميذان في رحلتهما إلى عمواس عندما كان المسيح يتحدث إليهما: "ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب" (لو٢٤ : ٣٢). القلب هو "حجرة إستقبال للرب"[٢٤٩].

القلب هو **الإناء الذي يحوي زيت النعمة الإلهية**. ويرى القديس مقاريوس المصري أن "الخمس عذارى السهارى اللائي حملن في آنية قلوبهن الزيت الذي لم يكن موروثاً في طبيعتهن، إذ أنه نعمة الروح القدس، كن قادرات على أن يدخلن مع العريس إلى حجرة العرس"[٢٥٠]. القلب هو إذاً الإناء الذي يحفظ فيه الشخص اليقظ نعمة الروح القدس ويدخل بالتالي حجرة العرس ليبتهج بإحتفال العريس.

القلب هو **الحقل حيث الكنز مخفي** الذي من أجله يبيع الذي يجده كل شيء لكي يشتريه[٢٥١].

القلب هو **صورة العهد الجديد**، أو بالأحرى فإن العهد الجديد أيضا هو نقاوة القلب ويقظة وحراسة العقل[٢٥٢]. العهد القديم هو أيقونة للنسك الجسدي الحسي الخارجي أما "الإنجيل المقدس أو العهد الجديد فهو أيقونة اليقظة التي هي نقاوة القلب"[٢٥٣].

القلب هو **سماء** وحيث يكون الإتضاع وتذكُّر الله "ثابتين من خلال اليقظة والإنتباه وأيضاً مع صلاة متواترة لا تلين في مقاومة العدو فهناك يكون مكان الله في سماء القلب"[٢٥٤].

---

246 . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 7. Writings, p. 38
247 . John of the Ladder. Step 28. CWS p. 280
248 . Ibid. Step 26. CWS p. 230
249 The Art of Prayer. P. 187
250 . Philok. 3, p. 313, 65
251 . Matt. 13, 44 and St. Maximus, Philok. 2, p. 109, 71
252 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 181, 113
253 . Ibid. 112
254 . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 17, 4

في القلب يوجد عربون الروح القدس: "الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا" (٢كو١:٢٢).

القلب هو الألواح المكتوب عليها أحرف الله: "أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس. ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي. لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية" (٢كو٣: ٢-٣).

القلب هو المكان حيث يسطع نور الله: "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو٤:٦).

في القلب يصبح الإنسان متأكداً من البنوة وهناك يسمع صوت الله بوضوح قائلاً: "بما أنكم أبناء أرسل الله روح إبنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب" (غل٤ : ٦). وحيث أن الله يقيم هناك فهناك هو **المكان الذي يتكلم فيه مع الإنسان وهناك تُسمع كلمة الله** بوضوح وتمييز.

في القلب النقي توجد أيضاً **العينان التي تُرى بها أسرار الله**: "كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته" (أف١: ١٧-١٨). كما أن سلام الله يملك في القلب: "وليملك في قلوبكم سلام الله" (كو٣ : ١٥).

القلب هو **القيثارة** وأوتارها هي المشاعر، وريشة العازف هي الذهن الذي من خلال الإدراك يحرك الريشة بإستمرار بتذكُّر الله "التي منها تمتلئ النفس بالحلاوة الغير موصوفة ويستضاء العقل الإلهي بالإستنارة الإلهية"[٢٥٥].

القلب هو **النبع** الذي منه تنبع المياه خلال الصلاة وإحترار المشاعر "من الروح المعطي الحياة"[٢٥٦]. القلب هو **إنساننا الداخلي**[٢٥٧].

الرسل والآباء يستعملون هذه الصور والسمات لكي يعبرُّوا عن القلب. نستطيع أن نقول بإختصار أن القلب هو "إنساننا الداخلي". إنه المكان الذي يُستعلن خلال حياة الجهاد المكلل بالنعمة، والذي فيه يُستعلن الله ويقيم. إنه الكنيسة الروحية حيث تقام

255 . Callistos the Patriarch. Writings, p. 271, 2
256 . St. Gregory of Sinai. Writings, p. 82f
257 . St. Gregory Palamas. To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 109

الليتورجية الإلهية الدائمة، وحيث يُقدَّم لله تسبيح دائم، **هذا المكان المجهول للكثيرين ولكنه معلوم للقديسين، هو الذي يعطي حياة للإنسان.**

مرض القلب

من المعروف على مدار التقليد الكتابي الآبائي أنه عندما يكف قلب الإنسان عن أن يسلك بحسب إرادة الله، ويفعل رغبات الشيطان، فإنه يمرض ويموت. إننا نتكلم عن المرض والقساوة والنجاسة والموت الروحي للقلب. وسوف نرى بعض مظاهر القلب المريض في هذا الفصل.

يدخل الشيطان قلب الإنسان ويجعله أسيراً: "فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه..." (يو١٣ : ٢). لا يوجد شك في أن عقله كان موجوداً في الأسر لعدة سنوات من قبل. و تماماً مثلما هو مستحيل على النار والماء أن يمرا خلال نفس الماسورة فإنه مستحيل على الخطية أن تدخل القلب دون أن تطرق أولاً على بابه في صورة خيال يثيره الشيطان"[٢٥٨]. فالخيال هو الذي يقود غواية الشيطان إلى داخل القلب. والخيال في الإنسان الساقط الذي هو أدق من الفكر وأغلظ من العقل هو بداية الشر. من أجل ذلك ينصحنا الآباء أن نبقى على خيالنا نقياً أو أفضل من ذلك أن نحيا بطريقة لا تثير الخيال بل بالأحرى تميت الخيال. إنه فقط عندما يُمات ذاك بتوبة عظيمة وحزن داخلي كثير يستطيع الإنسان حينئذ أن يتكلم باللاهوت.

يكتب الآباء عن هلاك القلب. ويؤخذ هذا بمعنى أن نعمة المسيح تكون غير فعالة في القلب وأن المركز الفائق للطبيعة تحول إلى مركز مخالف للطبيعة. إن هلاك القلب هو فقدان الخلاص.

وأحد أمراض القلب هو **الجهل ونسيان الله**. فعندما يفقد القلب نعمة الله فإنه يصير معتماً ومظلماً ومختفياً. وهذا هو ما رأيناه في اليهود والهراطقة الذين قرأوا الأسفار المقدسة ومع ذلك لم يفهموها بالمرة لأن قلوبهم كانت مغطاة ببرقع: "لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى البرقع موضوع على قلبهم" (٢كو٣ : ١٥).

---

258 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 45

من خلال القلب يكتسب المرء الثقة في الله، وفي القلب يُستعلن الله فهو يتكلم ويفسر كلمته. وعندما يكون القلب مختفياً يكون الإنسان في ظلام عميق. والقلب الجاهل هو الجحيم: "الجحيم هو الجهل لأن كليهما مظلم؛ والهلاك هو النسيان لأن كليهما يشمل الإنطفاء"[٢٥٩].

القساوة والتقسّي هما مرض آخر للقلب. فلأنه لا يقبل نعمة الله التي تغير كل شيء فهو يبقى قاسياً. لقد قال إستفانوس أول الشهداء لليهود: "يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان" (أع٧ : ٥١). إن هذه القساوة هي ما يحمله الكبرياء وسوف يدان عليها الإنسان: "ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب وإستعلان دينونة الله العادلة" (رو٢ : ٥). **القلب القاسي هو بوابة جديدة للمدينة التي عندما تُغلق لا تسمح بدخول أحد. ولكن القلب الذي يعاني من الشدائد والضيقات سوف ينفتح من ذاته مثلما فعل مع بطرس**"[٢٦٠]. ومن واجبنا ألا نخلق الجو المؤدي إلى قساوة القلب : "لا تقسُّوا قلوبكم كما في العصيان"(عب٣ : ٨). لقد واجه الرب مثل هذه القلوب الصلبة عدة مرات. فبعد معجزة الخمس خبزات والعاصفة "كانت قلوبهم غليظة" (مر٦ : ٥٢). وفي موضع آخر قال الرب للشعب: "أحتى الآن قلوبكم غليظة"(مر٨ : ١٧). وعندما واجهه الرجال الذين كانوا يراقبونه هل يشفي في السبت: "نظر حوله إليهم بغضب حزيناً على غلاظة قلوبهم" وشفى الرجل ذا اليد اليابسة (مر٣ : ٥).

النجاسة هي مرض آخر للقلب. عندما يفقد القلب نعمة الله وتعمل الأفكار الشريرة فيه فإنه من الطبيعي أن يصير نجساً، ويرى نيسيتاس ستيثاتوس أن نجاسة القلب ليست فقط أن يكون لدى الشخص أفكار نجسة، ولكنها تحدث أيضاً عندما يفتخر بنجاحه وينتفخ بفضائله وتكون لديه أفكار عظمة أي يكون مغروراً بحكمته ومعرفته لله، ويلوم إخوته المتكاسلين والغير مبالين. يظهر ذلك بوضوح في مثل الفريسي والعشار[٢٦١]. إن كل شهوة تأتي لقلبه حتى لو لم تظهر خارجياً هي نجاسة وزنا. لقد قال الرب: "كل من نظر لإمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت٥ : ٢٨). ولكن أيضاً كل شهوة أخرى حتى لو لم تكن جسدية بالمعنى الضيق، ولكنها تكون ضد مشيئة الله فهي تدنيس للقلب وتكون بالتالي مرضاً، ويكون القلب مريضاً.

---

[259]. St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 114, 62
[260]. *Ibid. p. 111, 21*
[261]. Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 48

بالمثل أيضاً يكون القلب الغبي مريضاً. يتكلم الكتاب عن عابدي الأوثان الذين يعبدون الأشياء المخلوقة دون الخالق قائلاً: "إظلم قلبهم الغبي"(رو١ : ٢١).

عدم الإستقامة هو مرض آخر للقلب. فالقلب الذي يفعل مشيئة الشرير لا يكون مستقيماً طالما أن إستقامة القلب هي ممكنة فقط عندما يكون القلب في حالته الطبيعية، أي عندما يكون مكان سُكنى الله. لقد وبّخ بطرس الرسول سيمون الساحر الذي أراد أن يقتني موهبة الله بالفضة: "لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله" (أع٨ : ٢١).

الصلابة أيضاً هي مرض للقلب. فالشهوات في القلب تجعله صلباً. وتظهر هذه الصلابة خارجياً. من أجل ذلك يتكلم التقليد الأرثوذكسي بوضوح عن اللطف وبالأكثر عن اللطف الداخلي دون الخارجي. يجب على القلب أن يكون بسيطاً ومهذباً. فالرجل ذو القلب البسيط يكون لطيفاً أيضاً من الخارج. يوجد إذاً لطف خارجي لا يأتي من لطف القلب، أو بالأحرى هو في تضاد واضح مع الصلابة الموجودة في القلب، ويوجد أيضاً لطف خارجي ينبع من ويعكس اللطف الداخلي.

يكتب الأرشمندريت صوفرونيوس عن القديس سِلوانْ (الذى عاش فى جبل آثوس باليونان) قائلاً: "حتى سرعة البديهة التى التصقت بالأب سلوان، مهما كانت الظروف، لم تترك فيه أي شئ مشين، فلم يكن يعرف كيف يزدري أو يستخف بأحد. لقد كان غريباً عن الرياء وكان نبيلاً حقاً ولكن فقط بالطريقة التي يستطيع فيها أن يكون المسيحي نبيلاً"[٢٦٢].

عندما يوجد إذاً رياء ونفاق وسخرية وبغضة فإنه من المؤكد أن القلب يكون مريضاً طالما أن سلوكه يكون وقحاً.

يوجد مرض آخر للقلب وهو **التهاون الداخلي**. فبدلاً من أن تتمركز لذة القلب حول محبة الله وتبتهج بها، فإنه يدور حول الأشياء الجسدية ويتمتع بها، تلك الأشياء التي تُغضب الله. **القلب المتهاون هو سجن للنفس وخصوصاً في ساعة الموت**. ويرى القديس مرقس الناسك أن "القلب المتهاون يصبح سجناً وسلسلة للنفس عندما يترك هذه الحياة"[٢٦٣]. تُشبَع شهوات النفس طالما أنه يوجد جسد ولكن عندما تتحرر النفس من الجسد سوف لا تكون قادرة عندئذ على أن تشبع طالما أنه ستنقصها الأشياء المادية. **وهكذا فإن هذه الشهوات وخصوصاً تهاون النفس إذ لا تجد إشباعها فإنها سوف تخنق النفس.**

---

262 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 53

263 . Philok. 1, p. 111, 20

هذه هي الشياطين التي تتحدث عنها كتابات الآباء. وهذا هو السبب الذي يجعل القلب المتهاون سجناً وسلسلة للنفس في وقت الرحيل من هذه الحياة.

تنقل نفس الإنسان المريضة والميتة مرضها وظلامها لكل الكيان النفسجسماني. فأي شيء يفكر فيه أو يشتهيه يكون ميتاً. من أجل ذلك يقول الأنبا دوروثيئوس أنه بمقدار ما نكون معرضين للشهوة بمقدار ما يجب علينا ألا نثق في قلبنا بالمرة. **لأن الحاكم الملتوي يجعل حتى الأمور المستقيمة ملتوية**[٢٦٤]. وينصح القديس مرقس الناسك قائلاً: "لا تطع قلبك حتى تستطيع أن تستأصل الشر"[٢٦٥].

يجب إذاً على القلب المريض أن يُشفى ولو حدث أنه لم يُشفى فإن كل كيان الإنسان يكون مريضاً.

شفاء القلب

إن أقصى غاية للإنسان هي أن يصل لمعرفة الله لأن هذا هو خلاصه. وبالطبيعي عندما نقول "معرفة الله" فإننا لا نعني المعرفة العقلية ولكن نقصد "الشركة في الوجود". وهكذا فإن **معرفة الله هي الشركة مع الله**. وأينما يحصل المرء على هذه الشركة فهناك يكون الخلاص. ولكن هذه الشركة تحدث في أعماق القلب حيث يلتقي الله بالإنسان، وهناك يكشف الله معرفته، وهناك يحصل الإنسان على معنى لوجود الله.

ولكي تحدث هذه الشركة ورؤية الله، يجب على القلب أن يكون نقياً. لقد أكد الرب ذلك قائلاً: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت٥ : ٨). القلب الذي سقط مريضاً وصار ميتاً يحتاج لأن يُشفى ويتنقى لكي يحصل على معرفة الله. فالقلب النقي هو أداة المعرفة الأرثوذكسية لذلك سوف نهتم فيما يلي بكيفية شفاء القلب.

التوبة هي الدواء الشافي الأول . وعلى القلب أن يتوب ويعود لحالته الطبيعية. فإذا قادت حياة الخطية القلب للحالة الغير طبيعية، فإن حياة التوبة سوف تعيده لحالته الصحيحة، وسوف تعطيه حياة. يقدم القديس يوحنا الدرجي تعريفات محددة للتوبة: "إن التوبة هي تجديد المعمودية. التوبة هي ميثاق مع الله عن بداية جديدة في الحياة. التوبة هي شراء الإتضاع. التوبة لا تثق أبداً في راحة الجسد. التوبة هي وعي دقيق ومراقبة أكيدة

---

264 . Abba Dorotheos. SC p. 526, 202, 2. cf. CS 22, p. 251
265 . Philok. 1, p. 122, 177

للذات. التوبة هي التصالح مع الله....التوبة هي تنقية الضمير..."[266]. يخبرنا نفس القديس في موضع آخر عن أنه يجب على كل أولئك الذين تدنسوا بعد المعمودية أن يتنقوا ويزيلوا القار من ذواتهم بواسطة نار القلب المستمرة وزيت الرحمة الإلهية[267]. رحمة الله ونار القلب تشفي الشخص من مرضه.

ويزداد الإنسحاق بمقدار ما تكون التوبة عميقة. والقلب المنسحق هو ذاك الذي يعيش في توبة. يقول داود النبي الملك: "ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مز٥١ : ١٧). الله يسكن في القلب المنسحق. وكل من يأتي إلى الملك لكي يحصل على إلغاء الدين الذي عليه يحتاج لأن يمتلك "إنسحاقاً لا يُعبَّر عنه"[268]. ويرى القديس نيسيتاس ستيثاتوس أن العلامات المميزة للحق لا توجد في الوجوه والأشكال والكلمات، ولا يقيم الله في هذه الأشياء ولكن الحقيقة تقيم مثل الله "في القلوب المنسحقة وفي أرواح الإتضاع وفي النفوس المستنيرة بمعرفة الله"[269].

عندما نتحدث عن إنسحاق القلب يجب علينا أن نصف كيف يصبح القلب منسحقاً وما هو هذا الإنسحاق. القديس مرقس الناسك يبدأ بأن يقول بأنه من المستحيل على شخص ما أن يتخلص من الشر بدون انسحاق قلبه وبعد ذلك يعرف بدقة ما يجعله منسحقاً: "القلب يصبح منسحقاً بضبط النفس ثلاثة أضعاف: في النوم والطعام والراحة الجسدية"[270]. الراحة الجسدية تؤدي إلى التهاون مع النفس الذي يؤدي إلى الأفكار الشريرة. والإنسحاق يأتي من: "العزلة الحكيمة والصمت التام"[271]. وإذ يعود القديس مرقس الناسك لهذا الموضوع فإنه يؤكد على أن اليقظة والصلاة والقبول بصبر على ما يأتي على الإنسان تشكل جميعها قلباً منسحقاً وهي لا تؤذيه ولكنها تفيده[272]. الجهاد الجسدي والحرمان من الضروريات يحدث ألماً في القلب يكون مفيداً وصحياً للشخص. يشدد القديس فيلوثيئوس السينائي على حقيقة أنه يجب علينا أن نفعل كل ما نقدر عليه لكي نتغلب على كبرياء قلبنا ويحدد الطرق لتحقيق ذلك. نستطيع أن نكسر القلب ونسحقه بأن نتذكر حياتنا السابقة التي هي حياة آدم قبل السقوط، وبأن نتذكر كل الخطايا

---

266. Ladder. Step. 5. CWS p. 121
267. Ibid. Step 7. CWS p. 144
268. Ibid. Step 28. CWS p. 277
269. Natural chapters, ch. 32
270. Philok. 1, p. 143, 210
271. Gregory of Sinai. Acrostics, 104. Writings, p. 59
272. Philok. 1, p. 111, 19

التي إقترفناها منذ الطفولة، ماعدا الخطايا الجسدية بالطبع "لأن تذكر هـذه يكـون مؤذيـاً". وتذكُّر الخطايا يولد دموعاً ويحركنا لكي نعطي شكراً قلبياً لله. كما أن دوام إمتلاء العقـل بتذكر الموت يؤدي إلى الحزن المقدس. وبالمثـل تتـضع الـنفس بتـذكر آلام ربنـا والبركـات العديدة التي حصلنا عليها من الله"[٢٧٣].

الإنسان الجسداني الذي هو بعيد عن الله يُعرف بقساوة وغلاظة قلبه. أما إنسان الله الذي يتلقى الروح القدس فإنه يتميز برقَّة قلبه. فالقلب يصير حساساً ولطيفاً عندما يتنقى من الشهوات وينسحق.

يصف الآباء أيضاً الإنسحاق الـضار. فـيرى القـديس مـرقس الناسـك أنـه "يوجـد إنسحاق قلبي لطيف يجعله يتوب بعمق، ويوجد إنسحاق قلبي عنيف وضار يحطمه تماماً"[٢٧٤]. يحدث النوع الصالح من الإنسحاق في روح التبكت وفي جو الصلاة. وهذا يعني أن القلـب المنسحق يصلي لله بلا إنقطـاع. إنـه لا ييـأس ولكـن رجـاؤه يكـون في محبـة الله العظيمـة للإنسان. إنه يتميـز إذاً بالرجـاء. لقـد أدرك القـديس سمعـان اللاهـوتي الجديـد والطبيـب الروحاني المختبر أن الحـزن الطويـل للقلـب والـذي هـو في غـير أوانـه "يُظلـم ويربـك العقل". إنه يُبعد الصلاة النقية والتبكيت عن النفس ويخلق وخزاً مؤلماً للقلب يـؤدي إلى صلابة وقساوة مفرطة. هذه هي الطريقة التي تجلب بها الشياطين اليأس"[٢٧٥].

إذاً الإنـسحاق الـذي لا يكـون ملتحفـاً بالتبكيـت والـصلاة يـؤدي إلى إظـلام أكثـر للشخص ويكون مرتعاً مفـضلاً للـشيطان ليبـث اليـأس وعـدم الرجـاء. أمـا الإنـسحاق الحقيقي للقلب الذي كما قلنا لا يكون مؤذيـاً للقلـب يتميـز بوجـود الـصلاة والتبكيـت والرجاء في الله.

القلب المنسحق يأتي مع الصلاة وتكون له نتائج عديـدة جـداً. يقـدم ناسـك مجهـول الإسم فوائد هذه الطريقة الصحية قائلاً:

" ١- دعِ قلبك ينسحق بالصلاة أيها الراهب، بحيـث تنكـسر تمامـاً قـوة الـشيطان بعيداً عن قلبك بالتمام.

273 . Philok. 3, p. 20, 13
274 . Philok. 1, p. 111, 18
275 . CS 41, p. 49. Ch. 1, 63. gk. Pilok. 3, p. 244, 46

٧- وتماماً مثلما يخاف الإنسان من أن يمسك حديداً ملتهباً ومشتعلاً، هكذا يخاف الشيطان من إنسحاق القلب إذ أن إنسحاق القلب يكسر مَكْره تماماً.

٨- بمجرد أن يتعرض القلب المتراخي والغير منسحق للخيال الشيطاني، فإنه يقبله للحال، ويتأثر بفكرة الخيال بعمق، ولكن القلب المنسحق لا توجد فيه أى مكان لأي خيال.

٩- حيث يوجد إنسحاق القلب يهرب كل شر الشيطان ويحترق كل فعل شيطاني.

١٤- إسحق قلبك بالصلاة بحيث تنكسر الخطية بعيداً عن قلبك.

٢٥- هل رأى الشيطان قلباً مجروحاً بإنسحاق الصلاة؟ لقد تذكر على الفور الضربات التي تحملها المسيح من الإنسان وبالتالي إرتعب وفقد شجاعته.

٢٦- أيها المحبوب إكسر الشيطان بإنسحاق قلبك بحيث تستطيع أن تدخل منتصراً إلى فرح سيدك.

٢٧- إسحق قلبك بالصلاة بحيث ينكسر الشيطان الذي يخدعك إلى أجزاء صغيرة"[٢٧٦].

لكى نفسر إنسحاق القلب يجب علينا أن نتكلم عن ألم القلب كما يجب علينا أن نقول من البداية أنه عندما نتكلم عن الألم في القلب فإننا نشير بصورة رئيسية إلى القلب الروحي. فالقلب الروحي هو الذي يتوجع ويتألم. وعندما تأتي هذه الآلام بواسطة نعمة الله فإنها لا تكون ذات نتائج مأسوية للقلب الجسدي. هذا يعني أنه بينما ينسحق القلب الروحي ويتألم من الحزن الفَرِح للحياة في التوبة ، يُكمِّل القلب الجسدي مسيرته الطبيعية دون أية آثار سيئة. لا يستطيع أطباء القلب في أغلب الأحيان أن يجدوا المرض، لسبب بسيط وهو أن قلب الشخص العضوي المتألم لا يكون مريضاً.

وجع القلب يكون أمراً ضرورياً لأن الحياة النسكية الأكثر صرامة تكون مزيفة وغير مثمرة بدونه[٢٧٧]. وبالطبع لكي يوجد وجعِ القلب هذا الذي هو ضروري للحياة الروحية يجب على المرء ألا يشبع جوع الجسد تماماً. يقول القديس مرقس الناسك أنه " تماماً مثلما لا يتزاوج الخروف والذئب هكذا لا يتحد القلب المتألم مع الشبع لولادة الفضائل"[٢٧٨].

---

276 . Anonymous hesychast: Neptiki theoria, p. 171-174 (in Greek)
277 . John of the Ladder. Step 7. CWS p. 144
278 . Philok. 1, p. 144, 217

كل الفضائل تولد من خلال وجع القلب وتكون الحياة المسيحية الخالية من الألم مزيفة.

إن ألم القلب ضروري للخلاص: "يجب علينا أن ندرك أن العلامة الحقيقية للعمل الروحي وثمن النمو هو ألم الجهاد الذي هو الإحساس بخطيتنا المخزية، عندما نسقط عند قدمي يسوع بحزن ودموع مثل المرأة الخاطئة في بيت سمعان الأبرص في بيت عنيا. لقد سمعته المرأة يقول: "مغفورة لكِ خطاياك". الذي بلا ألم لا يحمل ثمراً لأن "الصلاة بدون ألم تحسب كسَقْط" وذلك بحسب قول القديس مار إسحق السرياني. يكشف ألم القلب والجهاد الجسدي عطية الروح القدس، تلك العطية المنسكبة على كل مؤمن في المعمودية المقدسة، والتي تنطمس في الشهوات بسبب إهمالنا لإتمام الوصايا، ولكن التي تنتعش ثانية بالتوبة من خلال رحمة الله الفائقة الوصف.

"لاتكفّ عن أعمال الجهاد بسبب الألم المصاحب لها، وإلا تُدان بعدم الإثمار وتسمع الكلمات: "خذوا منه الوزنة" (مت٢٥ : ٢٨). كل جهاد في طريق تدريب النفس سواء كان جهاداً جسدياً أو عقلياً، عندما يكون غير مصحوب بالألم ولا يتطلب أقصى جهد سيكون بلا ثمر. "ملكوت السموات يُغصَب والغاصبون يختطفونه" (مت١١ : ١٢). لقد عمل العديد من الناس ولا يزالون يعملون بدون ألم، ولكنهم بسبب غيب الألم يكونون غرباء عن الإثمار بسبب غياب الألم وهم أيضاً خارج شركة الروح القدس، لأنهم تجنبوا شدة الألم.

"أولئك الذين يعملون بضعف ولامبالاة قد يمارسون مجهودات عظيمة، ولكنهم لا يحصدون ثمراً لأنهم لم يتألموا. وبحسب قول النبي فإننا لن ننجح في أن نولدّ روح الخلاص في أرض قلبنا، ما لم تنسحق خاصرتينا وتضعف بالصوم، وما لم ندخل في ضيق الإنسحاق، وما لم نتألم مثل إمرأة في مخاض". لأنه مكتوب: "بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع١٤ : ٢٢)[٢٧٩].

هذا الألم الموجود في القلب الروحي والذي يُحس أيضاً عضوياً بدون أن يكون ضاراً، عندما يكون مطابقاً لما يؤكد عليه التقليد الأرثوذكسي، فإنه يكون عندئذ ضرورياً لخلاصنا لأنه يساعد كل قوى نفسنا لكي تكون مُركَّزة هناك. وعندئذ تكون النفس مرتبطة بالقلب بأكثر سهولة وتعود إليه. وهذا الألم الذي يُحدث جرحاً غالباً ما يكون مصحوباً بالبكاء بصورة ما. وهذه تسمى "دموعاً" وينفجر الإنسان في الدموع بصوت عالٍ وهذا يسمى "حزناً". ونحن نعلم من كتابات آبائنا أن هذا الجرح الذي يُسهم في الخَلاص

[279]. The Art of Prayer. Cf. p. 117

يشعر به الشخص بصورة مؤلمة أكثر من الجرح الجسدي. ولكن كما سنرى فيما يلي فإن إنسحاق القلب يخلق لذة تفوق الوصف.

يكتب القديس ثيئوفان الناسك عن هذا الجرح الذي يخلق ألماً فائقاً للطبيعة قائلاً: "إعتن بأن يكون إنتباهك في قلبك وليس في رأسك، وتمسَّك بذلك ليس فقط عندما تكون واقفاً للصلاة ولكن في كل الأوقات أيضاً. حاول أن تكتسب نوعاً من الألم في قلبك. والجهاد المستمر سوف يحقق لك ذلك بسرعة. لا يوجد شيء مميَّز في ذلك: فظهور هذا الألم لا يعني الجرح على حين أنه ألم بصورة أساسية. هذا الجرح ليس جرحاً عضوياً وألماً عضوياً يهدد الحياة. ولكنه جرح من الحب المُسكر الذي تشعر به النفس التائبة، مثل ذاك الذي شعر به الإبن الضال وهو في اتحاد العناق الإلهي. إنه ألم تكفيري، وحلاوة لا يشبع منها، وتأمل ميستيكي لا يمكن وصفه، ورابطة غير منحلة مع الله، وشهوة لترك هذه الحياة، وحوار حب مع الله. هذا الألم سيساعدك على أن تجمع كل قُوى نفسك في هذا الجهاد المحبوب، وسوف يعطيك الله ما تطلب إذ يرى جهادك. وبعد ذلك سوف تحدث بعض التغيرات والحالات الإلهية في قلبك"[٢٨٠].

يشهد القديس يوحنا الدرجي لحقيقة من المحتمل أن تكون من خبرته الخاصة، عن أن بعض الناس يشعرون بهذا الألم الفائق للطبيعة وبوجع القلب هذا لدرجة أن الدم ينسكب بالفعل من قلبهم المجروح ومن أفواههم : "لقد رأيت أناساً وصلوا للحد الأقصى من الحزن لدرجة تدفق الدم من قلب متألم مجروح من خلال أفواههم، وعندئذ تذكرت القول : "ملفوح كالعشب ويابس قلبي" (مز١٠٢ : ٤)"[٢٨١].

إنهمار الدموع هو نتيجة أخرى لهذا الألم. لقد بارك الرب أولئك الحزانى قائلاً: "طوبى للحزانى لأنهم يتعزون" (مت٥ : ٤). الحزن الإلهي والدموع التي تنتج عنه هي إذاً وصية للمسيح. فالدموع هي طريق الحياة. وتماماً مثلما تكون التوبة والحزن طريقاً للحياة كذلك أيضاً الدموع التي تتدفق من القلب التائب المنسحق. عندما نتحدث عن الدموع يجب علينا أن نشير إلى أنه توجد دموع داخلية للقلب ودموع خارجية للجسد. وعادة ما ينتحب القلب ويغتسل بنهر من الدموع. المجاهد الروحي الذي يعيش في روح التقليد الأرثوذكسي عادة ما ينخطف ويديه على قلبه باكياً. وغالباً ما تظهر دموع القلب هذه خارجياً. وفي بعض الأحيان تكون مخفيةً. ولكن هلم نتأمل الآن في قيمة الدموع.

---

280 . Ibid. p. 127

281 . Step 7. CWS p. 144

القديسون يحثّون المسيحي على البكاء لأن القلب في هذا الجو يتنقى ويكتسب حساسية روحية تجعله يتغلب على قساوته. فيحثنا القديس إسحق قائلاً: "بلل خديك بدموع عينيك"[٢٨٢]. إنه يحثنا بالأخص على أن ندعو مريم ومرثا لكي تعلمانا "صرخات الحزن"[٢٨٣]. ويعلمنا القديس نيلوس السينائي أن نصلي أولاً من أجل موهبة الدموع[٢٨٤] وهكذا إذ نصلي بدموع فكل ما نطلبه سوف يُسمع[٢٨٥].

إن قيمة الدموع عظيمة. والآباء الذين إختبروا هذه الحقيقة معاً يتفقون معاً في هذا. فالدموع هي معمودية: "ينبوع الدموع بعد المعمودية أعظم من المعمودية ذاتها، حتى وإن كان في هذا القول جراءة"[٢٨٦]. الدموع هي علامة الميلاد الثاني للإنسان. ويرى الأب بيمن أن "البكاء هو الطريقة التي تعطيها لنا الأسفار وآباؤنا عندما يقولون "إبكِ" فإنه لا يوجد حقاً طريق آخر غير ذلك"[٢٨٧]. إنه كما قلنا طريق للحياة. ومن المستحيل علينا أن نعرف ذواتنا بدون دموع. وهذا يعني أننا لو تحققنا من أننا خطاة وهذه علامة على النعمة الإلهية فينا، ولو أننا إكتسبنا عطية معرفة الذات وتبكيتها، فإننا سنبدأ عندئذ في البكاء بصورة تلقائية. من أجل ذلك "لا يستطيع أحد أن يترك نفسه الميتة ويذهب ينتحب على آخر"[٢٨٨].

الدموع في الإنسان تظهر أن "الله لمس عينيه وأعطاه بصيرة روحية"[٢٨٩]. الدموع تفتح عيني الروح. وكما يعلّم الأنبا أرسانيوس، فالدموع هي أمر ضروري أيضاً لأن الإنسان سيضطر للبكاء في وقت ما في أي مناسبة. إن الذي يبكي بإرادته هنا على الأرض، سوف لا يبكي في الحياة الآتية. وعلى العكس فالذي لا يبكي هنا "سوف يبكي إلى الأبد في الحياة الأخرى"[٢٩٠].

يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد الذي يتميز مع آخرين بأنه لاهوتي الدموع Theologian of tears أن الدموع هي علامة الحياة. ومثلما يبكي الأطفال عندما يخرجون من بطون أمهاتهم وتكون هذه علامة للحياة، هكذا يكون الحال مع الولادة الروحية. والدموع هي جزء من الميلاد الثاني للإنسان. لا يسمى الطفل حياً ما لم يبكي. من أجل ذلك

282 . St. Isaac the Syrian. Ascetical homilies, p. 91
283 . Ibid.
284 . St. Neilos the Ascetic. Gk. Philok. 1, p. 177, 5
285 . Ibid. 6
286 . Ladder. Step 7. CWS p. 137
287 . Sayings. P. 155, 119
288 . Barsanuphiius and John. Q. 341. (In Gk.)
289 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 111, 15
290 . Sayings. P. 16, 41

وبحسب قول القديس سمعان فإن "الدموع والحزن يلازمان الطبيعة الإنسانية منذ الـولادة"[٢٩١]. لقد قال ذلك لأن العديد من الأشخاص في هذا الوقت تمسكوا بأنه ليس لكل الناس نفس الطبيعة وبالتالي لا يستطيع الكل أن يذرفوا الدموع. ولكن ليس الحال هكذا.

ويضيف القديس أن الدموع ضرورية للنفس تماماً مثلما يكـون الطعـام والـشراب ضرورياً للجسد. والذي لا يبكي كل يومٍ وكل ساعة "سوف يحطـم نفـسه ويجعلـها تفنـى جوعاً"[٢٩٢]. عندما يكتسب شخص ما ميلاً للصلاح والغيرة والـصبر والإتـضاع ومحبـة الله فإن نفسه تكون مثل الصخرة "التي ستصبح ينبوعاً للدموع"[٢٩٣].

لقد سجل القديس سمعان المعلومـة الموجـودة أيـضاً في الكتـاب المقـدس أن "بعـض البالغين ذرفوا الدموع في لحظة معموديتهم إذ إبتلوا بالتبكيت عند حلـول الـروح القـدس ولكنها لم تكن دموع الألم الموجعة، ولكنها كانـت أحلـى مـن العـسل... لقـد ذرفـت هـذه الدموع من أعينهم بدون ألم وبلا صوت"[٢٩٤].

هذه الأمور تُظهر من ناحية أن الدموع ضرورية لحياتنا الروحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى أنها طريق للحياة وأنها غذاء للنفس. وبالإضافة إلى ذلك فهي لها عدة صور وهذا ما أتمنـى أن أركز عليه فيما يلي.

يُعلِّم نيسيتاس ستيثاتوس تلميذ القديس سمعان اللاهـوتي الجديـد أن دمـوع التوبـة شيء ودموع التبكيت هي شيء آخر. فالأولى تكون مثل النهر الذي يفيض ويكتـسح جميـع جدران الخطية على حين أن الأخيرة تكون للنفس كالمطر الساقط على الحقول ومثل الجليد على العشب "فهي تغذي بذرة المعرفة وتجعلها منتعشة ومثمرة"[٢٩٥]. إنه يؤكـد أيـضاً علـى أن مذاقة الدموع قد تجلب لشعور القلب العقلاني في بعض الأحيان المرارة والألم وأحيـان أخرى الفرح والسعادة. دموع التوبة تجلب المرارة والألم، ودموع القلب النقي الذي حـصل على حريته من الشهوات هي دموع اللذة والحلاوة الغير موصوفة[٢٩٦]. ونفس الفرق يوجـد تقريباً بين دموع مخافة الله ودموع محبة الله[٢٩٧].

---

291. CWS p. 314
292. Ibid.
293. CWS p. 313
294. Ibid.
295. Practical chapters, ch. 70
296. Ibid. 69
297. Callistus and Ignatius. Writings, p. 231, 58

توجد آثار عديدة للدموع. فهي تنقي قلب الإنسان من لوثة الخطايا ثم بعد ذلك تنير القلب. ويُعلِّم الآباء بأنه عندما يأتي الشيطان لنفس شخص ما، فهو يُسقط فيه صوراً متعددة ثم يمضي تاركاً صنم الخطية في القلب. الدموع تطرد هذا الصنم بعيداً وعندئذ يغتسل مكان القلب، وتختفي السحابة التي غطَّته. يعلم الأنبا بيمن قائلاً:"إن الذي يريد أن يتنقى من أخطائه فليتنقى منها بالدموع"[٢٩٨]. ويقول في موضع آخر: هلمَّ نبكي في كل ضيقاتنا في حضرة الصلاح الإلهي حتى يظهر رحمته علينا"[٢٩٩]. وهكذا حيثما يوجد الحزن فهناك لا يوجد نقد أو إفتراء[٣٠٠]. وفي الواقع تأكد لنا بخبرتنا في الكنيسة أن الدموع تستطيع أن تغسل عنا الخطية مثلما تغسل المياه شيئاً مكتوباً[٣٠١]. وبدموعنا يأتي الروح القدس ويحلّ على قلوبنا وينقينا ويغسلنا من قذارة الشر[٣٠٢].

الدموع تنقي ليس فقط النفس، ولكنها تنيرها أيضاً. وفي الواقع إن نعمة الله التي تأتي من خلال التوبة تنير قلب الإنسان وتقدسه. لابد أن لجة الحزن التي هي حزن عظيم تُبصر التعزية. مع نقاوة القلب تأتي الإستنارة :"الإستنارة هي طاقة تفوق الوصف، يتلقاها الشخص بطريقة غير معروفة ويراها بطريقة غير مرئية". الحزن يجلب الراحة، وذلك بحسب تطويب المسيح. هذه الراحة هي عزاء النفس الحزينة. والمعونة الإلهية هي تجديد النفس المكتئبة بالأسى والتي "تحوِّل الدموع المؤلمة إلى دموع عديمة الألم بطريقة رائعة"[٣٠٣]. ويعلِّم نيسيتاس ستيثاتوس أنه ما من أحد يستطيع أن يبلغ لتشابه مع الله ما لم يتنقى أولاً من خلال الدموع الحارة من القذارة الموجودة في داخله وما لم يحفظ وصايا المسيح. وبهذه الطريقة نتحرر من التشويه الباطني[٣٠٤]، ونصبح قادرين على التمتع بمجد الله.

يشير الآباء أيضاً لدموع الضلال. من الممكن أن تنشط بعض الدموع بواسطة الشيطان. فعندما يبكي شخص ما ثم يفتخر ببكائه يكون مُضَللاً. من أجل ذلك يحذرنا الآباء : "لا تنتفخ مغروراً، لو ذرفت الدموع عندما تصلي"[٣٠٥]. لا يجب أن يتفاخر أحد ويفكر أنه أعلى من آخرين كثيرين. فالهدف من دموعنا هو أن نغتسل من خلالها من قذارة الشهوات. ومن الممكن

298. Sayings. P. 155, 119
299. Ibid. 122
300. Ladder. Step. 10. CWS p. 156
301. *Ibid*. step 26 summary, CWS p. 259
302. St. Isaac the Syrian, The Ascetical Homilies, p. 91
303. Ladder. Step 7. CWS p. 143
304. Gnostic chapters, ch. 34
305. St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 111, 15

أن نفقد عقلنا عندما ننسى الهدف من الدموع ونفتخر: "ينسى العديد من الناس الذين يذرفون الدموع لأي شيء تكون الدموع، ويضلّون بالتالي في حماقتهم"[306].

توجد أنواع عديلة من الدموع مثل الدموع العاطفية، ودموع التمركز حول الذات، ودموع الشيطان، ودموع الله وما إلى ذلك. ولكن يجب علينا أن نجاهد لكي نحول تلك الدموع العاطفية أيضاً. يحثنا آباء الكنيسة على البكاء حتى ولو كان يوجد فيه عنصر التمركز حول الذات وبعد ذلك نستطيع أن نتحول ونجد الخلاص من خلال لوم النفس ومن خلال تحويل إنتباهنا نحو ذواتنا ونحو خطايانا، بالكفِّ عن الأحاديث مع الآخرين وبالحديث مع الله ناظرين إلى بؤسنا الشخصي.

إنني أؤمن أن الوضع الرهيب الذي يوجد فيه العديد من الناس يكون بسبب حقيقة أننا أصبحنا غرباء عن الدموع، فنحن لا نبكي. وبالتالي عندما نتثقل بأحمال عديدة، وعندما تصير أعصابنا متوترة، وعندما يكون مناخنا الداخلي في حالة رثة، يجب علينا عندئذ أن نحاول أن نبكي بفكر من لوم النفس. لو حاولنا فسيرسل الله نعمته وسوف تصبح الدموع طريقة حياة وبالتالي سيتنقى قلبنا من الشهوات.

التوبة والحزن والإنسحاق والدموع ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالنار التي تتولد في القلب. التوبة تحصل بمعونة من النار التي يضرمها الروح القدس في قلب الإنسان. يتحدث الرب عن هذه النار التي يضرمها في القلب قائلاً :"جئت لألقي ناراً على الأرض فماذا أريد لو إضطرمت" (لو١٢ : ٤٩). وإذ يقترب المسيح من القلب يشتعل القلب بالنيران بسبب وجود الشهوات كما سنحلله فيما يلي. هذا هو الإلتهاب الذي شعر به التلميذان أثناء رحلتهما نحو عمواس : "ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب" (لو٢٤ : ٣٢).

هذه النار التي تحرق شهوات القلب يشعر بها الإنسان كأنها نور. عندما إختبر بولس الرسول ذلك كتب قائلاً : "حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب" (١كو٤:٥). ويعبِّر بطرس الرسول عن خبرته الشخصية عندما يكتب قائلاً : "إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بط١ : ١٩). يختبر القلب نعمة الله أولاً كنار حارقة للخطية والشهوات ثم عندما تحترق الشهوات بعيداً فإنه يختبر نعمة الله كنور ينير إنساننا الداخلي بجملته.

---

306 . Evagrius. Philok. 1, p. 58, 8

هذا التعليم عن أننا نختبر نعمة الله كنار أولاً ثم كنور يحلله القديس يوحنا الدرجي. إنه يقول أنه عندما تأتي النار السماوية لتحل في القلب، فإنها تحرق البعض بسبب أنهم مازال ينقصهم النقاوة، بينما تنير البعض الآخر "بحسب درجة كمالهم". هذا الشيء نفسه يُسمَّى "كلاً من النار التي تلتهم والنور الذي ينير". هذا هو السبب الذي يجعل البعض يخرجون من صلواتهم كما لو كانوا خارجين من فرن مشتعل، ويشعرون بالشفاء من الدنس، على حين يشعر آخرون عندما تنتهي الصلاة وكأنهم يبرزون متألقين بالنور ولابسين ثوب الإتضاع والفرح"[٣٠٧].

عادة ما يتلقى الجسد أيضاً هذه النار التي يتلقاها قلب الإنسان. وهكذا يظن الإنسان كأنه في الجحيم ويصطلي بنيران الجحيم. وهذا مهم ويؤول للخلاص. وهذا أمر هام وصحي. لأن توبة مثل هذه تشفي النفس. ونحن نعلم جيداً أنه كلما عظمت التوبة كلما صار الشفاء أكثر فاعلية. وأيضاً كلما إختُبرت نار التوبة كلما توفرت متطلبات رؤية الله الغير مخلوق.

وبحسب بولس الرسول فإن الله نار آكلة (عب١٢ : ٢٩). يقول القديس يوحنا الدرجي أن كل عملنا يستمر حتى تدخل نار الله إلى قدسنا الذي هو القلب. والله كنار آكلة يبيد " كل الشهوات، وكل مثيرات الشهوة، وكل الميول، وكل قساوة قلب في الداخل وفي الخارج، ما هو مرئي وما هو روحي"[٣٠٨].

التوبة هي عمل ولحظة النعمة ولكنا لابد أن نساعد التوبة الحقيقية على المجئ، أي أن نساعد نار الله لتأتي في قلوبنا. بالإضافة إلى ذلك فإن كل الحياة النسكية هي تعاون وتوافق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية. يعلِّم الآباء أننا نغتسل من الشهوات "إما من خلال الألم الإرادي أو من خلال المحن اللاإرادية". الألم الإرادي هو الحزن المقدس، والتوبة، والإحساس بنار التوبة. المحن اللاإرادية هي تجارب حياتنا المتعددة. "عندما تأتي الإرادية أولاً لا تتبعها اللاإرادية"[٣٠٩]. من أجل ذلك يجب أن نجاهد بإستمرار لنجعل التوبة والنار الإلهية تتولد في داخلنا، حتى ننجو من المحن اللاإرادية. لابد أن نحافظ في قلوبنا على نار التوبة والإحترار الذي ينتج عنها. يخاف الشيطان من راهب يعيش في الحزن ولا يجرؤ على الإقتراب منه. وبالتالي فإن الراهب المؤمن واليقظ هو الذي "حافظ على نار دعوته غير منطفئة، والذي يضيف كل يوم ناراً على نار وحماسة على حماسة وغيرة على غيرة"[٣١٠].

307 . Ladder. Step 28. CWS p. 280
308 . Ibid. Step 26. CWS p. 230
309 . Nicetas stethatos. Natural chapters, ch. 9
310 . Ladder. Step 1. CWS p. 80

تولد الصلاة القلبية في قلب ذاك الذي يمتلك هذه النار. من أجل ذلك فإن أحد متطلبات صلاتنا هي أن تأتي هذه الصلاة لكي تحرق الخطايا والشهوات من جهة ولكي تعطينا الصلاة النقية من جهة أخرى : "عندما تأتي النار لتقيم في القلب فإنها تُنهض الصلاة "وكنتيجة لذلك تنزل نار الروح القدس في نفسنا"[311]. من أجل ذلك فإن الأمر واضح : "لا تكف عن الصلاة طالما بنعمة الله لن تنطفىء نار الحماسة وماء الدموع"[312].

هذه النار المباركة المضطرمة في قلوبنا بواسطة مجئ النعمة المتآزرة مع التوبة والدموع هى التى تجلب الميلاد الثاني الروحي لنا. وبمساعدة هذه النار يتحول كل كياننا الداخلي وتتغير أيضاً العديد من تعبيرات جسدنا. يكتب القديس ثيئوفان الناسك قائلاً: "منذ اللحظة التي يبدأ فيها قلبك بالإشتعال بالحرارة الداخلية يبدأ تحولك الداخلي. هذه الشعلة البسيطة سوف تلتهم وتذيب كل شيء داخلك مع الوقت، وسوف تبدأ وتكمل في جعل كيانك روحياً حتى الملء. وفي الواقع حتى تبدأ هذه الشعلة في أن تحرق سوف لا يكون هناك أية روحانية على الرغم من كل جهاداتك لكي تحصل عليها. وبالتالي فإن توليد شرارتها الأولى هي كل ما يهم في هذه اللحظة، وتأكد من أنك توجه كل مجهوداتك نحو هذه الغاية. لكن يجب عليك أن تدرك أن هذا الإشتعال لا يمكن أن يحدث داخلك بينما لا تزال الشهوات قوية وعنيفة حتى لو كانت غير مُشبعة في الواقع. **الشهوات هي الرطوبة التي توجد في وقود كيانك والخشب الرطب لا يشتعل.** لا يوجد شيء آخر نفعله سوى أن نجلب داخلنا الخشب الجاف من الخارج ونشعله بحيث نسمح للهب الصادر منه أن يجفف الخشب الرطب، حتى يجف هذا بدوره بدرجة كافية لكي يبدأ في إلتقاط الشعلة *ببطء. وهكذا سوف يبدأ إشتعال الخشب الجاف في تشتيت الرطوبة قليلاً قليلاً وسوف* ينتشر حتى يشتعل كل الخشب.

"إن كل قُوى النفس ونشاطات الجسد هي وقود كياننا، ولكن طالما أن الإنسان لا يلتفت إلى ذاته فإن كل هذه تتشبع برطوبة شهواته وتصبح غير فعالة. وحتى تطرد الشهوات خارجاً فإنها تقاوم النار الروحية بشدة. تتغلغل الشهوات داخل كل من النفس والجسد وتتغلب حتى على روح الإنسان ذاتها، وعلى وعيه وحريته . وبهذه الطريقة تسود عليه كلية. وإذ أن الشهوات تتحالف مع الشياطين، فإن الشياطين أيضاً تسود على الإنسان من خلالها، على الرغم من أنه يظن خطأً أنه سيد نفسه. وإذ تولد الروح من

---

311. Ibid. Step 28. CWS p. 279
312. Ibid.

نعمة الله، تكون هي أول من تنتزع ذاتها من هذه القيود. وإذ تمتلئ الروح من مخافة الله تحت تأثير النعمة، فإنها تكسر كل رابطة مع الشهوة، وإذ تتوب عن الماضي فإنها تصر من الآن فصاعداً على أن ترضي الله وحده في كل شيء، وعلى أن تحيا لأجله فقط، وعلى أن تسير بحسب وصاياه"[٣١٣].

يكتب القديس ثيئوفان عن هذه النار المقدسة: "بحسب القديس برصنوفيوس فإننا عندما نتلقى في قلبنا النار التي أتى الرب لكي يلقيها على الأرض، فإن كل قوانا الإنسانية تبدأ في الإحتراق داخلنا. عندما تشتعل النار بالإحتكاك المستمر وتبدأ الأخشاب في الإحتراق بها فإنها إذ تضطرم سوف تبدأ في الطقطقة وإصدار الدخان حتى تشتعل جيداً. ولكن عندما تشتعل جيداً فإنها تبدو مخترَقَة بالنار وتحدث نوراً مبهجاً ودفئاً بلا دخان ولا طقطقة. هذا ما يحدث داخل البشر.

إنهم يتلقون النار ويبدأون في الإشتعال ولا يستطيع أحد أن يعلم كمية الدخان والطقطقة الموجودة إلا أولئك الذين إختبروها. ولكن عندما تشتعل النار جيداً يكف الدخان والطقطقة ولا يسود في الداخل سوى النور.

هذه الحالة هي حالة نقاوة، والطريق إليها طويل، ولكن الله هو الأكثر رحمة والأكثر قوة. من أجل ذلك فإنه أمر واضح أنه عندما يتلقى شخص ما نار الشركة الواعية مع الله فإن ما ينتظره ليس سلاماً بل جهاداً عظيماً. ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً سوف يجد الجهاد حلواً ومملوءاً بالثمر، على حين أن العمل كان قبلاً مراً ويحمل ثمراً قليلاً أو يكون بلا ثمر"[٣١٤].

وكلما تحرق النار المباركة الشهوات، كلما يختبرها الشخص كنور يضيء القلب. يُعلِّم هيزيخيوس القس أنه مثلما ينظر الشخص إلى الشمس ولا يستطيع إلاَّ أن يملأ عينيه من النور، "هكذا فإن الذي يتطلع دائماً وبقصد داخل قلبه لا يمكن أن يفشل في أن يستنير"[٣١٥]. إن القلب الذي لا يتلقى صوراً وأشكالاً وخيالات الأرواح الشريرة يتأقلم بالطبيعة لكي يلد من داخله "أفكاراً ممتلئة نوراً"، فالفحم يُحدث ناراً. وأكثر من ذلك فإن الله الذي يقيم في قلوبنا منذ معموديتنا "سوف يلهب عقلنا لكي يتأمل" إذا وجده خالياً من رياح الشر ومحروساً بحفظ العقل[٣١٦]. إن القلب المفرغ من الخيالات "يلد صوراً عقلية

313 . The Art of Prayer. P. 204f
314 . Ibid. p. 156
315 . Philok. 1, p. 180, 108
316 . Ibid. 104

إلهية سرية تتجول داخله"[٣١٧]. والقلب يصبح أداة للروح القدس ويكتسب معرفة الله. وكل أفكار وأعمال وخيالات الشخص الذي تخلص من الشهوات تكون لاهوتية. والإنسان بجملته يزداد معرفة للاهوت ويتدفق كلام اللاهوت من الكلمة والصمت، والفعل والسكون. وتسطع شمس البر في القلب النقي الذي هو "سماء القلب" و"مكان الله"[٣١٨].

لقد تكلمنا من قبل عن النار التي تأتي إلى داخل القلب، الذى هو "قُدْس الله". يولِّد وجود النار إحترارا في القلب والجسد. وأحد طاقات النار هي الإحترار. يعبر القديس ديادوخوس عن هذا الإحترار الذى يُخلَق في القلب، ويقول أنه عندما تكتسب النفس معرفة ذاتها فإنه ينبع منها شعور مهيمن بالإحترار نحو الله. يستنزف هذا الإحترار بسهولة. ولكن الإحترار المتولد من الروح القدس يهب سلاماً ويدوم. إنه لا يتشتت خارج القلب ولكنه من خلال القلب يجعل "الإنسان بكُليته يتمتع بحب بلا حدود". الإحترار الأول هو إحترار طبيعي، على حين أن الثاني يكون روحياً[٣١٩]. إن الإحترار الذي يتدفق مثل النبع يركز على قلب الإنسان بحيث تأتي الصلاة النقية داخله. يجب على الذي يمارس هذا التدريب الروحي أن يعلم أن الإحترار الروحي لا يأتي لا من اليمين ولا من الشمال ولا من فوق، ولكنه "ينبع في القلب مثل نبع ماء من الروح القدس المعطي الحياة". إنه موجود بالقلب. "هذه الصلاة هي وحدها التي يجب عليك أن تشتهي أن تجدها وتقتنيها في القلب تلك التي تحافظ على عقلك بإستمرار خالياً من الخيالات ومتجرداً من الصور العقلية والأفكار"[٣٢٠]. إن مجيء هذا الإحترار داخل قلبنا مهم لأن قُوى النفس سوف تتركز بهذه الطريقة هناك وستصبح صلاة غير مشتتة. يعلِّم القديس ثيئوفان الناسك قائلاً: "هذه النار هى من عمل نعمة الله، وهي ليست نعمة خاصة ولكنها مشتركة للجميع. إنها تظهر عندما يصل شخص ما لمستوى معين من النقاوة في نظام حياته الأخلاقي العام. وعندما يضطرم هذا اللهب الصغير، أو عندما يتكون إحترار دائم في القلب، تسكن خميرة الأفكار. إن ما يحدث في النفس هو نفس ما حدث مع المرأة نازفة الدم: "وقف نزف دمها" (لو٨: ٤٤). في هذه الحالة تقترب الصلاة من الديمومة، وتكون صلاة يسوع وسيطاً لتحقيق ذلك. هذا هو الحد الذي تستطيع الصلاة المقدمة من الإنسان ذاته أن ترتفع إليه. أظن أن ذلك واضح لك جداً.

---

317. Ibid. p. 190, 156
318. Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 17, 4
319. St. Diadochos. Philok. 1, p. 278, 74
320. st. Gregory of Sinai. Gk. Philok. 4, p. 86ff

"بالإضافة إلى ذلك فمن الممكن أن يُمنح نوع آخر من الصلاة في هذه الحالة، والتي تأتي للإنسان بالنعمة بدلاً من أن تكون مقدمة منه. يحل روح الصلاة على الإنسان ويقوده إلى أعماق القلب، كما لو كان مأخوذاً بيده ومُقاداً بالقوة من حجرة إلى أخرى. تكون النفس هنا مأسورة بقوة كاسحة، وتبقى بالداخل بإرادتها طالما أن قوة الصلاة الكاسحة هذه لا تزال تمتلك نفوذاً عليها. أنا أعرف درجتين من هذا الاكتساح. ففي النوع الأول ترى النفس كل شيء وتكون واعية لذاتها وللوسط الخارجي. إنها تستطيع أن تفكر وتحكم ذاتها. بل وتستطيع حتى أن تفسد هذه الحالة لو أرادت ذلك. يجب أن يكون هذا أيضاً واضحاً لك.

"ولكن الآباء القديسين وخصوصاً القديس إسحق السرياني يذكرون درجة ثانية للصلاة تُمنح للإنسان أو تحلُّ عليه. يعتبر القديس إسحق أن هذه الصلاة التي يسميها دَهْشاً أو نَشْوة أعلى من تلك الموصوفة أعلاه"[321].

وكما أشار القديس ديادوخوس سابقاً أنه من الممكن أن يشعل المرء إحترارا طبيعياً. وهذا يعني أنه يوجد نوعان من الإحترار: طبيعي، وفائق للطبيعة. يكتب القديس ثيوفان الناسك ثانية عن هذا الموضوع وعن آثار الإحترار الفائق للطبيعة قائلاً: "إن الإحترار الحقيقي هو عطية إلهية، ولكن يوجد أيضاً إحترار طبيعي الذي هو ثمرة مجهوداتنا الخاصة وحالاتنا العابرة. والإثنان يبعدان عن بعضهما البعض كبُعد السماء عن الأرض. ولا يكون واضحاً في المراحل المبكرة أي نوع من الإحترار تقتني ولكن ذلك سيظهر فيما بعد. إنك تقول أن أفكارك تجرك خارجاً وأنها لا تدعك تقف أمام الله بثبات. هذه علامة على أن إحترارك لا يأتي من الله ولكن من ذاتك.

"أول ثمرة للإحترار الإلهي هو تجميع الأفكار إلى واحد، وتركيزها الدائم على الله. تأمل في المرأة نازفة الدم التي جف ينبوع دمها فجأة. بنفس الطريقة عندما نتلقى إحترارا من الله يتوقف سَيْل الأفكار. ما هو الضروري إذاً؟ حافظ على إحترارك الطبيعي ولكن لا تعطيه أية قيمة وإعتبره مجرد نوع من الإعداد للإحترار الإلهي. وبعد ذلك إذ تحزن على ضعف صدى الإحترار الإلهي في قلبك صلِّي له بلا إنقطاع وبألم قائلاً : "إرحمني. لا تحجب وجهك عني! فليشرقْ وجهك عليّ!". وبالإضافة إلى ذلك زدْ من حرمان جسدك من الطعام والنوم والعمل وما إلى ذلك، وضَعْ كل شيء بين يديّ الله"[322].

[321] . The art of Prayer. P. 65f
[322] . Ibid. p. 159

بالإضافة إلى ذلك لابد أن نشير إلى أنه مثلما هو الحال في العديد من المسائل الأخرى، فإن الشيطان يكون هنا أيضاً قادراً على أن يجلب إحتراراً في القلب لكي يشتت إنتباهنا بعيداً عن الله. عندما يشتت الإحترار المضطرم إنتباهنا بعيداً عن الله وتكف الصلاة عن أن تكون نقية، بحيث يميل المرء لأن يكون مُثاراً، فإن هذه تكون علامة على كون هذا الإحترار شيطانياً. إن المجاهد الروحي الحكيم والصالح لا يعجب بذاته ولا يدع عقله يهرب من الإحساس بالخطية، ومن إختبار التوبة، ومن تذكُّر الله بلا ملل بإتضاع عميق.

على أية حال فإن إحترار القلب ينتقل إلى الجسد أيضاً. ويعارض القديس غريغوريوس بالاماس إدعاء برلعام بأن الجسد لا يشترك في الصلاة ويقول أن هذا ليس تعليماً آبائياً أرثوذكسياً. ليست النفس فقط هي التي تتلقى عربوناً للصالحات المزمعة، ولكن الجسد أيضاً بالمثل[٣٢٣]. الميلاد الثاني للنفس يتضمن الميلاد الثاني للجسد. الحزن لا ينتهي عند النفس، ولكنه "ينتقل من النفس للجسد وللحواس الجسدية"[٣٢٤]. نعمة الله الموجودة في النفس تنتقل أيضاً إلى الجسد. يستخدم القديس غريغوريوس كدليل من الكتاب المقدس حالة موسى الذي أشرق وجهه وكذلك إستفانوس الذي صار وجهه كوجه ملاك[٣٢٥]. يحدث ذلك أيضاً مع الإحترار إذ ينتقل إحترار الروح إلى الجسد. عندما يضاء المصباح العقلي أثناء الصلاة الدائمة وعندما يرفع العقل الحب في لهب طويل من خلال الثيئوريا الروحية، فعندئذ "يرتفع الجسد أيضاً ويحترُّ بطريقة غريبة ويبدو لناظريه كما لو كان خارجاً من نار فرن مرئي"[٣٢٦]. وبالمثل فإن حلاوة المسيح هي أيضا علامة على الإحترار المحسوس عقلياً والذي "إذ يستمر في التضرع لله يستطيع أن ينتقل إلى الجسد"[٣٢٧].

هذا الإحترار يكون ضرورياً للحياة الروحية لدرجة أن القديس يوحنا الدرجي يقر بأنه لو فقدنا هذه الغيرة المباركة والمحبوبة يجب علينا أن نبحث عن السبب بعناية ونجعل أنفسنا "تحصن نفسها بكل غيرتها وإشتياقها" لكي تستعيده ثانية[٣٢٨].

يظهر أيضاً حضور النعمة في القلب بحدوث قفزة قلبية. يقول القديس غريغوريوس بالاماس مع القديس باسيليوس الكبير والقديس أثناسيوس الكبير أن قفزة القلب هي

323 . Triads, 1, 3, 33
324 . Ibid.
325 . Triads, 1, 3, 31
326 . Triads, 1, 3, 32
327 . Ibid.
328 . Ladder. Step 1. CWS p. 76

علامة على النعمة: يقفز القلب "في غيرة محبة الخير"[329]. ويقول في موضع آخر أنه عندما تقفز النفس حباً للوحيد المُشتهَى، فإن "القلب أيضاً يتحرك، مشيراً بقفزاته الروحية إلى أنه في شركة مع النعمة، كما لو كان مستعجلاً لكي يلتقي بالرب عندما يأتي بجسده على السحاب بحسب الوعد"[330]. وهكذا يصبح القلب مستعداً الآن ليستقبل الملك السمائي.

بهذه الوسائل يتنقى القلب ويُشفى من قذارة الخطية الموجودة. وتتحول الشهوات وبدلاً من أن تخدم الشيطان وأعمال الخطية الخاصة به، تخدم الله. وهكذا يتنقى القلب ويستعد لأن يرى الله. سوف نتأمل فيما يلي في تنقية القلب هذه والنتائج التي تقدمها للإنسان.

قال الرب :"طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت٥ : ٨). يحث القديس يعقوب أخو الرب قائلاً: "طهروا قلوبكم يا ذوى الرأيين" (يع ٤ : ٨) ويأمر بطرس الرسول قائلاً : "أحبوا بعضكم بعضاً من قلب طاهر بشدة" (١بط ١ : ٢٢)

القلب النقي يعاين الله و"الكنوز الموجودة فيه"[331] إنه يرى الله الذي هو "الكمال الأعلى لكل البركات"[332]. إن العهد القديم هو أيقونة للنسك الجسدي الخارجي، على حين أن الإنجيل أوالعهد الجديد، هو أيقونة لنقاوة القلب. فالصوم، وضبط النفس، والنوم على الأرض، والوقوف، والسهر، وكل الممارسات النسكية الجسدية الأخرى حسنة لأنها تحفظ الجزء الحسِّي من الجسد من إرتكاب أعمال الخطية. إنها تهذيب لإنساننا الخارجي وحارس ضد الشهوات النشطة. وفي نفس الوقت فهي تقي ضد خطايا الفكر. ولكن" نقاوة القلب أو سهر وحفظ العقل التي صورتها هي العهد الجديد، سوف لا تجتث فقط كل الشهوات والشرور من قلبنا، ولكنها سوف تُدخل أيضاً الفرح، والرجاء، والتبكيت، والحزن، والدموع، والمعرفة بذواتنا، والمعرفة بخطايانا، وتذكُّر الموت، والإتضاع الحقيقي، وحب الله والإنسان الغير محدود، والإشتياق القلبي الشديد للإلهيات"[333].

يعطي الآباء القديسون إنتباهاً كبيراً لنقاوة القلب الداخلية دون أن يغفلوا الممارسات النسكية الخارجية التي هي مُهذِّبة على أية حال. الممارسات النسكية الخارجية تُعَدُّ أرضية للجهاد الداخلي. ولكن لو بقي شخص ما في الممارسات النسكية الخارجية ولم يتجه نحو الداخلي بنفس المقدار، فإنه يعيش في زمن العهد القديم. يشتمل الجهاد لتنقية

329 . Triads, 1, 3, 2
330 . Ibid. 1, 3, 32
331 . St. Maximus. Philok. 2, p. 109, 72
332 . Ibid. p. 158, 80
333 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 181, 112f

القلب على تبديد غيوم الشر من أهواء القلب بحيث نستطيع أن نرى شمس البر الذي هو المسيح "وبحيث تستطيع عناصر جلاله أن تسطع إلى حد ما في العقل"[٣٣٤].

ولكن ما هو القلب النقي؟ ما هو نوع القلب النقي؟ يصف القديس سمعان اللاهوتي الجديد القلب النقي ويقول أن القلب النقي هو الذي لا يضطرب بالشهوة، وهو أيضاً الذي يتجنب أي ميلٍ للعقل لأي شيء شرير أو نجس وهو الذي يحتوي داخله على شيء واحد فقط وهو تذكُّر الله بحب لا يمكن إخماده[٣٣٥]. القلب النقي هو الذي يستولي عليه الفرح الغامر "ويتطلع إلى عربون الخيرات التي وعد بها الله القديسين وإلى تلك الخيرات الأبدية بمقدار ما تستطيع الطبيعة البشرية..."[٣٣٦]. يتكلم آباء آخرون أيضاً عن القلب النقي. فالقلب النقي هو الذي ليس لديه إندفاع طبيعي نحو أي شيء، والذي فيه يكتب الله نواميسه كما على لوح[٣٣٧]. القلب النقي هو الذي لا يسمح لأي فكر شرير بأن يدخل النفس[٣٣٨]. القلب النقي هو ذاك الذي يدين نفسه على نبذ وصية الله أو على إهمال أو على قبول فكر عداوة[٣٣٩]. يكون الشخص نقي القلب عندما يجاهد لكي لا يحكم على الزاني أو الخطاة أو الخارجين على القانون، ولكنه يتطلع إليهم جميعاً بعين نقية: "إنه لا يحتقر ولا يدين ولا يمقت أحد أبداً ولا يصنِّف الناس إلى درجات"[٣٤٠]. يؤكد القديس مقاريوس على ما يعنى القلب النقي قائلاً: "لو رأيت شخصاً ما ليس له إلا عين واحدة فلا تصنع أى حكم في قلبك، بل أنظر إليه كما لو كان صحيح البدن. ولو كان هناك أحد مبتور اليد فلا تنظر إليه كمبتور بل أنظر للمُعاق كأنه مستقيم وللمشلول كأنه سليم"[٣٤١].

كيف يستطيع المرء أن يكتسب نقاوة القلب والتي تعني شفاءه من الشهوات بحق؟ إذ يحلل القديس غريغوريوس بالاماس التعليم اللاهوتي القائل بأن طاقة النفس تكون في أفكارها، وأن جوهرها يكون في القلب، يقول أن طاقة العقل في الأفكار تتنقى بسهولة بصلاة الكلمة الواحدة. ولكن لا يظن أحد في هذه الحالة أنه تنقى تماماً ما لم تتنقى كل قوى النفس الأخرى وما لم يتنقى أيضاً جوهر العقل الموجود في القلب. إنه يكون موهوماً

334 . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 18, 8
335 . Practical and theological chapters, ch. 3, CS 41, p. 81, 32
336 . Ibid. p. 81f, 35
337 . St. Maximus. Philok. 2, p. 159, 81
338 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 196, 193
339 . St. Theodoros, Gk. Philok. 1, p. 171, 193
340 . St. Macarius. CWS p. 111. Hom. 15, 8
341 . Ibid.

لو فكّر هكذا. عندما يرى شخص ما نجاسة قلبه يجب عليه أن يستعمل كل القوى الأخرى في الصلاة. إنه يطهر الجزء النشط بالممارسة، والجزء المعرفي بالمعرفة، والجزء المتأمل بالصلاة وهكذا يصل من خلالهم إلى "نقاوة القلب والعقل الحقيقية الكاملة التي لا يحصل عليها أحد إلا من خلال الكمال في الأفعال، والندم المستمر، والثيئوريا، (رؤية الله) والصلاة في حالة ثيئوريا"[342]. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن نقاوة القلب لا تتحقق بواسطة وصية واحدة فقط ولكن من خلال كل الوصايا. ولا يمكن تنقية القلب بدون عمل الروح القدس. وتماماً مثلما يستعمل الحداد أدواته والنار كذلك لأنه لا يستطيع أن يصنع أي شيء بدونها "هكذا بالمثل يستطيع شخص ما أن يفعل كل شيء بإستعمال أدوات الفضائل ولكنها لن تنظف القذارة والفساد من النفس. إنها ستكون ضعيفة وبلا فائدة بدون وجود نار الروح القدس"[343].

يؤكد الأب بيمن بالأخص على عمل كلمة الله. ومثل الماء الذي يقطر قليلاً قليلاً على صخرة، هكذا تكون كلمة الله لينة على حين يكون القلب قاسياً. "عندما يسمع شخص ما كلمة الله بإستمرار ينفتح قلبه لمخافة الله"[344].

يؤكد الآباء القديسون على قوة الصلاة وخصوصاً صلاة الكلمة الواحدة أي "صلاة يسوع". يتنقى الإنسان من خلال هذه الصلاة بمعاونة الروح القدس. يقول هيزيخيوس القس أنه من المستحيل علينا أن نطهر قلوبنا وأن نُخرج منها أفكار الشهوة والأعداء الروحيين "بدون التضرع المستمر ليسوع المسيح"[345]. يولّد التضرع لإسم يسوع فرحاً وهدوءاً في القلب. " ولكنه يسوع المسيح إبن الله والذي هو الله ذاته علة وخالق كل البركات الذي ينقي القلب بالتمام"[346].

يؤكد الآباء على قيمة الصلاة في تحويل الشهوات وتنقية القلب[347]. يقول القديس غريغوريوس السينائي أنه توجد طريقتان للصلاة الداخلية والإتحاد "أو بالأحرى مدخلان، واحد من كل جانب من جوانب الصلاة العقلية التي تنشط في القلب بواسطة الروح". وهذا يعني أنه يوجد طريقان للصلاة العقلية وإتحاد العقل والقلب. يكون الواحد عندما

---

342 . WF, p. 410f
343 . CS 41, p. 80. 3, 29
344 . Sayings. P. 162, 183
345 . Philok. 1. p. 166, 28
346 . Ibid. p. 177f, 91
347 . See Hesychios Ibid. p. 192, 170; p. 172, 62; p. 195, 184. Callistus and Ignatius, Writings p. 243, 75

تتولد الطاقة في القلب وتقل الشهوات من خلال التضرع المستمر لإسم المسيح ومن خلال الحرارة المتولدة، أما الطريق الثاني فيكون عندما " تجذب الروح العقل لنفسها وتقيده في أعماق القلب، مُحدِّدة حركاته المعتادة"[٣٤٨]. على أية حال فإنها حقيقة أنه عندما يتنقى القلب، فإنه تستمر فيه دائماً ليتورجية إلهية، وتُنشَد التسابيح لله. ويمكن تطبيق ما أكد عليه بولس الرسول هنا: "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب" (أف٥ : ١٩). هذه الصلاة هي الأكثر قبولاً عند الله.

ومن البديهي أنه عندما يتنقى قلب شخص ما، فإنه يجب عليه ألا يفتخر بذلك، لأنه لا توجد خليقة أنقى من الملائكة الغير جسدانية. ومع ذلك حينما رفع يوسيفوروس ذاته، تحوَّل إلى الشيطان وأصبح نجساً: "لقد حسب الله تفاخره نجاسة"[٣٤٩]. وهكذا فإن نقاوة القلب هي أمر حساس جداً وهى تتحقق بمجهود كبير وبصورة أساسية بواسطة معونة الله وطاقته. ويكون القلب النجس أعمى حتى ولو كانت النجاسة من أفكار الكبرياء. ونتائج نجاسة القلب متعددة وسوف نشير فقط إلى بعضها.

إن الذي يجاهد لكي يحفظ قلبه طاهراً يكون المسيح ذاته، مُشرِّع القلوب، كمعلم له والذي يشركه سراً في إرادته[٣٥٠].

يختبر القلب النقي ما يسمى سكون القلب[٣٥١]. إنه يعيش في سلام الله: "وليملك في قلوبكم سلام الله" (كو٣ : ١٥). كما أنه يتغلب على الجبن: "لو أن شخص ما حقق نقاوة القلب فإنه يكون قد تغلب على الجبن"[٣٥٢]. إنه لا يخاف شيئاً ولا حتى الموت لأن الخوف من الموت هو نتيجة لنجاسة القلب. وهو يتحرر من الأفكار والكلمات والأعمال الشيطانية[٣٥٣]. وهو يقتني صمت القلب الداخلي والسكون الخالي من كل الأفكار[٣٥٤]. فيصبح قلبه "مُتقبلاً تماماً للروح القدس" ويعكس صورة الله بوضوح[٣٥٥]. إنه يطرد إحتقان الأعضاء الذي تخلقه الإهتمامات الجسدانية، ويفتح ذاته، وهذا هو الرجاء بالله. "يشير إتساع القلب إلى الرجاء بالله على حين يشير إحتقان الأعضاء إلى الإهتمام الجسداني"[٣٥٦].

---

348 . Philok. 4 in Gk. , 15 Chapters, ch. 1, p. 71,1
349 .Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 19, 11
350 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 195, 186
351 . Ibid. p. 179, 100
352 . St. symeon the New Theologian. CS 41, p. 51. 1, 67
353 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 183, 122
354 . Ibid. p. 179, 100
355 . Abba Philemon. Philok. 2, p. 354
356 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 134, 114

"إن الذي يرعى في قلبه زرعاً جيداً وغير مائت يقتني وجهاً مبتهجاً ومشرقاً. لسانه يترنم بتراتيل وصلوات، ويكون لطيفاً جداً في الحديث"[٣٥٧]. إن القلب النقي الذي تخلص من الخيال لا يخطئ: " من المستحيل على الخطية أن تدخل القلب بدون أن تطرق أولاً على قلبه في صورة خيال يثيره الشيطان"[٣٥٨].

إن نقاوة القلب هي شفاء القلب، وهذا ما يبدو من خلال رؤية النتائج التي قدمناها من قبل. حيث يُستبعد المرض الذي هو الشهوات ويصبح القلب في حالة جيدة. ولكن ينصح الآباء أن الإنتباه والحراسة من جانبنا قبل وأثناء وبعد التنقية هي أمر هام. فيجب أن يكون هناك سهر وحفظ للقلب مستمر. ويجب علينا أن نكون منتبهين لقلبنا لأنه لو جُرِح، يذبل كل الجسد، مثلما يحدث عندما يصاب قلب النبات فيذبل بكليته[٣٥٩].

يحثنا أشعياء المتوحد على أن نفحص ذواتنا كل يوم وأن نفهم قلبنا وأن نطرد كل ما هو شرير خارجاً: "إفحص نفسك كل يوم في حضرة الله، يا أخي، وإكتشف أي الأهواء موجود في قلبك وأطرده خارجاً فتهرب بذلك من دينونة الله. كن منتبهاً لقلبك يا أخي وراقب أعداءك لأنهم بارعون في الخبث"[٣٦٠]. يكون هذا الإنتباه ضرورياً حتى حينما يكون الشخص مازال خاطئاً جداً. لأنه عندما يترك الخطية ويعود لله "تجدده توبته كلية"[٣٦١]. "يتكلم الكتاب المقدس في العهد القديم والجديد في كل موضع عن حفظ القلب"[٣٦٢] ويورد نصوص مثل هذه: "إن ذاك الذي يقيم بإستمرار داخل قلبه الخاص يُنتزع من مغريات هذا العالم لأنه يعيش في الروح القدس ولا يستطيع أن يعرف شهوات الجسد"[٣٦٣]. بعد أن نحاول أن نحافظ على عقلنا نقياً وأن نطرد بعيداً الأفكار والخيالات الشريرة يجب علينا أن نضبط لساننا وبطننا لكي نحافظ على قلبنا نقياً. لأن الثرثرة والنهم هما الأشياء التي تدنس العقل ثم بعد ذلك تدنس القلب أيضاً طالما أن العقل هو الذي يمد القلب بالغذاء. "سأل أخ الأنبا تيثوس Tithoes كيف يمكن أن أحفظ قلبي فأجابه الرجل الشيخ قائلاً: كيف نستطيع أن نحفظ قلوبنا عندما تكون أفواهنا ومعدتنا مفتوحة؟"[٣٦٤].

---

357 . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 33
358 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 45
359 . Ibid. p. 175, 68
360 . Philok. 1, p. 26, 20f
361 . Ibid. 22
362 . Ibid. 23
363 . St. Diadochos. Philok. 1, p. 270, 57
364 . Sayings. P. 198, 3

إنني أعتقد أن كل هذه الأمور أظهرت بوضوح أنه لكي يحصل المرء على حياة مسيحية واعية ولكي يحصل على الخلاص، يجب عليه أن يجد سلام القلب. لقد إعتاد أحد النساك أن يعطي هذا الرد على أسئلة الناس المختلفة: " **إسأل قلبك فماذا يقول لك قلبك**". ومثلما شرحنا فإن القلب هو ليس مجرد المشاعر ولكن المكان الذي يُستعلن بالنعمة من خلال النسك والذي يُستعلن الله فيه.

يجب علينا أن نكتسب حساً نحو ذلك. و كل الحياة النسكية في المسيح تهدف إلى ذلك. وعندما نجد القلب يجب علينا أن نبذل كل جهد لكي يُشفي من أمراضه الروحية. إننا جميعاً مرضى القلوب ويجب علينا أن نُشفى. والوصول إلى القلب وشفاؤه هما أساساً الوصول للخلاص.

(جـ) الإدراك والأفكار

يلعب الإدراك مع الأفكار دوراً مهماً في مرض وشفاء النفس. ومن خلالهما يستثار المرء للشر وتتحول الأفكار البسيطة إلى أفكار مركبة وكنتيجة لذلك تتولد الشهوة التي تقود الشخص لإرتكاب الخطية. من أجل ذلك على النظام العلاجى الأرثوذكسي أن يفحص موضوع الأفكار ومعنى الإدراك. وهذا هو السبب الذي سيجعلنا نفحص موضوع الإدراك من جانب، وموضوع الأفكار من الجانب الآخر، لكي نرى كيف يتحقق شفاء نفوسنا.

(١) الإدراك

لقد قلنا من قبل أن نفس الإنسان المخلوقة من قبل الله هي مُدركة وعاقلة. ويكتب القديس ثالاسيوس قائلاً أن الله خلق الكائنات المدركة والعاقلة "بحيث تكون ذات قدرة على إستقبال الروح القدس وعلى إكتساب معرفة عن الله. ولقد أوجد الحواس والأشياء الحسية لكي تخدم هذه الكائنات"[٣٦٥]. وعلى حين تقتني الملائكة إدراكاً وعقلاً فإن الإنسان يمتلك إدراكاً وعقلاً وحواساً حيث أن الإنسان هو عالم مصغَّر وهو يستقطب فى نفسه كل الخليقة. وهكذا يعرف الإنسان الله من خلال العقل والإدراك. والطاقة الإدراكية للنفس ترتبط بالطاقة العقلية ولا يوجد تطابق بين الإثنين كما سنرى فيما يلي.

[365]. Philok. 2, p. 326, 13

لقد رأينا عندما تكلمنا عن النفس، أنها خُلقت على صورة الله. حيث أن الله ثالوث: عقل وكلمة وروح. فكذلك النفس لها عقل وكلمة وروح وهذا يعني أننا نضع بعض الإفتراضات: ***الإفتراض الأول*** هو أنه بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن تمثيل الإنسان لسر الثالوث لا يعني أنه يجب علينا أن نفهم الثالوث بطريقة مجسمة، ولكن الإنسان هو الذي يُفهم بطريقة ثالوثية[٣٦٦].

هذا يعني أن الله الثالوث لا يمكن تفسيره على أساس الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي يُفسر على أساس الله الثالوث. وهذا التفسير ليس مجرد تفسير نفسي إنساني، ولكنه استعلاني. وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة إلا في حالة واحدة فقط وهي عندما يكون في نطاق الاستعلان مثلما عاش كل القديسين. ***والإفتراض الثاني*** هو أنه على الرغم من أن الإنسان يمتلك عقلاً وكلمة وروحاً بحسب النظام الثالوثي للوجود إلا أن عقله وكلمته وروحه ليسوا أقانيم مثلما هو الحال مع أقانيم الثالوث القدوس ولكنهم قُوَى للنفس. إذاً "هذه الثلاثة غير منفصلة عن بعضها البعض إلا أنه ليس لها طابع الأقنوم"[٣٦٧].

العقل هو عين النفس، والذي يسميه بعض الآباء القلب؛ والكلمة هي معرفة روحية "مزروعة في العقل حيث أنها موجودة معه بإستمرار"[٣٦٨]. ومثلما يعلن المسيح الكلمة عن إرادة العقل الذي هو الآب **هكذا أيضاً تعلن كلمة الإنسان عما يدركه ويختبره العقل**. وتماماً مثلما هو مستحيل أن تولد كلمة بدون روح هكذا أيضاً ترتبط في الإنسان الكلمة بالروح[٣٦٩]. وتماماً مثلما الروح القدس الذي هو أقنوم خاص هو "حب يفوق الوصف من الآب نحو الإبن المولود الفائق الوصف هو ذاته"[٣٧٠]، هكذا أيضاً روح الإنسان هي دفقة ما للعقل "تتضمن على إمتداد للوقت وتزامن مع كلمتنا وتتطلب نفس الفواصل، وتتقدم من عدم الكمال إلى الكمال"[٣٧١].

لقد قلنا هذه الكلمات لكي نُظهِر وضع وقيمة الكلمة في نفس الإنسان. الكلمة هي التي تعبِّر عن خبرة وحياة العقل وهذا يتحقق في الروح.

---

366 . Amphilochiou Rantovits. The Mystery of the Holy Trinity in St. Gregory Palamas. P. 47. In Gk
367 . Ibid. p. 50
368 . Ibid.
369 . St. Gregory Palamas. 150 Chapters, ch. 36, p. 121ff
370 . Ibid.
371 . Ibid.

وفي العديد من كتابات الآباء كما هو الحال مع القديس مكسيموس المعترف تسمى "الكلمة" "المنطق الرمزي" logisticon . والكلمة في الإنسان تقال داخلياً، ولكنها يُعبّر عنها أيضاً خارجياً. و الصمت الخارجي لا يعنى أنه لا توجد كلمة داخلية. ولكن بعد دراسة لكتابات الآباء نستطيع أن نؤكد بقليل من الحذر أن الكلمة تكون داخلية وخارجية ومتحلة بالعقل، على حين أن الإدراك المرتبط بالذهن هو العضو الذي من خلاله يعبّر عن الكلمة.

وهكذا نستطيع أن نقول أنه يوجد فرق دقيق بين الكلمة والإدراك، مثل ذاك الفرق الموجود بين الكلمة والذهن. يعلّم القديس ثالاسيوس أن "الإدراك بالطبيعة يخضع للوغوس"[٣٧٢]. والإنسان المدرك عليه أن يخضع لله الكلمة. وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس فإن الذهن ليس هو عين النفس، ولكن العقل هو عين النفس على حين أن الذهن يتعامل مع ما هو حسي وما هو عقلي. إنه يكتب قائلاً : "عندما يتكلم شخص ما عن عيني النفس التي تختبر الخيرات السماوية، لا يخلط بينها وبين الذهن. فالأخير يمارس قدراته على الأشياء الحسية والعقلية"[٣٧٣]. وهذا يعني أنه **ليس الذهن بل العقل هو الذي يعرف الكنوز السماوية، وببساطة فإن الذهن يجعل الأمور التي يختبرها العقل قابلة للتفكير، أي أن الله يُستعلن للعقل، ولكن الذهن يسجل هذه الخبرة بجمل إدراكية.**

إنه عادة ما يقال عن الإنسان أنه كيان مدرِك بمعنى أن لديه إدراكاً وأنه يفكر. ولكن في اللاهوت الآبائي، الشخص المدرك ليس هوَ ببساطة ذاك الذي عنده إدراك أو كلام، ولكنه ذاك الذي من خلال الكلمة والإدراك يطلب أن يجد الله وأن يتحد به[٣٧٤]. فالشخص الذي ينقي عقله حيث يُستعلن الله، ثم بعد ذلك يعبّر عن هذه الخبرة الداخلية من خلال الكلمة والذهن يكون شخصاً مدركاً. وبخلاف هذا الإطار يكون الإنسان بدون كلمة وحينئذ لا يكون مختلفاً عن الحيوان الأعجمي. يجب علينا أن نثق أن هذا الإنسان وإن كان يقتني إدراكاً وكلمة، ولكن لأنه غير متصل بالله فهو ميت. وهكذا فالنفس الميتة تُظهر موت الكلمة أيضاً.

وهكذا كانت تعمل الكلمة في الإنسان قبل السقوط. لقد أدرك العقل الله قبل السقوط وعبّرت الكلمة عن خبرات العقل. " العقل النقي يرى الأمور بصورة صحيحة والإدراك المُدَرَّب يرتبها "[٣٧٥]. وبحسب لاهوت القديس ثالاسيوس الذي أشرنا إليه من قبل

---

372. Philok. 2, p. 313, 5
373. Triads. 1, 3, 34
374. St. Theognostos. Philok. 2, p. 367, 35
375. St. Maximus. Philok. 2, p. 367, 35

فإن الإدراك يخضع للكلمة بالطبيعة ويهذّب ويُخضع الجسد، على حين أنه أمر مهين للإدراك، أن يخضع لما هو عديم الإدراك أي للجسد، "وأن يشغل نفسه بشهوات مشينة". إنه أيضاً عمل فاسد للنفس أن تترك الخالق وتعبد الجسد"[٣٧٦]. وهكذا نفس الإنسان قبل السقوط كانت على علاقة بالله وكانت الكلمة تعبِّر عن هذه الخبرة والحياة بمساعدة الذهن الذي هو أداة خاصة للجسد.

ولكن بعد السقوط أتى الموت للنفس، وكنتيجة لذلك أصبح من المستحيل على العالم الداخلي للنفس أن يعمل بكُلّيته بطريقة طبيعية و أن تستمر جميع الوظائف الداخلية متناغمة. لقد إرتبك عقل الإنسان، وإختفى وراء الشهوات وهُزم بظلمة لا يمكن إختراقها. وإذ أصبحت الكلمة لا تعبِّر عن خبرة العقل تطابقت مع الذهن. **وهكذا إرتفع الإدراك فوق العقل وأصبح هو صاحب النفوذ في الإنسان الساقط الآن.** وهذا هو في الحقيقة مرض الكلمة والإدراك. فلقد تغذى الإدراك بدرجة زائدة وأصبح مرتفعاً لوضع أعلى من العقل وأسر الكلمة. والإدراك المتغذي بدرجة زائدة هو مصدر الشذوذ الأعظم في الكيان الروحي. وهنا يثور الكبرياء مع كل طاقات التمركز حول الذات، ذاك الذي هو مصدر كل شذوذ.

يكتب الأرشمندريت صوفرونيوس عن حركات الإدراك في الإنسان الساقط وعن الشذوذ الذي يخلقه في كل الكيان الروحي. إنني سأقتبس النص بجملته لأنه معبِّر جداً: "إن الجهاد الروحي هو جهاد متشعب ولكن الجهاد ضد الكبرياء يقتحم بصورة أعمق وهو الأكثر خطراً. الكبرياء هو الدرجة القصوى لمقاومة الناموس الإلهي وتشويه نظام الوجود الإلهي ويجلب فى أعقابه الخراب والموت. يعلن الكبرياء عن نفسه بصورة جزئية على المستوى الجسدي ولكن بصورة رئيسية على مستوى الفكر والروح. إنه يدَّعي أفضليته، ويقاتل من أجل النفوذ الكامل، وسلاحه الرئيسي يكون الذهن المدرِك.

وعلى سبيل المثال، سوف ينبذ الإدراك وصية لا تدينوا لئلا تدانوا (مت٧ : ١) معتبراً إياها هراءً، مؤكداً على أن القدرة على الإدانة هي خاصية مميزة للإنسان تجعله أعلى من كل العالم وتعطيه القوة لكي يسود.

ولكي يؤكد الإدراك على تفوقه، فإنه يشير لإنجازاته ولإبداعاته، مورداً عدة أدلة مقنعة زاعماً أن تثبيت وتأكيد الحقيقة كان يقع في دائرة سلطانه كما في خبرات التاريخ القديمة جداً.

---

376 . Philok. 2, p. 313, 5ff

إن الإدراك العامل بطريقة غير شخصية هو بطبيعته ليس إلا واحد من مظاهر الحياة في الشخصية الإنسانية، وواحد من طاقات الشخصية. ولكن حيثما يختص الأمر بأولوية في الكيان الروحي للإنسان، فإنه يبدأ في المحاربة ضد مصدره الذي هو مصدر وجوده الشخصي.

وإذ يرتفع الإنسان كما يظن للأمور العالية، وينزل كما يعتقد لأدنى السفليات فإنه يتوق إلى أن يصل لحدود الوجود لكي يحيط به، وعندما لا يستطيع تحقيق ذلك فإنه يستسلم ويقرر أن الله غير موجود.

ثم إذ يستمر في الصراع على السيطرة والنفوذ فإنه يقول لنفسه بشدة وبطريقة مأسوية في نفس الوقت: لو أنه يوجد إله كيف يمكن أن أقبل ألا أكون أنا هذا الإله؟

وإذ لا يستطيع أن يصل لحدود الوجود وإذ ينسب هذه اللانهائية لذاته فإنه يقف بكبرياء ويعلن: لقد إستكشفت كل شيء ولم أجد ما هو أعظم مني في أي مكان. أنا هو الله إذاً.

كما أنها حقيقة أنه عندما يتركز كيان الإنسان الروحي على الذهن، فإن الإدراك يسود ويصبح أعمى لا يبصر أي شيء يتجاوزه، وينتهي بأن يرى نفسه على أنه العنصر الإلهي.

يصل التخيل الذهني حينئذ إلى أقصى حدوده، فيسقط في نفس الوقت في الظلام الدامس[٣٧٧].

لا يوجد إنسان حكيم يقدر أن يقتني كلمة نقية وذهناً نقياً بدون الله. يقول القديس غريغوريوس السينائي: "القديسون هم فقط الذين صاروا حكماء بحسب الطبيعة من خلال النقاوة. لم يستطع ولا واحد من الحكماء في الكلام أن يكون له ذهن نقي لأنهم أفسدوه بالأفكار الشريرة من البداية"[٣٧٨].

لكي نرى فساد الإدراك في الإنسان الساقط وما يفعله لكل كياننا الروحي سوف نفحص ثلاثة مستويات يدخل فيها الإدراك الساقط.

المستوى الأول هو في علاقتنا بالله. فعلى حين أن العقل هوالذي إختبر الله إلا أن الإدراك الساقط هو الذي يأخذ على عاتقه مهمة القيام بذلك. وهكذا يحاول الإدراك أن يخلق البراهين لكي يظهر وجود الله، وهذا يكون بالطبيعة أمراً يستحيل الوصول إليه بالمرة، **لأن البرهان الوحيد على وجود الله هو خبرة العقل النقي**. وهكذا إذ يحاول الإدراك الساقط أن

377 . Archim. Sophrony: Saint silouan. P. 165f
378 . Acrostics, 2. Writings, p. 37

يتقدم بمفرده على طريق معرفة الله فإنه يفشل إما لأنه لا يلتقي بالله بالمرة أو لأنه يخلق صورة خاطئة عن الله. وهكذا إختُلِقت علة نظريات فلسفية عن الله وعدة أديان على مر العصور.

ولقد حدثت البدع التي هزت كنيسة المسيح بسبب تصور الإدراك المتكبر هذا. من أجل ذلك يؤكد الآباء على أن **القديسين لا يتكلمون عن اللاهوت بطريقة أرسطو أي من خلال الإدراك والفلسفة، ولكن بطريقة الصياد أي من خلال الخبرة** (مثل الرسل من خلال الروح القدس) بعد التطهير الداخلي وكشف العقل.

والحديث الذي دار بين القديس غريغوريوس بالاماس وبرلعام الفيلسوف حول هذه النقطة هو حديث مميز. لقد أكد برلعام على أن إدراك الإنسان وحده يستحق أن يتلقى معرفة الله وأن هذا هو أنبل عنصر في الوجود الإنساني. ثم إدعى أن ما رآه الأنبياء في العهد القديم وما رآه الرسل على جبل طابور كان رمزاً، وبالتالي فإن الفلاسفة كانوا يمتلكون معرفة عن الله أكثر أصالة من الأنبياء والرسل. وهكذا سمى رؤية النور الغير مخلوق "أدنى من إدراكنا". وفي رده على ذلك علّم القديس غريغوريوس أن **رؤية القديسين لله لا تأتي من الخارج ولكن من الداخل من خلال التحول والتنقية الداخلية.** وبالتالي فإن النور ليس مجرد رمز خارجي مادي، ولكنه رمز طبيعي أي أنه طاقة للنعمة الغير مخلوقة. إن النور الغير مخلوق ليس خيالاً ولا رمزاً يذهب ويجيء وبالتالي هو "ليس أدنى من طاقة الإدراك" ولكنه "يفوق الوصف وغير مخلوق وغير زمني ولا يدنى منه، وشديد الضياء ولا نهائي وغير محدود وغير مرئي للملائكة والبشر، وجمال أصيل وغير قابل للتغيير، وهو مجد الله ومجد المسيح ومجد الروح القدس وشعاع الألوهية"[٣٧٩].

إنه يكتب رداً على رأي برلعام أن النور الغير مخلوق هو "أدنى من إدراكنا" قائلاً: "إيه أيتها الأرض والسماء، وكل أولئك الذين يرون في نفوسهم نور ملكوت الله وجمال الدهر الآتي ومجد الطبيعة الإلهية، هل أنتم جميعاً أدنى من الإدراك؟"[٣٨٠]. إن النور الغير مخلوق هو مجد الطبيعة الإلهية وجمال الدهر الآتي.

إن طريقة تفكير برلعام، عن وضع الفلسفة في مستوى أعلى من رؤية الله، دفعت القديس غريغوريوس بالاماس إلى تسميته فيلسوفاً بدلاً من شخص يرى الله، وهذه الطريقة في التفكير هي طريقة كل الهراطقة الذين أرادوا أن يستبدلوا الإعلان بالفلسفة، ورؤية الله

---

379. Hagiorite Tome. Gk. Philok. 4, p. 191
380. Triads. 3, 1, 23

يستطيعوا تحديد مرضهم. **وهكذا إذ يستخدمون إدراكاً كثيراً قد يؤدي ذلك إلى إستدلالات خاطئة.** وعندما يمتد ذلك ليشمل العلاقات المتبادلة أيضاً، فإن هذا يؤدي إلى تدميرهم وإلى تولد أهواء الحكم على الآخرين والإدانة التي لا ترضي الله. **لا يتميز سلوكنا الشخصي نحو أخينا الإنسان بالإدراك بل بالحب.** إننا نتجنب إدانة الآخرين وتصنيفهم إلى فئات مختلفة. ونحاول بالأخص أن نفعل عكس ما يمليه علينا الإدراك البشري. ونحاول ألا نرى الخطية والأعمال الشريرة في أخينا، ولكن أن نحبه ونحنو عليه. وبحسب قول القديس مقاريوس المصري، يجب على المسيحيين أن يجاهدوا "لئلا يضعوا أي نوع من الأحكام على أي أحد، لا على زاني ولا على خطاة ولا على الأشخاص المضطربين. بل يجب عليهم أن يتطلعوا لكل الناس بذهن واحد وعين نقية...". يجب علينا أن نتصرف من جهة ضعفات الآخرين بنفس الطريقة التي نتصرف بها عندما نقابل شخصاً معاقاً جسدياً، فلا نتفرس في إعاقته ولا نحكم عليها"[382].

ونحن كآباء روحيين نواجه الناس في شخصهم. بمعنى أننا نجرد ذواتنا من كل صورة ووصف وفكرة، ونصلي حتى يعلن لنا الله مشكلة الشخص الحقيقية ويرشدنا لكي نعطيه العلاج الشافي الصحيح، وهكذا يهمنا كل شخص في شخصه. وبهذه الطريقة نتجنب إدانة الشخص صاحب النفس العليلة، ونتجنب تصنيف الناس إلى فئات، ونحاول أن نقدم علاجاً شخصياً حقيقياً شافياً. هذا يعني أننا نقف بصفة شخصية أمام الشخص الذي يعترف.

يتضح، مما قيل، أن الإنسان الساقط خاضع لقوة وسلطان الإدراك في علاقته مع كل من الله وقريبه. **إن "قاعدة العقل" التي هي قاعدة كل الحضارة الغربية، هي أساس كل شذوذ داخلي وخارجي.** لذا نحاول نحن الذين نعيش في الكنيسة الأرثوذكسية أن نستعيد الأشياء وهدفنا مضاعف. **إننا نجاهد من ناحية أن نحد من سلطان الإدراك ومن ناحية أخرى أن نكتشف عقلنا.** فنحن نستطيع أن نرى من خلال الحقيقة القائلة أن عقل الإنسان الساقط يكون في ظلام عميق، وأن إدراكه يشكل المصدر الوحيد للوجود. وأنه يجب علينا لكي نصل لحالة ماقبل السقوط، ولكي نقاد لحياة بحسب الطبيعة، أن نضع كلاً من مصطلح عقل، وإدراك في مكانه الطبيعي كما وصفنا من قبل. بمعنى أنه يجب علينا أن نحد من الإدراك، وأن ننمي العقل، ويجب علينا أن نجعل الكلمة تتولد من العقل المستنير، ثم نصيغ بعد ذلك معرفة العقل في كلمات وجمل.

382 . St. Macarius. Hom. 15, 8. CWS p. 111

يلعب الخضوع لمشيئة الله دوراً فعالاً في الحد من الإدراك. إننا نجاهد ألا نضع ثقة في حكمنا الخاص ورأينا الخاص، الذي يأتي من الإدراك. ويقول القديس دروثيئوس: "في كل الأشياء التي تأتي عليَّ، **لا أبتغي أبداً أن أذهب طالباً حكمة إنسانية، ولكنني أعمل دائماً بالقوة الصغيرة التي أمتلكها أياً كانت**، وفي نفس الوقت أترك كل شيء لله"[٣٨٣]. وفي الواقع يوجد للقديس فصل كامل عنوانه : "في أن الإنسان يجب ألا يعتمد كلية على حكمه الخاص"[٣٨٤]. وعندما يجد الشيطان، في شخص ما، قليلاً من التشبث بالرأي أو البر الذاتي "فإنه سوف يحطه إلى أسفل من خلال ذلك"[٣٨٥].

وبالمثل نحن مطالبون بأن نطيع إرادة الله بدون تمييز، كما هو معبر عنه في الكتاب المقدس وفي كتابات آباء الكنيسة. وبلا شك سوف يتمرد ويعترض إدراكنا، ولكن يكون من الضروري، على الرغم من ذلك، أن نخضعه لإرادة الله. وطالما أنه من الممكن ألا نعرف إرادة الله في تفاصيل عديدة في حياتنا اليومية، فإننا مطالبون بأن نطيع أب روحي ليقودنا في رحلتنا الروحية. وبحسب قول القديس دوروثيئوس "لا يوجد من هو أكثر بؤساً، ولا من يؤخذ على حين غرة، من الإنسان الذي ليس له من يقوده على الطريق لله"[٣٨٦]. عدم الطاعة هو إذاً الموت، على حين أن الطاعة هي الحياة. يكتب القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "إن الطاعة هي التخلي التام عن حياتنا الخاصة، ويعبر عنها بوضوح في أعمالنا الجسدية. أو على العكس، فإن **الطاعة هي إماتة الأطراف على حين يبقى الذهن حياً**. الطاعة هي حركة بدون تساؤل، وموت يُقبَل بحرية وحياة بسيطة، وخطر يُواجَه بدون قلق. إنها سفر آمن ورحلة شخص نائم. الطاعة هي قبر للمشيئة وقيامة للتواضع.. أن نطيع هو أن نضع جانباً القدرة الشخصية على الحكم... الطاعة هي عدم الثقة في النفس حتى يوم الممات في كل أمر حتى في الأمور الصالحة"[٣٨٧].

الطاعة هي إماتة الإرادة الشخصية والفهم الشخصي، لا لكي تمات الشهوة ولكن لكي تتحول. **إن الطاعة التي تمارس بالطريقة المقترحة من قبل الكنيسة لا تدمر الإدراك، ولكنها تشفيه واضعة إياه في وضعه الطبيعي**. إنها إذاً الحياة. ولقد أظهرت خبرة الكنيسة الطويلة أن أياً من يستطيع أن يكون مطيعاً يستطيع أن يشفى من مرض نفسه الداخلي وأن يتحول كل عالمه الداخلي. فالطاعة هي وسيلة لنمو الإنسان.

---

383. Abba Dorotheos. CS Ch. 22, p. 252, 11
384. Ibid. ch. 5, p. 122
385. Ibid. p. 123
386. Ibid. p. 122
387. Ladder. Step 4. CWS p. 91f

إننا نحاول أن ننقي العقل عن طريق الحد من الإدراك، خلال التوبة والحياة الكنسية النسكية، بحيث يستنير العقل بطاقة الله الغير مخلوقة. ويتحقق ذلك من خلال اليقظة والصلاة (صلاة القلب العقلية بصورة أساسية) وبكل الحياة العاملة والمتأملة. يستقبل العقل النعمة من خلال كل الوسائل المحددة بواسطة التقليد الأرثوذكسي، وينتعش ويرتفع لوضعه الصحيح، ثم يلقي نعمة على الإدراك بالمثل. **وهكذا يصبح الإدراك خادماً للعقل الحاصل على النعمة وبذلك نعود لحالتنا الطبيعية.**

يكون إذاً الإدراك الذي لا يخضع لهذا العقل المغمور بالنعمة مريضاً، ويولد إنحرافات لا يمكن حصرها في حياتنا، على حين أنه عندما يخضع للعقل فإنه يكون سليماً وطبيعياً. هذا هو التدريب النسكي العلاجي الذي للكنيسة.

(٢) الأفكار Logismoi

تعمل الأفكار الشريرة في الجزء الإدراكي للنفس، وتثير الشهوة وتحاول أن تأسر عقل الإنسان بحيث يرتكب الخطية. وهكذا فإن من يريد أن يطهر عالمه الداخلي وأن يتحرر من الخطية ومن أسر عقله يجب عليه أن يحافظ على إدراكه آمناً من تأثير الأفكار الشريرة. لذلك سنحاول في هذا الفصل أن نحلل ما هي هذه الأفكار، وما هي أسبابها، وما هي نتائجها في كياننا الروحي، وأخيراً ما هي الوسائل التي تشفينا منها. هذا الموضوع حاسم جداً لأن موتنا الروحي أو حياتنا الروحية تعتمد على مواجهتنا له. وبالإضافة إلى ذلك فإننا سوف نرى فيما يلي العديد من الأمراض العضوية التي تنتج من الأفكار الغير ملجمة.

ما هي الأفكار

عندما يتكلم الآباء عن الأفكار فإنهم لا يعنون الأفكار البسيطة، ولكن الصور والتصورات التي تكمن وراءها أفكار متعلقة بها بإستمرار. تسمى الصور مع الأفكار logismoi وتعني الأفكار الشريرة. "قد تأخذ الصور في بعض الأحيان صورة مرئية على حين أن البعض الآخر يكون تقريباً نتاج الذهن ولكن في أكثر الأحيان يكون خليطاً من الإثنين. وحيث أن الصور المرئية تولد أيضاً بعض الأفكار فإن النساك يسمون كل الصور " أفكاراً مقتحمة"[٣٨٨]. أحياناً ما تستخدم الأفكار الشيطانية المتنوعة ما تجلبه الحواس

---

[388]. Archim. Sophrony: Saint Silouan. P. 134

للعقل كوسيلة، وأحياناً أخرى تحرك الخيال والـذاكرة المفككـة وتهـاجم الـشخص ويكـون هدفها الأقصى هو أسره.

وبحسب قول القديس هيزيخيوس القس فإن معظم النـاس لا يعـون أن هـذه الأفكـار ليست إلا "صوراً للأشياء المادية والعالمية"[389].

وكما يظهر في هذا النص، فإن **الخيال** يلعب دوراً مهماً جداً في تكـوين الـصور فينـا. وهكـذا، نـستطيع أن نقـول أن الأفكـار هـي الحبـل الـذي يـربط العديـد مـن الـصور والتصورات والتي تكون أغلبها ذكريات من الماضي. قال أخ هُوجِم بذكريات مـن الماضـي: "إن أفكاري هي جبال قديمة وجديدة، إذ تزعجني الذكريات وصور النساء"[390].

تقتني كل الأمور عناصرها الداخلية (كلمات وتصورات عقلية)، والتي مـن خلالهـا تتكلم وتتواصل مع الإنسان. وبحـسب القـديس غريغوريـوس الـسينائي يـسمى الكتـاب المقدس أيضاً هذه "الكلمات" التي للأشياء "أفكاراً". تسمى أيضاً كلمات الأشياء صـوراً ذهنية والعكس صحيح. إن عملها "ليس مادياً في حد ذاته ولكنه يأخذ صورة أشـياء ماديـة وتتغير هيئته"[391]. تستخدم كلمات الأشياء مـن قبـل الـشياطين، وبالتـالي يمكـن أيـضاً أن تسمى كلمات الشياطين[392]. يصف القـديس غريغوريـوس الـسينائي الأفكـار الـشريرة أو بالأحرى إنقضاضها "بالنهر الجاري"، الذي من خـلال الموافقـة علـى الخطيـة يتحـول إلى طوفان يغرق القلب[393].

إنني أعتقد أنه عندما نتحدث عن الأفكار، ونحاول أن نشير بدقة لطبيعتها، يجب علينا أن نرجع للتصنيف الذي وضعه القديس مكسيموس. إنه يقول أن بعـض الأفكـار تكـون بسيطة وتكون الأخرى مركبة. فتكون الأفكار الغير مرتبطة بالشهوة بسيطة. وأمـا الأفكـار المحملة بالشهوة فتكون مركبة، وتتكون مـن "صـورة ذهنيـة مـصحوبة بـشهوة"[394]. عنـدما تصاحب ذكرى شيء ما الشهوة، فإنها تجعل التفكير محملاً بالشهوة أو مركبـاً. وأعتقـد أنـه من الجيد عند هذه النقطة، أن نحدد الفرق بين الـشيء والـصورة الذهنيـة والـشهوة مثلمـا يحللها القديس مكسيموس. إن الذهب والمرأة والرجل وما إلى ذلك هي أشياء. والـذكرى

---

389 . Philok. 1, p. 189, 154
390 . Sayings. P. 101, 1
391 . Acrostics, 66. Writings, p. 49
392 . Acrostics, 67. p. 49
393 . Acrostics, 64. p. 48
394 . Philok. 2, p. 79, 84

البسيطة للذهب والمرأة والرجل هي صورة ذهنية. أما الشهوة فهي "حب طاغي أو كراهية مشوشة لواحدة من هذه الأشياء نفسها". تتكون الصور الذهنية الشهوانية من فكرة مركبة من شهوة وصورة ذهنية. من أجل ذلك يجب علينا أن نجاهد لكي نفصل الشهوة عن الصورة الذهنية، بحيث يبقى الفكر بسيطاً. ومن الممكن أن يحدث هذا الفصل من خلال الحب الروحي، وضبط النفس[٣٩٥].

تثير الأفكار الشهوانية، إما قوة النفس الشهوانية، أو تؤدي إلى خلل في قوتها الحسية أو تظلم إدراكها[٣٩٦].

يؤكد إيفاجريوس على وجود أفكار تَقطع، وعلى وجود أفكار تُقطع. تَقطع الأفكار الشريرة الأفكار الجيدة، ولكن تُقطع أيضاً الأفكار الشريرة بالأفكار الجيدة. إنه يقدم مثالاً: يُقطع فكر إضافة الغرباء لمجد الله بالشيطان الذي يوحي بفكر إضافة الغرباء بهدف الظهور بصورة المضياف في أعين الآخرين. وبالمثل فإن فكر إضافة الغرباء للحصول على المجد البشري يُقطع "عندما يأتي فكر أفضل" يحثنا على أن نكون مضيافين من أجل الله ومن أجل الفضيلة[٣٩٧].

إذاً هو أمر ممكن أن يبدأ الفكر كفكر شرير، ولكن من خلال جهادنا الشخصي وإلهام الروح القدس يتحول إلى فكر صالح، والعكس صحيح. على أية حال، سوف نحلل هذا الأمر بإستفاضة أكثر فيما بعد عند الحديث عن الشفاء من الأفكار الشريرة. ونحن نرى هنا، على الأقل، أنه توجد أفكار تَقطع وأخرى تُقطع، أفكار جيدة وأفكار سيئة.

سبب الأفكار الشريرة

إن ما كتبناه عن طبيعة الأفكار الشريرة يُظهر أيضاً أسبابها، وبحسب رأي القديس غريغوريوس السينائي فإن أصل وسبب الأفكار الشريرة يكمن في "إنقسام الذاكرة الواحدة البسيطة من خلال معصية الإنسان"[٣٩٨]. وكانت ذاكرة الإنسان قبل السقوط بسيطة، أي لم تكن تقتني شهوة، وكانت متجهة نحو الله بالتمام. لقد كانت كل قوى النفس متمركزة حول الله ثم إنقسمت هذه الذاكرة الواحدة على الفور بعد المعصية. يعلم

395 . Ibid. p. 89, 42f
396 . St. Maximus. Philok. 2, p. 85, 20
397 . Philok. 1, p. 42,6
398 . Acrostics, 60. Writings. P. 48

القديس ثالاسيوس أن الأفكار الشريرة تنبع من ثلاثة مصادر: الحواس، والذاكرة، ومزاج الجسد، وأسوأها التي تأتي من الذاكرة[٣٩٩].

إنني أعتقد، أن القديس إسحق السرياني يعطينا نقطة بداية لكي نرى بأكثر وضوح أسباب الأفكار الشريرة، وما هي الأمور التي تثيرها. إنه يعلم أنه "تنشأ حركة الأفكار في الإنسان من أربعة أسباب. أولاً من الإرادة الطبيعية للجسد، وثانياً من تخيل الأشياء الحسية التي يسمعها ويراها الإنسان في العالم، وثالثاً من الإستعداد الذهني ومن إنحرافات النفس، ورابعاً من حروب الشياطين التي تشن علينا حرباً في كل الشهوات. وبالتالي فطالما أن الشخص يبقى في هذا العالم، فإنه لا يستطيع أن يتجنب الأفكار والحرب"[٤٠٠].

يكمن السبب الرئيسي للأفكار الشريرة في حرب الشيطان. وتكون أغلب الأفكار الشريرة من الشيطان، حيث يهدف الشيطان إلى جعل الإنسان يخطئ سواء بالفكر أو بالفعل. ولقد شن حرباً حتى ضد السيد المسيح نفسه، ولكنه لم ينجح بالطبع. تفعل الشياطين، التي تحاول بإستمرار الإمساك بنفسنا، ذلك "بواسطة الأفكار الشهوانية" بحيث أنها قد تجعلها تخطئ إما في الفكر أو بالفعل[٤٠١].

عندما يفكر الإنسان في الشر فإنه يخطيء بالفكر، على حين أنه عندما يفعل مشيئة الشيطان ويشبع شهوته فإنه يخطيء بالفعل. ويسمى إرتكاب الخطية "الخطية بالفعل". تبذر الشياطين الأفكار بإستمرار بهدف أسر العقل. ويتعرف القديسون على "بذور الشياطين" وبحسب هذه المعرفة يعطون النصيحة للناس[٤٠٢].

يقول القديس غريغوريوس السينائي: إن الأفكار هي كلمات الشياطين، وبوادر الشهوات. يأتي الفكر أولاً ثم تُرتكب الخطية[٤٠٣]. وبحسب إيليا القس، فإن الشياطين تشن حرباً ضد نفسنا من خلال الأفكار أولاً وليس من خلال الأشياء: "يكون السمع والنظر المسئولين عن الحرب التي تُشَن من خلال الأشياء، وتكون العادة والشياطين المسئولين عن الحرب التي تُشَن من خلال الأفكار"[٤٠٤]. وهكذا تزرع الشياطين الأفكار النجسة والمذرية بإستمرار.

---

399. Philok. 2, p. 309, 46
400. St. Isaac the Syrian. Ascetical Homilies, p. 20
401. St. Maximus. Philok. 2, p. 68,20
402. Sayings. P. 9, 11
403. St. Gregory of Sinai. Acrostics, 67. Writings p. 49
404. Philok. 3, p. 36, 18

يوجد لكل شهوة شيطانها الملائم لها. ويؤكد القديس يوحنا الدرجي على أن الأفكار النجسة والمذرية في القلب تكون من شيطان القلب المخادع[405]. ويكون مكر الشياطين في هذه الحرب عظيماً، ولا يستطيع أن يميزها سوى القديسين ذوي العقل النقي وأصحاب موهبة البصيرة. من أجل ذلك يكتب القديس يوحنا الدرجي، أنه رأى في أحد المرات شيطان العجب يعمل بصورة ثنائية، فأظهر في أخ ما أفكار العجب وفي نفس اللحظة أعلن هذه الأفكار لأخ آخر، بحيث حصل الثاني على المديح من قراءة الأفكار، وهكذا سقط في خطية وشهوة العجب[406]. وهكذا تكون حرب الشيطان من خلال الأفكار أصعب من الحرب المشنونة من خلال الأشياء المادية[407].

ولكن عادة ما يأخذ الشيطان فرصته من خلال الشهوات الموجودة في نفسنا بهدف إطلاق حرب الأفكار الملائمة. إنه يعرف الشهوات الموجودة، ويثير النفس في هذه المواضع. "تمد الشهوات المختفية في النفس الشياطين بالوسائل التي تثير الأفكار الشهوانية فينا"[408].

وحيث أن الشهوة الرئيسية التي تتولد منها كل الشهوات الأخرى، هي حب الذات، فإنه في شهوة حب الذات يكون أساس "الثلاثة صور الأكثر شيوعاً للشهوة"[409]. عندما يميل قلب الإنسان نحو التساهل فإنه يصبح مصدراً للأفكار الشريرة: "تنبع الأفكار والكلمات المريضة من القلب محب اللذة"[410]. توجد لدينا أفكار إرادية وأفكار لاإرادية، أي أفكار تأتي إلينا دون أن نطلبها وأفكار تأتي من إرادتنا الخاصة لأن الأفكار اللاإرادية تأتي من الخطية السابقة، على حين تأتي الأفكار الإرادية من إرادتنا الحرة. وهكذا نستطيع أن نقول أن الأفكار الإرادية هي سبب اللاإرادية[411]. إن أسباب الأفكار هي الشهوات وأسباب الشهوات هي أفعال الخطية[412].

ونستطيع أن نقول بوجه عام، أن الأفكار الآتية من الشياطين تأسر العقل وتقوده ليفعل الخطية في الفكر وبالفعل. وعندما تتكرر هذه الخطية عدة مرات وتتكون العادة لدى الشخص فإن الشهوة تتولد. ثم بعد ذلك تأتي الأفكار الشريرة المناسبة من

---

405 . Ladder. Step 15. CWS p. 185
406 . Ibid. Step 22. CWS p. 203
407 . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 91
408 . Ibid. p. 60, 31
409 . St Thalassios. Philok. 2, p. 324, 87
410 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 162
411 . Ibid. p. 142, 190
412 . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 62. Writings, p. 48

الشهوات التي هي جراحات النفس بصورة ما. فقد يَجرح شيء ما الجسد وكنتيجة لذلك يسبب هذا الجرح تهيجاً، وهكذا تستمر المشكلة وتتفاقم أكثر.

ينوه الرب في عدة مواضع من تعليمه إلى أن الأفكار الشريرة تأتي من داخل القلب: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق، سرقة شهادة زور تجديف" (مت١٥ : ١٩).

ويذكر لوقا الإنجيلي أن جدلاً دار بين تلاميذ المسيح عن "من يكون الأعظم فيهم" "ولكن عندما علم يسوع فكر قلبهم أخذ ولداً وأقامه عنده" (لو٩ : ٤٦). وعندما ظهر الرب بعد القيامة قال لتلاميذه: "مابالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم" (لو٢٤ : ٣٨). تُظهر كل هذه النصوص أن المسألة تنبع من داخل قلب الإنسان. وفي الواقع يكون العقل هو أول من يُهاجَم من قبل الأفكار، ولكن بعد ذلك، تعمل الشهوات في القلب وينتهز الشيطان الفرصة من خلالها ليضع أفكاره الخاصة موضع التنفيذ. من أجل ذلك نقول أن المسألة تأتي من داخل القلب.

ترتبط تعاليم القديس ديادوخوس بذلك. ينتج القلب أفكاراً حسنة وشريرة. ولكن على أي الأحوال فهو لا ينتج الأفكار الشريرة بالطبيعة، ولكن من تذكار الشر الذي للخطية الأولى التي إرتكبها، والتي أدت إلى العادة. وتتولد معظم الأفكار الشريرة من القلب كنتيجة لشر الشياطين. وعلى الرغم من ذلك فنحن نشعر أنها تنبع من القلب. يجعل عقل الإنسان، الذي يستجيب بدرجة كبيرة، الأفكار المزروعة فيه بواسطة الأرواح الشريرة كأنها أفكاره الخاصة. ويحدث نفس الشيء أيضاً مع الجسد. فحيث يبتهج الجسد بالإطراء الخادع، وحيث أنه يوجد إتحاد بين النفس والجسد، فإن الأفكار المزروعة في النفس بواسطة الشياطين تبدو وكأنها نابعة من القلب[٤١٣]. يقوم العقل بتغذية القلب وينقل أي شيء يمتلكه سواء كان صالحاً أم سيئاً للقلب بصورة مباشرة. وحيث أن أغلبنا يكون عديم الخبرة في هذه الحرب الروحية، وحيث أن هذا الإنتقال يحدث بسرعة شديدة، فإننا نشعر أن الأفكار ناتجة عن القلب.

وبخلاف الشيطان والشهوات فإن الأمور تولد الأفكار في ذاتها. ولكن كما يُعلّم القديس غريغوريوس السينائي فإن الأمور في ذاتها تولد أفكاراً بسيطة، على حين أن إيحاءات الشيطان تولد أفكاراً شريرة[٤١٤]. إذاً ليست المادة سيئة، ولكن ما هو سيء هو

413 . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 284, 83
414 . Acrostics, 68. Writings p. 49

الشهوات المذرية الموجودة داخلنا والإثارة التي تحدثها الشياطين. "مثلما هو أمر مستحيل أن نوقف الرحى عن الدوران" وعن طحن الحنطة أو التبن الذي نلقيه فيها، هكذا هو الحال مع عقلنا فهو يكون في حركة مستمرة. فالأمر يعتمد علينا إن كنا نعطيه تأملاً روحياً أم أعمالاً للجسد. من أجل ذلك فعندما نكون مشغولين بإهتمامات عالمية وبأمور جسدية، وعندما ننشغل بمحادثات غير مفيدة وغير هادفة فإن "هذه الأفكار الدنيا تتضاعف في داخلنا"[415]. إذاً ليس إستعمال العالم، وكوننا من العالم، سيئاً ولكن الأمر السيء هو إستعدادنا الخاص وتشبثنا برأينا الخاص.

وتوجد بالتأكيد أفكار جيدة، بخلاف الأفكار الشريرة، وتأتي تلك من الله. ولكن كيف نستطيع أن نميز هذه الأفكار؟ يجب على المبتدئين منا في الحياة الروحية أن يسألوا الآباء الروحيين المختبرين، وخصوصاً أولئك الذين يمتلكون موهبة تمييز الأرواح. يوجد على أية حال تعليم عام يقول بأنه عندما يقترح فكر ما شيئاً علينا ويكون مصحوباً بالفرح، فإن هذه تكون علامة على أن الفكر من الله **على حين تكون أفكار الشياطين مملوءة بالإضطراب والإكتئاب.** يُعلم القديس برصنوفيوس قائلاً: "عندما يقترح عليك فكر أن تفعل شيئاً بحسب مشيئة الله وتجد فرحاً في هذا الأمر، وفي نفس الوقت حزناً يحارب ضده فإعلم أن هذا الفكر هو من الله... إن الأفكار الآتية من الشيطان تكون ممتلئة بالإضطراب والإكتئاب وتجر الإنسان خلفها بصورة سرية وخفية، إذ يرتدي الأعداء ثوب الحملان، أي أنهم يغرسون الأفكار الصحيحة في مظهرها ولكنها تكون في داخلها "ذئاب خاطفة"[416].

يجب علينا أن نلاحظ أن الفكر قد يكون قادراً على إحداث فرح، ومع ذلك يكون آتياً من باطل ومن قلب متهاون. من أجل ذلك لا يمكن تمييز الأفكار إلا بواسطة من تذوق نعمة الروح القدس، ومن تطهر من الشهوات الموجودة في النفس. يجب على أولئك الذين تنقصهم الخبرة أن يستشيروا آباء روحيين مختبرين، لأن الشيطان يقترح أفكار بر على حين كونها غير بارة.

والآن، بعدما حددنا ما هي الأفكار وماهي الأسباب التي تسببها، يجب علينا أن نتطلع بإختصار إلى الأنواع المختلفة من الأفكار. تشبه الأفكار الشهوات، وتوجد لكل شهوة فكر. ويصنفها القديس كاسيان إلى ثمانية، ويحلل أفكار الشر الثمانية التي هي: "الطمع، والنجاسة، والبخل، والغضب، والإكتئاب، والفتور، وتقدير الذات، والكبرياء"[417].

---

415. St. Cassian of Rome. Philok. 1, p. 97f
416. Barsanuphius and John. Q59. ET p. 52f
417. Philok. 1, p. 73

يقول القديس ثالاسيوس أنه توجد ثلاثة أفكار رئيسية: الطمع والكبرياء والبخل وأما باقي الأفكار الشهوانية فتأتي في إثرها[418]. تتماشى هذه الأفكار الثلاثة مع الثلاثة شهوات العامة العظمى: التهاون، ومحبة المجد، ومحبة القنية، والتي جرب بها السيد المسيح.

يجب علينا أن ننوه عن فكر عظيم مشين، الذي هو فكر التجديف. إذ أدرك القديس يوحنا الدرجي مدى شر وخطورة أفكار التجديف، بالإضافة إلى حقيقة كونها تهاجم أساساً أولئك الذين يجاهدون في الحياة الروحية، فقد خصص فصلاً كاملاً لكي يصفها، مقدماً الطرق التي نُخلّص بها ذواتنا من هذه الأفكار. إنه يكتب أن فكر التجديف يأتي من الكبرياء، فهو يهاجم الشخص حتى أثناء القداس وأثناء الإستعداد للتناول المقدس. إنه يهاجم العقل ويشتته عن كلمات الصلاة، كما أنه يكُف الكثيرين عن الصلاة ويقطع الكثيرين من التناول. كما أنه يجعل أجساد البعض تبلى من الحزن. ينصحنا القديس يوحنا الدرجي ألا ننظر لنفوسنا على أننا سبب أفكارالتجديف، فهي كلمات الشيطان التي تهدف لتغريبنا عن الله وعن كنيسته[419].

ومع ذلك فإن الأفكار الشريرة هي بداية حرب الشيطان ضدنا. ينمو الفكر المزروع من الشيطان حتى تُرتكب الخطية ويقود للشهوة. من أجل ذلك سنحاول فيما يلي أن نرى نمو الأفكار الشريرة هذا في ضوء خبرة الآباء القديسين. يعلم القديس مكسيموس أن الأفكار الشهوانية المثارة بالشهوات المختفية في النفس تحارب العقل وتجبره على الموافقة على الخطية. وعندما ينهزم العقل في هذه الحرب فإنها "تقوده للخطية بالفكر، وعندما يحدث ذلك فإنها تحثه وهو في حال أسره، أن يرتكب الخطية بالفعل". وبعد الفعل تتراجع الشياطين التي سببت خراب النفس بواسطة هذه الأفكار، ولكن يبقى شبح أو صنم الخطية في العقل[420] وهكذا تأسر الأفكار العقل وتقوده في أسره للخطية. ولو لم يبعد الشخص صنم الخطية بتوبة، قوية مستمرة، فإنه يكون مصدراً للشذوذ في الكيان الروحي.

هذا ما يحدد بوجه عام نمو فكر مُقتحِم، والمسار الذي يأخذه. ولكن من الأفضل أيضاً أن نرى ذلك، ببعض التفاصيل كما وصفه الآباء أيضاً.

يعمل الفكر، الذي يكون قد دخل إدراك النفس، على أسر العقل. ثم يهدف إلى الحث على شعور باللذة يمكن أن تقدمها شهوة أو أخرى موجودة بالنفس. تسمى هذه

418. **Philok**. 2. p. 324. 88
419. **Ladder**. Step 23. CWS p. 211f
420. **Philok**. 2. p. 70. 31

المرحلة غواية، ولا تحسب كخطية"[421]. ثم تجذب البهجة المستديمة التي تقدمها الشهوة إنتباه العقل"[422]. وعندما لا ينزع العقل نفسه بعيداً عن الملذات المقترحة فإنه يجد ذاته منجذباً، وتبدأ المحادثات المفضلة معها، ثم يتبع ذلك الإتحاد بها، ثم الموافقة عليها. تأسر اللذة المتزايدة العقل بجملته، والإرادة أيضاً. وهكذا تصبح مقاومة الشخص ضعيفة ثم يرتكب الخطية. وعندما يتكرر الأسر تتكون عادة الشهوة " ثم تصبح كل قوى الإنسان الطبيعية في خدمتها"[423]. وهكذا يكون وجود كل من اللذة وإستمرارها مهماً جداً لإحداث الأسر ولتنشيط الشهوة. من أجل ذلك ينصح الآباء بإماتة اللذة، على قدر الإمكان، والأفضل من ذلك تحويلها عندما تأسر عقل الإنسان. يقول الأنبا دوروثيئوس أنه عندما تعود الرغبات الشهوانية للظهور ثانية في نفوس أولئك الذين هيأوا حرباً، فإنها تنبذ على الفور[424].

يكتب هيزيخيوس عن مزج وتوحيد أفكار النفس مع غواية الشيطان من خلال الخيال: "تصبح أفكاره مضفورة مع الخيال الذي يثيره الشيطان"، وهكذا يصل للموافقة عليها ولفعلها"[425]. يلعب الخيال دوراً هاماً خصوصاً في الحالات التي يكون فيها الشخص أو الشيء بعيداً عنا. ولكن أيضاً عندما يكون الشخص أو الشيء مرئياً، أي عندما يكون مرتبطاً بالحواس، فهنا أيضاً يضخم الخيال الأمور ويزيد من جمالها بهدف أسر العقل وقيادته للموافقة. وبالتالي نستطيع، من وجهة النظر هذه، أن نقول أن الأفكار الشهوانية تعمي وتربك العقل وتملأه بصور نجسة وتحمله " بغير إرادته وبالقوة نحو أعمال الخطية"[426].

يبدو أن حرية الإنسان تعطي موافقتها، ليس فقط في الوقت الذي تتلقى فيه الغواية والعرض الذي يعرض الفكر الشيطاني، ولكن أيضاً عندما تظلم عين وأذن النفس بكامل حريتها. وكما يُعلّم فيلوثيئوس السينائي، فإن السبب الذي يجعل المرء ينظر للأمور بروح زنا، هو أن "العين الداخلية تصير زانية ومظلمة" والسبب الذي يجعل المرء يريد أن يسمع عن الأمور الخاطئة هو أن "أذني نفوسنا تصغي لما همست به الشياطين الشريرة في داخلنا"[427]. وإذا فسد إنسان ما داخلياً فإن عين قلبه تتدنس، ثم تفسد أيضاً حواس جسده الخارجية. من أجل ذلك يجب على المرء أن يجاهد داخلياً أولاً. وبالمثل فإنه عندما يبقي المرء على الأفكار

421 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 134
422 . Ibid.
423 . Ibid. p. 134f
424 . Abba Dordtheos. CS p. 197
425 . Philok. 1, p. 169f, 43
426 . Abba Dorotheos. CS p. 195
427 . Philok. 3, p. 29, 33

داخله وينميها، تنبع اللذة ويصل العقل للموافقة وللفعل. "مثلما يفقس البيض المدفأ في الروث، هكذا أيضاً الأفكار الشريرة التي لا يُعترف بها، تفقس أعمالاً شريرة"[٤٢٨].

يُظهِر ما قلناه بوضوح نتائج الأفكار المسهبة والمستمرة. وسوف نعرض هذه النتائج في الفصلِ التالي.

نتائج الأفكار الشريرة

عندما يطول فكر ما في داخلنا، فإننا نصبح عبيداً للإنجذاب: "عندما يتوانى فكر ما في داخل إنسان، فإن هذا يشير إلى تعلقه به"[٤٢٩]. الإنجذاب هو تعلق الشخص بالأمور المخلوقة ورغبته في تحقيقها وإكتساب هذه الأشياء فقط. وعندما يتحرر العقل من الطعام السماوي ومن تذكر الأشياء السماوية، فإنه يقدم نفسه بإستمرار للأشياء الحسية والمخلوقة التي للعالم. فيسمى هذا إنجذاباً. إذ يقاد العقل إليه بواسطة الفكر الذي يتوانى في داخله.

يصبح الشخص مفرطاً، ولا يستطيع ضبط نفسه. "إن الذي يعج ذهنه بالأفكار ينقصه ضبط النفس"[٤٣٠]. "إن الشخص الذي لا يحارب في فكره فكر الخطية، ولا يقول أي شيء ضده فإنه يرتكبها بالجسد"[٤٣١].

عندما يتلكع فكر شرير في شخص ما، ولا يجد معارضة، ولكنه يُنَفَذ فإنه يقوي الشهوة فيه ثم بعد ذلك يحاربه ويقهره أكثر"[٤٣٢].

تتلفنا الأفكار وتسحقنا وتخلق أيضاً مشاكل في علاقاتنا الشخصية. "إننا نقضي كل وقتنا مفسدين ذواتنا بالأفكار التي نمتلكها الواحد ضد الآخر وقاهرين أنفسنا"[٤٣٣].

تدنس وتلوث الأفكار الشريرة نفسنا[٤٣٤] فهي تخربها وتسممها: "هذا هو مكر الشرير، وهو يسمم كل نفس بهذه السهام"[٤٣٥].

---

428 . Ladder. Step. 26, Summary. CWS p. 257
429 . St. Mark the Ascetic. Pilok. 1, p. 132, 89
430 . Ibid. p. 129, 40
431 . Sayings. P. 101, 1
432 . Abba Dorotheos. CS p. 242f
433 . Ibid. SC p. 300, 86. CS p. 145
434 . Sayings. P. 60, 4
435 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 44

" الرجل الذي يحُمل بعيداً بأفكاره يكون أعمى بها، وعلى حين أنه يستطيع أن يرى العمل الفعلي للخطية، فإنه لا يستطيع أن يرى أسبابها"[436]. يعطي قبول الأفكار هذا للشيطان سلطاناً عليه، ويستطيع أن يقوده حتى للإنتحار، طالما أنه لا يستطيع مقاومة قوة الشيطان. يحط الفكر النجس من قدر النفس[437] ويلقي بنفس الإنسان أرضاً.

تثير الأفكار الشهوانية قوة الشهوة في النفس وتربك القوة الحسية والإدراك. "إنه بهذه الطريقة تتبلد قدرة العقل على التأمل الروحي وعلى نشوة الصلاة"[438] ويموت الإنسان بدون الله.

إن أياً من يشعر بإستمرار بأنه مضطرب بالأفكار، وبأن أعضاءه ملتهبة، يُظهر أنه بعيد عن شذى الروح القدس[439].

وبالإضافة إلى ذلك تـُفقد الحميمية مع الله: "عندما تتحد النفس بالأفكار الشريرة والدنيئة فإنها تفقد إتحادها الحميم بالله"[440]. لا يستطيع الله أن يتحد مع شخص يكون عقله مدنساً بإستمرار بأفكار شريرة ونجسة. ويشمئز الله من شخص يقبل أفكاراً نجسة بينما هو واقف للصلاة، مثلما يشمئز ملك أرضي من شخص يدير وجهه في حضرته ليتكلم مع أعداء سيده[441].

ليس فقط أن الشخص ذا الأفكار الشريرة يفقد حميميته مع الله، وشذى الروح القدس، ولكنه أيضاً ينفصل تماماً عن الله "إذ أن الأفكار النجسة تفصل الله عن الإنسان". لا يعلن الله أسراره للذي تستحوذ عليه الأفكار الشريرة[442]. يقول الأنبا دوروثيوس بوضوح تام:" يستطيع فكر واحد شرير أن يحول الإنسان بعيداً عن الله عندما يُدخِله داخله ويلتصق به"[443].

وطالما أن الأفكار تفصل الإنسان عن الله، فهي تتبعها إنحرافات جسدية أخرى. إذ تتسبب الأفكار في الكآبة والإحساس بعدم الأمان والأمراض الجسدية. ولقد وعي الأطباء أيضاً هذا الأمر، من أجل ذلك ينصحوننا بألا نتمادى في التفكير في أمور ما، وألا نقلق.

---

436 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 170, 44
437 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 91
438 . St. Maximus. Philok. 2, p. 85, 20
439 . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 57
440 . St. Maximus. Philok. 2, p. 280
441 . Ladder. Step 28. CWS p. 280
442 . Sayings. P. 135, 1
443 . Abba Dorotheos. CS p. 190

فمثلاً يستطيع فكر واحد أن يجعل الإنسان غير قادر على النوم لليلة بكاملها. وهكذا نقول أن الأفكار تجعل الإنسان مضطرباً بل وتحطم أعصابه. لقد قال الأنبا دوروثيئوس : "يأتي فكر ما ويضايقني.."[٤٤٤].

إن نتائج الأفكار الشريرة هي حقاً مزعجة، ولقد أشرنا إليها بإختصار شديد، ولكننا إستطعنا أن نستشهد بنصوص آبائية أكثر. لقد حاولنا أن نشير للإنحرافات العامة التي تحدثها في كياننا النفسجسماني.

يجب على طريقة العلاج النفسي، على أية حال، أن تصف أيضاً الطرق التي يُشفى بها الناس من الأفكار الشريرة الشيطانية، ولقد أتينا الآن لهذا الموضوع بعينه.

شفاء الأفكار الشريرة

مثلما هو الحال مع كل أمراض النفس والجسد، هكذا أيضاً بالنسبة للأفكار، يوجد علاج وقائي وعلاج شفائي بعد المرض، وسوف نبحث كلاهما.

يتمثل العمل الوقائي في محاولة عدم ترك الفكر يدخل إلينا ويأسر عقلنا. يتحقق ذلك باليقظة والإنتباه، والسكون، وقطع الأفكار الشريرة. يُعلّم بولس الرسول تلميذه تيموثاوس أن يكون يقظاً بإستمرار قائلاً: "وأما أنت فاصحَ في كل شيء"(٢تي٤ : ٥). وتحتوي كتابات الآباء على تحليل مسهب لهذا الجهاد.

تسمى أيضاً اليقظة حفظ الأفكار. يُعلّم القديس يوحنا الدرجي أن حفظ الأفكار هو شيء، على حين أن مراقبة العقل هو شيء آخر. **فمراقبة العقل أعلى من حفظ الأفكار**[٤٤٥]. يكون ذلك صحيحاً بالمعنى الذي عرفناه فيما سبق، أن العقل هو عين النفس الذي هو القلب أيضاً، على حين أن الفكر هو ما يعمل في ذهن الإنسان.

ومحاولة حفظ الذهن طاهراً هو شيء، على حين أن محاولة حفظ العقل الذي هو القلب نقياً هو شيء آخر. وعلى الرغم من ذلك تكون نقاوة الأفكار مطلوبة، لأنه من المستحيل الحفاظ على داخل الإنسان بلا خطية في حالة إمتلاكه أفكار شريرة[٤٤٦]. ووصية الآباء هي أن نركز عقلنا أي (طاقة النفس في جوهرها)، وأن نراقب الأفكار، وأن نحارب أفكار الشهوة[٤٤٧]. إنه أمر ضروري

---

[٤٤٤]. Sayings. P. 68, 1
[٤٤٥]. Ladder. Step 26. CWS p. 239f
[٤٤٦]. Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 29, 33
[٤٤٧]. St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 45

أن ننتبه لأفكارنا وذكرياتنا وميولنا[448]. وفي الواقع لكي نحافظ على هذا الجهاد في عقلنا نقياً، ولكي نمتلك تذكراً مستمراً لله يجب علينا أن ننبذ الأفكار الحسنة أيضاً **لأنه حتى مع الأفكار الحسنة يُكَوِّن العقل بالتدريج علاقة الإنعزال عن الله.**

يُعلّم سلوانس الراهب قائلاً: "لقد تعلّم القديسون كيف يحاربون العدو، ولقد عرفوا أن العدو يستخدم الأفكار الملحّة لكي يخدعنا، وهكذا تجنبوا مثل هذه الأفكار طوال حياتهم. ويبدو للوهلة الأولى أنه لا يوجد شيء خاطيء في فكر مُلح، لكنه يبدأ للتو في تحويل العقل عن الصلاة، ثم بعد ذلك يوقظ الإرتباك. وبالتالي يكون نبذ الأفكار الملحّة، مهما كانت تبدو صالحة، أمراً ضرورياً. وما هو ضروري أيضاً بالمثل هو أن يمتلك المرء عقلاً نقياً في الله"[449].

لا يجب علينا أبداً أن نمتلك ولا فكر واحد في قلبنا، سواء كان بلا معنى أو ذا معنى[450]. ويجب علينا أن نحمي عين النفس من كل فكر مثلما نحمي عين الجسد من كل شيء مؤذٍ.

عندما يتعود المرء على هذا الجهاد المقدس، المتمثل في التنحي عن كل الأفكار، فعندئذ يتذوق العقل صلاح الله، ويكتسب النقاوة بحيث يستطيع أن يميز الأفكار "ويخزن في كنوز ذاكرته تلك الأفكار الحسنة والمرسلة من الله، على حين أنه يطرد تلك الأفكار الشريرة الآتية من الشيطان"[451].

تسمى يقظة النفس هذه وحفظ الأفكار السكون الداخلي. وهكذا لا يكون السكون في التعليم الأرثوذكسي مجرد السكون عن المثيرات الخارجية (هذا أيضاً هو بداية السكون وخصوصاً بالنسبة للمبتدئين) ولكنه سكون القلب بصورة رئيسية. ينصح القديس ثالاسيوس قائلاً: "سد حواسك بالسكون وأحِكُم على الأفكار التي تهاجم قلبك"[452]. وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإن "سكون الجسد هو المعرفة الدقيقة للمشاعر والإدراكات الشخصية والتعامل معها، لكن **سكون النفس هو المعرفة الدقيقة للأفكار الشخصية وهو ذهن لا يمكن التمكن منه**". وأصدقاء السكون هم التفكير الشجاع المصمم ومراقبة أبواب القلب، وقتل الميول المقتحمة والتخلص منها[453]. وعندما يثابر

---

448 . Sayings. P. 60, 4
449 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 168
450 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 171, 49
451 . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 259f, 26
452 . Philok. 2, p. 308, 22
453 . Ladder. Step 27. CWS p. 261f

شخص ما في هذا الجهاد، وخصوصاً عندما يكون العقل مأسوراً بملكوت الله، فعندئذ تتلاشى الأفكار مثلما تختفي النجوم عندما تشرق الشمس"[454].

وبخلاف اليقظة وسكون العقل، يوجد طريق آخر لمنع العقل من التوتر وهو تجنب الأسباب التي تثير الأفكار. يعطي القديس مكسيموس مثلاً ليوضح كيف يجب علينا أن نجاهد لنحافظ على نقاوة القلب. وكما نعلم، فإن شياطين الشهوة إما تثير قوة النفس الشهوانية أو تربك قوتها الحسية وإدراكها. من أجل ذلك يجب على الراهب أن يراقب أفكاره، وأن يتخلص من أسبابها: "تستثار القوة الشهوانية للنفس بأفكار الشهوة نحو النساء. وتأتي مثل هذه الأفكار من الإفراط في الطعام والشراب، ومن الحديث المتكرر عديم المعنى مع النساء، ويمكن قطع هذه الأفكار بالجوع والعطش، والسهر والإنعزال عن المجتمع. تضطرب القوة الحسية بأفكار الشهوة من جهة أولئك الذين أساءوا إلينا، ويأتي هذا من التهاون والكبرياء ومحبة الأمور المادية. إنه بسبب هذه الرذائل يشعر الشخص الخاضع للشهوات بالإستياء والإحباط أو بالأحرى بالفشل في الوصول لما يريد. تُقطع هذه الأفكار عندما تُنبذ الرذائل التي تثيرها وتتلاشى من خلال محبة الله"[455].

ويجب على المرء، بالإضافة إلى ذلك، أن يجاهد ضد الشهوات لكي يتخلص من الأفكار طالما أن الشياطين تجد فرصة لتزرع الأفكار الملائمة من خلال هذه الشهوات. ينصح القديس مكسيموس من جهة شهوة الزنا قائلاً: "صم وإبقَ ساهراً وإعمل وتجنب مقابلة الناس". ومن جهة الغضب والإستياء: "لا تهتم بالشهرة ولا بالإحتقار ولا بالأمور المادية". ومن جهة الضغينة: "صل لأجل الذي أساء إليك وسوف تخلص"[456].

يوجد جهاد آخر، وهو تقليل محبة اللذة التي في القلب[457] لأن الأفكار تحاول أن تلهب اللذة وتجذب العقل. ومن الضروري أيضاً أن ينال المرء من محبة اللذة التي للجسد، بالإضافة إلى محبة اللذة التي للقلب. يجب على المجاهد في الجهاد الداخلي أن يتخلص من كل شيء يثير لذة وراحة الجسد، لأنه لو إستسلم شخص ما للذة وراحة الجسد "فإنه حتماً سيقاد بالقوة حتى لو لم يكن يريد ذلك إلى الأشوريين لكي يخدم نبوخذ نصر"[458]. **ولو لم يقف المرء وقفة حازمة مع نفسه من جهة موضوع اللذة فلن يكون قادراً على الإحتفاظ بحريته الداخلية أو إكتسابها.**

---

454 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 59, 91
455 . Philok. 2, p. 85f, 20
456 . Ibid. 84f, 13
457 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 162
458 . Abba Dorotheos. CS p. 195

ومثلما أشرنا في موضع سابق، يجب علينا أن نتجنب الأشياء والأشخاص التي تثير الأفكار الشريرة في داخلنا. أجاب أحد النساك على سؤال أخ قال أنه كان يجاهد مع تذكارات النساء ومع شهوات الماضي قائلاً: *"لا تخف من الميت بل إهرب من الحي وقبل كل شيء إثبت في الصلاة"*[٤٥٩]. لسنا بالتأكيد مطالبين بتجنب كل الناس. يكون ذلك ممكناً للقليلين الذين يطلبون النقاوة الكاملة لكي يعطوا أنفسهم لله بالكلية. ولكن يجب علينا أن نتجنب أولئك الناس الذين يمثلون غواية بالنسبة لنا، ليس لأنهم أردياء ولكن لأننا نحن أنفسنا ضعفاء داخلياً ومعرضون للمرض. عندما يتخذ شخص ما مبدأ أن يراقب عقله وأن ينتبه للأمور والأشياء والأشخاص، فإنه يستطيع أن يتعلم أياً منها تثير شهوته[٤٦٠].

تساعدنا مخافة الله على التحرر من حرب الأفكار. ومخافة الله هي عطية الله للإنسان، والذي يتلقى هذه العطية يجاهد كل يوم لئلا يفعل أي شيء لا يرضي الله، أو بالأحرى هو لا يجاهد فحسب، ولكن نار مخافة الله تذيب كل فكر يقترب. وحتى لو لم نكن نمتلك هذه المخافة، فعلى الأقل، فلنجاهد بأنفسنا لكي نخلق الإحساس بحضور الله وبالدينونة الآتية: "مثلما يذوب الشمع أمام النار هكذا يذوب الفكر النجس أمام مخافة الله"[٤٦١]. مخافة الله هي الراعي الذي يقود الغنم الذي هو الأفكار، وبدون المخافة الراعية سوف ترتبك الأفكار[٤٦٢].

وبالإضافة إلى هذه الأشياء، يكون الجهاد والحياة النسكية طريقة للعلاج. يساعد الصوم والسهر وصلاة العقل على تجنب الأسر من قبل الأفكار المقتربة. "إضعف جسدك بالصوم والسهر وسوف تلفظ أفكار اللذة المميتة"[٤٦٣]، "تحكم في جسدك وصل بإستمرار، وبهذه الطريقة سوف تتحرر سريعاً من الأفكار التي تنبع من إنشغال ذهنك"[٤٦٤]. يعلم القديس مرقس الناسك، أنه لو لم نكن نريد أن نتحرك بالأفكار الشريرة، يجب علينا أن نقبل مذلة النفس وضيق الجسد. ولا يجب أن يكون ذلك في مناسبات معينة فقط ولكن "دائماً وفي كل مكان وفي كل الأمور"[٤٦٥].

من الممكن أن يستعمل المرء هذه الأمور التي ذكرت لكي يمنع المرض بسبب الأفكار، ولكنها مطلوبة أيضاً لو كان مريضاً بالفعل كوسيلة للشفاء من الأفكار. ولكن دعونا ننظر، بطريقة أكثر تحليلاً، إلى كيفية شفاء النفس التي تأثرت بالأفكار.

---

459. Sayings. P. 101, 1
460. St. Maximus. Philok. 2, p. 95, 78
461. St. Thalassios. Philok. 2, p. 308, 26
462. Elias the Presbyter. Philok. 3, p. 65, 136
463. St. Thalassios. Philok. 2, 308, 25
464. Ibid. p. 326, 17
465. Philok. 1, p. 143, 207

يجب على المرء، في المقام الأول، ألا يضطرب بالمرة. يحاول الشيطان أن يخلق [illegible]
في الشخص، ثم إرتباكاً لكي يتداخل بأكثر نشاط في النفس ويأخذها في الأسر. من أجل
ذلك يُعلّم القديس مكسيموس قائلاً: "أصمد بشجاعة ضد الأفكار التي تشتد عليك
خصوصاً أفكار التوتر والفتور"[٤٦٦]. **إن مواجهة الأفكار بشجاعة هي إستشهاد آخر.**
ينصح كل الآباء ألا يتوتر المرء عندما تهاجمه أفكار شيطانية. يقول القديس برصنوفيوس:
"عندما تأتي الأفكار لا ترتبك، ولكن إفهم ما تريدك أن تفعله، وقاومها بدون توتر
مستعيناً بالرب". ليس أمراً رديئاً أن يدخل اللص المنزل، ولكن الرديء هو أن يأخذ ما
يجده في المنزل[٤٦٧].

يسمح بعض الناس للأفكار أن تدخل عقلهم وقلبهم لكي يدخلوا في حوار معها، ولكي يتغلبوا عليها بقوة المسيح. يفعل ذلك القليلون الذين تباركوا بنعمة المسيح بغزارة، والذين يريدون أن يدخلوا في حرب مع الشيطان وجهاً لوجه بهدف تحطيمه. على أي الأحوال، لا يكون ذلك ممكناً لأغلب المسيحيين الذين لا يستطيعون الخوض في هذه الحروب العسرة والخطيرة. لذا يجب على أغلبنا أن يزدري بالأفكار المقتحِمة.

يجب علينا أن نقول أنه كلما كان الإنسان أقل خبرة في الأمور الروحية كلما كان أكثر بطئاً في إدراك دخول الفكر. **وعادة ما يدرك المجاهدون الروحيون المختبرون الفكر قبل أن يدخل إدراكهم** بل وحتى عندما يستعد ليشن الحرب على المجاهد. يدرك البعض الفكر عندما يحدث إتحاد معه، أو عندما يكون على وشك الفعل، أو حتى بعدما تكون الخطية قد إرتكبت بالفعل. "لا يواجه الشخص العديم الخبرة روحياً أفكار الخطية إلا بعد أن تكون قد تقدمت دون أن تكون ملحوظة خلال مراحل التطور الأولى. أي بعدما تكون قد إكتسبت درجة من القوة، حيث تكون الخطورة قد إقتربت من الوقوع في الخطية بالفعل"[٤٦٨]. على أية حال يجب على الشخص أن يحارب الأفكار في الحال أينما يلاقيها. وكلما كان أكثر تمرساً في هذه اللعبة كلما أدرك الفكر في المراحل الأولى لتطوره.

يوجد طريق أفضل من الحوار مع الأفكار، وهو الإزدراء بها وقطعها. يعرض الأرشمندريت صوفرونيوس تعليم القديس سلوانس عن أفضل طريق لمحاربة الأفكار قائلاً: "لقد إعتاد الشيوخ أن يقولوا أن خبرة الآباء القديسين تُظهر عدة طرق لمحاربة الأفكار المقتحمة، ولكن أفضلها هو ألا يتحاور المرء معها.

---

466. Philok. 2, p. 58, 52
467. Barsanuphius and John (in Gk.) p. 223, q. 448
468. Arch. Sophrony. Saint Silouan. P. 135

"سوف يُوَاجَه العقل الذي يتناقش مع مثل تلك الأفكار بتطورها الثابت، وسوف يرتبك *بالمقايضة*، وسوف يتشتت عن *تذكر الله وهذا هو ما تسعى الشياطين وراءه، أي* تحويل العقل بعيداً عن الله وجعله يرتبك، وبالتالي سوف لا يخرج نقياً.

"بينما كان إستفانوس الناسك (الذي كان يتغذى نمر من يديه) يحتضر(السلم — الدرجة السابعة) كان يتعارك مع الأفكار المقتحمة، مثلما كانت عادته، وهكذا وجد نفسه يجاهد ضد الشياطين.

"والقديس مرقس، الذي من تراس، إذ حاول أن يعزي نفسه قبل رحيله من هذه الحياة بأن يعدد جهاداته بقي معلقاً في الجو لمدة ساعة مما يوحي بأنه كان من الممكن أن يحدث ذلك للأبد.

"أما آباء آخرون فكانوا أكثر تمييزاً في جهادهم الروحي"[٤٦٩].

إذاً ليس آمناً وخصوصاً في بداية الحياة الروحية أن ندع الأفكار تدخل القلب. "ولكن يجب علينا أن نقاومها وننبذها على الفور عندما ندركها "[٤٧٠]. إن لفظ الفكر هو طريقة جيدة وخصوصاً للمبتدئين في هذا الجهاد.

يجب علينا أن نرفض ما يقوله الفكر لنا بدون أن ندخل في حوار معه، وبهذه الطريقة نضعف الشهوة أيضاً و"إذ نحارب بهذه الطريقة فإننا نتغلب على الشهوة ذاتها قليلاً قليلاً وبمساعدة الله"[٤٧١]. ويسمى ذلك مقاومة الفكر. لقد قال شخص ما للأنبا بيمن:" لدي أفكار كثيرة يا أنبا بيمن وتجعلني عرضة للخطر". فقاده الشيخ خارجاً وقال له: "إجعل صدرك يتسع دون أن تأخذ شهيقاً". فأجاب الرجل بأنه لا يستطيع، فرد عليه الشيخ قائلاً: "إن كنت لا تستطيع أن تفعل ذلك فبالمثل أنت لا تستطيع أن تمنع الأفكار من أن تحدث ولكنك تستطيع أن تقاومها"[٤٧٢]. لا نستطيع إذاً أن نمنع الأفكار من المجيء إلينا ولكننا نحتاج أن نضادها. وتتكون المضادة من جهة من إزدراء لفظي ومن جهة أخرى من ألا نفعل ما تقوله: "إذا لم نفعل أي شيء حيالها فهي تَفسَد مع الوقت أي أنها تتحلل"[٤٧٣]. وتماماً مثلما يغلق شخص ما على ثعبان أو عقرب في زجاجة فإنه يموت مع الوقت" هكذا الحال مع الأفكار الشريرة، حيث تقترحها الشياطين ولكنها تختفي من

---

469 . Ibid. p. 66

470 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 44

471 . Abba Dorotheos. CS p. 243

472 . Sayings. P. 144, 28

473 . Ibid. p. 142, 20

خلال الصبر"[٤٧٤]. عندما دفع فكر ما الأنبا أغاثون للإدانة قال: "لا تفعل ذلك يا أغاثون وهكذا سكن الفكر"[٤٧٥]. وبالمثل قضى الأنبا دوروثيئوس والأنبا لوكيوس خمسين عاماً يسخران من غواياتهما بأن يقولا لفكر مغادرة مكان نسكهما: "سوف نترك هنا بعد هذا الشتاء" وعندما كان الصيف يأتي كانا يقولان: "سوف نذهب بعيداً عن هنا بعد الصيف" وهكذا أمضيا كل الوقت وسخرا من الشياطين[٤٧٦]. وهكذا يساعدنا تأجيل موعد إشباع الفكر على التخلص منه.

توجد طريقة أخرى للشفاء، وهي الجهاد لئلا ندع الأفكار تدوم. يكمن الجهاد في ألا ندع فكر بسيط يثير الشهوة، وألا نعطي موافقة لفكر شهواني." تمنع كل من هاتين الصورتين للمقاومة الأفكار ذاتها من البقاء"[٤٧٧] لأن الفكر الذي يبقى سوف يلد أفكاراً أخرى، ويخلق علة مشاكل في العالم الداخلي وسوف يأخذ عقلنا للأسر.

وبالمثل لا يجب علينا أن ندع الفكر البسيط يصير فكراً مركباً أو فكراً شهوانياً، ولكن يجب علينا أيضاً أن نحول الفكر المركب لفكر بسيط. يتكون الفكر المركب من شهوة وصورة ذهنية. وبالتالي يتعين علينا أن نفصل الشهوة من الصورة الذهنية بضبط النفس وبالحب الروحاني، وعندئذ سوف يصبح الفكر بسيطاً[٤٧٨].

يجب على العقل أن يقطع اللذة المرتقبة، طالما أن الفكر المقتحم سيحاول أن يشعل لذة حسية لتأسر العقل[٤٧٩]. يعلم القديس مكسيموس أنه يجب علينا أن نَقتل ليس فقط شهوات الجسد، ولكن أيضاً أفكار النفس الشهوانية[٤٨٠].

وبخلاف قطع الأفكار والإزدراء بها، فإنه من الضروري أن نطردها بعيداً ويتأتى ذلك بدرجة كبيرة بواسطة الصلاة. يعلم القديس غريغوريوس السينائي أن المبتدئ لا يستطيع أن يطرد الفكر بعيداً ما لم يفعل الله ذلك. بينما يستطيع القوي أن يشن حرباً مع الأفكار ويطردها بعيداً، ولكننا نكرر أنه حتى هذا يفعل ذلك بمعونة الله. "عندما تأتي الأفكار إصرخ لربنا يسوع مرات عديدة وبصبر، وهي سوف تتراجع لأنها لا تستطيع أن تحتمل حرارة القلب الناتجة عن الصلاة، وهي تهرب كما لو كانت إحترقت بالنار". عندما نتلفظ بإسم

---

[474]. Ibid. p. 142, 21
[475]. Ibid. p. 20, 18
[476]. Ibid. p. 68, 2
[477]. St. Maximus. Philok. 2 p. 97,87
[478]. Ibid. p. 89, 43
[479]. Arch. Sophrony. Saint Silouan. P. 134
[480]. Philok. 2, p. 163, 97

يسوع في الصلاة فإنه يدفع الشيطان، ويخلق حضور النعمة الإلهية حرارة القلب. وهكذا تُحرق الأفكار الشريرة وتُدفع خارج العقل. لو كان أحد تعوزه طاقة الصلاة، فليحاكي موسى رافعاً يديه وعينيه للسماء وعندئذ سوف يدفع الله بنفسه الأفكار بعيداً[٤٨١]. ومثلما يتشتت الدخان في الجو هكذا تتشتت الأفكار الشريرة بإستدعاء إسم المسيح[٤٨٢].

لا يمكن أن نتخلص من الأفكار الشيطانية بواسطة التفكير البشري. بل يجب علينا أن نتخلى عن كل فكر حتى لو كنا حكماء، وأن نلقي كل رجائنا على الله قائلين: "دبر يا رب الأمر كما تريد وكما تعلم... "[٤٨٣]. هذا النص مهم لأن العديد من الأشخاص يحاولون في وقت التجربة أن يواجهوها بالذكاء البشري، **ومهما كان الذكاء مقتدراً فإنه لا يستطيع أن يكون أقوى من فكر الشيطان. لأننا في جهادنا ضد الفكر نحارب ضد الشيطان وليس ضد فكر بسيط.**

تُطهر الصلاة، مع اليقظة، الذهن من كل صور الأفكار الشريرة، وهكذا يصير ذهننا واعياً لكل من رذائل أعدائنا والفائدة العظمى التي للصلاة واليقظة[٤٨٤]. يصبح المجاهد الروحي من خلال الصلاة واعياً بوضوح بكل الفكر، ويعمل له دراسة متزنة، ويكون بهذه الطريقة واعياً بنتائجه دون أن يقوم بتنفيذه. من أجل ذلك، فإنه عادة ما يعرف النساك (الذين إختبروا هذا المجال الروحي والذين لا يسمحون للفكر بأن يدخلهم) حياة الخطية والخاطئ جيداً دون أن يكونوا قد إختبروها بصفة شخصية.

لو كانت بذور العدو هي النار، فإن الرجاء بالله من خلال الصلاة هو الماء الذي يطفئ النار[٤٨٥]. يقول الأنبا يوحنا القصير: "إنني أجلس في قلايتي وأكون واعياً بالأفكار الشريرة الآتية ضدي، وعندما لا أمتلك أية قوة ضدها فإنني أحتمي في الله بالصلاة، وبذلك أُنقذ من يد العدو"[٤٨٦].

توجد طريقة فعالة للتخلص من الأفكار، وهي الإعتراف بها لأب روحي مختبر. يقول القديس يوحنا كاسيان: "تماماً مثلما يبذل الثعبان الذي يُجلب خارج جحره المظلم إلى النور كل جهد لكي يهرب ويخفي ذاته، هكذا أيضاً الأفكار الخبيثة التي يجلبها المرء إلى الخارج

481 . Writings p. 75, 4
482 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 179, 98
483 . Abba Dorotheos. SC p. 514, 193
484 . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 189, 154
485 . Abba Poemen. Sayings. P. 158, 146
486 . Ibid. p. 75, 12

بالإعتراف الصريح فهي تطلب أن تغادره"[487]. لا يوجد شيء يؤذي الراهب ويجلب سعادة كبرى للشياطين مثل إخفائه لأفكاره عن أبيه الروحي[488]، وتنحرف كل حياته الروحية بهذه الطريقة ويصبح لعبة في أيدي الشيطان الذي يستطيع أن يفعل معه ما يحلو له. من أجل ذلك يُعلّم القديس يوحنا كاسيان أنه لا يوجد شيء أكيد يقود للخلاص مثل الإعتراف بأفكارنا الخاصة لأكثر الآباء تمييزاً، ومثل أن نقاد بواسطتهم بدلاً من أن نقاد بأفكارنا وحكمنا الخاص[489]. "إن الذي يخفي أفكاره يبقى بدون شفاء"[490]. ولهذا يجب علينا أن نعترف بالفكر الثابت، وأن نحضره لأبينا الروحي المسئول عن خلاصنا: "إكشف لأبيك أي فكر يمكث فيك ويُدخلك في حرب، وهو بمعونة الله سوف يشفيك"[491]. وعندما نتكلم عن فكر ثابت فإننا نعني الفكر الذي لا يمضي بعيداً، على الرغم من إعتراضنا وإزدرائنا وصلاتنا، ولكنه يستمر في شن الحرب ضدنا، مثل الفكر الشهواني المتحد بالشهوة.

يستشهد القديس يوحنا الدرجي بحالة الراهب الذي قابله في Coenobium وكان معلقاً كتاباً صغيراً في منطقته كان يكتب فيه أفكاره كل يوم ويريها كلها لراعيه[492].

قد يكون الراعي المفرز جاهلاً، بحسب العالم ولا يعرف حكمة العالم، ولكنه يعرف حكمة الله. كان الأنبا أرسانيوس معتاداً على الذهاب لأب مفرز، كان بسيطاً وجاهلاً وأمياً، ليسأله عن أفكاره. ولقد سأله أخ آخر قائلاً: "كيف يمكن لك يا أنبا أرسانيوس بكل ثقافتك اليونانية والرومانية العظيمة أن تسأل هذا القروي عن أفكارك؟ "فأجاب: "لقد تعلمت بالفعل الرومانية واليونانية ولكنني لا أعرف حتى أبجدية هذا القروي"[493].

عندما يتعلم المرء أن يفتح ذاته على الله، من خلال أب روحي، وأن يكشف كل جراحاته الناتجة عن الأفكار، وأن يكشف الأفكار ذاتها، وفي نفس الوقت ينصت لنصيحته، فإنه يتخلص من كل فكر ويصير في سلام داخلي ويعلم ماذا يعني سلام المسيح.

وإذ نعترف لأبينا الروحي، فإننا نطلب أيضاً صلاته وبركته. يرجع القديس يوحنا ذهبي الفم لكلمات السيد المسيح لرسله، عندما كانوا داخلين بيتاً ليعطوه السلام، ويقول أنه غالباً وبدون أن يزعجنا أحد فإننا نكون في حرب أفكار ونكون متوترين وتنهض فينا الشهوات الماكرة. تجلب

---

487 . Philok. 1, p. 103
488 . Ibid.
489 . Ibid. p. 106
490 . Barsanuphius and John. Q. 317. ET p. 87
491 . Ibid. Q 142. ET p. 58
492 . Ladder. Step 4. CWS p. 105
493 . Sayings. P. 8, 6

هذه الحرب كلمات القديسين التي هي بركتهم، وهذا يجلب هدوءاً أكثر في داخلنا. "وعند هذه الكلمة تهرب بعيداً عن أنفسنا كل شهوة شيطانية وكل فكر غير لائق"[494].

ومثلما أكدنا بالمثل في موضع آخر، فإننا نستطيع أن نتخلص من الأفكار بأن نتعهد الفضائل المختلفة. يخلصنا ضبط النفس والمحبة من الأفكار الشهوانية"[495]. ونتخلص من الأفكار الشريرة بسرعة بضبط الغضب والشهوة"[496]. ويساهم أيضاً السهر بمقدار كبير: "يكون الراهب السهران صياداً للأفكار، ويستطيع بسهولة، في هدوء الليل، أن يلاحظها ويمسك بها"[497].

كما تقطع قراءة ناموس الله وسير القديسين الأفكار. من أجل ذلك تكون لكلمات الرسل والآباء وسيرتهم أيضاً قوة كبيرة وتعطي سلاماً للنفس.

توجد طريقة أخرى، وهي خلق أفكار حسنة. ولقد لاحظنا بالفعل من قبل أنه يجب علينا أن نقطع ونطرح عنا كل فكر حتى ولو كان فكراً حسناً، وخصوصاً في وقت الصلاة. ولكن في بعض الأحيان الأخرى، وخصوصاً عندما نكون في بداية الحياة الروحية، نستطيع أن نتعهد الأفكار الحسنة. ولكننا نحتاج أيضاً أن نكون يقظين لئلا نتعهد الخيال من خلالها، لأننا بهذه الطريقة قد نكوّن نوعاً شيطانياً من الروحانية. "تعهد الأفكار الحسنة بالرعاية، بحيث تجدها ثانية في الدهر الآتي"[498] فتتلقى كل شيء بفكر حسن. حتى ولو كان كل شيء قبيحاً فلنتلقاه برباطة جأش، وبعد ذلك سوف يجعل الله إنحرافات الأشياء مستقيمة. "تقبل برباطة جأش إختلاط الخير بالشر، وبعد ذلك سوف يسوي الله كل تفاوت"[499]. بل دعونا نحول الأفكار الشريرة إلى أفكار حسنة.

ومن أحد أفضل الطرق للشفاء من الأفكار والتخلص منها، هو أن نبقي على عقلنا في الجحيم يحترق بلهيب جهنم. يعلم القديس سلوانس قائلاً: "إذ كان القديس مكاريوس الكبير يطير عبر الفراغ لم يكن يكف عن قمع نفسه، وعندما كانت الشياطين التي سبقته تصرخ نحوه من بُعد أنه قد هرب منها أجابها قائلاً أنه لم يفلت منها بعد. لقد أجاب بهذه الطريقة، لأنه كان معتاداً أن يبقي ذهنه في الجحيم، وبالتالي كان يتملص من الشياطين حقاً.

---

494 . Hom. On ITim. 5, 9, para. 14. PG 51, 334. NPNF vol. 13
495 . St. Thalassios. Philok. 2, 308, 14
496 . Ibid. 17
497 . Ladder. Step 20. CWS p. 196
498 . Abba Dorotheos. CS p. 186
499 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 159

"كان الأب بيمن الكبير قد تتلمذ بخبرة طويلة عن الحرب ضد الشياطين، وكان يعلم أن أكثر الأعداء خطورة وقوة هو الكبرياء، من أجل ذلك حارب كل حياته لكي يكتسب الإتضاع، وهكذا قال لتلاميذه:" ثقوا يا أولادي أنه حيثما يوجد الشيطان أوجد أنا أيضاً". ولكنه في أعماق قلبه إذ كان يعرف مدى صلاح ورحمة الرب كان يثق أنه سيخلصه. إن قمع النفس بهذه الطريقة هو أفضل الطرق للحفاظ على الذهن نقياً من كل فكر شهواني"[500].

ولكي يبقي المرء على ذهنه في الجحيم ولكي تحترق كل أفكاره بنيران الجحيم، يحتاج لحالة متشبعة بالتوبة، وخصوصاً التوبة العظيمة المتقدة، التي هي عطية من نعمة المسيح. ولو كانت هذه غير موجودة، فعلى الأقل، فليتذكر الشخص بإستمرار فكر الموت المرتقب ودينونته في الجحيم. يكون هذا الفكر كافياً لينقي العقل ويخلص الشخص من طغيان الأفكار.

عندما يتحرر الشخص، بهذه الطريقة النسكية بأكملها، من طغيان الأفكار ويكون كل من القلب والعقل نقيين، فإنه يمتلئ عندئذ بطاقة الروح القدس ويختبر شفاء نفسه وتتحرر النفس من كل جراحاتها، وتصبح هيكلاً للثالوث القدوس. ويصبح الشخص كاهناً حقيقياً لنعمة الله، ويمتلك عربوناً لأمور ملكوت السموات الحسنة.

هذا هو الإنسان الطبيعي الحقيقي، الإنسان المتحد بالله بواسطة النعمة.

---

500. Archim. Sophrony. Saint Silouan, p. 66

الباب الرابع

علم الأمراض الأرثوذكسي

إذ كان القديس يوحنا الإنجيلي يستعد ليتكلم عن معجزة شفاء المفلوج، أخذ يصف لنا بركة بيت حسدا والموقف الذي كان سائداً أثناء زيارة الرب لها. بيت حسدا لها خمسة أروقة: "في هذا كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء" (يو٥ : ٣).

والكنيسة هي أيضاً بركة فهي بيت حسدا الروحية. إننا جميعاً أعضاؤها المنهزمون بالموت والفساد والفناء بكل نتائجه، وننتظر عند هذه البركة راجين شفائنا الروحي.

يفسر القديس يوحنا ذهبي الفم المعجزة التي صنعها الرب في بيت حسدا. إنه يتساءل: "أي نوع من الشفاء هذا؟ أي سر يستعلن لنا هنا؟". ثم يجيب أن البركة تصف وتضاهي ما سيحدث في المستقبل، وهذا في الواقع هو المعمودية: "لقد كان على وشك أن يعطي المعمودية التي لها قوة كبيرة وعطية عظيمة جداً. المعمودية التي تغسل من كل خطية وتجلب الإنسان للحياة عندما يكون قد مات"[1].

وحيث أن المعمودية هي أول الأسرار التي ندخل بواسطتها الكنيسة، فإننا نستطيع أن نمد الرمز ونقول أن الكنيسة هي بيت حسدا الروحية أي المصحة والمستشفى الروحية، فإذ يتذوق كل المسيحيين محبة الله وصلاحه نحو البشر فإنهم يشعرون في نفس الوقت بالفقر الروحي. إننا نرى قوة الأهواء فينا، وناموس الخطية في أعضائنا، لأن نعمة الله تلقي الضوء على حالتنا الداخلية. هذا هو السبب الذي يجعلنا نشعر بالمرض. هذا الشعور هو بداية الشفاء أو لكي نعبر عن ذلك بصورة أفضل فلنقل أنه بداية رؤية الله طالما أن التوبة والحزن الداخلي يكونا مستحيلين في إنسان جسداني. لا يختبر هذه الحقيقة الداخلية إلا الذي يشارك في نعمة الله.

توجد في المستشفيات عيادات خاصة للأمراض. والكنيسة التي هي مستشفى ومصحة روحية لها عيادة الأمراض الخاصة بها. إننا لا نحاول أن نخلق إرتباكاً من جهة هذه المصطلحات، ولكننا نعتقد بقوة أن دراسة الأهواء هي علم الأمراض. من أجل ذلك سوف نلقي هنا نظرة مطولة على موضوع الأهواء. سوف نعرف "الأهواء" وسوف نذهب للتمييز بين الأهواء، ثم نفحص بطريقة تحليلية بقدر المستطاع شفاء الأهواء.

هذا التفسير ضروري لأنه يشكل روح الأرثوذكسية. إننا مقتنعون أن ما يقوله المرء عن كونه أرثوذكسياً يجب أن يشتمل على عدة عناصر رئيسية. يجب على المرء أولاً أن يرجع إلى سقوط الإنسان من الحياة الإلهية ومأساة حالة السقوط. ثم بعد ذلك يجب عليه أن يتكلم عن الولادة الثانية من خلال المعمودية المقدسة وإستمرارية الولادة الثانية التي

---

[1] . PG 59. 203. Homily 36 on John. FC 33, p. 352

تحدث في الكنيسة. لا يكون التعليم عن الولادة الثانية أرثوذكسياً عندما ينادي بحدث وقتي يحدث خلال إيمان بالمسيح خارجي، لأن الولادة الثانية تستمر خلال حياتنا بكليتها ولا توجد حدود للكمال الذي لا يعرف القيود. لدينا حالة بطرس الرسول الذي منح رؤية النور الغير مخلوق على جبل طابور. لقد تحولت عيناه وهكذا رأتا مجد الرب. ومع ذلك فقد أنكر المسيح بعد بضعة أيام. وبلا شك قادته لحظة التجلي الإلهي العظيمة للتوبة والبكاء. لقد ظهرت سقطته كأمر عظيم بالمقارنة بعظم الرؤيا. إننا على أي الأحوال، نلاحظ هنا أن قوة ناموس الخطية كانت قوية لدرجة أنها أدت إلى السقوط حتى بعد التأكد من ألوهية المسيح. وما يخفف من الأمر هو أنه عندما رأى بطرس مجد الرب كان ذلك قبل المعمودية التي حدثت في يوم الخمسين. لم تكن طبيعة الرسول قد تقوت بعد بطاقة الروح القدس.

إننا نرى نفس الشيء بالمثل في بولس الرسول، الذي على الرغم من أنه شعر بالإتحاد الوثيق مع المسيح حتى أنه إستطاع أن يقول: "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غل٢ : ٢٠) إلا أنه قال معبراً عن كل ألم البشرية: "ولكنني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت" (رو٧: ٢٣-٢٤).

سنحاول فيما يلي أن نلقي نظرة على ناموس الخطية الذي هو "الناموس الآخر". إننا نعتقد أن هذا الباب، الذي أطلقنا عليه علم الأمراض، سوف يكون أحد الأبواب الرئيسية في هذا الكتاب. سوف نحاول أن نكون تحليليين جداً لبعض النقاط ذاكرين كل الأهواء مثلما قدمها المسيح والرسل والآباء، لأننا نريد أن نشير للواقع البغيض الذي أصابنا والذي غالباً ما نكون مع الأسف غير واعين له.

١- ما هي الأهواء

إن كلمة هوى بالإنجليزية Passion مشتقة من فعل "Pascho " أي" يتألم" ويشير إلى المرض الداخلي. وبحسب قول فيلوثيئوس السينائي فإن: "تعريف الأهواء في المعنى الحرفي هي تلك التي تكمن بصورة شهوانية في النفس لمدة طويلة"[٢]. سوف نرى فيما يلي كيف تصير الخطية هوى، إننا نرى هنا أن نؤكد بالأخص على حقيقة أنه عندما تتكرر

---

[٢]. Philok. 3, p. 29, 35

خطية بإستمرار وتكمن في النفس لوقت طويل فإنها تسمى هوى. يذهب الآباء إلى أبعد من ذلك إذ يفسرون الفرق بين الهوى والخطية. **فالهوى هو "الحركة الحادثة في النفس" على حين أن فعل الخطية "هو ما هو ظاهر في الجسد"**[٣].

لقد شرح الرب تعليمه عن الأهواء في عدة نقاط. وهذا التعليم مسجل في البشائر. إننا نشير فقط لبضع نصوص هنا لأننا سوف نعود لذلك الموضوع فيما بعد. لقد أجاب الرب على سؤال الفريسيين: "لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيد غير مغسولة" موجهاً الإنتباه نحو الإنسان الداخلي: "لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان" (مر٢١ : ٧-٢٣).

لقد قال في تفسير مثل الزارع، وبالأخص عند الحديث عن البذور التي وقعت "بين الأشواك"، أن الأهواء هي الأشياء التي تخنق البذرة ولا تسمح لها بالإثمار: "والذي سقط بين الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولذاتها ولا ينضجون ثمراً" (لو ٨ : ١٤).

يعلم بولس الرسول أيضاً أن الأهواء توجد في قلب الإنسان. وإذ يتكلم عن الحالة قبل المعمودية التي هي الحياة الجسدية يكتب قائلاً: "لأنه لما كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نثمر للموت" (رو٧ : ٥). وإذ يصف حياة عابدي الأوثان يكتب قائلاً: "لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان" (رو١ : ٢٦).

وهكذا تكمن الأهواء في نفوسنا وتخلق مشاكل مروعة في كل كياننا، كما سنرى في عدة مواضع فيما يلي. وبحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن الشخص الذي يحب فعل الشر يكره نفسه الخاصة، ويمزق عنه ويبطل صورة الله التي هي نفسه "ويختبر معاناة مشابهة لمعاناة المجنون الذي يقطع لحمه بنفسه إلى قطع صغيرة بلا شفقة وبدون أن يشعر بذلك". إنه يفعل مثله إذ "يتسبب عن جهل في أكثر أنواع الأذى بؤساً ويمزق جماله الفطري الخاص"[٤]. فالهوى إذاً هو إظلام، وإبطال، وتلطيخ، الصورة أي جمال الله.

يجب علينا عندما نتحدث عن الأهواء أن نحدد طبيعتها بأكثر دقة، هل هي يا ترى قوى تدخل نفسنا يجب علينا أن نستأصلها، أم أنها قوى طبيعية للنفس أُفسِدَت بالخطية وبإنعزالنا

---

[3] . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 37
[4]. 150 Chapters, 40

عن الله؟ يعتقد كل التقليد الكتابي الآبائي في الرأي الثاني. من أجل ذلك يجب علينا أن ندرس فيما يلي النفس وأجزاءها بحيث يمكننا حينئذ أن نرى كيف تفسد هذه القوى.

يعلم القديس غريغوريوس بالاماس أنه مثلما أن الله هو عقل وكلمة وروح، هكذا أيضاً النفس تقتني عقل وكلمة وروح. وتكون روح النفس "حركة معينة للعقل، والتي على أية حال، تشمل إمتداداً زمنياً في تلاحم مع كلمتنا يتطلب نفس الفوارق الزمنية ويتقدم من عدم الكمال إلى الكمال"[5]. وبحسب هذا القديس فإن الطبيعة الثلاثية للنفس هي عقل وكلمة وروح. وطبيعة المعرفة هي كونها عقلية مُدركة حساسة، وأما ثلاثية العقل الذي يتجه نحو ذاته ويرتفع نحو الله فهي العقل والمعرفة والحب[6].

وبخلاف هذا التصنيف، يستعمل القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة تسالونيكي التصنيف السائد في وقت الفلاسفة اليونانيين القدماء، القائل أن نفس الإنسان واحدة على الرغم من إمتلاكها عدة قوى[7]. وتنقسم لثلاثة أجزاء: الإدراك والقوة الراغبة والقوة الإنفعالية[8] وتشكل القوة الراغبة والقوة الإنفعالية ما يسمى الجزء الحسى للنفس، وأما الكلمة فهي الإدراك[9]. وهكذا إذ نمضي في تقديم موضوع الأهواء يجب علينا أن نفهم الأجزاء الراغبة والإنفعالية للنفس عندما نتكلم عن الجزء الحسى من النفس الذي هو مدنس ويجب أن يشفى. إننا قد نضيف إلى تعليم هذين الأبين الكبيرين في الكنيسة تعليم القديس دوروثيئوس، الذي إذ يستعمل أحد نصوص القديس غريغوريوس اللاهوتي يكتب قائلاً أن النفس ثلاثية التركيب: "تقتني قوى راغبة وإنفعالية وإدراكية"[10].

يجب على هذه القوى الثلاثة أن تتحول نحو الله وهذا هو وضعها الطبيعي. وبحسب القديس دوروثيئوس الذي يتفق مع إيفاجريوس فإن "النفس المدركة تعمل بصورة طبيعية عندما يشتاق جزءها الراغب للفضيلة ويجاهد جزءها الإنفعالي ليحصل عليها ويكرس الإدراك ذاته لتأمل الكائنات"[11]. ويكتب القديس ثالاسيوس أن الوظيفة الحقيقية للجانب الإدراكي للنفس هو التكريس لمعرفة الله على حين أن وظيفة الجانب الحسى (الراغب

---

[5]. Ibid. 36
[6]. cf. ibid . p. 144ff and Amphilochiou Rantovits: The Mystery of the Holy Trinity according to St. Gregory Palamas, p. 55. In Gk.
[7]. EF 410, 3
[8]. St. Gregory Palamas, To Xeni, Gk. Philok. 4, p. 100
[9]. St. Maximus. Philok. 2, p. 89, 35
[10]. Abba Dorotheos. CS p. 229. SC p. 478, 176
[11]. Ibid. CS p. 230. SC 480, 179

والإنفعالي) هو الإهتمام بضبط النفس والحب[12]. وفيما يخص هذا الموضوع يتفق نيقولاس كاباسيلاس مع الآباء السابقين ويقول أن الطبيعة البشرية كانت قد خلقت لأجل الإنسان الجديد. لقد أعطينا "الفطنة بحيث نعرف الله، والرغبة بحيث نسرع نحوه، ولدينا ذاكرة بحيث نحمله داخلنا" طالما أن المسيح هو النموذج الأصلي للإنسان[13].

وبحسب ما قيل فإن الإنسان لم يُصنع بالأهواء، إذ أنها تعمل في الوقت الحالي في الإنسان الجسداني الذي لا يمتلك عمل الروح القدس. **ليس للأهواء لا جوهر ولا أقنوم.** وتماماً مثلما لا يمتلك الظلام وجوداً جوهرياً ولكنه غياب النور، كذلك الحال مع الأهواء: "لقد أعدت النفس الطريق للأهواء وأعطتها مكاناً ثابتاً في ذاتها بأن إنحرفت بعيداً عن الفضيلة من خلال محبة اللذة"[14]. إننا نستطيع أن نوضح ذلك، بطريقة أفضل، بأن نقول أن **الأهواء هي إنحراف لقوى النفس فالله لم يخلق الإنسان بأهواء الهوان.** وكما يقول القديس يوحنا الدرجي: "إن الشر أو الهوى ليس شيئاً مزروعاً بالطبيعة في الأشياء، وليس الله هو خالق الأهواء. وعلى الجانب الآخر فإن العديد من الفضائل الطبيعية أتت إلينا منه"[15]. وجود الفضائل هو الحالة الطبيعية للإنسان على حين أن الأهواء هي الحالة الغير طبيعية. لقد شوهنا وأفسدنا طاقات النفس وحولناها من الحالة الطبيعية للحالة الغير طبيعية.

وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإن الله لم يتسبب في الشر ولم يخلقه "لقد أخذنا خصائصنا الطبيعية وحولناها إلى أهواء"[16]. يعطي نفس القديس عدة أمثلة ليوضح هذا: "بذرة الإنجاب" طبيعية فينا ولكننا نحولها إلى زنا. والغضب الذي أعطاه الله لنا ضد الحية ولكي نشن حرباً ضد الشيطان هو طبيعي ولكننا إستعملناه ضد القريب. إن لدينا حافز طبيعي لكي نتفوق في الفضيلة ولكننا بدلاً من ذلك نتنافس في الشر. تثير الطبيعة فينا الرغبة في المجد، ولكنه مجد سماوي من أجل الفرح بالبركات السماوية. ومن الطبيعي بالنسبة لنا أن نتكبر ضد الشياطين. الفرح هو ملك لنا بالطبيعة ولكنه يجب أن يكون فرحاً لحساب الرب ولصالح فعل الخير للقريب. لقد أعطتنا الطبيعة إستياءً ولكن يجب أن يكون هذا ضد أعداء نفوسنا. لدينا رغبة طبيعية للطعام ولكن ليس للإسراف[17].

---

12. St. Thalassios. Philok. 2, p. 316, 52
13. Nicholas Cabasilas. The Life in Christ. Bk. 6, p. 190
14. Abba Dordtheos. CS p. 188
15. step 26. CWS p. 238
16. Ibid. p. 251
17. Ibid. p. 251

من أجل ذلك، يؤكد الآباء بإستمرار على حقيقة أن الأهواء، مثلما نعرفها في الحالة الساقطة، هي حياة غير طبيعية ودافع غير طبيعي: "إن الهوى الملوم هو دافع للنفس مضاد للطبيعة"[18]. إذ يشرح القديس مكسيموس طبيعة هذا الدافع المضاد للطبيعة الذي للنفس فإنه يسميه "حب غاشم أو كراهية غاشمة نحو شخص ما أو شيء حسي ما"[19]. ويكتب في موضع آخر أن الرذيلة هي إستعمال خاطئ لصورتنا الذهنية عن الأشياء، والذي يؤدي إلى سوء إستخدام الأشياء ذاتها. إنه إذ يأخذ مثال الزواج يقول أن الإستعمال الصحيح للقاء الجنسي هو إنجاب الأطفال أما الشخص الذي يطلب فيه اللذة الحسية فقط فهو "يستعمله بصورة خاطئة لأنه يحسب الردئ على أنه جيد وعندما يلتقي مثل هذا الرجل جنسياً مع إمرأة فإنه يسيء إستعمالها" وينطبق نفس الشيء على الأمور الأخرى[20].

يسود الإفتخار على الجزء الإدراكي لنفس الإنسان الساقط، وتسود الإنحرافات الجسدية على الجزء الراغب، وأما الجزء الإنفعالي فتسوده أهواء الكراهية والغضب والضغينة.

إهتم القديس مكسيموس بالحياة الطبيعية والغير طبيعية للنفس، وقام بتحليلها بإستفاضة. وكتب أن القوى الطبيعية للنفس هي الإدراك والرغبة والقوة الإنفعالية. والإستعمال الطبيعي للإدراك هو "حركة نحو الله في أبسط سعي" وللرغبة هو "إتجاه نحو الله وحده بإشتياق" وللقوة الإنفعالية هو "جهاد للحصول على الله وحده". وهذا يعني أنه عندما يعيش شخص ما بصورة طبيعية فإنه يريد أن يعرف الله تماماً، ويرغب في الله فقط، ويجاهد لكي يحصل على الله، أي لكي يحصل على الشركة مع الله ويكون الحب هو نتيجة هذا الدافع الطبيعي. يكتسب الإنسان المتحد بالله حالة الحب المباركة، طالما أن الله محبة. يقول الكتاب المقدس: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك" (مر١٢ : ٣٠). عندما يستخدم شخص ما قوى نفسه الثلاثة هذه بطريقة غير طبيعية، تكون نتيجة الإدراك جهلاً روحياً، ونتيجة الرغبة محبة الذات، ونتيجة القوة الإنفعالية طغياناً، وهكذا يصبح الشخص مستعبداً تماماً للشيطان ويُفسد جمال النفس[21].

ويحلل القديس مكسيموس في موضع آخر طبيعة سوء الإستعمال. سوء إستعمال القوة الإدراكية هو جهل وغباء، وسوء إستعمال القوة الراغبة والإنفعالية هو الكراهية والإباحية.

---

18. St. Maximus. Philok. 2 p. 56, 35
19. Ibid. p. 67, 16
20. Ibid. p. 67, 17
21. Monk Artemiou Rantosavlievits: the Mystery of Salvation according to St. Maximus the Confessor. p. 130, note. (In Gk.)

ويؤدي الإستعمال السليم لهذه القوى إلى معرفة روحية وتمييز أخلاقي وحب وضبط للنفس، وبالتالي لا يوجد شيء مخلوق من قبل الله شرير[٢٢]. وتعني حقيقة أنه لا يوجد شيء طبيعي شرير، أن **الشر يكون موجوداً عندما نقوم نحن بتشويه القوى**. يستعمل أيضاً القديس مكسيموس عدة أمثلة. ليست الأطعمة هي الشريرة ولكن النهم، ليس إنجاب الأطفال ولكن النجاسة، ليست الأشياء المادية ولكن البخل، ليست الكرامة ولكن الكبرياء[٢٣].

إن سوء إستعمال قوى النفس هو الخطية والمرض. ويرى القديس دوروثيئوس أن الرذيلة هي "مرض للنفس يحرمها من صحتها الطبيعية التي هي الفضيلة"[٢٤].

وهكذا نستطيع أن نتكلم عن مرض الإنسان الذي يجب أن يشفى منه. إذ أن نجاسة النفس هي "ألا تعمل بحسب الطبيعة"، وتتولد من هذه الحالة أفكار الأهواء في العقل. تظهر الحالة الطبيعية لنفس الإنسان التي هي الصحة بلا منازع عندما تبقى أجزاؤها الحسية (أي قوتها الراغبة والإنفعالية) بلا هوى في مواجهة المثيرات[٢٥]. وحيث أن نفس الإنسان متناسقة ولها عدة قوى، فإنه عندما تمرض إحدى قواها تمرض باقي القوى أيضاً[٢٦].

يُعلِّم القديس غريغوريوس بالاماس، أنه تماماً مثلما يؤدي سوء إستعمال معرفة الأمور المخلوقة إلى تولد "الحكمة التي تصبح حماقة"، هكذا يؤدي أيضاً سوء إستعمال قوى النفس إلى تولد "الأهواء البغيضة"[٢٧].

الأهواء هي إذاً دافع غير طبيعي في قوى النفس، وتحول للأجزاء الحسية والمُدركة للنفس بعيداً عن الله، ونحو الأشياء المخلوقة. ويظهر ذلك في حقيقة أنه عندما يُشفى شخص ما داخلياً بواسطة عمل نعمة الله مع جهاده الخاص، فإن قوى النفس الحسية لا تقمع ولا تُصَد ولكنها تتحول نحو الله. إنها تندفع نحوه وتحصل على المعرفة والشركة معه. أشار القديس غريغوريوس بالاماس لبرلعام الذي أصر على أن الألم والحزن لا ينتميان للصلاة ولكن ينبغي على المرء أن يميت القوى الحسية أثناء الصلاة لكونها شريرة. وعلّم القديس غريغوريوس قائلاً أنه توجد "أهواء مباركة، وأنشطة مشتركة للجسد والنفس، والتي بخلاف تسمير الروح في الجسد، فإنها تخدم في إعطاء مجد للجسد شبيه

---

[22]. Philok. 2. p. 83, 3
[23]. Philok. 2. p. 83, 4
[24]. SC p. 342, 106. cf. CS p. 166
[25]. Philok. 2, p. 89, 35
[26]. Palamas. EF p. 410
[27]. Triads. 2, 2, 19. CWS p. 54

بمجد الروح". لا تنتقل هذه الأنشطة من الجسد للعقل ولكن من العقل للجسد[28]*. من أجل ذلك فإننا لا نحاول أن نقتل الأهواء عندما نحاول أن نحصل على الشفاء، ولكننا نعيد* توجيهها كما سنشرح فيما بعد.

تكون الدموع والحزن والتوبة والألم، التي هي وسائل فعالة لشفاء النفس، هي بعينها الأشياء التي تطهر أجزاء النفس الحسية والمدركة.

ونريد في ختام هذا الجزء أن نؤكد، بصورة رئيسية، على أن أهواء الجسد هي **طاقات للنفس قد تشوهت**. وعندما ينقص النفس الحب وضبط النفس تتشوه أهواء أجزاء النفس الإنفعالية والراغبة. وتثار هذه الأهواء من خلال الحواس[29]. وتكون أهواء الحياة الجسدية (بمعنى غياب الروح القدس) حركة غير طبيعية للنفس، وبالتالي تكون هي موتها ومرضها.

٢- أنواع الأهواء وتطورها

والآن بعدما رأينا طبيعة الأهواء، فنحن مستعدون لنتأمل كيفية تصنيفها وكيفية تطورها. وسنشرع في نفس الوقت في سردها، لأننا نعتقد أن هذا سيساعد المسيحيين الذين يجاهدون الجهاد الحسن. ونحن نحتاج أن نقوم بتشخيص الأهواء لكي نشفى منها.

إن التعليم عن الأهواء لا يوجد في كتابات الآباء فقط ولكن في الكتاب المقدس أيضاً. فيتكلم بولس الرسول عن الجسد، وهو أمر معروف أن الإنسان الجسداني بالنسبة له هو ذاك المحروم من طاقات الروح القدس: "لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر" (غل٥ : ١٧). ثم بعد ذلك يعرف أعمال الجسد التي هي الأهواء الجسدية:" وأعمال الجسد ظاهرة التي هي زنى عهارة نجاسة دعارة عبادة أوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط تحزب شقاق بدعة حسد قتل سكر بطر وأمثال هذه التي أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضاً إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله" (غل٥: ١٩-٢١).

وفي رسالته إلى أهل رومية، يسرد بولس الرسول أعمال الخطية والأهواء التي تطعن كل كياننا. ويكتب عن أولئك الذين هجروا الله وعبدوا الأوثان قائلاً: "وكما لم

---

٢٨ 28. Triads. 2, 2, 12. CWS p. 51

٢٩ 29. Maximus. Philok. 2, p. 59f, 65

يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لايليق مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً، نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شروراً غير طائعين للوالدين بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة" (رو١: ٢٨-٣١).

إنه يصف لتلميذه تيموثاوس حالة الناس في الأيام الأخيرة قائلاً: "لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم محبين للمال متعظمين مستكبرين مجدفين غير طائعين لوالديهم غير شاكرين دنسين بلا حنو بلا رضى ثالبين عديمي النزاهة شرسين غير محبين للصلاح خائنين مقتحمين متصلفين محبين للذات دون محبة الله لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها" (٢تي٣: ١-٥).

تُظهِر النصوص الثلاثة التي إستشهدنا بها حالة الإنسان المبتعد عن الله. إنه حقاً رسم نفس psychogram، وأشعة سينية مهمة لتصوير نفس الإنسان الذي تحكمه الأهواء. ولكننا سوف نستمر في التأمل في التحليل الموجود في كتابات الآباء.

يرى القديس مكسيموس، أن الهوى الرئيسي الذي تنبع منه كل الأهواء هو محبة الذات. يكون الإنسان محباً للذات عندما يحب نفسه بإفراط ويعبد ذاته. وعندما يبتعد إهتمام الإنسان بعيداً عن الله ولا يكون مهتماً بالإتحاد به وبعمل مشيئته، فإنه عندئذ يتجه بالضرورة نحو ذاته راغباً في إشباع ذاته كل حين. يقول القديس مكسيموس: "إحفظ نفسك من أم الرذائل تلك التي هي محبة الذات". ويعرف محبة الذات قائلاً أنها "محبة غاشمة للجسد" وهي تولد أول ثلاثة أفكار شهوانية وهي الأكثر عمومية وهي "النهم والبخل وتعظيم الذات" ثم "تتولد أية رذائل إضافية من هذه الثلاثة"[٣٠].

وفي موضع آخر إذ يصف النتائج الرهيبة لمحبة الذات، فإنه يسميها الأم التي يأتي منها عدة بنات. تتسبب الثرثرة والنهم في الإفراط والبخل، ويتسبب تعظيم الذات في أن يكره المرء قريبه. وتكون محبة الذات التي هي أم الرذائل في كل هذه الأشياء[٣١].

يصف القديس مكسيموس بالتفصيل في رسالته "إلى ثالاسيوس" سلسلة أنساب محبة الذات والتي يرتبها في فئتين. يضع في الفئة الأولى الأهواء التي تؤدي إلى لذة حسية، وفي الفئة الأخرى تلك التي تعمل على إقصاء الألم بعيداً. فيضع في الفئة الأولى الأهواء

30 . Maximus. Philok. 2, p. 75, 59
31 . Ibid. p. 84, 7

التالية: "النهم ـ الكبرياء ـ تعظيم الذات ـ الإنتفاخ ـ البخل ـ الطغيان ـ التكلف ـ التباهي ـ الحماقة ـ الجنون ـ الوقاحة ـ الخيال ـ الإزدراء ـ الإهانة ـ التمرد ـ كلام العبث ـ الفجور ـ الإباحية ـ التفاخر ـ الطياشة ـ الغباء ـ العنف ـ السخرية ـ الثرثرة ـ الكلام في غير أوانه ـ الكلام الغير محتشم وكل شيء آخر من هذا القبيل".

أما الفئة الثانية فيضع فيها الأهواء التالية: "غضب ـ حسد ـ كراهية ـ عداوة ـ ضغينة ـ إستغلال ـ إغتياب ـ إفتراء ـ أسى ـ عدم ثقة ـ يأس ـ ذم في عناية الله ـ فتور ـ تبلد ـ قنوط ـ إكتئاب ـ جبن ـ حزن ـ حزن في غير أوانه ـ دموع ـ جنون ـ نحيب ـ غيرة ـ حسد ـ حقد وكل ما يغتنم الفرصة لأية لذة"[٣٢].

يضع القديس غريغوريوس بالاماس تصنيفاً آخر. ولقد أشرنا إليه في الفصل السابق وهو أن النفس تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجوانب الإدراكية والإنفعالية والراغبة. وأول مولود شرير للجزء الراغب هو محبة القنية، والثاني هو البخل. والمولود من الجزء الإدراكي هو محبة المجد، والعلامة المميزة للجزء الإنفعالى من النفس هي النهم الذي يأتي منه "كل نجاسة الجسد"[٣٣]. وبتعبير آخر فإنه تولد من محبة الذات، التي هي سيدة وأم كل الأهواء، الثلاثة أهواء العامة أي محبة المجد والبخل والتهاون. وتنبع من هذه الثلاثة كل الأهواء الأخرى التي تدنس نفس وجسد الإنسان.

يعمل القديس مرقس الناسك على تقييم الأهواء، وعلى إيجاد الأمهات التي تلد أهواء أخرى، ويكتب أنه توجد ثلاثة أهواء عظيمة والتي عندما تُهزم وتُذبح تُزال كل قوى الأرواح الشريرة الأخرى بسهولة. وهذه الثلاثة العظمى هي الجهل الروحي الذي هو مصدر كل الشرور، والنسيان "بكل ما يتعلق به ويساعده"، والكسل الذي "يحبك حجاباً مظلماً يلف النفس بالضباب". ويقوم الكسل والنسيان والجهل "بتدعيم وتقوية الأهواء الأخرى"[٣٤].

هذا الإختلاف بين الآباء الثلاثة ليس إختلافاً جوهرياً. فمحبة الذات والنسيان والكسل والجهل بالله هي جميعها مناخاً مهيئاً تنمو فيه كل أهواء محبة المجد والتهاون والبخل. لقد أشار كل واحد من الآباء إلى هوى مختلف بحسب جهاده الشخصي، وبحسب الموضوع الذي أراد أن يؤكد عليه. لم يكن الآباء يتفلسفون أو يحللون كل نفس عندما

---

[32]. Rantosavlievits: The Mystery of Salvation according to Maximus the Confessor.
P. 131, note.1. (In Gk)

[33]. St. Gregory Palamas. To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 100ff

[34]. St. Mark the Ascetic. Writings p. 28

سردوا قائمة هذه الأهواء، ولكنهم كانوا دائماً يتحدثون من خبراتهم الشخصية. ويجب علينا، بالإضافة إلى ذلك، أن نشير إلى أن محبة الذات مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالجهل والنسيان والكسل، لأن تركيز الإهتمام على الذات لابد وأن يجلب نسياناً وجهلاً بالله يؤدي إلى ولادة كل الخطايا الأخرى والأهواء.

ويرى القديس يوحنا الدمشقي أن النفس لها ثلاثة أجزاء: الإدراكي والإنفعالى والراغب. وخطايا الجزء الإدراكي هي الكفر والهرطقة والحماقة والتجديف وعدم الشكر "وقبول الخطايا النابعة في الجزء الحسى من النفس". وخطايا الجزء الإنفعالى هي القساوة والكراهية وإنعدام الحنو والضغينة والحسد والقتل "والبقاء في مثل هذه الأمور بإستمرار". وخطايا الجزء الراغب هي النهم والطمع والسكر والنجاسة والزنا والدنس والإباحية ومحبة الأشياء المادية والرغبة في المجد الباطل والذهب والثروة ولذات الجسد. يسرد نفس القديس قائمة الأفكار الثمانية التي تقوم بكل شر والتي ترتبط طبيعياً بالأهواء المقابلة لها، طالما أن الخطايا تأتي للوجود وتنمو إلى أهواء من خلال الأفكار. هذه الأفكار الثمانية هي أفكار النهم والنجاسة والبخل والغضب والإكتئاب والفتور وتعظيم الذات والكبرياء[٣٥].

وعلى حين أن تصنيف الأهواء الذي فحصناه يطابق تصنيف أجزاء النفس إلى حد بعيد، إلا أنه يجب علينا الآن أن نمضي لتصنيف آخر نجده في التعليم الآبائي، والذي تنقسم فيه الأهواء إلى أهواء جسدية وأخرى نفسية. فتوجد للنفس الأهواء المرتبطة بها، كما توجد للجسد الأهواء اللحمية المرتبطة به.

ومن المعروف جيداً في التعليم الآبائي أن نفس الإنسان قبل السقوط كانت مفتوحة على الله، وكانت تتغذى بنعمة الله. وكان على الإنسان، بلا شك، أن يجاهد لكي يصل للشركة والإتحاد الكامل مع الله، ولكن على الرغم من ذلك فإنه تذوق نعمة الله في ذلك الوقت. وهكذا كانت النفس تتغذى بالنعمة الغير مخلوقة، وكان الجسد يتغذى "بالنفس الممتلئة بالنعمة". لقد تذوق الإنسان بكليته مذاقة عطايا الله. **ومنذ السقوط إنفصلت النفس عن الله المصدر الحقيقي للحياة "وطلبت التغذية من الجسد"**. وبهذه الطريقة ولدت أهواء النفس. **وأما من جهة الجسد فإذ لم يجد حياة في النفس إتجه نحو الأشياء الخارجية وكنتيجة طبيعية لذلك صار مستعبداً للمادة ومحبوساً في دائرة الفساد**. وهكذا ظهرت الأهواء الجسدية المحبة للذة، وأصبح الإنسان يجاهد لكي يجلب الحياة والفرح من الأشياء المادية"[٣٦]. هذا هو موت الجسد وخصوصاً موت النفس. إلا أننا لو بذلنا جهداً من

---

35 . Pilok. 2, p. 337

36 . P. Nela, Zoon theoumenon, p. 203-204, In Gk.

خلال النسك والحياة في المسيح، لكي نوجه نفسنا نحو الله لكي تتغذى منه فعندئذ يتغذى الجسد "من النفس الممتلئة بالنعمة"، وهكذا يتقدس الإنسان بجملته. إننا نرى ذلك في قديسي الكنيسة الذين تعطلت فيهم وظائف الجسد في بعض الأحيان.

ويرى القديس مكسيموس أن بعض الأهواء تناسب الجسد والبعض الآخر النفس. يتسبب الجسد في الأهواء الجسدية، على حين تتسبب الأشياء الخارجية في أهواء النفس[٣٧]. إننا نجد نفس التمييز بين الأهواء في تعليم إيليا القس الذي يقول: "أهواء الجسد هي شيء وأهواء النفس هي شيء آخر"[٣٨].

يتولى القديس يوحنا الدمشقي مهمة سرد قائمة أهواء الجسد وأهواء النفس. وأهواء النفس هي النسيان والكسل والجهل التي تُظلم من خلالها عين النفس وبالتالي تسيطر كل الأهواء الأخرى على النفس. وهذه هي عدم التقوى ـ التعليم الخاطئ وكل نوع من الهرطقة ـ التجديف ـ الغيظ ـ الغضب ـ القساوة ـ التوتر ـ اللاإنسانية ـ الضغينة ـ الإغتياب ـ النقد ـ الإكتئاب ـ الخوف ـ الجبن ـ المشاكسة ـ الغيرة ـ الحسد ـ تعظيم الذات ـ الإفتخار ـ الرياء ـ الكذب ـ الشك ـ الطمع ـ محبة الأشياء المادية ـ الرغبة الشريرة ـ التعلق بإهتمامات العالم ـ الفتور ـ عدم الشجاعة ـ عدم الشكر ـ التذمر ـ الزهو ـ الخيال ـ التباهي ـ التبجح ـ محبة القوة ـ محبة الشهرة ـ الخداع ـ الوقاحة ـ عدم الإحساس ـ التملق ـ الخيانة ـ التظاهر ـ التردد والموافقة على الخطايا النابعة من الجزء الحسى من النفس والبقاء فيها بإستمرار". وتكون أيضاً الأفكار المتجولة ومحبة الذات هي جذور ومصدر كل الشرور التي هي البخل وفي النهاية الخبث والمكر.

ويرى القديس يوحنا الدمشقي أن أهواء الجسد، هي النهم والطمع والتهاون والسكر والأكل في الخفاء وسهولة المعيشة بوجه عام، والنجاسة والزنا والإباحية والدنس وزنا المحارم واللواط ومضاجعة البهائم والشهوات النجسة، وكل هوى آخر يكون غير طبيعي وأحمق، والسرقة وتدنيس المقدسات والإختلاس والقتل وكل نوع من الترف الجسدي وإشباع أهواء الجسد، وخصوصاً عندما يكون الجسد في صحة جيلة. توجد أهواء جسدية إضافية وهي: إستشارة العرافين ـ السحر ـ مراقبة التباشير والدلائل ـ التزين ـ التفاخر ـ الظهور الأحمق ـ إستخدام أدوات التجميل ـ تلوين الوجه ـ إضاعة الوقت ـ أحلام اليقظة ـ التحايل ـ سوء إستخدام ملذات هذا العالم بطريقة شهوانية. وأهواء

---

37 . Philok. 2, p. 59, 64
38 . Philok. 3, p. 63, 122

أخرى للجسد وهي الحياة في سهولة جسدية "التي إذ تجعل العقل غليظاً تجعله ترابياً وبهيمياً ولا تدعه يرفع نفسه أبداً نحو الله وممارسة الفضائل"[39].

يلخص القديس غريغوريوس السينائي كل تعليم الآباء عن أهواء الجسد وأهواء النفس ويكتب قائلاً: "توجد أسماء مختلفة للأهواء ولكنها تنقسم إلى أهواء للجسد وأهواء للنفس. وتنقسم الأهواء الجسدية إلى أهواء مسببة للحزن وأخرى مسببة للخطية. ثم تنقسم الأهواء المسببة للحزن إلى تلك الخاصة بالمرض والأخرى الخاصة بالعقاب. أما أهواء النفس فتنقسم إلى الأهواء الخاصة بالأجزاء الإنفعالية والراغبة والإدراكية للنفس. تنقسم أهواء الجزء الإدراكي إلى أهواء التخيل وأهواء الفهم. وتكون جميعها إما إرادية من خلال سوء الإستعمال، أو غير إرادية من خلال الضرورة. وتسمى الأخيرة أهواء غير مخزية، ويصفها الآباء على أنها تنتج عن الخصائص المحيطة والطبيعية. بعض الأهواء هي أهواء للجسد وأخرى للنفس. البعض هي أهواء الرغبة والأخرى هي أهواء الجزء الإنفعالى على حين أن البعض الآخر هي أهواء الإدراك؛ بعضها أهواء العقل والأخرى أهواء الفهم.

تتحد كل هذه مع بعضها البعض بطرق متنوعة، ولها تأثير الواحدة على الأخرى: فالأهواء الجسدية تؤثر على أهواء الرغبة، وأهواء النفس على الأهواء الإنفعالية وأهواء الإدراك على أهواء العقل، وأهواء العقل على أهواء الفهم والذاكرة[40].

يجب علينا، على الرغم من ذكر وتصنيف الأهواء، أن نلاحظ أن الأهواء لا تنفصل بعضها عن بعض بطريقة محددة. فالواحدة ترتبط بالأخرى بطريقة وثيقة، وبهذه الطريقة يتدنس الشخص تماماً ويموت. تصبح النفس مريضة من خلال الأهواء ويموت العقل. وهكذا يصبح الشخص عابد وثن، ولايستطيع أن يرث ملكوت السموات. قول بولس الرسول واضح ومقسم: "فإنكم تعلمون هذا، أن كل زان أو نجس أو طماع الذي هو عابد للأوثان، ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله" (أف٥ : ٥).

يوجد أيضاً تصنيف آخر للأهواء، وهو أهواء الرهبان وأهواء العلمانيين. وحيث أن طريقة حياة الرهبان الذين يمارسون النسك في أديرة تختلف عن حياة العلمانيين، فإن بعض الأهواء تسود في موقف وتسود الأخرى في موقف آخر.

يكتب القديس يوحنا الدرجي، أن أصل كل الشرور في الناس الذين يعيشون في

---

[39]. Philok. 2, p. 335
[40]. Acrostics, 77. Writings. P. 50f

العالم هو البخل، ولكنه يكون النهم في الرهبان[41]. ولكي يشرح ذلك، فإنه يشير إلى أن بعض الأهواء تبدأ من الداخل وتظهر على الجسد، على حين أن البعض الآخر يأتي من خارج إلى داخل النفس. تحدث الأولى في الرهبان غالباً "بسبب نقص المثيرات الخارجية" على حين تحدث الأخيرة عادة في الذين يعيشون في العالم[42]. وبالمثل فإن الأهواء التي تظهر في المرض تختلف في الرهبان عنها في العلمانيين. فعندما يمرض أهل العالم فإنهم يعانون من النهم والزنا. أما الرهبان فإذ يمتلكون الدعم المادي فإنهم يجدون أنفسهم مطعونين بصفة أساسية بشياطين الكآبة وعدم الشكر"[43]. يُظهر ذلك أن الإنسان لا يحارب بنفس التجارب دائماً، ويعتمد ذلك على حالته الروحية وطريقة حياته وعوامل أخرى أيضاً. إن الشيطان متعدد المصادر، ويعرف كيف يحارب كل شخص بحسب حالته.

لقد أشرنا من قبل، أن بعض الأهواء تتميز بكونها أمهات والبعض الآخر بنات. فبعض الأهواء تلد والبعض يولد من الآخر. لقد تعلم القديس يوحنا الدرجي من الرجال المقدسين أن النهم هو أم النجاسة، وتعظيم الذات هو أم الفتور. وهذا يعني، أنه عندما يتمكن الفتور منا فمن الممكن أن نكون متأكدين أن هوى تعظيم الذات يعمل فينا. وبالمثل فإن الإكتئاب والغضب هما بنات لهذه الثلاثة. وتعظيم الذات هو أم الكبرياء. ولقد تعلم أيضاً أنه لا يوجد تمييز ولا نظام في الأُناس عديمي العقل، بل بالأحرى إرتباك وإضطراب. أحياناً ما تتولد النكات الغير لائقة من النجاسة، وأحياناً أخرى من تعظيم الذات. أحياناً ما يأتي فرط النوم من حياة سهلة، وأحياناً أخرى من الصوم أو من الفتور، وفي أحيان ثالثة من إحتياج طبيعي. تتولد الثرثرة أحياناً من النهم، وأحياناً أخرى من تعظيم الذات. وأحياناً ما يتولد الفتور من حياة سهلة، وأحياناً أخرى من ضعف مخافة الله. والتجديف هو الإبن الحقيقي للكبرياء، ولكنه عادة ما يأتي من الإستعداد لإدانة القريب أو من حسد الشياطين. تأتي قساوة القلب، في بعض الأحيان، من الأكل حتى الشبع، وغالباً ما تأتي من عدم الحساسية والتعلق. والتعلق هو الإلتصاق بأي شيء حسي، ويأتي من النجاسة أو البخل أو تعظيم الذات، بالإضافة إلى أشياء أخرى أيضاً. يأتي الخبث من التخيل ومن الغضب، والرياء من الإتكالية وتوجيه النفس. وبوجه عام فإن اللذة الحسية والخبث هما المولّدان لكل الأهواء[44].

41 . Ladder. Step 26. CWS p. 239
42 . Ladder. Step 15. CWS p. 182
43 . Ibid. Step 26. CWS p. 233
44 . Ibid. Step 26. CWS p. 233

ومن المهم في هذا الموضوع، أن نبحث عن كيفية تطور الخطية إلى هوى. وذلك لأن الآباء الخبراء في هذا الجهاد الداخلي لا يكتفون بمجرد سرد قائمة الأهواء ببساطة، ولكنهم يذهبون إلى تسجيل أسبابها وتطورها. وبحسب القديس ثالاسيوس تتولد الأهواء من خلال هذه الأشياء الثلاثة: "الذاكرة ومزاج الجسد والحواس"[٤٥]. فالشخص الذي يثبت عقله في الأمور الحسية، متغرباً عن المحبة الروحية وضبط النفس، قابلاً عمل الشيطان، يُصبح موضعاً للإثارة. "تثار الأهواء بواسطة الحواس، عندما يغيب ضبط النفس والمحبة الروحية"[٤٦].

عندما تنحل أحقاء الحواس الأكثر سيادة، فإن الأهواء تتصاعد "وتتحرك طاقة الأهواء الأكثر ذلاً"[٤٧]. وعندما تفلت عدم منطقية الحواس من سلاسل ضبط النفس، فإنها تولد أسباب الأهواء[٤٨]. وفي الحقيقة ومثلما أشرنا من قبل عندما يلهو عقل الإنسان بشيء حسي ما "فإنه يتعلق به بوضوح بهوى معين مثل الرغبة أو التوتر أو الغضب أو الضغينة"[٤٩]. من أجل ذلك، فإن الجهاد الموصوف من قِبل الآباء هو ألا ندع عقلنا يدخل في أسر أي شيء أو فكرة حسية، لأن ذاك يتبعه الهوى والكارثة في الحال. وهكذا تُزرع بذور المأساة في نفسنا بواسطة دخول عقلنا في الأسر.

وبخلاف دخول عقلنا في الأسر، فإن الشهوة تلعب دوراً مهماً في خلق الأهواء. يصف القديس يعقوب أخو الرب هذه الحالة قائلاً: "ولكن كل واحد يجرب إذا إنجذب وإنخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية والخطية إذا كملت تنتج موتاً" (يع ١: ١٤-١٥). عندما سأل أخ الأنبا شيشوي: "ماذا أفعل حيال الأهواء؟" أجابه الشيخ قائلاً: "كل واحد يجرب إذا إنجذب وإنخدع من شهوته"[٥٠].

وفي تحليل أكثر إستفاضة، فإن تطور الأهواء يحدث كما يلي. يرى القديس مكسيموس أن الذاكرة تجلب أولاً بعض الأفكار الخالية من الهوى داخل العقل. وعندما يتوانى هذا الفكر يتحرك الهوى. وتكون الخطوة التالية هي الموافقة، وتؤدي الموافقة إلى إرتكاب الخطية فعلاً[٥١].

---

45 . Philok. 2, p. 320f, 32
46 . Philok. 2, p. 321, 34
47 . Gk. Philok. 3, p. 274, 6
48 . Ibid.
49 . St. Maximus. Philok. 2, p. 65
50 . Sayings, p. 185, 44
51 . St. Maximus. Philok. 2, p. 62, 84

يوضح هيزيخيوس القس المسار الذي تتبعه الأهواء. تأتي الإثارة أولاً، ثم يتبعه بعد ذلك إمتزاج أفكارنا الخاصة بأفكار الشيطان. ثم تأتي موافقتنا وبعد ذلك يأتي "الفعل الملموس الذي هو الخطية ذاتها"[52]. وعندما تتكرر الخطية علة مرات يتولد الهوى.

يكتب القديس غريغوريوس بالاماس، في التقليد الأرثوذكسي للعلاج الشافي، قائلاً أن التهاون هو بداية الأهواء الجسدية ومرض النفس. ويكون "أول من يعاني في هذه الحالة هو العقل" أي أن العقل هو أول من يُهاجَم، فهو يحرك الأهواء الشريرة ويجلب تخيل الأمور الحسية إلى داخل النفس من خلال الحواس، ويصير معرضاً لهذه الخطايا. ويحدث تأثير هذه الصور من خلال العينين بصورة رئيسية[53].

يصف القديس يوحنا الدرجي، بصورة تحليلية، كيف يتطور هذا الفكر حتى يصبح هوى. فالإثارة والإرتباط والموافقة والأسر والصراع والهوى هي جميعها أشياء مختلفة. وإذ يحللها فإنه يكتب قائلاً أن الإثارة هي كلمة أو مجرد صورة عارضة بسيطة تظهر في القلب للمرة الأولى. وهذه ليست خطية. الإرتباط هو الإتحاد مع ما ظهر سواء كان بهوى أو بغير هوى. وأحياناً ما تكون هذه الحالة غير مستحقة للوم. أما الموافقة فهي خضوع النفس بإبتهاج لما كانت قد واجهته. يكون هذا جيد أو حسن بحسب حالة الناسك. والأسر "هو خطف القلب بالقوة وضد الإرادة، وهو توان مستمر مع ما كنا قد واجهناه". ويكون الحكم على الأسر مختلفاً بحسب ما إذا كان يحدث في وقت الصلاة أو في وقت آخر. "الصراع" يعني قوة مساوية لتلك التي تقود الهجوم، أي صراع وحرب النفس لكي لا ترتكب الخطية. وقد تؤدي هذه الحرب إما إلى الإكليل أو إلى العقاب. وأخيراً يأتي الهوى الذي مثلما قلنا هو شيء "يَكمُن في النفس لزمن طويل" ويسود على النفس بسبب العادة المستمرة لكي تستسلم له. ويتطلب هذا الهوى توبة مناسبة أو دينونة مستقبلية[54].

وبالإضافة لهذا الوصف عن كيفية تطور الفكر إلى هوى، فإن الآباء يصفون أيضاً تطوراً آخر وهو كيفية ظهور الأهواء مع السن.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن الأهواء تتطور منذ الطفولة المبكرة بالترتيب التالي: تأتي أولاً أهواء الجزء الراغب للنفس التي هي القنية والطمع. فالطفل الصغير يريد أن يحكم قبضته على الأشياء، وعندما يكبر إلى حد ما فإنه يريد الأموال. وفيما بعد ومع

[52]. Philok. 1, p. 170, 46
٥٣ [53]. To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 105
٥٤ [54]. Ladder. Step 15. CWS p. 182

"تقدم السن" يتكون هوى محبة المجد الذي يُرى في صورتين: الأولى هي محبة المجد العالمية، التي تبغي "أدوات الزينة والملابس الثمينة"، وأما الثانية فهي محبة تعظيم الذات، التي تهاجم البار وتظهر نفسها في الخداع والرياء، والتي من خلالها يبتكر ما يشتت الغنى الروحي للنفس. وفي النهاية يتكون التهاون بعد القنية ومحبة المجد. والتهاون هو النهم "الذي يأتي منه كل نوع من نجاسة الجسد". وفي نفس الوقت يعطي القديس غريغوريوس بالاماس ملحوظة مهمة: على الرغم من أن التهاون "والمثيرات الطبيعية نحو التناسل تميز الأطفال الرضع" إلا أنها ليست علامات تدل على نفس مريضة". فالأهواء الطبيعية غير ملومة طالما أنها مخلوقة من قبل الرب الصالح "بهدف جعلها وسيلة لكي نسلك في أعمال صالحة". يكون الهوى شرير "عندما نصنع تدبيراً للجسد لإشباع شهواته". وباختصار فإنه بحسب القديس غريغوريوس فإن أهواء القنية والنهم تتكون في الرضع، وأهواء محبة المجد في الطفولة، وتأتي فيما بعد ذلك أهواء التهاون[55].

إنه أمر صحيح، أنه من الصعب التمييز بين أهواء كلا من الجسد والنفس، وذلك لأن الشيطان الذي يثيرها يكون عادة متخفياً ولا نستطيع تمييزها. من هنا تأتي الحاجة إلى معالج جيد يعرف الحياة الداخلية الخفية، ويكون إناءً للروح القدس بهدف التمييز والشفاء. هذا التمييز هو أحد المواهب العظمى لنعمة الروح القدس. يعطي القديس يوحنا الدرجي مثالاً، أنه قد يحدث في بعض الأحيان، فيما نجلب ماءً من بئر، أن نجلب أيضاً " ضفدعاً"، على غفلة ويربط هذا المثل بالفضائل. فعندما نكتسب الفضائل قد نجد أنفسنا أحياناً متورطين في الرذائل التي تكون متشابكة معها بطريقة غير مدركة. كما يقدم القديس أيضاً عدة أمثلة، فمن الممكن أن يعلق النهم بإضافة الغرباء، والنجاسة بالمحبة، والمكر بالتمييز، والخبث بالحكم الصائب، والإزدواجية بالتأجيل، والإهمال والعناد والتصميم وعدم الطاعة بالوداعة، ورفض التعلم بالصمت، والخيال بالفرح، والكسل بالرجاء، والنقد بالمحبة، والفتور والكسل بالسكون، والفظاظة بالعفة، والحميمية بالتواضع[56]. ويتضح بذلك أن المرء يحتاج لمقدار كبير من اليقظة لكي يكتشف الأهواء، لأننا قد نظن أننا ذوي فضيلة على حين نكون عاملين لحساب الشيطان ومتعهدين الأهواء في الواقع. يجب علينا أن نكون يقظين " للضفدع " الذي يكون غالباً تعظيم الذات. ويدنس هذا الهوى الطاعة للوصايا.

---

55 . To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 100-105
56 . Ladder. Step 26. CWS p. 237

وبحسب نفس القديس، فإن شيطان البخل غالباً ما يشبه الإتضاع، ويشجع شيطان تعظيم الذات أو التهاون الصدقة[57]. من أجل ذلك يجب علينا وقبل كل شيء أن نكون يقظين لنميز خداع الشيطان حتى وأثناء ما ننمي الفضائل. ويذكر القديس حالة ذاك الذي كان قد غلب من شيطان الكسل وكان يفكر في ترك قلايته، ولكن عندما أتى إليه عدة رجال ومدحوه على حياته النسكية "تحول كسله إلى تعظيم الذات". ثم تعجب القديس من الطريقة التي يقف بها شيطان البر الذاتي مقابل كل الأرواح الخادعة الأخرى[58]. وبالمثل يحارب شيطان البخل أولئك الذين هم بلا أهواء بالمرة بشدة. وعندما يفشل في التغلب عليهم، يبدأ في أن يحدثهم عن الأحوال البائسة للفقراء وهكذا يحثهم "على الإهتمام بالأمور المادية"[59]. توجد نقطة أخرى، ينوه عنها الآباء القديسين، وهي الطريقة التي نستطيع بها أن نتحقق من وجود الأهواء. وتوجد، بلا شك، أهمية كبرى لفضيلة التمييز، وللشيوخ عديمي الأهواء الذين سوف يضطلعون على دوافع نفسنا ويصلحوننا. ولكن بخلاف ذلك، توجد لدينا طرق أخرى لكي ندرك وجود وعمل الأهواء. توجد علامة على أن هوى إرادي يعمل فينا، وهي عندما نحزن عندما نلام عليه أو يحاول أحد إصلاحنا. ولكن عندما نقبل اللوم الآتي علينا بهدوء، يكون ذلك علامة على أننا "كنا مغلوبين منه أو غير واعين له"[60]. أي أن اللوم والحزن أو الهدوء يظهر وجود الهوى، وما إذا كان إرادياً أم لا: "تختفي أبشع الأهواء داخل نفوسنا وتأتي للنور فقط عندما نفحص أفعالنا"[61].

يكتب القديس مكسيموس محاولاً أن يصف بدقة ما هو الهوى قائلاً أن الشيء والصورة الذهنية والهوى هي أمور مختلفة بعضها عن بعض. فالرجل والمرأة والذهب وما إلى ذلك هي أشياء. والصورة الذهنية هي "فكرة عديمة الهوى عن أحد هذه الأشياء" وأما الهوى فهو "عاطفة غاشمة أو كراهية مشوشة لأحد هذه الأشياء"[62]. يكتب الأنبا دوروثيئوس مميزاً بين الخطية والهوى قائلاً، أن الأهواء هي الغضب والبر الذاتي والتهاون والكراهية والشهوات الشريرة وما إلى ذلك. وأما الخطايا فهي أفعال الأهواء. وبالتالي من الممكن أن "يمتلك شخص ما أهواءً ولكن دون أن يجعلها تعمل"[63]. إننا نفهم أيضاً من هذا النص، أنه من الممكن أن يكون المرء ممتلئاً بالأهواء دون أن يلاحظ ذلك، لأنه لم يحدث

---

57 . Ladder. Step 26. CWS p. 239
58 . Ladder. Step 27. CWS
59 . Ibid. p. 249
60 . Abba Dorotheos. CS p. 253. SC p. 530, 202, 18
61 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 320, 30
62 . Philok. 2, p. 89, 42
63 . Abba Dorotheos. Ibid.

أن إرتكب أية خطايا. من أجل ذلك يكون من الضروري الحصول على شفاء تام بواسطة مرشد روحي مختبر.

ويجب علينا، لكي نكمل هذا الفصل، أن نلخص النتائج البشعة للأهواء. لقد قلنا بالفعل، في تداعيات متنوعة، أن الأهواء تميت عقلنا. وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بإستفاضة أكثر.

إن إنبعاث الأهواء في "جسد مسن وفي نفس مكرسة" هو تدنيس للنفس[٦٤].

وتماماً مثلما يحاول عصفور مربوط بالقلمين أن يطير "فينجذب إلى أسفل للأرض" هكذا أيضاً العقل الذي إن لم يكن عديم الهوى فإنه "يعاق بالأهواء وينجذب إلى أسفل للأرض"[٦٥] فهي تربط المرء بما هو أرضي، فالأهواء المشينة تسلسل العقل "وتجعله مرتبطاً بالأمور الحسية"[٦٦].

عادة ما تدنس الأهواء النفس بعد فترة، تماماً مثلما يجلب الطعام المؤذي للجسد المرض بعد بعض الوقت، أو في الواقع بعد بضعة أيام[٦٧]. على أية حال فإنه أمر واضح أيضاً من هذا النص أن الأهواء تمرض النفس.

إن نفس الإنسان الشهواني هي "ورشة عمل للأفكار الشريرة". ونفس شريرة مثل هذه تجلب ذخائر من الشر[٦٨].

تموت النفس بالأهواء، وتصير غير قابلة للنصح. ولا تقبل أي إصلاح روحي[٦٩]. "يجلب كل هوى بذرة الموت معه".

الأهواء هي الجحيم، فالنفس الشهوانية تعاقب في كل حين بعاداتها الرديئة، الخاصة بها، وتقتني دائماً الذكرى المريرة، والدمدمة المؤلمة لأهوائها التي تحرقها وتأتي عليها. هذا العذاب هو بداية وهو مذاقة صغيرة لعذاب آخر في مواضع العذاب المخيفة "حيث تتلقى الأجساد المعاقبة عذاباً مروعاً ومتنوعاً تحدثه أيضاً للنفوس... هذه النار التي لا يعبر عنها... تلك الظلمة...."[٧٠].

مكافأة جهاد الفضيلة هي اللاهوى والمعرفة الروحية، التي هي وسائط ملكوت السموات، مثلما تكون "الأهواء والجهل هي وسائط الدينونة الأبدية"[٧١].

---

64 . St. Mark the Ascetic. Gk. Philok. 1, p. 114, 77
65 . Pilok. 2, p. 63, 85
66 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 321, 41
67 . Ladder. Step 15. CWS p. 178
68 . ST. Thalassios. Philok. 2, p. 323, 77
69 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 327, 41
70 . Abba Dorotheos. SC p. 386, 127. cf. p. 184
71 . St. Maximus. Philok. 2, p. 71, 34

يفسر القديس غريغوريوس بالاماس النص الذي يشرح كيف خرجت الشياطين من الإنسان المعذب بها ودخلت الخنازير التي إندفعت لتسقط في البحر ويكتب أن "حياة الخنازير ترمز إلى 'كل هوى شرير لأنه يكون غير طاهر' ولكن أولئك الذين يتمشون برداء ملوث بالجسد هم الخنازير على الأخص"[٧٢].

وهكذا تميت الأهواء العقل تماماً في النهاية وتجلب لنا الدينونة. يحتاج العقل للشفاء الروحي لكي يتحرر ويبتهج في الله. وسوف نتناول الآن موضوع العلاج.

٣- شفاء الأهواء

والآن إذ أصبحنا واعين للتدبير العظيم الذي يعمل في كل كياننا بواسطة الأهواء، يجب علينا أن نتناول موضوع العلاج. هذا الجزء جوهري في الباب الحالي.

يدرك العديد منا أننا مرضى، ويوجد لدينا إحساس بكوننا مرضى روحياً، ولكننا نجهل بصورة كلية أو جزئية كيفية شفائنا. إنني أعتقد أن الأرثوذكسية، في حال كونها علم علاجي، مدينة بشرح هذه الأمور الموضوعية جداً. **إننا متأكدون أن أحد الرسائل التي يجب على الكنيسة الأرثوذكسية أن تقدمها للعالم المعاصر المتعثر، هي رسالة مرضه وفي نفس الوقت رسالة شفائه.** لذا سوف نهتم فيما يلي بهذه الأمور.

يجب علينا أولاً أن نوضح بعض الأمور، الأولى هي أن شفاء الأهواء هو، بصورة رئيسية، تحويلها، مثلما وصفنا ذلك من قبل. وطالما أن الأهواء عديمة الهوى التي هي طبيعية وغير ملومة كانت قد إنحرفت، فمن المتوقع أننا سوف نغيرها مع العلاج. هذا هو شفاء الأهواء. قال الأب بيمن للأنبا إسحق: **"لم نتعلم أن نقتل الجسد لكن أن نقتل الأهواء"**[٧٣]. توجد ملاحظة أخرى وهي أن الآباء يعطون إهتماماً كبيراً للعلاج في كتاباتهم. فأياً من يقرأ كتابات القديس مكسيموس عن المحبة سوف يرى أنها تحتوي على مادة علاجية كثيرة. ويجب عليّ أن أعترف أنني عندما أردت أن أقرأ هذا الكتاب، توقعت أن أجد بضعة قواعد عن المحبة ووصفاً لقيمة المحبة، ولكنني لاحظت، بدرجة كبيرة، أن القديس مكسيموس يولي عناية كبرى لموضوع الأفكار والأهواء وشفاء الأهواء، إنه يعطي أهمية

72 . St. Gregory Palamas. Homily 50. EPE 11, p. 208(In Gk.)
73 . Sayings, p. 162, 184

كبرى لشفاء الإنسان لأن محبة الله والآخر "تتولد من اللاهوى". والقلب الذي تسوده الأهواء لا يقدر على المحبة. وتوجد ملاحظة إضافية وهي أنه عندما يتحدث الآباء عن شفاء الإنسان، فإنهم يضعون القواعد الرئيسية لهذا الشفاء. بمعنى أنهم ينظرون للإنسان برؤية شاملة، ويعطون وصفات أو طرق متنوعة للعلاج. سوف نذكر هذه الطرق فيما يلي، ولكن يجب علينا أن نؤكد على أن كل شخص يحتاج لطريقة علاجية خاصة به. ويعطي المعالج المفرز والمختبر هذه الطريقة لأي أحد يأتي ويسأل باتضاع وطاعة وإستعداد للشفاء. من أجل ذلك سوف نضع الآن القواعد العامة للعلاج. ويجب على كل فرد أن يمارس علاجه الخاص تحت إرشاد روحي "لكائنات حية معاصرة".contemporary living organisms.

إن شفاء مرض نفوسنا هو أمر ضروري على الإطلاق. ولقد رأينا ذلك بالفعل وأشرنا إلى الحالة المشوهة التي تخلقها فينا الشهوات. إن نصوص كثيرة في الكتاب المقدس تتكلم عن ذلك. يعطي بولس الرسول النصيحة التالية لأهل كولوسي: "فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض، الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية الطمع الذي هو عبادة الأوثان، الأمور التي من أجلها يأتي غضب الله على أبناء المعصية. الذين بينهم أنتم أيضاً سلكتم قبلاً حين كنتم تعيشون فيها. وأما الآن فإطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل، الغضب السخط الخبث التجديف الكلام القبيح من أفواهكم. لا تكذبوا بعضكم على بعض إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه" (كو٣: ٥-١٠).

ويرى القديس مكسيموس أن الرسول هنا سمى إرادة الجسد "أرض" و"الزنا" هو الإرتكاب الفعلي للخطية، الذي هو الموافقة التي تنفذ فتصبح خطية. كما أنه يسمي الموافقة على الخطية "نجاسة". و"أهواء" هو المصطلح الذي يستعمله عن الأفكار الشهوانية. ويقصد "بالشهوة الردية" الفعل البسيط لقبول الفكر والشهوة. و"الطمع" هو الإسم الذي يعطيه "لما يولد ويعزز الأهواء". يجب على هذه الأمور "الأرضية" التي هي جزء من إرادة الجسد أن تمات[٧٤]. وعندما تمات هذه الأمور الأرضية (وسوف نعرف فيما بعد كيفية إماتتها) وتتحول، أي تُقدَم لله، فعندئذ تتوقف الطبيعة القديمة بكل أعمالها عن العمل وتبدأ الطبيعة الجديدة في العمل. إنها سوف تكون على صورة الله ومثاله إذ تصير "شخصاً" Person.

وفي رسالة أخرى، يعطي بولس الرسول نفس التوجيهات قائلاً: "وأما الزنا وكل نجاسة أو طمع فلا يُسمَ بينكم كما يليق بقديسين. ولا القباحة ولا كلام السفاهة والهزل

[74]. Philok. 2, p. 62, 83

التي لا تليق بل بالحري الشكر" (أف٥ : ٣٠). ويكتب في رسالة أخرى: "لا نكن معجبين نغاضب بعضنا بعضاً ونحسد بعضنا بعضاً" (غل٥ : ٢٦).

تظهر كل هذه الأمور ضرورة العلاج. لا يجب على المسيحي، الذي هو مكان إقامة الروح القدس، أن يكون نجساً، أو بالحري لكي يصير هيكلاً للروح القدس ولكي يقيم الله فيه يجب عليه أن يتنقى روحياً أولاً، وبعد أن يصير هيكلاً للروح القدس يحافظ على هذا الهيكل طاهراً.

يُظهر ذلك أيضاً الهدف من العلاج. إننا لا نجاهد لمجرد أن نكون أشخاصاً صالحين مُتكيّفين مع المجتمع. **وليس هدف العلاج أن نجعل الناس إجتماعيين وأن نعطي ممارسات تتمركز حول الإنسانية، ولكن أن نقودهم للشركة مع الله** وأن نجعل رؤية الله **هذه نوراً ينيرهم وليس ناراً تحرقهم**. يعي الآباء بوضوح هذا الهدف من العلاج، ولكنهم يعرفون أيضاً الأهداف التي يضعها مختلف الأشخاص. يقول القديس مكسيموس أن بعض الناس يمتنعون عن الأهواء "بسبب الخوف البشري" والبعض من خلال ضبط النفس ويخلص البعض الآخر من الأهواء "بواسطة التدبير الإلهي"[٧٥]. يشير الأب دوروثيوس إلى أنه لا يجب على المرء أن يرغب في التحرر من الهوى "بهدف الهروب من عذابه، ولكن لكونه يكرهه بالفعل كما هو مكتوب: كرهتهم كرهاً تاماً"[٧٦]. يدرك القديسون أن بعض الناس يريدون أن يتحرروا من الأهواء لأنها تسبب ألماً عظيماً. ولكن ليس هذا هو الهدف الحقيقي للعلاج الأرثوذكسي. ولكن الهدف الأساسي هو الحصول على شركة مع الله. إننا نعرف جيداً أنه توجد قامات وحالات روحية مختلفة في الكنيسة. **فالبعض كما يعلم الآباء يحفظون كلمة الله بسبب الخوف من الجحيم، والبعض الآخر لكي يدخلوا الفردوس، وآخرون يفعلون ذلك حباً في المسيح. النوعية الأولى هي العبيد، والثانية هي الفعلة المأجورون، أما الثالثة فهي أبناء الله.** إننا نقبل هذه القامات الروحية ولكننا نشدد على أننا نجاهد لكي نصل إلى الفئة الثالثة. فمن المطلوب أن نحقق شفاءً مستمراً حتى نصل لهدف العلاج.

يجب علينا أن نشير إلى أن الشفاء من الأهواء ليس من عمل الإنسان، بل هو عمل الله وحده. يجب على الإثنين أن يعملا معاً. هذا هو التناغم بين الله والإنسان. فكل شيء في كنيستنا هو إلهي إنساني theandric، فيجب أولاً أن تُعطَى نعمة المسيح. يحدث تطهير الإنسان، الذي هو الشفاء، بواسطة عمل المسيح الذي يمنحه خلال كل الحياة

---

75 . Ibid. p. 68, 23

76 . Abba Dorotheos. SC p. 530, 202, 16. cf. CS p. 252f, 16

الروحية التي يحياها المسيحي في داخل الكنيسة الأرثوذكسية. عادة ما يشدد بولس الرسول في رسائله على هذه الحقيقة. يمتلك الإنسان الجسداني في داخله عمل الأهواء. ولكنه عندما يتلقى نعمة المسيح، فإنه يتحرر من هذا العالم القديم الذي هو عالم الخطية: "لأنه لما كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نثمر للموت. وأما الآن فقد تحررنا من الناموس إذ مات الذي كنا ممسكين فيه حتى نعبده بجدة الروح لا بعتق الحرف" (رو٧: ٥-٦).

إن شعب المسيح، الذي يعيش في المسيح، هو فقط الذي يتحرر من الجسد ومن شهوة الجسد التي تشكل عالم الخطية: "ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات. إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح" (غل٥: ٢٤-٢٥). وعندما يسلك الشخص بحسب الروح، أي عندما يحصل على نعمة الثالوث القدوس، فإنه يشفى داخلياً: "وإنما أقول إسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون. ولكن إذا إنقدتم بالروح فلستم تحت الناموس" (غل٥: ١٦- ١٨). وكلنا نعي تماماً، مثلما أشرنا من قبل، أن أعمال الجسد هي كل الأهواء (غل٥: ١٩-٢١).

إن عملنا الخاص هو أن نشن حرباً ضد الخطية والهوى و"أن نجاهد ونستمر في الحرب وأن نسدد ضربات" ولكن "إجتثاث الأهواء وتحويلها بطريقة رئيسية هو عمل الله". ومثلما لا يستطيع المرء أن يرى بدون عينين أو يتكلم بدون لسان أو يسمع بدون أذنين أو يعمل بدون يدين هكذا "لا يستطيع أن يخلص ولا أن يدخل ملكوت السموات بدون يسوع"[٧٧]. **إذ أن النفس تستطيع أن تضاد الخطية، ولكنها لا تستطيع بدون الله أن تغلب أو تجتث الشر**[٧٨].

إن ما يحول ويشفي الأهواء هو الإحساس بمحبة الله الذي هو الشركة مع نعمة الله، بالإضافة إلى محبتنا الخاصة لله التي هي ثمرة للروح القدس. ولا يعني إماتة الجزء الحسي من النفس أن نغلق عليه "معطلاً وبلا حركة في ذواتنا" بل أن نحوله عن إتصاله بالشر "إلى محبة موجهة لله"[٧٩]. ولكن هذا التغيير نحو محبة الله لا يحدث بدون حياة المحبة. وعلى أية حال، فعندما يشتعل شخص ما بمحبة الله التي هي هبة إلهية، فإن كل عالمه يتحول ويلتهب

77 . St. Makarios. Homily 3, 4, CWS p. 48
78 . Ibid.
79 . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 23

بالنعمة الإلهية ويتقدس. "عندما تسود محبة الله، على العقل، فإنها تحرره من قيوده مقنعة إياه أن يرتفع، فوق ليس فقط الأشياء الحسية بل وفوق هذه الحياة العابرة أيضاً"[٨٠]. توضح هذه الأشياء أن شفاء الأهواء يحدث عندما تعمل نعمة الله ومحبته. وتُمنح هذه النعمة الإلهية من خلال الأسرار المقدسة. ونُريد بالمثل أن نؤكد على حقيقة أن الإفخارستيا الإلهية وشركة جسد ودم المسيح، هي مساعدة فعالة في جهاد الإنسان لتنقية نفسه. التناول المقدس هو دواء عدم الموت.

ولكن بالإضافة إلى قوة المسيح التي تلعب دوراً مهماً جداً، يجب على الإرادة الإنسانية أن تقوم بدورها. فإذا لم يحدث ذلك، فإنه سيصير من المستحيل أن يتغلب المرء على الشهوات وأن يقهر الشياطين بصورة فعلية، لأن "الذي يغلب الشهوات يصرع الشياطين جرحى"[٨١]. "ويطرد شيطان الشهوة الذي سبق أن تمكن من أن يسود عليه"[٨٢]. وسوف نرى فيما يلي هذه المشاركة من جانب الإرادة الإنسانية.

يحتاج المرء، قبل كل شيء، لمعرفة الذات. وهذا أمر مهم جداً بالنسبة لنا أن نكون واعين لحالتنا الروحية. **إن جهلنا بمرضنا يجعلنا عديمي الشفاء على الدوام.** يكتب يوحنا الإنجيلي قائلاً: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (١يو١ : ٨).

يحدد بطرس الدمشقي الأفكار الروحية الثمانية، التي تخص السبعة الأولى منها هذا الدهر وأما الثامنة فتخص الدهر الآتي، وينظر للمعرفة على أنها ثيئوريا : "معرفتنا بأخطائنا الخاصة وبصلاح الله"[٨٣]. أي أن معرفتنا بأخطائنا الخاصة وبصلاح الله هي ثيئوريا (رؤية الله).

وحيث أن الكبرياء مختلط بالشجاعة لذلك "يجب علينا بإستمرار أن نحذر من الإنصياع لمجرد فكرة أننا حققنا أي نوع من الصلاح"[٨٤]. يُعلم الآباء من خلال الخبرة الروحية العظيمة التي عاشوها، أنه ليس من السهل تشخيص أعراض الأهواء بدقة طالما أننا مرضى وأنها إتحدت بطبيعتنا. من أجل ذلك ينصحنا الآباء أن نفتش على أهوائنا بإجتهاد: "راقب بإستمرار علامات الأهواء وسوف تكتشف أنه يوجد الكثير منها بداخلك"[٨٥].

---

[٨٠]. St. Maximus. Philok. 2, 65, 3
[٨١]. Ladder. Step 26. CWS p. 248
[٨٢]. Sayings. P. 168, 1
[٨٣]. Philok. 3, p. 108
[٨٤]. Ladder. Step 26. CWS p. 252
[٨٥]. Ibid.

يجب علينا أن "نفحص ذواتنا بلا إنقطاع، لكي نرى أين نحن هل في البداية أم المنتصف أم النهاية"[86] من جهة كل هوى وكل فضيلة وبالأخص من جهة الأهواء. إنه أمر ضروري أن يفعل المرء ذلك، لأن الحياة الروحية هي رحلة مستمرة بهدف الوصول إلى الشركة مع الله. هذا أمر لا غنى عنه **لأن الركود والإكتفاء الذاتي يكمنان دائماً في طريقنا الروحي**.

وما لا غنى عنه أيضاً هو معرفة الذات، لأنه توجد ثلاثة حالات للإنسان: "حالة تنشيط الهوى وحالة الحد منه وحالة إجتثاثه"[87]. أي أنه ليس كافياً أن نستعمل طرق علاجية مختلفة لكي نوقف عمل الهوى، ولكن يجب علينا أن نحوله إلى حب الله وللناس. إننا نحتاج للسكون الخارجي لكي نمتلك معرفة جيدة بالذات. ويجب علينا أن نوقف الإرتكاب الفعلي للخطية. ومن المستحيل أن نصل لمعرفة الذات طالما أن الحواس تعمل بصورة شهوانية. "من أجل ذلك يجب على المرء أن يراقب العقل في وجود الأشياء وأن يميز إلى أيّها يظهر هوى"[88].

ترتبط معرفتنا بأهوائنا إرتباطاً وثيقاً بالتوبة والإعتراف، والمرحلة الأولى للتوبة هي معرفتنا بخطايانا والإحساس بمرض نفسنا. ويكون التعبير عن التوبة بالإعتراف بخطئنا. إننا نتكلم هنا عن الإعتراف المقدس. يجب علينا أن نقول أنه يوجد نوعان من الإعتراف في النصوص الكتابية والآبائية. الأول هو الإعتراف العقلي الذي نعترف به لله في الصلاة والثاني هو الإعتراف لطبيبنا الروحي الذي هو أيضاً المعالج لنا. يُعرِّف القديس يوحنا الدرجي التبكيت على أنه "عذاب أبدي للضمير الذي يجلب برودة لنار القلب من خلال الإعتراف العقلي"[89].

يجلب الإعتراف العقلي التبكيت ويعطي التبكيت تعزية لقلب الإنسان. بالإضافة إلى ذلك فإن الإعتراف، هو توبة غير مقيدة، ويحدث في جو من التوبة. إنه حزن القلب الذي يولد "نسياناً للطبيعة". "الإعتراف هو نسيان الطبيعة طالما أنه بسببه سها رجل عن أكل خبزه"[90].

وبحسب القديس ديادوخوس يجب علينا أن نقدم لله إعترافاً دقيقاً دفعة واحدة، حتى لمشاعرنا اللاإرادية، وألا نكف حتى "يطمئن ضميرنا من خلال دموع الحب أنه قد غفر لنا"[91].

---

86 . Ibid. CWS p. 239
87 . Abba Dorotheos. CS p. 167. SC p. 346, 108
88 . Philok. 2, p. 95f, 78
89 . Ladder. Step 7. CWS p. 136
90 . Ibid.
91 . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 295

بالإضافة إلى ذلك، يحثنا القديس على أن نكون يقظين جداً لئلا "ينخدع ضميرنا بأن يعتقد أن الإعتراف الذي قدمه لله كافي"[٩٢]. إنه يقول ذلك لأننا عندما نصلي لله ونعترف بخطايانا فإننا عادة ما نفعل ذلك بطريقة غير كافية وبذلك نحيا في رضا من جهة كوننا قد إعترفنا. هذا هو خداع النفس، من أجل ذلك نحتاج لأن نكون مستعدين دائماً لأننا لو لم نعترف كما يجب، فإنه سوف يتملكنا خوف مبهم في ساعة موتنا[٩٣].

لا يحل إعترافنا لله خلال الصلاة محل إعترافنا بخطايانا لأبينا الروحي، ولا يحل الإعتراف للمعالج الروحي محل الإعتراف خلال الصلاة. فمن الضروري أن يرتبط نوعا الإعتراف معاً، إذ يجب على المرء أن يذهب للأب الروحي بعد الإعتراف خلال الصلاة. لقد أعطى الله للآباء الروحيين السلطان لمغفرة الخطايا: "إقبلوا الروح القدس؛ من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت" (يو٢٠ : ٢٢). ويتضح من هذا النص "عظم المجد الذي منحه الروح القدس للكهنة"[٩٤]. وبحسب القديس يوحنا ذهبي الفم فإن الكهنة الذين يعيشون على الأرض "قد إئتمنوا على وكالة الأشياء السماوية" طالما أن "ما يفعله الكهنة على الأرض يصدق عليه الله من فوق فيؤكد السيد على قرارات عبيده"[٩٥]. من أجل ذلك نحتاج لمراجعة أطباء روحيين من أجل شفائنا. "دعونا فوق كل شيء نعترف أمام كل الناس، فيجب علينا أن نفعل ذلك لأن القاعدة الرئيسية هي أن **الجراح التي تُعرَف تشفى**: "إن الجراح التي تُظهر للناس سوف لا تنمو إلى أسوأ بل ستشفى"[٩٦]. وبالتأكيد فإن الطبيب الجيد هو أمر رئيسي من أجل نجاح الشفاء. يستطيع كل آباء الإعتراف أن يمارسوا سر الإعتراف ولكنهم لا يستطيعون أن يمنحوا الشفاء جميعاً، لأن البعض ينقصهم الكهنوت الروحي كما قلنا في باب آخر.

"لو أن تشخيص الأمراض الجسدية يكون، في بعض الحالات القليلة، غير دقيق، فإن ذلك يحدث بالأكثر مع الأمراض الروحية". "إن تشخيص النفوس يكون غير دقيق بدرجة أكبر " لأن أهواء النفس "تفهم بصعوبة أكبر"[٩٧]. عندما يجد كاهن ما أنه أمر مستحيل أن يعطى شفاء فيجب علينا عندئذ أن نراجع كاهناً آخر لأن "قليلون هم الذين يشفون بدون طبيب"[٩٨].

---

92. Ibid.
93. Ibid.
94. St. John Chrysostom. On the Priesthood. III, 4. p. 71
95. Ibid. p. 71f
96. Ladder. Step 4. CWS p. 93
97. Nicetas Strthatos. Natural chapters, ch. 11
98. ladder. Step 4. CWS p. 109

لقد أشار أيضاً العديد من الأطباء النفسيين المعاصرين لقيمة الإعتراف. إنه أمر جوهري أن ينفتح الشخص ولا ينغلق على نفسه، ونحن نقول بلغة الكنيسة أنه **عندما يعرف شخص ما كيف يفتح ذاته على الله من خلال أب الإعتراف، فإنه يستطيع أن يتجنب العديد من الأمراض النفسية والعقلية بالمثل.** إننا نشعر بقيمة الإعتراف في الحياة العملية. فالخطية الموجودة تتعبنا جسدياً أيضاً وقد نعاني من المرض الجسدي. تبدأ مرحلة الشفاء عندما نقرر أن نعترف، ويفيض الهدوء على النفس والجسد. ولكن من الضروري بالطبع أن نذهب لنقدم إعترافاً حقيقياً.

وحيث أن الشيطان يعرف قيمة الإعتراف، فإنه يبذل قصارى جهده لكي يدفعنا إلى عدم الإعتراف أو لكي نعترف كما لو كان شخص آخر هو الذي إرتكب الخطايا، أو أيضاً لكي نعزو بالمسئولية إلى آخرين[99]. على أية حال يحتاج المرء لشجاعة روحية لكي يكشف جرحه لطبيب روحي. ينصح القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "قم بتعرية جرحك للشافي". وبالإضافة إلى كشف المرض إلقي بالملامة على نفسك وقل بإتضاع: "أبي! هذا جرحي أنا وهذه إصابتي أنا. لقد حدثت بسبب إهمالي وليس بأي سبب آخر. لا يوجد من يلام على ذلك لا إنسان ولا روح ولا جسد ولا أي شيء آخر. إنها كلها من خلال إهمالي"[100]. يجب على المرء ألا يخجل بل بالأحرى أن يتغلب على الخجل من الخطية ومن تعريتها. ويجب علينا عندما نكشف جراحاتنا الداخلية لمرشدنا الروحي أن ننظر ونتصرف ونفكر كشخص محكوم عليه. وفي الواقع ينصح القديس يوحنا قائلاً: "إن كنت تستطيع فأسكب الدموع عند قدمي قاضيك وشافيك كما لو كان هو المسيح"[101]. ويؤكد نفس القديس على أنه كان قد رأى أناساً يعترفون مظهرين هذا الوضع المتذلل، وبهذه الأعين الدامعة وبصرخات اليأس حتى أنهم لطفوا من حدة القاضي "وحولوا غضبه إلى رحمة"[102].

إنه أمر طبيعي أن يشعر المرء بالخجل عندما يكون عليه أن يعترف بجرحه، ولكن يجب عليه أن يتغلب على ذلك: "لا تخفي خطاياك"[103]. وعلى الفور بعد الإعتراف والتعرية يأتي سلام داخلي. لقد سُجلَت قصة راهب غيور إستولى عليه فكر تجديف فأنهك جسده بالصوم والسهر ومع ذلك لم يشعر بأية معونة. وعندما قرر أن يعترف بهذا

99. Ibid. p. 108
100. Ibid.
101. Ibid. p. 109
102. Ibid. p. 109
103. Ibid. Step 22. CWS p. 205

الفكر للطبيب الروحي وكتبه على قطعة من الورق شفي في الحال. "وأكد لي الراهب أنه حتى قبل أن يغادر قلاية الشيخ كان مرضه قد ذهب عنه"[١٠٤]. يظهر ذلك حقيقة أن الإعتراف ليس عملاً إنسانياً، ولكنه يعمل بقوة الله فالنفس تشفى بواسطة النعمة الإلهية، ولا الصوم ولا السهر ينفعان ما لم يصلحبهما الإعتراف.

عادة ما يتلقى الآباء الروحيون ضربات من أولئك المعترفين عندما لا يعترفون بإتضاع وبمعرفة للذات. **تحدث مع الإعتراف عملية روحية وبالتالي يقاوم المريض.** ولكن نصيحة الآباء له واضحة: "لا تغضب من إنسان يجري لك عملية، بدون إرادتك، مثل الجرّاح ولكن أنظر بالأحرى للشيء البغيض الذي إستأصله منك، وإذ تلوم نفسك باركه لأنه قدم لك بنعمة الله مثل هذه الخدمة"[١٠٥]. يستأصل الإعتراف كل الأشياء الكريهة من النفس، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى تحركنا نحو الشفقة على ذواتنا من جهة، ونحو الإحساس بعرفان الجميل للطبيب الروحي من جهة أخرى . إن من يرفض النقد يُظهر وجود الهوى، ولكن أياً من يقبل النقد "يكون حراً من هذا القيد"[١٠٦].

يجب علينا أن نؤكد، من جديد، على أن التوبة المصحوبة بالإعتراف المقدس تشفي جراح المرء. تحرق التوبة، التي يهبها الروح القدس المعزي، القلب، وحيثما يكون الحزن فهناك تشفى كل الجراحات. يمتلك الشخص، الذي يكون في هذه الحالة، كنز البتولية العظيم. ينصح نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً: "لا تقل لنفسك لم يعد ممكناً بالنسبة لي أن أستعيد طهارة البتولية لأنني سقطت بعدة طرق في الدنس وأهواء الجسد". وحتى لو فقد إنسان ما بتوليته فإنه يستطيع أن يكتسبها من جديد من خلال دموع معمودية ثانية التي هي التوبة. من أجل ذلك يكمل نفس الأب القديس قائلاً: "لأنه حيثما يتغلب المرء على آلام التوبة بالإماتة وبحرارة النفس، وحيثما تجري أنهار الدموع من الندم، فإن كل دفاعات الخطية تسقط وتنطفىء كل نار الأهواء، ويحدث الميلاد الثاني السماوي من خلال مجيء الروح القدس المعزي، ومرة أخرى تصبح النفس قصراً للطهارة والبتولية"[١٠٧].

لا يمكن أن يحدث الميلاد الثاني للإنسان بدون الخضوع للآباء الروحيين الذين سوف يشفونه في المسيح: "لو أن إنساناً ما لم يخضع لأب روحي" على مثال المسيح الذي

---

104 . Ibid. Step 23. CWS p. 213
105 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 36, 31
106 . Ladder. Step 23. CWS p. 208
107 . Natural chapters. Ch. 50

خضع لأبيه حتى الموت على الصليب فإن ذلك يعني أيضاً أنه "سوف لا يولد ميلاداً ثانياً"[108]. إذاً هذا الميلاد الثاني "يأتي من خلال الخضوع للآباء الروحيين"[109].

ولكن عادة ما لا تشفى الأهواء الحقيرة بعد الإعتراف مباشرة، فالأمر يتطلب جهاداً عظيماً ونسكاً كثيراً لكي تتحرر النفس من أهوائها. ليس الإعتراف الشكلي الذي قد يتم تحت ضغوط نفسية كبيرة هو الذي يجلب غفران الخطايا، ولكن التحرر من الأهواء. إن الشخص الذي لم يتحرر من الأهواء بنعمة المسيح "لم يحصل بعد على الغفران"[110]. وتماماً مثلما لا يستطيع شخص مكث مريضاً لعدة سنوات أن يكتسب الصحة على الفور، فإنه غير ممكن أن يتغلب المرء على الأهواء ولا حتى على واحدة منها "في لحظة سريعة"[111]. إنه يحتاج لوقت وحياة نسكية على الأخص لأن "الأهواء التي تمارس عملياً تشفى أيضاً بالممارسة العملية"[112]. إذاً الذي يمنح اللاهوى هو كبح العواطف، وضبط النفس، والأعمال والجهادات الروحية"[113].

سوف نحاول فيما يلي أن نصف شفاء الأجزاء الثلاثة للنفس، وأهواء الجسد والنفس، وما هي الأمور التي تسبقها والأمور التي تتبعها. وسوف نصف هنا الطرق العامة لشفاء النفس.

لقد أشرنا في فصل آخر أن القديس غريغوريوس بالاماس قسم النفس لثلاثة أجزاء: الجزء الإدراكي والجزء الإنفعالي والجزء الراغب قائلاً، أنه عندما يبتعد المرء عن الله فإن كل قوة في نفسه تصبح مريضة، وتمرض كل النفس بجملتها أيضاً. إذاً الشفاء أمر مطلوب. يكمن الشفاء في الفقر الروحي الذي باركه الرب : "دعونا نحن أيضاً نكون مساكين بالروح بعد أن نضع ذواتنا ونتألم بالجسد، وألا نمتلك أي قنية" بحيث أننا قد نرث ملكوت السموات[114].

إننا سوف نشفي إدراكنا الذي تثور فيه أهواء الطموح بالإتضاع، وسوف نشفي الجزء الراغب حيث تثور أهواء حب القنية والبخل بالتخلص من كل الأهواء، وسوف نشفي الجزء الإنفعالي الذي تثور فيه الأهواء اللحمية بالنسك وضبط النفس. إنه أمر مميز أن القديس غريغوريوس يضع الوحدة والسكون العقلي ضمن طرق شفاء أهواء الطموح:

---

108 . Ibid. Ch. 54
109 . Ibid. Ch. 53
110 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 101
111 . Ladder. Summary of Step 26. CWS p. 259
112 . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 34
113 . Ibid.
114 . To Xeni. Gk. Philok. 4, p. 106

"الوحدة والبقاء في القلاية هما معونة ممتازة في شفاء هذه الأهـواء"[115] ولا تـشفى الأهـواء اللحمية بطريقة أخرى بخلاف تألم الجسد والصلاة الصادرة من القلب المنسحق الـذي هـو "مسكين بالروح"[116].

تُولِّد حياة الفقر الثلاثـي الحـزن الجـسدي المتـصل بالتـضرع الملائـم. ويُولِّـد الحـزن الدموع. إن قيمة الدموع في تنقية عقل الإنسان هي عظيمـة جـداً. يعطـي الفقـر الجـسدي إنسحاقاً للقلب: "يأتي أيضاً إنسحاق القلب من الكبح الثلاثي للنوم والطعـام والراحـة الجسدية. إذ تتحرر النفس من الشر والمرارة خلال الإنسحاق، فإنها تتلقى الفـرح الروحـي بدلاً منها"[117]. وتتولد ملامة النفس التي تلعب دوراً كبيراً في حيـاة الإنـسان الروحيـة مـن هذا الإتضاع والحزن الجسدي.

يقوم الفقر المادي، المعبر عنه في عدم القنية والمتحد بالفقر في الروح، بـتطهير العقـل. ويرى القديس غريغوريوس بالاماس أنه عندما يتحرر العقل من الحواس ويرتفع فوق تيار ضوضاء الأشياء الأرضية، ويعود لذاته فعندئذ يرى "التـدني الرهيـب الـذي إكتـسبه مـن خلال التجول في الأمور العالمية" ويستعجل لكي يتخلص منها بالحزن[118]. وهكذا يكتسب العقل نقاوة ويستمتع بالسلام من الأفكار. وعندما يتذوق العقـل صـلاح الـروح القـدس "تبدأ النعمة كما من قبل أن تصبغ الصورة بالمثال"[119]. وعندئذ يـصبح الإنـسان شخـصاً، طالما أن إختبار كوننا على صورة الله يجعلنا أشخاصاً. وفي البدايـة يكـون الحـزن مؤلمـاً لأنـه يكون مرتبطاً بمخافة الله ولكنه يكون مفيداً جداً. وبمرور الوقت يتولـد الحـب مـن نحـو الله والتشابه معه. وعندما يعيش المرء الأسى بعمق "فإنـه يجلـب، كثمـرة لـه، التعزيـة العذبـة والمقدسة التي للمعزي"[120].

تشبه بداية الحزن الـذي بحـسب الله "محاولـة الحـصول علـى خطبـة الله" وحيـث أن الخطبة لله تبدو مستحيلة فإن محبي الله يقرعون صـدورهم ويـصلون. وتكـون نهايـة الحـزن "إتحاد زيجي كامل نقي" بين النفس والله[121].

---

[115]. Ibid. p. 103
[116]. Ibid. p. 105
[117]. Ibid. p. 108
[118]. Ibid. p. 109
[119]. Ibid. p. 111
[120]. Ibid. p. 114
[121]. Ibid.

وهكذا وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس، فإن شفاء النفس الثلاثية الأجزاء يحدث من خلال الفقر الثلاثي المقابل لأجزائها. يولد الفقر الحزن الذي يعبر عن نفسه بعدة طرق قبل أن يقود الشخص للشركة مع الله. والحزن هو دواء مسهل للعقل والقلب.

وكما رأينا من قبل فإن القديس يوحنا الدمشقي أيضاً يقسم النفس إلى ثلاثة قوى: القوة الإدراكية والقوة الإنفعالية والقوة الراغبة. يحدث علاج وشفاء الجانب الإدراكي من خلال "الإيمان الراسخ في الله وفي التعاليم الأرثوذكسية الحقيقية والغير منحرفة خلال الدراسة المستمرة للكلمات الملهمة من الروح القدس خلال الصلاة النقية والدائمة وخلال ذبيحة الشكر لله". ويكون شفاء وعلاج الجزء الإنفعالى للنفس هو "التعاطف العميق مع القريب، والمحبة واللطف والمودة الأخوية، والحنو والصبر وطيبة القلب". وشفاء الجانب الراغب من خلال "الصوم وضبط النفس، والشدة والتخلص الكامل من المقتنيات وتوزيعها على الفقراء، والرغبة في البركات الأبدية المختزنة، والإشتياق لملكوت الله، والطموح في البنوة الإلهية"[١٢٢].

وصياغة القديس يوحنا الدرجي موجزة: " فلنسلح أنفسنا بالثالوث القدوس ضد الثلاثة بالثلاثة". أي فلنتحالف مع الثالوث القدوس ونسلح أنفسنا ضد الثلاثة التي هي: التهاون والبخل ومحبة المجد، بواسطة الثلاثة التي هي: ضبط النفس والمحبة والإتضاع[١٢٣].

لقد ذكرنا أن الآباء يسمون الجوانب الإنفعالية والراغبة "حسية". وبالتالي فإن النفس تقتني جزءاً إدراكياً وآخر حسياً. يتنقى الجزء الإدراكي بالقراءات الروحية والصلاة، والجزء الحسى بالمحبة وضبط النفس[١٢٤].

وكما أشرنا، فإن القديس مرقس الناسك يعتبر أهواء النسيان، والجهل، والكسل على أنها الثلاثة عمالقة الكبار. وهو يحثنا على أن نشفي النسيان "بيقظة الله" وأن نطرد ظلمة الجهل المدمرة من خلال نور المعرفة الروحية "وأن نتخلص من الكسل" من خلال الغيرة لكل ما هو حسن"[١٢٥].

يوجد أيضاً تمييز بين أهواء النفس وأهواء الجسد. تشفى هذه الأهواء بواسطة الممارسات الروحية الملائمة فتتوقف المشتهيات الجسدية وهجمات الجسد بواسطة ضبط

---

122 . Philok. 2, p. 337
123 . Ladder. Step 26. CWS p. 234
124 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 317, 84
125 . Philok. 1, p. 159

النفس والصوم والجهادات الروحية. "وتبرد إلتهابات النفس وإحتقان القلب بقراءة الكتاب المقدس وتقهر بالصلاة الدائمة. وتهدأ كل هذه بزيت التبكيت"[126].

يضع أيضاً الآباء في نسك الشفاء الخاص بهم الترتيب الذي يجب أن تتبعه الحرب ضد الأهواء. وبحسب نيسيتاس ستيثاتوس فإن الأهواء الرئيسية هي التهاون، والبخل، ومحبة المجد، والتي تتناسب مع الأوجه الثلاثة للنفس. وكما توجد ثلاثة أهواء عامة توجد أيضاً ثلاثة طرق للحرب ضدها: المبدئية والمتوسطة والنهائية. "إن المبتدئ الذي دخل الجهاد من أجل التقوى" يحارب ضد روح التهاون. إنه يخضع الجسد بالصوم والنوم على الأرض والسهر والصلوات الليلية. كما أنه يغمر النفس بتذكر عذابات الجحيم وبفكر الموت. أما الذي يكون في الجهاد المتوسط الذي هو بعد التطهر من أهواء التهاون "فإنه يتسلح ضد روح البخل المضاد للتقوى". والذي "عبر خلال المرحلة المتوسطة بالتأمل واللاهوى" والذي دخل غياهب اللاهوت فإنه يحارب ضد روح محبة المجد[127]. وهكذا يُستهدف التهاون أولاً ثم البخل وفي النهاية محبة المجد. هذا هو ترتيب العلاج.

لقد ذكرنا بيان الطرق العلاجية التي يجب علينا أن نستعملها لكي نشفي القوى الثلاثة المختلفة للنفس، وتكلمنا عن الأهواء الجسدية والنفسية، والثلاثة أهواء العملاقة العظيمة بين الأهواء وما إلى ذلك. والآن يجب علينا أن نفحص الطرق العلاجية العامة التي تنطبق على كل الأهواء.

أولاً وقبل كل شيء يجب على المرء ألا يضطرب في هذا الجهاد الروحي. فالإضطراب مؤذ جداً للنفس الجاهلة. لا يجب علينا أن نصاب بالإحباط عندما يحتشد الهوى ضدنا: "أن نسمح لأنفسنا أن نضطرب بهذه الإختبارات، هو جهل شديد وكبرياء، لأننا نكون غير مدركين لحالتنا ونهرب بعيداً عن العمل". يجب علينا أن نكون صبورين ونجاهد ونستعين بالله[128].

والخطوة التالية، هي أنه من الضروري ألا يكون لدينا ثقة كبيرة في ذواتنا، ولكن أن نتكل على الله. "لا يجب علينا بالمرة أن نثق في قلبنا الخاص، بسبب كوننا شهوانيين. فالحاكم الملتوي يستطيع أن يجعل حتى الأشياء المستقيمة ملتوية"[129].

---

126 . Nicetas Stethatos. Natural chapters, Ch. 68
127 . Ibid. Practical chapters, ch. 40-42
128 . Abba Dorotheos. SC p. 406f, 141. CS p. 194f
129 . Ibid. SC p. 526, 202, 2. CS p. 251, 2

توجد طرق أخرى، وهي محاربة الأهواء عندما لا تزال صغيرة: "إقتلع الخطية بينما لا تزال صغيرة قبل أن تنتشر وتغطي الحقل". لو كان شخص ما مهملاً، عندما تبدو الخطية خفيفة، فإنه فيما بعد "سوف يجدها سيداً عديم الإنسانية". إن الذي يحارب ضد الشهوات من البداية "سوف يخضعها سريعاً"[130]. لأنه أمر واضح أن "إقتلاع نبات صغير هو شيء وإقتلاع شجرة كبيرة هو شيء آخر"[131]. يكون قطع الأهواء في البداية سهلاً ولا يحتاج إلا لجهود قليل، على حين أنها لو كبرت ومضي عليها وقت كبير فإنها "تحتاج مجهوداً كبيراً"[132]. كلما كانت أصغر سناً كلما كان الجهاد ضدها أسهل.

يجب علينا أن نقطع المثيرات والمسببات التي تثير الأهواء. لقد وصفنا من قبل كيف يتطور الفكر إلى هوى. وعندما نراقب أفكارنا، ونلفظ العرض المقدم من الفكر الشرير، فإننا نتجنب توالد وإشتعال الأهواء. إن الذي يرفض الإثارة "يقطع كل ما يأتي بعد ذلك دفعة واحدة"[133]. وعندما يتلاعب عقلنا بشيء حسي، فإن الأهواء تتولد أو تشتعل بطريقة طبيعية. إنه أمر ضروري أن ينتزع الإنسان نفسه من الشيء الذي أخذ عقله في الأسر. وما لم يُنتزع العقل من هذا الشيء "فإنه لن يكون قادراً على تحرير نفسه من الهوى المؤثر عليه"[134]. يجب علينا في هذا السياق الروحي أن نبتعد عن الشهوات والأعمال النجسة "ونُظهر أننا نتركها من أجل الخير"[135].

إنه تعليم آبائي شهير أن يقطع المرء أسباب ودوافع الخطية. لا يطالبنا الله الذي هو طبيب النفوس والأجساد أن نتخلى عن "علاقاتنا بالناس" ولكن أن نقطع الأسباب الشريرة في ذواتنا"[136]، "إن الذي يكره الأهواء يتخلص من أسبابها"[137]. لو قاوم المرء الفكر "فإن الهوى يضمحل ويصبح أضعف من أن يحاربه ويغلبه، وهكذا "يسود على الهوى نفسه قليلاً قليلاً بالجهاد المسنود بالله"[138]. ولكي نُلخِّص موضوع قطع أسباب الأهواء والإندفاعات، نستطيع أن نقول أن النصيحة العامة للآباء هي: "في أي وقت يهاجمك الهوى إقطعه بعيداً على الفور"[139].

---

130 . St. Isaac the Syrian. Ascetical Homilies, 5 p. 43
131 . Abba Dorotheos. SC p. 360, 114. CS p. 173
132 . Ibid. SC p. 360, 115. CS p. 174
133 . St. John of Damascus. Philok. 2, p. 338
134 . St. Maximus. Philok. 2, p. 65, 2
135 . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 24
136 . St. Cassian of Rome. Philok. 1, p. 84
137 . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 135, 119
138 Abba Dorotheos. SC p. 510, 190. EF p. 177, 109. cf. CS p. 243
139 . Sayings, p. 182, 22

إننا نحتاج لجهاد شديد لكي نقلل الأهواء، كما نحتاج ليقظة روحية "لئلا تزداد بالأكثر". وأيضاً جاهد لكي تكتسب الفضائل، ثم كن يقظاً لكي تحافظ عليها"[١٤٠]. وهكذا *يتراوح كل جهادنا بين الحرب واليقظة.*

إن الجهاد عظيم، كما أنه ليس أمراً سهلاً أن يغير المرء ذاته وأن يطهر نفسه من الأهواء ويملأها بالفضائل، إذ أن تنقية الإنسان تكون سلبية وإيجابية. وبحسب الآباء فإن الحرب الروحية تحدث من خلال حفظ وصايا المسيح، ونحن نعلم أنه عندما يجاهد شخص ما لكي يخضع جسده لنفسه ونفسه لله تتولد فضائل الجسد والنفس. **يتغذى الجسد في الإنسان الساقط بالمادة والأشياء المادية وتتغذى النفس بالجسد.** والآن يجب أن يحدث العكس. يجب علينا أن نتخلص من الحالة الغير طبيعية، ويجب على نفوسنا أن تتعلم أن تتغذى بنعمة الله، وأن يُطعم الجسد بواسطة النفس "الممتلئة نعمة"، وعندئذ سيحصل كياننا على التوازن. يتحقق ذلك بأن نعمل على إكتساب فضائل، مثل الإتضاع والحب والصوم والنسك، والصلاة والطاعة، وما إلى ذلك. إننا نود أن نشير بخصوص تلك النقطة إلى بعض الفضائل الأساسية لتحولنا.

ينفي السلوك في **حياة المحبة** كل الأهواء. "جاهد أن تحب كل إنسان بالتساوي وعندئذ سوف تلفظ كل الأهواء في نفس الوقت"[١٤١].

تكون **الصلاة الدائمة** التي هي "نداء إسم الله بإستمرار دواءً يدمر ليس فقط كل الأهواء، ولكن أيضاً السلوك المرتبط بها". ومثلما يضع الطبيب غياراً على جرح المريض ويفلح ذلك دون أن يعرف المريض كيفية حدوثه هكذا أيضاً نداء إسم الله "يزيل الأهواء دون أن نعلم كيف ولماذا"[١٤٢].

يقول القديس يوحنا الدرجي أن علاج كل الأهواء هو **الإتضاع**: "إن أولئك الذين يمتلكون هذه الفضيلة قد كسبوا الحرب بجملتها"[١٤٣]. يقول داود الملك والنبي في المزمور ١٠٤ من جهة وحوش البرية: "تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض". ويفسر القديس يوحنا الدرجي ذلك قائلاً أنه عندما تشرق الشمس في نفوسنا "خلال ظلام الإتضاع "فعندئذ " تجتمع الوحوش البرية إلى حيث تنتمي في القلوب الشهوانية، وليس

140 . St. Maximus. Philok. 2, p. 66, 11
141 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 39
142 . Barsanuphius and John. Q. 324. In Gk.
143 . Ladder. Step 26. CWS p. 236

في قلوبنا"[144]. تشرق شمس البر خلال الإتضاع، وعندئذ تهرب كل الوحوش البرية التي للأهواء. إن ربط قوى النفس مع الفضائل سوف يحررنا من طغيان الأهواء"[145].

يُخضع **خضوعنا للأب الروحي** المتزج بضبط النفس وحوش البرية التي للأهواء"[146].

يجاهد المسيحي لكي "يسلسل حواسه بالنسك وعقله بصلاة يسوع ذات الكلمة الواحدة، وهكذا إذ ينتزع نفسه من الأهواء سوف يجد نفسه ملتصقاً بالرب أثناء الصلاة"[147].

"لو أردت أن تتحرر من كل الأهواء، مارس ضبط النفس والمحبة والصلاة"[148]. توجد بعض الأعمال التي تُوقف حركة الأهواء ولا تسمح لها بالنمو، وتوجد أعمال أخرى تخضعها وتقللها. وعندما يتعلق الأمر بالشهوة فإن الصوم والجهاد والسهر لا يسمح للهوى أن ينمو، على حين أن العزلة والثيئوريا والصلاة والإشتياق الشديد لله يخضعه ويجعله يختفي. ومن جهة الغضب فإن الإحتمال والتخلص من الحقد، واللطف مثلاً يوقفونه جميعاً ويمنعونه من النمو، على حين أن الحب وأعمال المحبة والصلاح والحنو يقللونه[149]. إن ذاك الذي تخلى عن الأشياء العالمية من قلبه ويخدم قريبه بمحبة وصدق "يتحرر سريعاً من كل هوى، ويصبح شريكاً في محبة ومعرفة الله"[150].

تدفع اليقظة والمقاومة والصلاة إثارة التجربة بعيداً، ويبقى كل شيء خاملاً، أي أن، الإثارة لا تصل للموافقة والهوى. "إذا كان العقل منتبهاً ويقظاً ويلفظ الإثارة على الفور بمقاومتها وإنكارها والتوسل للرب يسوع، فإن نتائجها تبقى غير فعالة"[151].

لقد منح الله الإنسان عطيتين عظيمتين للنعمة، التي من خلالها قد ينجو "ويخلص من كل أهواء الإنسان العتيق، وهما الإتضاع والطاعة"[152].

إن كلمة الله هي أيضاً وسيلة مساعدة للتنقية وللتحرر من الأهواء. إذ يتكلم بولس الرسول عن السلاح الروحي الذي يجب على كل مسيحي أن يمتلكه، فيشير إلى كلمة الله قائلاً: "وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله"(أف١٧:٦). إننا نحتاج لأن

---

١٤٤ 144. Ibid. p. 252
١٤٥ 145. St. Thalassios. Philok. 2, p. 310, 65
١٤٦ 146. Sayings. P. 7, 36
١٤٧ 147. Ilias the Presbyter. Philok. 3. p. 57, 75
١٤٨ 148. St. Thalassios. Philok. 2, p. 312. 93
١٤٩ 149. St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 47
١٥٠ 150. Ibid. p. 55, 27
١٥١ 151. Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 46
١٥٢ 152. Barsanuphius and John. ET q. 550, p. 119

نضع كلمات الله بإستمرار أمام أعيننا: "كرس ذاتك لكلمات الله بغير إنقطاع، فالإنكباب عليها يحطم الأهواء" [153]. وفي موضع آخر يخبرنا القديس ثالاسيوس أن نجاهد لكي نتمم الوصايا "بحيث نستطيع أن نتحرر من الأهواء" [154].

تُشير وصايا الله إلى النفس الثلاثية الأجزاء: "وتسن وصايا المسيح الشرائع للنفس الثلاثية الأجزاء، ويبدو أنها تجعلها صحيحة من خلال ما تفرضه. إنها لا تبدو فقط ولكنها تقتني هذا التأثير بالفعل" [155]. ثم يذكر القديس ثالاسيوس عدة أمثلة ليوضح ذلك. فمن جهة الجزء الإنفعالى للنفس فهو يشير إلى وصية "إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (مت٥ : ٢٢) ومن جهة الجزء الراغب يشير إلى وصية "إن كل من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت٥ : ٢٨) ومن جهة الإدراك فوصية: "من لا يترك كل شيء ويتبعني فلا يستحقني" (أنظر مت ١٠: ٣٧- ٤٢).

وبحسب القديس فيلوثيئوس، فإن المسيح يسن القوانين للنفس الثلاثية الأجزاء من خلال الوصايا. ولكن الشيطان يحارب ضد النفس الثلاثية الأجزاء، وبالتالي يحارب وصايا المسيح [156]. لو أتممنا وصايا المسيح فإننا نتطهر من أهوائنا التي هي إستعداد سيء "لإنساننا الداخلي" [157].

ولقد أشرنا، من قبل، إلى أن الحزن والتوبة والإعتراف، تعتبر من ضمن أكثر الأسلحة فاعلية ضد الأهواء: "أولئك الذين يغشاهم الخمر غالباً ما يُغسلون بالماء، أما أولئك الذين يغشاهم الهوى فيُغسلون بالدموع" [158].

تشكل أيضاً الحروب والتجارب المتنوعة في حياتنا، والتي هي "أسباب لا إرادية"، دعماً للتوبة. إن فيروس الشر عظيم ويتطلب نار التوبة المطهرة خلال الدموع. لأننا نغتسل من أدناس الخطية إما من خلال الآلام الإرادية التي للنسك، أو من خلال التجارب اللاإرادية. عندما تتقدم الآلام الإرادية التي للتوبة فعندئذ لا تتبعها الآلام اللاإرادية التي هي التجارب العظيمة. لقد دبر الله الأمر بحيث أنه عندما لا يؤدي النسك الإرادي للتطهير، فعندئذ "تُنَشِط الأسباب اللاإرادية بصورة أكثر حدة إستعادتنا لجمالنا

153 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 326, 18
154 . Ibid. p. 313, 13
155 . Philotheos. Philok. 3, p. 21, 16
156 . Ibid. p. 22f
157 . Abba Dorotheos. SC p. 154, 6. cf CS p. 80
158 . Ladder. Step 26. CWS p. 253

الأصلي"[159]. وهذا يعني، أن العديد من التجارب التي تأتي خلال حياتنا تكون بسبب أننا لم نتب بصورة إرادية. يؤدي حمل صليب التوبة عن إرادة ورغبة، إلى تجنبنا لصليب التجارب الغير إرادية والغير مرغوبة.

يوجد سلاح آخر عظيم ضد الأهواء وهو "**السكون**"، وبالأخص سكون العقل الذي سوف نتحدث عنه في فصل آخر. يؤكد بولس الرسول على أن: "ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة" (٢تي٢: ٤). ويعلق على ذلك القديس مرقس الناسك قائلاً أن ذاك الذي يريد أن يغلب الأهواء بالإنخراط في الأمور العالمية، يشبه الذي يريد أن يطفئ ناراً مستخدماً القش"[160]. إن موضوع السكون والعزلة هو بلا شك موضوع عظيم وحساس. فالعزلة ليست صالحة لكل واحد. لأنه لو أن شخصاً ما لديه هوى مختبئ في نفسه، فإنه لا يستطيع أن يشفى في الصحراء طالما أنه لا يوجد هناك ما يثير هذا الهوى. يقول القديس يوحنا الدرجي أنه عندما يجرب شخص مريض بهوى ما في نفسه حياة الوحدة، فإنه يكون مشابهاً لمن قفز من السفينة في البحر ظاناً أنه سوف يصل للشاطئ على لوح خشبي"[161].

ونصيحة الآباء عن السكون هي غير متناقضة. فالسكون هو "الإقامة في الله" وهو طهارة العقل، وهذا ما يسمى السكون العقلاني. يساعد الجهاد على تقليل مثيرات الحواس، وعلى تكريس النفس للصلاة، وعلى التحرر من الأهواء. ولكن عندما يهرب شخص ما من الناس بدون إعداد خاص، وبدون مباركة خاصة من مرشد روحي مفرز، ويمضي إلى الصحراء، فإنه لن يستطيع أن يشفى. لأن الصحراء تخفي أهواء الرجل الذي يذهب هناك بدون الإعدادات المطلوبة بدلاً من أن تشفيها"[162].

لقد تكلمنا من قبل عن طرق متعددة لشفاء الأهواء بوجه عام. ونتمنى الآن أن نقدم أيضاً العديد من الطرق العلاجية المعينة التي تشفي أهواءً معينة.

وبحسب القديس يوحنا كاسيان توجد ثمانية أفكار شريرة: النهم ـ النجاسة ـ البخل ـ الغضب ـ الكآبة ـ الفتور ـ البر الذاتي والكبرياء. كيف يمكن أن تشفى هذه الأفكار الثمانية المطابقة للأهواء الثمانية؟

---

159 . Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 9
160 . Philok. 1, p. 117, 107
161 . Ladder. Step 27. CWS p. 262
162 . Philok. 1, p. 85

يُشفي النهم بضبط المعدة. "نتجنب فرط الأكل وإمتلاء البطن " بواسطة "صوم النهار" وبواسطة "عدم ترك ملذات الحلق تقودنا للضلال"[١٦٣].

تُشفي النجاسة بواسطة حفظ العقل من "الأفكار الدنيئة". إنها تُشفى بإنسحاق القلب "والصلاة المكثفة لله والتأمل المستمر في الأسفار المقدسة والعمل اليدوي الشاق يساعد إتضاع النفس أكثر من أي شيء آخر"[١٦٤].

يُشفى البخل بالتجرد والفقر، مثلما يعلم الكتاب المقدس والآباء[١٦٥].

يُشفى الغضب الذي يعمي عيون القلب بإحتمال القريب. والسلام الداخلي الذي هو عكس الغضب "لا يتحقق من خلال الصبر الذي يُظهره الآخرون من نحونا، ولكن من خلال إحتمال الأذى بصبر من جهة قريبنا". إنه لا يكفي أن يتجنب المرء الغضب على الناس، ولكن "أيضاً الغضب على الحيوانات وحتى الأشياء الجامدة". وبالإضافة إلى ذلك فإنه يُشفى بكبح ليس فقط "التعبير الظاهري عن الغضب بل وأيضاً أفكار الغضب". لا يجب علينا فقط أن نضبط لساننا في وقت التجربة ولكن "أن ننقي قلبنا من الحقد، وألا نضمر أفكاراً خبيثة ضد إخوتنا". ويكون الشفاء النهائي في "إدراك أنه لا يجب علينا أن نغضب لأي سبب، مهما كان، سواء كان حقاً أم باطلاً"[١٦٦].

تُشفي الكآبة بحرب توجه "ضد الأهواء الداخلية". يجب علينا أن نحارب "ضد شيطان الكآبة الذي يلقي بالنفس في اليأس. فيجب علينا أن نطرده من قلوبنا". فلنتعهد فقط الحزن "الذي يتمشى مع التوبة من الخطية والمصحوب بالرجاء في الله". ويعني ذلك أن الكآبة تُطرد وتُشفى عندما نحولها بنعمة الله وبشجاعتنا الخاصة إلى حزن روحي، الذي هو حزن التوبة. يجهزنا هذا الحزن الإلهي ويجعلنا طائعين وتواقين لكل عمل صالح "ومرنين ومتواضعين ولطفاء ومحتملين وصبورين على إحتمال كل الآلام أو المحن التي قد يرسلها لنا الله"[١٦٧].

لا يُشفى الفتور بأية طريقة أخرى بخلاف" الصلاة، وتجنب الحديث الباطل، ومن خلال دراسة الأسفار المقدسة، ومن خلال الصبر في مواجهة التجربة". ويكون العمل الجسدي أيضاً مطلوباً. لا يسمح آباء مصر القديسون "للرهبان أن يكونوا بدون عمل في أي وقت".

---

163 . Ibid. p. 73f
164 . Ibid. p. 75
165 . Ibid. p. 81f
166 . Ibid. p. 83ff
167 . Ibid. p. 87f

إنهم لا يعملون فقط من أجل إحتياجاتهم "ولكنهم من عملهم يساعدون أيضاً ضيوفهم والفقراء والمساجين، مؤمنين أن أعمال المحبة هذه هي ذبيحة مقدسة مقبولة لدى الله"[168].

أما البر الذاتي، فهو متعدد الصور وخفي، ويتطلب إنتباهاً كبيراً. ويجب على المرء أن يستعمل كل وسيلة ليتغلب على هذا "الحيوان المتعدد الصور". ولا يجب على المرء أن يفعل أي شيء وهو منتظر مديح الآخرين، كما يجب عليه "أن يطرد بإستمرار أفكار البر الذاتي التي تدخل القلب، وأن ينظر لذاته على أنه لا شيء أمام الله"[169].

وأخيراً فإن الكبرياء هو الصراع "الأكثر شراً والأكثر عنفاً من كل ما قيل حتى الآن". إنه يشفي خلال الإتضاع، الذي يتحقق من خلال الإيمان ومخافة الله واللطف والتخلي عن المقتنيات. إننا نحصل على الحب الكامل بواسطة هذه الأشياء[170].

ولكن الشيطان عدو خلاصنا بارع. من أجل ذلك يجب على المسيحي الذي يجاهد في هذه الحرب أن يكون هو نفسه بارعاً. **يظهر دهاء الإنسان في الطرق التي يستعملها لكي يخدع الشيطان.** إننا نجد في كتابات الآباء العديد من الحالات "الماهرة" التي هرب فيها الشيطان وشُفيت النفس.

† عادة ما تميل الأهواء للعودة ثانية[171]. إنها تعود بعد قليل بصورة أقوى، بينما تبدو أنها قد شفيت أو تلاشت. ومن كلمات السيد المسيح المشهورة كلماته عن الروح النجس: "إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد. ثم يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده فارغاً مكنوساً مزيناً. ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك. فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله" (مت١٢: ٤٣-٤٥). يعي القديسون ذلك ويتخذون كل الإحتياطات الضرورية.

إننا نود فيما يلي أن نورد بعض طرق ومقترحات الآباء. يجب علينا أن نحارب أساساً ضد الهوى السائد "حيث أنه سيكون بلا جدوى أن نتغلب على الأهواء الأخرى قبل أن نزيل هذا الهوى بالذات"[172].

يجب علينا، عندما نحارب إثنين من الأهواء في نفس الوقت، أن نفضّل الإستسلام للهوى الأخف لئلا يغلبنا الهوى الأقوى. يقدم القديس يوحنا الدرجي مثالين. قد يحدث في

---

[168]. Ibid. p. 89ff
[169]. Ibid. p. 91f
[170]. Ibid. p. 92f
[171]. Ladder. Step 3. CWS p. 86
[172]. Ibid. Step 15. CWS p. 176

بعض الأحيان أن يأتي الأخوة بينما نكون في الصلاة، وعندئذ يتعين علينا أن نفعل أحد أمرين إما ألا نستقبل الأخوة أو أن نكف عن الصلاة من أجل إستقبالهم. إننا كنا سنفضل أن نوقف الصلاة لأن "المحبة أعظم من الصلاة". ويقول القديس في موضع آخر، أنه كان في بلدة ما وبينما كان جالساً على المائدة هوجم بفكر النهم والمجد الباطل، ففضل أن يهزم من المجد الباطل (أي أن يكون معتدلاً في تناول الطعام وأن يمدح لكونه صواماً) لأنه كان يخاف من النهم أكثر. "وإذ كان يعرف ويخاف من نتائج النهم، أي الشهوة، قرر أن يستسلم للمجد الباطل"[173].

يُعلِّم الأب يوسف أنه يكون من الأفضل، في بعض الأحيان، أن ندع الأهواء تدخل داخلنا ثم نحاربها هناك، وفي أحيان أخرى أن نقطعها من القلب تماماً، وهكذا أجاب أخ سأله عن هذا الأمر قائلاً: "دعها تأتي وحاربها" موضحاً أنه كان يفضل ذلك. ولكن إذ سأله أخ آخر نفس السؤال، عما إذا كان يجب عليه أن يدع الأهواء تقترب أم أن يقطعها، أجاب قائلاً: "لا تدع الأهواء تأتي داخلك بالمرة ولكن إقطعها على الفور"[174]. يُظهر ذلك أن المعالج الروحي هو الشخص الذي سوف يعهد إلينا بنوع الجهاد والحرب المناسب بالإضافة إلى الطريقة المناسبة، لأن كل شخص يختلف عن الآخر وتكون كل حالة فريدة.

يذكر القديس يوحنا الدرجي الطرق التي يستطيع بها المرء أن يهزم الشياطين. تبدو هذه الطرق متطرفة ويجب أن ننوه إلى أن هذه الطرق لا يستطيع كل أحد أن يطبقها ولكن فقط "ذاك الذي إنتصر على الأهواء". وبتعبير آخر فإن النقي القلب لديه عدة طرق ليصيب الشياطين.

كان أخ يعاني من الإهانة ولكنه لم يكن يضطرب بسببها بالمرة، و كان يصلي في قلبه ومع ذلك بدأ في الإعتراض والعويل من جهة الإهانة التي تعرض لها، بحيث أنه أخفى اللاهوى الذي كان فيه بهوى زائف مختلق.

وتظاهر أخ آخر بأنه مستحق لمركز الأب الرئيس، على حين أنه لم يكن يمتلك أية رغبة فيه بالمرة.

وأخ آخر، كان معروفاً بعفته، ذهب إلى بيت دعارة "بحيث بدا كما لو كان ينوي إرتكاب الخطية" وجذب الزانية إلى حياة النسك. وأخ آخر أُعطي عنقود عنب، وعندما مضى الأخ الذي

---

[173] . Ibid. Step. 26. CWS p. 238f
[174] . Sayings p. 87, 3

أحضره أكله الناسك مظهراً ذاته كما لو كان يلتهمه بشراهة، على حين أنه لم يكن في الواقع يتلذذ به بالمرة، وبهذه الطريقة "جعل الشياطين تنخدع وتتصور أنه نهماً".

لقد كانت كل تلك الأشياء تفعل من قبل أولئك المدعوين "مختلين في المسيح" بهدف خداع الشيطان وإعطاء الفائدة للأخوة بعدة طرق. ولكن هذا يتطلب نقاوة خاصة وبركة خاصة ونعمة من الله. وبالتالي يكتب القديس يوحنا الدرجي من جهة هذه الملابسات قائلاً أنه يجب على الذين يستخدمون هذه الطريقة أن يكونوا يقظين جداً "لأنهم بينما يحاولون أن يخدعوا الشياطين قد يخدعون ذواتهم"[175].

يستطيع المرء بعد جهاد عظيم، وبنعمة الله، أن يشفي أهواء وأوجاع نفسه وأن يصبح ملكاً. يختبر المجاهد الروحي مثل تلك المواهب بحيث أنه يستطيع أن يردد كلمات الأنبا يوسف: "أنا اليوم ملك لأني أتسلط على الأهواء"[176]. وعندئذ يستمتع بحياة المسيح لأن "ذاك الذي أمات الأهواء وتغلب على الجهل يمضي من حياة لحياة"[177].

ولكن يجب علينا أن نجاهد بإستمرار طالما أننا موجودون في هذه الحياة ونحمل فساداً وموتاً. من أجل ذلك حتى عندما يتغلب المرء على "كل الأهواء تقريباً" يبقى هناك شيطانان يحاربان إنسان الله. يربك الواحد منهما النفس "بتشتيتها عن محبتها العظيمة لله في غيرة في غير محلها، بحيث لا تريد أن تكون أية نفس أخرى مرضية أمام الله أكثر منها". وهذا يعني أن هذا الشيطان يدفع النفس في غيرة في غير أوانها للوصول للكمال، ولئلا تكون أية نفس أخرى أكثر إرضاءً لله منها. والشيطان الثاني يقوم بسماح من الله "بإلهاب الجسد بشهوة جنسية". يسمح الرب بهذه التجربة لذاك الذي يبلى بلاء حسناً في فضائل عديدة "بحيث يرى الناسك نفسه أقل من أولئك الذين يعيشون في العالم" وهكذا يكسب خلاصه من خلال الإتضاع والإنسحاق. يجب علينا أن نحارب التجربة الأولى بإتضاع وحب عظيمين، والثانية بضبط النفس والتحرر من الغضب والتأمل المستمر في الموت[178]. وهكذا يسمح لنا الله أن نحارب من قبل الشيطان على مدار حياتنا لكي يجعلنا منسحقين.

قال أخ للأب بيمن: "لقد مرض جسدي ومع ذلك لم تضعف أهوائي"[179]. وعلى الرغم من هذه الأمور، فإن المرء في محاولاته لكي يتطهر يختبر حالة اللاهوى المباركة. ومن أجل ذلك نأتي الآن لدراسة حالة اللاهوى المباركة.

---

175 . Ladder. Step. 26. CWS p. 248
176 . Sayings. P. 88, 10
177 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 328, 53
178 . St. Diadochos. Philok. 1, p. 294, 99
179 . Sayings. P. 159, 161

٤- اللاهوى

إننا سوف نجتهد لكي نجعل دراستنا عن اللاهوى مختصرة لأن ما قيل من قبل يظهر لنا أيضاً طريقة الوصول لهذه الحالة المباركة.

إن قيمة اللاهوى للحياة الروحية عظيمة جداً. فالذي يصل لهذه الحالة يصبح قريباً لله ومتحداً به. تظهر الشركة مع الله أنه يوجد لاهوى. إن اللاهوى بحسب تعليم الآباء هو "صحة النفس"[١٨٠]. فلو أن الأهواء هي مرض النفس فإن اللاهوى هو حالة الصحة للنفس. اللاهوى هو "قيامة النفس السابقة لقيامة الجسد"[١٨١]. يكون المرء بلاهوى عندما يطهر لحمه من كل فساد ويرفع عقله فوق كل شيء مخلوق ويجعله سيداً لكل الحواس، وعندما يحفظ نفسه في حضرة الرب[١٨٢]. يكون اللاهوى إذاً هو الدخول لأرض الموعد[١٨٣]. يلقي الروح القدس نوره على ذاك الذي إقترب من حدود اللاهوى وصعد بدرجة تناسب نقاوته من جمال الأشياء المخلوقة إلى الخالق[١٨٤]. وبتعبير آخر فإن اللاهوى له قيمة عظيمة وينال إطراء الآباء بإفراط لأنه هو تحرر العقل. لو أن الأهواء تستعبد وتأسر العقل فإن اللاهوى يحررها ويقودها نحو المعرفة الروحية للكائنات ومعرفة الله: "يحث اللاهوى العقل للوصول إلى المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة"[١٨٥]. وبالتالي يقود للمعرفة الروحية[١٨٦]. ويكتسب المرء موهبة الإفراز العظيمة كنتيجة لهذه المعرفة الروحية. يستطيع الشخص الذي يحيا في النعمة أن يميز بين الشر والخير والطاقات المخلوقة من غير المخلوقة وأعمال الشيطان من أعمال الله. "يتولد الإفراز من اللاهوى"[١٨٧].

يتكلم المعاصرون كثيراً عن الملكية المشتركة والفقر، ولكن خطأ أغلبهم هو أنهم يحدّون الفقر في الخيرات المادية وينسون أنه شيء أبعد من هذه الأشياء. **يختبر المرء الفقر الحقيقي عندما يتحرر عقله من كل شيء مخلوق ويكف عن أن يكون عبداً للأمور المخلوقة ويرفع نفسه نحو الله.** هذا الفقر الحقيقي الذي للروح يكتسبه الإنسان الذي بلا

---

180 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313,3
181 . Ladder. Step 29. CWS p. 282
182 . Ibid.
183 . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 49, 14
184 . Nicetas Stethatos. Practical chapters, Ch. 90
185 . St. Thalassios. Philok.2, p. 326, 20
186 . St. Maximus. Philok. 2, p. 107,58
187 . Ibid. p. 69, 25

هوى: "الفقر الروحي هو اللاهوى الكامل، وعندما يصل العقل لهذه الحالة فإنه يهجر كل الأمور العالمية"[188].

ولكن يجب علينا أن نعطي تعريفاً للاهوى. تكلم الفلاسفة الرواقيون منذ أزمنة قديمة عن اللاهوى على أنه إماتة النفس الحسية. لقد أكدنا من قبل على أن الجزء الحسى للنفس يتكون من الجانب الإنفعالى والجانب الراغب. وبحسب التفسير القديم فإنه عندما تمات هذه فعندئذ نحصل على اللاهوى.

وعلى أية حال فعندما يتكلم الآباء عن اللاهوى فهم لا يعنون إماتة الجزء الحسى من النفس ولكن تحوله. وحيث أن قوى نفوسنا أصبحت في حالة غير طبيعية من خلال سقوط الإنسان، فإنه من خلال اللاهوى الذي هو التحرر من الأهواء تكون نفوسنا في الحالة الطبيعية.

وبحسب تعليم الآباء، فإن اللاهوى هو الحالة التي لا تخضع فيها النفس لأية دوافع شريرة، ويكون ذلك مستحيلاً بدون رحمة الله[189]. وبحسب القديس مكسيموس فإن "اللاهوى هو حالة سلام للنفس لا تتحرك فيها بسهولة نحو الشر"[190]. وهذا يتطلب أن يعني اللاهوى أن لا يعاني المرء من الصور العقلية للأشياء[191]، أي أن تكون النفس خالية من الأفكار التي تتحرك بالحواس وبالأشياء ذاتها. ومثلما حدث في الماضي أن إشتعلت العليقة بالنار دون أن تحترق، هكذا أيضاً يكون الحال في الشخص الذي يعيش في اللاهوى "مهما كان جسده ثقيلاً ومحموماً" لا تربكه ولا تؤذيه حرارة جسده، لا عضوياً ولا عقلياً. إذ أنه في هذه الحالة "يزجر صوت الرب لهيب الطبيعة"[192]. وهكذا يمتلك الشخص الذي يعيش في اللاهوى عقلاً حراً ولا يرتبك بأي شيء أرضي ولا بحرارة جسده. وبالتأكيد لا يمكن التعبير عن حرية العقل من كل دوافع الجسد ومن الصور العقلية للأشياء، لأولئك الذين يعيشون لا في حالة اللاهوى وإنما يعيشون بطاقات الأهواء. وعلى أية حال فإن ما يسميه العالم طبيعياً فبالنسبة لإنسان الله يكون غير ضبيعي. ويختبر ما يسمى فائق للطبيعة على أنه طبيعي. لقد وجُهت للقديس سمعان اللاهوتي الجديد إتهامات حول أنه من المستحيل على الناس أن يعيشوا في الحالات الفائقة لطبيعة

---

[188] - St. Thalassios. Philok. 2, p. 318, 90
[189] - Ibid. p. 309. 40
[190] - Philok. 2, p. 56. 36
[191] - Ibid. p. 89. 35
[192] - St. John of Karpathos. Philok. 1, p. 298, 3

هذه وأن يحيوا في حرية من الجسد، فكتب قائلاً أن ذاك الذي لا يحيا في اللاهوى لا يعرف ما هو اللاهوى "ولا يستطيع أن يصدق أن أي إنسان على الأرض يستطيع أن يمتلك هذه الحالة"[١٩٣]. ويكون هذا طبيعياً إلى حد ما "لأنه عندما يحكم شخص ما على شئون قريبه على أنها صالحة أم شريرة فإنه يفعل ذلك مستنداً فقط على حالته هو الشخصية"[١٩٤]. يحكم كل واحد بحسب محتويات حياته هو، وبحسب الطريقة التي يعيش بها هو. على أية حال فإنه من المؤكد بالنسبة لأولئك الذين إختبروا أن العلامة المميزة لشخص يحيا في اللاهوى هي "بقاؤه هادئاً وبلا خوف في كل الأشياء" طالما أن المرء يكون قد تلقى من الله "القوة لكي يفعل أي شيء"[١٩٥].

نقول كل ذلك لكي نؤكد على حقيقة أن اللاهوى هو حالة طبيعية تماماً، فهي تحول الجزء الحسي وعودته لحياة طبيعية. لقد كان هذا الموضوع هو موضوع جدل كبير دار في القرن الرابع عشر بين القديس غريغوريوس بالاماس وبرلعام الفيلسوف الذي إذ شجب نوع الصلاة التي يمارسها السكونيون، أصر على أن اللاهوى هو إماتة الجزء الحسي. ولكن إذ كان لدى القديس غريغوريوس خبرة شخصية عن هذا الأمر وكان يعبر عن كل خبرة الكنيسة دحض هذه الرؤية: "ولكننا أيها الفيلسوف علمنا أن اللاهوى لا يشتمل على إماتة الجزء الإنفعالي للنفس، ولكن على حمله من الشر للخير وتوجيه طاقاته للأمور الإلهية، وتحويله بعيداً عن الأشياء الشريرة ونحو الأشياء الصالحة"[١٩٦]. إن الشخص الذي يحيا في اللاهوى هو ذاك الذي "يُعرَف بالفضائل مثلما يعرف رجال الأهواء باللذات الشريرة". يخضع رجال الأهواء عقلهم للهوى، على حين أن الذي يحيا في اللاهوى يخضع الجزء الحسي من النفس الذي هو الجزء الإنفعالي والجزء الراغب "لقوى المعرفة والتمييز والعقل في النفس"[١٩٧]. إنه سوف يكتسب معرفة الله بواسطة الجزء المدرك للنفس، من خلال معرفة الأشياء المخلوقة المفهومة بطريقة روحية، وسوف يمارس "الفضائل المناسبة" بواسطة الجزء الحسي حيث أنه سوف يعتنق الحب بواسطة الجزء الراغب، وسيمارس الصبر بواسطة الجزء الإنفعالي"[١٩٨]. وهكذا يكون اللاهوى هو تحول الجزء الحساس وخضوعه للعقل الذي هو مجهز بالقواعد بطبيعته، بحيث يستطيع المرء أن يميل نحو الله

---

193 . CS 41, p. 58
194 . CS 41, p. 58
195 . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 147
196 . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2. 19. CWS p. 54
197 . Ibid.
198 . Ibid.

مباشرة "بواسطة تذكره بغير إنقطاع"، ثم بعد ذلك يصل المرء "لأن يكتسب إستعداداً إلهياً، وتتقدم النفس نحو الحالة الفائقة لكل الحالات، التي هي محبة الله"[199]. وهكذا نفهم أن الجزء الحسي لا يمات ولكنه يمتلك قوة الحياة العظمى. ويُعلم القديس غريغوريوس في موضع آخر أن صلب الجسد "مع أهوائه وشهواته" لا يعني إماتة كل طاقة للجسد وكل قدرة للنفس أي الإنتحار، ولكنه يعني الإبتعاد عن الشهوات والممارسات الدنيئة "وإظهار هذا الهروب منها بصورة قاطعة" أي عدم العودة لها بالمرة، وهكذا يصير الشخص إنسان الشهوات الروحية ويتقدم بشجاعة مقتدياً بمثال لوط الذي خرج من سدوم. وبإختصار نستطيع أن نقول أنه بحسب القديس غريغوريوس بالاماس فإن أولئك الذين يعيشون في اللاهوى لا يميتون الجزء الحسي للنفس ولكنهم "يبقون عليه حياً وعاملاً للأفضل"[200].

وهكذا يرتبط اللاهوى بالحب وهو حركة الحياة. وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإنه مثلما يتحد النور والنار واللهب "ليشكلوا نشاطاً معيناً" هكذا يكون الحال مع الحب واللاهوى والتبني.

"لا يمكن التمييز بين الحب واللاهوى والتبني إلا بالإسم فقط"[201]. يرتبط اللاهوى بصورة وثيقة بالحب والتبني: إنه الحياة والشركة مع الله.

وبالتأكيد عندما نتكلم عن " اللاهوى" فإننا لا نعني أن المرء لا يهاجم من قبل الشيطان. فعدو حياتنا يستمر في إزعاج حتى الإنسان الذي يحيا في اللاهوى إذ أنه جرب حتى الرب في البرية بالتجارب الثلاثة المعروفة جيداً. ولكن اللاهوى هو "أن يبقى المرء غير مهزوم عندما تحاربه الشياطين"[202].

توجد عدة مراحل أو درجات للاهوى والتي نتمنى أن نذكرها من خلال تقديم تعليم الآباء.

يصف القديس مكسيموس أربعة درجات للاهوى. يُرى النوع الأول من اللاهوى في المبتدئين وهو "الإمتناع التام عن الإرتكاب الفعلي للخطية". وفي هذه المرحلة لا يرتكب الشخص الأفعال ظاهرياً. أما اللاهوى الثاني والذي يحدث في ذوي الفضائل فهو الرفض الكامل لكل قبول عقلي للأفكار الشريرة. واللاهوى الثالث الذي هو هدوء تام لشهوة الهوى يوجد في الشخص المتحد بالله وأما الرابع فهو التطهر الكامل حتى من الصور

---

199 . Ibid. p. 54f
200 . Ibid. 2, 2, 24
201 . Ladder. Step 30. CWS p. 287
202 . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 294, 98

الخالية من الهوى ويوجد في أولئك الكاملين"[٢٠٣]. يبدو من هذا النص أنه بحسب درجة طهارة الشخص يظهر نوع اللاهوى المناسب.

يصنف القديس سمعان اللاهوتي الجديد اللاهوى إلى فئتين. الأولى هي لاهوى النفس والثانية هي لاهوى الجسد. "تستطيع الأولى حتى أن تقدس الجسد بلمعانها الخاص وبضياء الروح القدس ولكن لاهوى الجسد لا يستطيع وحده بدون لاهوى النفس أن يكون ذا نفع لصاحبه"[٢٠٤]. وحتى لو مارس الشخص كل فضيلة عملية فلا يجب عليه أن يفترض أنه وصل للاهوى[٢٠٥].

يكتب القديس يوحنا الدرجي الموجود في تقليد الكنيسة، أنه يوجد شخص يحيا في اللاهوى ويوجد آخر أكثر لاهوى منه فالواحد يعاف الشر على حين أن الآخر يمتلك "بركة مخزون الفضائل الذي لا ينضب"[٢٠٦]. من الواضح هنا إذاً، أن اللاهوى هو ليس فقط عملاً سلبياً ولكنه عمل إيجابي أيضاً. إنه إكتساب الفضائل الذي هو ثمرة الروح القدس.

يصنف نيسيتاس ستيثاتوس اللاهوى إلى جزئين: يأتي الأول للمجاهدين بعد إتمام الفلسفة العملية، أي بعد الجهاد الحقيقي عندما تمات الأهواء وتبقى دوافع الجسد خاملة وتتحرك قوى النفس نحو ما هو طبيعي. وأما اللاهوى الثاني والأكثر كمالاً فيأتي إليهم مع الإلهام بعد بداية الثيئوريا الطبيعية.

إن هذا اللاهوى الكامل الذي "يتصاعد من السكون الروحي للأفكار إلى حالة السلام العقلي يجعل العقل بصيراً ومتنبئاً جداً" إذ يصبح عقل الشخص الذي في اللاهوى مدركاً بشدة للأمور الإلهية ولرؤى وإعلانات أسرار الله ويصبح متنبئاً بشدة بالأمور البشرية عندما يرى أناساً عن بعد بينما هم على وشك المجيء إليه[٢٠٧].

ينصح الآباء بوجه عام بإعطاء إنتباه كبير لموضوع اللاهوى لأنه من الممكن ألا يضطرب المرء بالأهواء عندما تكون الأشياء التي تثيرها غير موجودة ولكن في الحال عندما تتوفر هذه الأشياء فإن الأهواء تشتت العقل. يكون هذا اللاهوى لاهوى جزئي[٢٠٨].

---

203 . Philok. 2, p. 222, 51
204 . CS 41, p. 58
205 . St. Theognostos. Philok. 2, p. 365, 29
206 . Ladder. Step 29. CWS p. 283
207 . Practical chapters. Ch. 89
208 . St. Maximus. Philok. 2, p. 106, 53

توجد درجات للاهوى ويجب على المرء الذي يناضل لكي يحصل عليه ألا يتوقف أبداً بل أن يناضل بإستمرار لأنه لا توجد نهاية للكمال. ويجب علينا أن نؤكد بوجه عام أن **غفران الخطايا هو شيء واللاهوى هو شيء آخر**. يكتب القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "الكثيرون حصلوا على غفران خطاياهم بسرعة ولكن ما من أحد إكتسب اللاهوى بسرعة لأن ذلك يتطلب وقتاً كبيراً وإشتياقاً بالإضافة إلى عمل الله"[٢٠٩]. وهذا هو السبب الذي جعلنا نركز في موضع آخر على حقيقة أن الإعتراف وحده لا يكفي، ولكن تحتاج النفس للشفاء، أي أنه يجب علينا أن نكتسب لاهوى جزئياً أو حتى كلياً.

يتضح من هذه الأمور أنه توجد عدة عناصر تميز اللاهوى الحقيقي من اللاهوى الزائف. يكتب القديس يوحنا الدرجي الذي هو خبير بحياة النفس الداخلية وصاحب موهبة الإفراز أن الأهواء والشياطين تهرب من النفس إما لوقت محدد أو للأبد. ولكن القليلون هم الذين يعرفون طرق وأسباب الإبتعاد. فالطريقة الأولى هي أن تختفي الأهواء بالنار الإلهية. والثانية هي أن تبتعد الشياطين بعيداً لكي تجعلنا متهاونين بحيث تستطيع أن تهاجم وتسبي النفس فجأة. والطريقة الثالثة هي أن تبتعد الشياطين عندما تصبح النفس معتادة على الأهواء "عندما تصبح هي ذاتها الخائن والعدو لذاتها". إن ذلك يشبه ما يحدث للأطفال الذين "إذ يفطمون من ثدي الأم يمصون أصابعهم بسبب تمكن العادة منهم". وأخيراً يوجد لاهوى آخر يأتي من "بساطة وبراءة شديدة"[٢١٠].

بالإضافة إلى ذلك يظهر الفرق بين اللاهوى الحقيقي والزائف في المواقف التي نتخذها من جهة الآخرين. **يرتبط اللاهوى بالحب وبالتالي يُظهر موقفنا من جهة الأخوة اللاهوى الحقيقي أو اللاهوى الزائف**. إن ذاك الذي "لا يستطيع أن يتغاضى عن خطأ صديقه عندما تحدث بعض التجارب" لا يمتلك اللاهوى. إذ أنه عندما تضطرب الأهواء في النفس فإنها تعمي الذهن "وتمنعه من رؤية نور الحقيقة" ولا يستطيع حتى أن يميز بين ما هو صالح وما هو شرير[٢١١]. يوجد اللاهوى العديم التغير فقط في أقصى صوره في أولئك الذين وصلوا للحب الكامل "وإرتفعوا فوق الأشياء الحسية من خلال التأمل المستمر والذين سموا فوق الجسد من خلال الإتضاع"[٢١٢]. يمتلك الشخص الذي إقترب من الحد الأدنى للاهوى إحتراماً بسيطاً لكل الناس "ويفكر بإستمرار حسناً في كل أحد ويراهم

---

209 . Ladder. Step 26 summary. CWS p. 259
210 . Ibid. Step 26. CWS p. 238
211 . St. Maximus. Philok. 2, p. 112, 92
212 . St. Theognostos. Philok. 2, p. 365, 29

كقديسين وأطهار، ويكون له حكم صائب على الأشياء الإلهية والبشرية" ويتحرر عقل الإنسان الموجود في اللاهوى من كل الأشياء المادية التي للعالم "ويبتلع بكليته في الأمور الروحية التي لله. إنه يرى الجمال الإلهي ويُفضّل بطريقة لائقة بالله أن يتردد على الأماكن الإلهية التي لمجد الله المبارك في صمت بلا كلام وبفرح. وإذ تتحول كل حواسه فإنه يتحد بالناس بطريقة غير مادية مثل ملاك في جسد مادي"[٢١٣]. وعندما يتكلم شخص، في اللاهوى، عن خطايا أخ فإنه يفعل ذلك لأحد سببين إما لإصلاحه أو لإعطاء فائدة لشخص آخر. ولكن لو أن شخصاً ما تكلم عن خطايا أخ "لكي يؤذيه أو يسخر منه" فهو لن يهرب من أن يتخلى عنه الله، وسوف يقع إما في نفس الخطية أو خطية أخرى "وإذ يلام ويؤنب بواسطة أشخاص آخرين سوف يلحقه الخزي"[٢١٤].

يتواجد اللاهوى الكامل عندما يبقى الشخص غير متأثر لا بالشيء ولا بتذكره: "عندما تصبح الفضيلة عادة فإنها تقتل الأهواء، ولكنها عندما تُهمل فإن الأهواء تحيا من جديد"[٢١٥]. وبالتالي فإن الشخص الذي يضطرب بالأهواء في بعض الأحيان، ويكون مرتاحاً وهادئاً في أحيان أخرى، لا يكون في اللاهوى. ولكن الذي يحيا في اللاهوى هو بالأحرى ذاك الذي "يتمتع باللاهوى على الدوام وحتى لو كانت الأهواء مازالت موجودة داخله فإنه يبقى غير متأثر بالأشياء التي تثيرها"[٢١٦].

توجد علامة أخرى على وجود اللاهوى الكامل في الإنسان، وهي عدم وجود أي صور عقلية لأي شيء عالمي يجعل عقله يضطرب أثناء الصلاة[٢١٧].

يقول القديس يوحنا الدرجي أن الكثيرين من الذين يفتخرون معتقدين أنهم في اللاهوى "يكتشفون مدى فقرهم فقط بعدما يموتون"[٢١٨].

يوصلنا هذا التمييز بين اللاهوى الحقيقي والزائف إلى نقطة فحص الخصائص الحقيقية للاهوى الحقيقي.

الإفراز الحقيقي هو علامة على اللاهوى[٢١٩]. ولقد أشرنا من قبل أنه توجد علامة تميز اللاهوى الحقيقي من الزائف وهي الحب. ونريد الآن أن نمضي إلى درجة أبعد في هذا

213 . Nicetas Stethatos. Practical chapters. Ch. 90
214 . St. Maximus. Philok. 2, p. 95, 73
215 . Ibid. p. 106, 54
216 . St. Theognostos. Philok. 2, p. 364, 25
217 . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 88
218 . Ladder. Step 23. CWS p. 210
219 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 43

التمييز. يقول القديس مكسيموس: "بالنسبة لذاك الكامل في المحبة والذي وصل لقمة اللاهوى لا يوجد فرق بين ما هو له وما هو للآخر، ولا بين المسيحيين وغير المؤمنين، ولا بين العبد والحر ولا حتى بين رجل وإمرأة". فهو إذ يرى طبيعة الإنسان الواحدة "فإنه ينظر للجميع بنفس الطريقة ويُظهر نفس الإبتعاد عن الجميع"[٢٢٠]. ويقول القديس مكسيموس ثانية أنه طالما أن الله صالح وعديم الهوى بالطبيعة ويحب كل الناس بالتساوي "فهو يمجد الإنسان البار لأنه يتحد بالله في إرادته وفي صلاحه يكون رحيماً على الخاطئ وإذ يؤدبه في طريق الحياة فإنه يعيده لطريق الفضيلة". والذي يحب يفعل نفس الشيء، فهو يحب البار بسبب طبيعته ونيته الحسنة ويحب الخاطئ أيضاً بسبب طبيعته ومن خلال الحنو[٢٢١] وبالمثل يكون الإنسان الذي في اللاهوى هو ذاك الذي لا يضمر حقداً ضد من أذاه أو إفترى عليه[٢٢٢]. يحب الإنسان الذي في اللاهوى كل الناس "ولا يميز الإلهي من غير الإلهي"[٢٢٣]. وبالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان الذي في اللاهوى يتألم ويصلي لأجل قريبه: "لا تقل أن الذي في اللاهوى لا يعاني من الحزن، لأنه حتى لو لم يتألم على حاله فهو عرضة لأن يتألم على قريبه"[٢٢٤].

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشخص الذي يسعى نحو اللاهوى ونحو الله "يعتبر اليوم الذي يمضي بدون مذمة يوماً ضائعاً"[٢٢٥]. أي أنه ليس فقط لا يحزن بالمهانة والمذمة ولكنه يحزن عندما لا ينتقده أحد. ويُظهر ذلك نقاوة قلبه من الأهواء حتى تلك الخفية.

وبوجه عام يكون الشخص الذي في اللاهوى مملوءاً بمواهب الروح القدس، فهو شجرة ممتلئة بثمار بهيجة أي ثمار الروح القدس التي هي الفضائل. **عندما يتحدث الآباء عن الفضائل فهم لا يرونها على أنها أعمال أخلاقية ذاتية ولكن كأعمال وجودية.** بمعنى أن الفضائل لا ترى على أنها أعمال صالحة، أو قيم مجردة ولكن كشخص، على الرغم من أنها ليست شخصية بالطبيعة، بمعنى أنها موجودة بذاتها. **فالحب هو الشركة مع الحب الحقيقي الذي هو المسيح والسلام ليس قيمة مجردة ولكنه المسيح ذاته.** وينطبق نفس الشيء على البر وما إلى ذلك. وبمقدار ما يكون الشخص الذي في اللاهوى في شركة مع المسيح بمقدار ما تصبح فضائل المسيح فضائله هو أيضاً بصورة طبيعية. إننا لا نرغب أن

---

220. St. Maximus. Philok. 2. p. 70, 30
221. Ibid. p. 55, 25
222. Ibid. p. 105, 42
223. Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 44
224. St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 136, 132
225. Ladder. Step 4. CWS p. 120

نركز على موضوع الفضائل، ولكننا نقول فقط أنه مثلما توجد أهواء للنفس والجسد هكذا أيضاً توجد فضائل للنفس والجسد. ومثلما توجد مراحل ودرجات للأهواء هكذا أيضاً توجد مراحل ودرجات للفضائل. ومثلما توجد أمهات وبنات للأهواء هكذا أيضاً توجد أمهات وبنات للفضائل. ولكننا لا نعتقد أنه من الضروري أن نسردها هنا ولكننا ننصح القارئ بالرجوع للآباء التاليين: القديس يوحنا الدمشقي بالنسبة لفضائل الجسد[٢٢٦] والقديس يوحنا الدرجي بالنسبة للفضائل التي تناسب القامات الروحية الثلاثة أي المبتدئين والمتوسطين والمتقدمين[٢٢٧].

لو أنه يوجد شخص ما لم يضطرب بأي هوى، ولو أن قلبه يشتاق لله أكثر فأكثر، ولو كان لا يخاف الموت بل ينظر إليه على أنه نوم، فإنه يكون عندئذ قد حصل على عربون خلاصه "وإذ يتمتع بفرح لا ينطق به فإنه يحمل ملكوت السموات في داخله"[٢٢٨].

لا يحصل المرء على نعمة اللاهوى بطريقة عشوائية، ولكن يتطلب الأمر مجهوداً مكثفاً وجهاداً عظيماً. من أجل ذلك سوف نرى الآن كيف يأتي اللاهوى. وفي الواقع يُظهر ما قلناه في الفصل السابق عن الجهاد لشفاء الأهواء الطريقة التي يكتسب بها المرء اللاهوى. وهنا نريد أن نعبر بإختصار على الطرق المؤدية لأرض الموعد، أي أرض اللاهوى. وسوف يتعين علينا بالضرورة أن نكون موجزين مستشهدين بنصوص آبائية.

"يتولد الإتضاع من الطاعة ومن الإتضاع نفسه يتولد اللاهوى"[٢٢٩]. فالإتضاع النابع من الطاعة يجلب اللاهوى. ولو أن شخصاً ما تقدم بطريق آخر بخلاف ذلك فلن يستطيع أن يجد ما يريد[٢٣٠]. **لا يتحقق اللاهوى بدون الحب**[٢٣١]. وحيث أنه توجد درجات للحب وحيث أنه يوجد تداخل بين الفضائل إذ أن الحياة الروحية هي وحدة واحدة ومتصلة معاً فإن حياة الحب تجلب بالتالي اللاهوى ويرتبط اللاهوى إرتباطاً وثيقاً بالحب. يحافظ الحب وضبط النفس على "العقل في اللاهوى في مواجهة الأشياء والصور الذهنية النابعة منها"[٢٣٢]. اللاهوى هو "مكافأة ضبط النفس"[٢٣٣]. يساعد الصوم والسهر والصلاة

226 . St. John of Damascus. Philok. 2, p. 334
227 . Ladder. Step 26. CWS p. 232
228 . St. Theognostos. Philok. 2, p. 361, 12
229 . Ladder. Step 4. CWS p. 109
230 . St. Theognostos. Philok. 2, 364, 25
231 . Ibid. 367, 36
232 . St. Maximus. Philok. 2, p. 89, 39
233 . Ibid. p. 69, 25

بدرجة كبيرة على تولد اللاهوى: "يؤدي الصوم الحكيم والأسهار مع التأمل والصلاة إلى الحد الأدنى من اللاهوى بسرعة " بشرط أن تقتني النفس أيضاً الإتضاع وأن تمتلئ من الدموع وأن تشتعل بمحبة الله[234]. إن الغذاء الجاف والغير منتظم المتحد بأعمال المحبة "يقود الراهب بسرعة إلى الحد الأدنى من اللاهوى"[235]. وعندما يعمل شخص ما بصبر وضبط نفس في كل الأمور وتضرع مستمر، وفي نفس الوقت يحافظ على الأرض التي كسبها بلوم النفس وبإتضاع جم فإنه سوف "يحصل على نعمة اللاهوى في وقت جيد"[236]. يقول القديس يوحنا الدرجي أن اللاهوى الحاصل من خلال سكون الجسد لا يبقى غير متزعزع "في أي وقت يصطدم به العالم" على حين أن "اللاهوى الحاصل من خلال الطاعة هو أصيل ويكون غير متزعزع في أي مكان"[237]. تلد حالة النقاوة التي تأتي من حفظ وصايا الله اللاهوى[238]. ويوضح ذلك أن حفظ وصايا الله له قيمة عظيمة: "يولد حفظ وصايا الله اللاهوى"[239].

ولكن لا يستطيع الإنسان أن يدخل في "مكان الراحة الذي للاهوى وإلى كمال المعرفة الروحية"[240] من خلال تمارين الجسد فقط بدون إيمان. يقول أيضاً القديس ثيئوغنسطس أنه عندما يحصل شخص ما على فضيلة عملية فإنه لا يستطيع الإقتراب من اللاهوى "ما لم يمنح التأمل الروحي عقله معرفة منيرة وفهماً للأشياء المخلوقة"[241]. هذا النص مهم جداً لأنه يوجد اليوم أيضاً من يقولون أن المرء يستطيع أن يصل للاهوى من خلال الفضيلة العملية. لا يقبل القديس ثيئوغنسطس ذلك بل يرى أنه يجب أن يصاحبها تأمل روحي وتوبة وصلاة وخصوصاً "الصلاة العقلية".

يساعد الحزن الإلهي بدرجة كبيرة على تحقيق اللاهوى. ويقول القديس يوحنا الدرجي "أعد الحزن الطريق للاهوى المبارك لعدة أشخاص إذ أنه إجتهد وحرث وتخلص من الخطية"[242]. الحزن هو إذاً طريقة حياة فهو ينظف النفس ويطهر العقل ويجعله قادراً على إستقبال التعزيات الإلهية. يرتبط هذا الحزن بالتوبة، وترتبط التوبة الحقيقية ببغض الذات. لقد تكلم الرب عن بغض الحياة المرتبط بإتباع المسيح والفوز بملكوت السموات "من

234 . Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 79
235 . Abba Evagrios. Sayings. P. 54, 6
236 . St. Theognostos. Philok. 2p. 365f, 30
237 . Ladder. Step 15. CWS p. 176
238 . St. Maximus. Philok. 2, p. 112. 91
239 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 314, 25
240 . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters. Ch. 71
241 . Philok. 2, p. 369, 46
242 . Ladder. Step 7. CWS p. 143

يحب نفسه يهلكها ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية" (يو١٢: ٢٥) وأيضاً "إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أبه وأمه وإمرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً" (لو١٤: ٢٦). ويكتب القديس غريغوريوس بالاماس أن أولئك الذين يعيشون في العالم يجب عليهم أن يغصبوا ذواتهم لإستعمال أشياء هذا العالم بما يتمشى مع وصايا المسيح. إن مثل هذا التغصب الذي يتأصل بالتعود يجعل الأمر سهلاً علينا أن نقبل وصايا الله ونحول حالتنا القابلة للتغيير إلى حالة ثابتة. إن هذه الحالة تجلب بغضة ثابتة "للحالات الشريرة ولإستعدادات النفس "وتولد البغضة اللاهوى"[٢٤٣]. وهكذا تصبح بغضة الذات الملتوية والشريرة مصدراً للاهوى. وعندما يمتلك المرء اللاهوى فإن الخطية لا تتسلط عليه ويبقى في الحرية وفي قانون الروح القدس"[٢٤٤].

عندما نرى أنه يوجد بعض الأشخاص القائمين في الحياة الروحية والذين لديهم خطايا قليلة وأهواء صغيرة لا يجب علينا أن نصاب بالصدمة، لأن الله في تدبيره عادة ما يترك بعض البقايا الضئيلة من الأهواء بحيث يبكتون أنفسهم ويحصلون على ثروة من الإتضاع لا يستطيع أحد أن يسرقها منهم"[٢٤٥].

هذا هو كنز اللاهوى العظيم. فهو مرتبط بكل الفضائل وبالحياة الروحية. من أجل ذلك يجب علينا أن نصلي لكي نكتسب اللاهوى المبارك. يحثنا القديس يوحنا الدرجي نحن جميعاً الذين إكتَسَحَنا الهوى أن نصلي "إلى الرب بلا إنقطاع لأن كل العائشين في اللاهوى كانوا من قبل في الهوى وتقدموا منه إلى اللاهوى""[٢٤٦].

ولا يجب علينا في الواقع أن نطلب هذا اللاهوى بكبرياء وتمركز حول الذات بهدف الحصول على مواهب عظيمة وفائقة للطبيعة. لأنه من الممكن أن يطلب شخص ما هذه الموهبة وتمنح له من قبل الشيطان بهدف تضليله بالباطل. من أجل ذلك يحثنا القديس ثيئوغنسطس قائلاً : "لا تطلب اللاهوى لأنك غير مستحق لهذه الموهبة ولكن أطلب الخلاص بإستمرار وسوف تحصل معه على اللاهوى أيضاً""[٢٤٧].

وعلى الرغم من صلاتنا وجهادنا المكثف فمن الممكن ألا يسمح لنا الله بالتخلص من هوى ما، بحيث أننا قد نختبر اللاهوى إما جزئياً أو كلياً. قد يحدث ذلك إما لأننا طلبنا

---

243. St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 20. CWS p. 55
244. Nicetas Stethatos. Gnostic chapters. Ch. 75
245. Ladder. Step 26. CWS p. 239
246. Ibid. Step 28. CCWS p. 277
247. Philok. 2, p. 366, 32

ذلك من الله في غير أوانه أو عن غير إستحقاق أو بزهو، أو لأننا لو كنا حصلنا عليه لكان يؤدي إلى خداع أو لكنا أصبحنا متهاونين أو مهملين. من أجل ذلك لا يجب علينا أن نحزن "لو أن الله سمح ألا تستجاب طلبتنا إلى حين". يسر الله بأن يجعلنا بلا هوى "في لحظة" ولكن يكون تدبيره من أجل خيرنا مثلما قلنا من قبل[٢٤٨]. وبالإضافة إلى ذلك توجد حالات في تاريخ الكنيسة لأشخاص كانوا قد حصلوا على اللاهوى ثم طلبوا من الله أن يأخذ منهم هذه البركة بحيث يستطيعون أن يحاربوا العدو. فبعدما هزم مارإفرام كل أهواء النفس والجسد بنعمة المسيح "طلب أن تؤخذ منه هذه الموهبة" بحيث لا يسقط في الكسل ويدان على أنه لم يعد يقاوم العدو بعد[٢٤٩].

يدل اللاهوى الجزئي أو الكلي على شفاء النفس، إذ تحصل النفس على الصحة. وينتعش العقل الذي كان قد مات بالأهواء ويقوم: "يرفع اللاهوى المبارك العقل الفقير من الأرض للسماء ويقيم المسكين من مزبلة الهوى. ويجعله الحب، الذي له كل المجد، يجلس مع الأمراء، أي مع الملائكة المقدسين ومع أمراء شعب الرب"[٢٥٠].

---

٢٤٨ 248 . Ladder. Step 26. CWS p. 237
٢٤٩ 249 . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 152
٢٥٠ 250 . Ladder. Step 29. CWS p. 285

الباب الخامس

السكون كطريقة شفاء

السكون هو أحد الطرق الرئيسية لشفاء النفس بكل معنى الكلمة. وإنني أعتقد أننا وضحنا ذلك بالفعل. **يطلب الإنسان المعاصر الشفاء لحياته وخصوصاً لحالته الداخلية وذلك لأنه بإختصار مضغوط فوق الطاقة.** ومن أجل ذلك تكون أحد الرسائل التي تستطيع الأرثوذكسية أن تقدمها للعالم المعاصر المتضجر واليائس والمتخبط هي **رسالة الصمت**. إنني أعتقد أن لدى التقليد الأرثوذكسي الكثير ليقدمه في هذا المضمار. ولذلك سوف أحاول فيما يلي أن أشرح بالأكثر قيمة السكون وحركة السكونيين من أجل شفاء النفس والعقل والقلب والإدراك. إن لدينا إنطباعاً أن السكون وحركة السكونيين هما بين العلاجات الأكثر أساسية للحصول على الشفاء الداخلي. وحيث أن نقص الصمت هو ما يجلب المشاكل والضغط والقلق وعدم الأمان، بالإضافة إلى الأمراض النفسية والعضوية، فإننا سوف نحاول أن نفحص عن سببها الذي هو ضد السكون. تنتشر الآن الريح الصحراوية التي للحركة المضادة للسكون والتي تعصف وتحرق كل شيء. وهي منتشرة الآن في كل مكان وتشكل السبب الرئيسي للحالة الغير طبيعية. من أجل ذلك سوف نرى السكون كطريقة لشفاء النفس ومضادة السكون كسبب للأمراض النفسية والعضوية.

١- السكون

قبل أن نقوم بتعريف السكون دعونا أولاً نتطلع إلى قيمته العظمى في شفاء النفس.

لقد أكد الآباء القديسون، الذين عاشوا النفخة الكاملة للتقليد الأرثوذكسي، على الأهمية الكبرى للسكون الأرثوذكسي. لقد نظر القديس غريغوريوس اللاهوتي للسكون على أنه ضروري للحصول على الشركة مع الله:" من الضروري أن يبقى المرء ساكناً لكي يحصل على حديث واضح مع الله ولكي يعيد العقل ثانية من تجواله بالتدريج"[1]. يطهر المرء حواسه وقلبه بالسكون، وبالتالي يعرف الله وتكون معرفته لله هي خلاصه.

يعلن القديس ثالاسيوس الذي يلتزم بهذا الإتجاه إلتزاماً تاماً: "السكون والصلاة هما أعظم أسلحة الفضيلة لأنهما يطهران العقل ويمنحاه بصيرة روحية"[2]. يتطهر عقل الإنسان من خلال السكون، ويصبح بالتالي أداة مقبولة لرؤية الله. وفي الواقع، وكما نعلم من تعليم الآباء، فإن العقل يختلف عن الإدراك. فعندما يختفي العقل بالأهواء فإنه يكف

---

[1]. PG 95, 1245c
[2]. Philok. 2, p. 311, 67

عن رؤية أسرار الله (إنه يموت). على حين أنه عندما يتحرر من الأهواء فإنه يصبح ذا بصيرة ويرى الله كنور، وهذا النور هو حياة الإنسان. ومثلما قلنا من قبل، فإن تطهير العقل هذا يأتي من خلال السكون.

ومن المعروف لدى أولئك المنخرطين في دراسة أعمال الآباء ولدى الذين يحاولون أن يعيشوا حياة الهدوء هذه، أنه يوجد سكون للجسد وسكون للنفس ويرتبط الأول بالأشياء الخارجية والثاني بالداخلية. وعادة ما يُقصد بسكون الجسد وضع السكون والجهود لتقليل التصورات الخارجية والصور المستقبلية والمجلوبة للنفس من خلال الحواس. وأما سكون النفس فيعني أن العقل يصل للقدرة والقوة على عدم قبول أي محاولة للضلال. وفي هذه الحالة يكون عقل الإنسان المأخوذ باليقظة والتبكيت متمركزاً في القلب. **يتمركز العقل (الطاقة) في مكان القلب (الجوهر) متحداً به ويصل بالتالي لمعرفة جزئية أو كلية عن الله.**

سكون الجسد هو الحد من الجسد: "بداية السكون هو الراحة الإلهية"[3] والمرحلة المتوسطة هي مرحلة "القوة المعطية إستنارة والرؤية والمرحلة النهائية هي الدهش أو غبطة العقل من جهة الله"[4]. يتحدث القديس يوحنا الدرجي عن سكون الجسد الخارجي قائلاً: "محب السكون يحافظ على فمه مغلقاً"[5]. ولكن ليس فقط أولئك المدعوين آباء متوحدين هم الذين يذكرون ويصفون الجو المقدس للسكون، ولكن أيضاً أولئك المعروفين "كإجتماعيين". ولا يوجد في الواقع في التقليد الأرثوذكسي تعارض مباشر بين السكون والعمل أو بين الآباء المتوحدين والآباء الإجتماعيين. **فالمتوحدون إجتماعيون بوضوح وأولئك الذين يعيشون في المجتمع متوحدون بطريقة لا يمكن تصورها.**

إننى أود أن أستشهد بالقديس باسيليوس الكبير كمثال للسكون المقدس. إنه يكتب في رسالة لصديقه القديس غريغوريوس عن السكون كبداية لنقاوة النفس وعن سكون الجسد الذي هو كبح اللسان والنظر والسمع والكلمات. وهو يقول على سبيل المثال: "إن البداية الأولى لطهارة النفس هي الهدوء الذي لا يستسلم فيه اللسان لمناقشة شئون البشر، ولا الأعين لتأمل الخدود الوردية أو الأجساد الجميلة، ولا الأذن لإنقاص نغمة النفس بالإستماع للأغاني التي يكون هدفها الوحيد هو التسلية، أو للكلمات المنطوق بها بمكر وتهريج. هذا الهدوء هو ممارسة تميل فوق كل الأشياء لإعطاء إسترخاء لنغمة النفس".

---

[3] . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 111. Writings, p. 61
[4] . Ibid.
[5] . Ladder. Step 11. CWS p. 159

يعبر هذا عن حالة الهدوء التي إستمتع بها هذا الأب القديس في الصحراء، عندما كان يحاول أن يكتسب معرفة الله في جامعة الصحراء بعد الوقت الذي قضاه في المدارس البشرية مكتسباً المعرفة البشرية. وكنتيجة لذلك، يمدنا نجم قيصرية هذا بنص كلاسيكي يوضح أنه حصل على معرفة ممتازة عن حياة السكون. وهو يكتب قائلاً: "عندما لا يكون الذهن مشتتاً في أشياء خارجية ولا منتشراً عبر عالمنا من خلال الحواس، فإنه ينعزل داخل ذاته ويصعد لرؤية الله بإرادته. وبعد ذلك عندما يستنير خارجياً وداخلياً بهذا المجد فإنه ينسى حتى طبيعته الخاصة، وإذ لا يعود قادراً على جذب النفس لأسفل نحو أفكار الطعام أوالإهتمام بتأمين الجسد، يستمتع بالتخلص من الإهتمامات الأرضية ويحول كل إهتماماته نحو إكتساب الخيرات الأبدية..."[6].

يساعد سكون الجسد على الحصول على سكون النفس الداخلي. ويبدو من التعليم الآبائي أن سكون الجسد حتى لو لم يكن ضرورياً تماماً فإنه مع ذلك مطلوب بشدة في الحياة الإلهية: "سكون الجسد هو معرفة وتدبير المرء لمشاعره وإدراكاته"[7]. ويتكلم القديس يوحنا الدرجي عن هذا السكون، في موضع آخر، مفكراً بالأخص في " أماكن الإقامة المعزولة"[8].

وبالتأكيد وكما قلنا من قبل، فإن الصحراء وسكون الجسد بوجه عام يساعدان على الوصول للسكون الداخلي الروحي. ولكن الآباء يفهمون حركة السكون على أنها **"لا هي الحياة كناسك ولا إبتعاد المرء في الصحراء ولكن كإقامة في الله بغير إنقطاع"**[9]. وعلى الرغم من وجود قيمة عظمى للصحراء لكونها تساعد على الحد من الصور والتصورات الآتية من العالم الخارجي، إلا أن ذلك ليس أمراً مطلقاً. يتميز فكر نيسيتاس ستيثاتوس في هذه النقطة فهو يشير إلى أن الفضيلة ليست قاصرة على مكان معين، وأن هدف الإنسان هو "إستعادة قوى النفس، وتركيز الفضائل العامة في نقطة واحدة فعالة بحسب الطبيعة". وإذ يقول أن هذه الأشياء لا تأتي من الخارج "ولكننا إستمددناها من الخليقة" فهو يستنتج قائلاً: "ليست الصحراء ضرورية لو أن المرء يصل للملكوت السموات بدونها من خلال التوبة وحفظ كل وصايا الله"[10]. إنه أمر متميز أن نيسيتاس إذ يصيغ المشكلة التي تحدث عنها الكثيرون عن إستحالة الوصول لحالة الفضيلة "دون

---

6. St. Basil the Great. FC vol. 13, p. 7. Letter 2
7. Ladder. Step 27. CWS p. 261f
8. Ibid. Step 21. CWS p. 199
9. Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 140
10. Practical chapters. Ch. 72

الإنعزال والهروب داخل الصحراء" فإنه يكتب قائلاً: "لقد تعجبت أنهم يُعَلِّمون أن الذي لا يعرف حدوداً موجود في مكان محدود"[11].

على أية حال فإن الصحراء وسكون الجسد بوجه عام يساعدان المرء على إكتساب سكون الروح، وهذا هو المضمون المقدس الذي سوف نصفه الآن.

يكتب القديس يوحنا الدرجي بطريقة مركزة في كتابه المعروف قائلاً أن سكون النفس هو "معرفة وتدبير المرء لأفكاره بدقة"، "إن سكون النفس هو علم الأفكار وهو ذهن لا تنتهك حرمته. والتفكير الشجاع والمصمم هو صديق للسكون. فهو يبقي على يقظة مستمرة على أبواب القلب، ويقتل أو يلفظ الأفكار الآتية عليه"[12].

يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد، متكلماً عن السكون الداخلي وواصفاً مناخه المقدس: "السكون هو حالة غير مضطربة للعقل، وهدوء لنفس حرة مبتهجة، وأساس لقلب غير مضطرب ولا متزعزع، ورؤية النور ومعرفة أسرار الله، وهو كلمة من الحكمة وعمق لصور الله الذهنية، وغبطة للعقل وحديث نقي مع الله، وعين ساهرة وصلاة داخلية وإتحاد مع الله، وإستراحة بلا ألم في أعمال نسكية عظيمة"[13].

يتكلم أيضاً آباء آخرون عن تلك الحالة المقدسة للنفس طالما أن الحياة في المسيح هي خبرة مشتركة لكل القديسين. وبحسب القديس غريغوريوس السينائي فإن "السكون يعني قطع كل الأفكار ماعدا الأفكار الأكثر ألوهية الآتية من الروح القدس خوفاً من فقدان الأعظم بقبول الأولى على أنها صالحة"[14].

هذا الرفض للصور الذهنية، هو جزء من محاولة الإنسان لتطهير الجزء المدرك من نفسه. يصارع المجاهد في الحياة الروحية لكي يبعد بعيداً الأفكار التي يزرعها الشرير بهدف تحطيم الوحدة الداخلية لقوى النفس وجعل قلب الإنسان مريضاً. إنها حقيقة واقعة أن الأرثوذكسية هي علم علاجي. وإذ قرأنا كتابات الآباء القديسين التي تتحدث عن هذه المواضيع رأينا بوضوح أن المسيحية تشفي النفس المريضة، ويأتي حفظ العقل في المقام الأول بين طرق الشفاء بالإضافة إلى لفظ الأفكار الداخلية ومحاولة قتلها قبل أن تستطيع دخول بوابة القلب.

---

11 . Ibid.
12 . Ladder. Step 27. CWS p. 262
13 . SC 51, p. 115
14 . Acrostics, 9. Writings, p. 90

"ما هو السكون إلا حفظ المرء لقلبه بعيداً عن الأخذ والعطاء مع الناس وعن إرضائهم وما إلى ذلك من مثل هذه الأفعال؟ عندما يتكلم الرب مع أحد الكتبة عن الرجل الذي وقع في أيدي اللصوص وسأله من كان قريبه قال:" إنه ذاك الذي صنع معه رحمة" وقال أيضاً: "إني أريد رحمة لا ذبيحة". **لو أنك ببساطة تقتني رحمة فإنها تكون أعظم من الذبيحة. أمل قلبك إلى الرحمة، لأن التعلل بالسكون يقود إلى الغطرسة قبل أن يستطيع المرء أن يربح نفسه ويصبح بلا خطية. السكون إذاً هو حمل الصليب.** فأنت تجد عوناً عندما تكون حنوناً. أما لو أنك كبحت نفسك، كما لو كنت تريد أن تتجنب تجاوز الحدود، فإعلم إذاً أنك فقدت حتى ما تقتنيه. **لا تذهب لا إلى الداخل ولا إلى الخارج** بل إمض في طريق مستقيم واعياً إرادة الله لأن الأيام شريرة"[15].

السكون هو قبل كل شيء حفظ العقل ومراقبة المرء لأفكاره، ويعبر عن ذلك القديس ثالاسيوس قائلاً: "سد حواسك بالسكون وأحكم على الأفكار التي تهاجم قلبك"[16].

وعلى أية حال فالقديس غريغوريوس بالاماس هو المدافع الرئيسي عن السكون كما سنرى فيما بعد. لقد ناضل بنعمة المسيح لكي يُؤَمِّن طريقة تنقية القلب والأفكار هذه، والتي هي أحد المتطلبات التي لا غنى عنها لمعرفة الله والشركة معه. وتكلم في موعظته عن دخول العذراء الهيكل عن حياة السكون. إنه أمر متميز أن هذا القديس الآثوسي، إذ يتكلم عن خبرة، يرى مريم العذراء كنموذج للسكون العقلي حيث أنها دخلت في شركة مع الثالوث القدوس في قدس الأقداس في سكون. إنه يكتب قائلاً أننا لا نستطيع أن نصل لله وندخل في شركة معه ما لم نتطهر وما لم نتخلى عن أمور الحواس الحسية، وما لم نرتفع فوق الأفكار والمعقولات والمعرفة البشرية وكل فكر. إن هذا هو ما فعلته العذراء بالضبط. لقد طلبت العذراء هذه الشركة مع الله "فوجدت أن السكون المقدس هو مرشدها. إنه صمت الذهن وتوقف العالم ونسيان الأمور السفلية، والمشاركة في الأسرار العلوية ووضع الصور الذهنية جانباً من أجل ما هو أفضل. وفي الواقع فإن هذه الممارسة هي الدخول الحقيقي في الثيئوريا أي رؤية الله، أو بتعبير أفضل فهي النموذج الوحيد لنفس سليمة بحق". وبعد ذلك يصف القديس غريغوريوس الفضائل كعلاجات لأمراض النفس وللأهواء، ولكنه يقول أن الثيئوريا هي "ثمرة الشفاء الذي يكون التأليه هو شكله ونهايته". وبتعبير آخر فإن النفس تشفى خلال الفضائل ولكنها إذ تشفى تتحد بالله من خلال الثيئوريا التي يقود طريق

---

15 . Barsanuphius and John. Q. 314. In Gk.
16 . Philok. 2, p. 308, 22

السكون إليها. "يتحد الإنسان بالله بواسطة هذه الثيئوريا، وليس من خلال التأمل في الكلمات أو الأشياء المرئية، ولكنه يتعلم من خلال الصمت"[17].

إننا نشفى بهذه الطريقة التي للسكون والتعليم الأرثوذكسي إذ "نتحرر من الأشياء الأرضية ونتحول نحو الله". وبواسطة التضرع المستمر "نتلامس إلى حد ما مع هذا الجوهر المبارك الذي لا يمكن التلامس معه. وهكذا فإن أولئك الذين تطهروا في القلب خلال السكون المقدس وبعدما يتخللهم النور الذي هو فوق كل حس وعقل، يرون الله في داخلهم كما في مرآة"[18].

إن النقطة الرئيسية في هذه العظة هي أن نطهر قلوبنا وعقولنا بواسطة الطريقة الأرثوذكسية، التي هي أساساً طريقة للسكون العقلي. وبهذه الطريقة نصير متحدين بالله. هذه هي الطريقة الوحيدة للإتحاد بالله والشركة معه.

يسمى الآباء القديسون ذلك سلام النفس وراحة السبت. فإذ يتطهر عقل الإنسان بطريقة وتدريب الصمت المقدس فإنه يحفظ السبت ويستريح في الله. يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن الراحة الإلهية وراحة الله عندما "إستراح من كل عمله" وعن راحة المسيح عند نزول نفسه مع لاهوته للجحيم، وإقامة جسده مع لاهوته في القبر ويكتب قائلاً أنه يجب علينا أن نركز عقلنا مع إحتفاظنا بالإنتباه والصلاة الدائمة. راحة السبت الإلهية هذه هي السكون العقلي. "لو أنك أبعدت عقلك من كل فكر حتى لو كان صالحاً وإستدرت تماماً نحو نفسك، محتفظاً بالإنتباه والصلاة الدائمة، فأنت أيضاً سوف تأتي للراحة الإلهية، وتحصل على بركة التطويبات السبعة ناظراً لنفسك ومن خلال نفسك ترتفع إلى رؤية الله"[19]. إنه أمر جدير بالملاحظة أن يقول القديس هذه الأشياء في حديث لجمهور إبروشيته في تسالونيكي. وهذا يعني أن الجميع بإختلاف أعماقهم يستطيعون الوصول لخبرة الراحة الإلهية. **إنني أعتقد أن هذا هو التعليم المفقود في وقتنا هذا.**

ونستطيع مما قلناه عن السكون العقلي أن نرى لماذا يسمى الشخص الذي يمارس ذلك "سكونياً". السكوني هو ذاك الذي يتبع طريق السكون الذي هو في الواقع طريق التقليد الأرثوذكسي، والذي يهدف لتوصيلنا لله ولإتحادنا به. إننا نستطيع أن نستشهد بقول القديس يوحنا الدرجي: "قد يبدو السكوني غريباً ولكنه رجل يحارب لكي يبقى على نفسه

17 . St. Gregory Palamas. Homily 51. EPE vol. 11, p. 328
18 . Ibid.
19 . St. Gregory Palamas. Homily 17, 10. EPE 9, p. 498

الغير جسدانية مغلقاً عليها في منزل الجسد… يكون السكوني مثل ملاك على الأرض. لقد حرر صلاته من الكسل والتهاون بواسطة ورقة الحب وحروف الغيرة… السكوني هو ذاك الذي يصرخ قائلاً: "قلبي مستعد يا الله" كما يقول: "أنا نائمة وقلبي مستيقظ"[٢٠].

وفي الواقع وكما أشرنا بالفعل فإن حركة السكون هي الطريقة الأنسب لتركيز النفس وإرتفاع النفس لله والشركة معه. فهي ضرورية جداً للشركة مع الله. لقد شرح القديس غريغوريوس بالاماس بإستفاضة أنه يجب على عقل الإنسان (طاقة) أن يعود للقلب (جوهر) وأن يبقى في القلب الذي هو "مستودع الإدراك والعضو المُدرك الأول في الجسد" و"مستودع الأفكار" والمكان الذي توجد فيه نعمة الله. ويكتب القديس قائلاً: "ألا تستطيع أن ترى إذاً كيف هو أمر رئيسي أن أولئك الذين قرروا أن يعطوا إنتباهاً لأنفسهم في هدوء داخلي يجب عليهم أن يجمعوا العقل وأن يغلقوا عليه في الجسد وخصوصاً في ذاك "الجسد" الموجود في الجزء الداخلي الأعمق من الجسد والذي نسميه القلب؟"[٢١].

ولكن يجب علينا أن نؤكد على أن التدريب على السكون هو ليس مجرد محاولة بشرية لإعادة العقل لنفسه، وأن إتحاد العقل بالقلب ليس مجرد طريقة تقنية. يكون هذا التدريب في السكون موحى به ومقاد بواسطة الروح القدس ويعبر عنه في التوبة والحزن. إنه ليس مجرد طريقة مصطنعة والتي يمكن أن نجدها ببعض العمق في النظم المتمركزة حول الإنسان." تنبع حركة السكون التي للراهب الأرثوذكسي من توبة عميقة وإشتياق لحفظ وصايا المسيح. إنها ليست تطبيقاً مصطنعاً للحياة الروحية التي للاهوت الأريوباغي. لا ينكر التعليم اللاهوتي للأريوباغيين نتائج الهدوء الذهني وهكذا يقترب من بل وحتى يقع في حركة السكون. ولكن يوجد فرق جوهري هو أن الناسك الأرثوذكسي **لا يصل للهدوء الذهني من خلال الفلسفة المجردة للاهوت الإيجابي** apophatic ولكن من خلال التوبة والجهاد ضد " ناموس الخطية"(رو٧ : ٢٣) الذي يعمل في الطبيعة الإنسانية".[٢٢]

يربط كل الآباء بين السكون العقلي والتوبة. ويكتب القديس غريغوريوس السينائي قائلاً: "من المستحيل أن يحتمل المرء مرجل الصمت الذي يغلي بدون ممارسة البكاء المستمر". إن الذي يبكي على الأشياء التي تسبق وتلحق بالموت سوف يمتلك الصبر والإتضاع، اللذين هما حجرا الزاوية للسكون. وبدون التوبة وهذين الأساسين سوف يتولد لدى السكوني "خداع وتواني"[٢٣].

---

[20] . Ladder. Step 27. CWS p. 262f
[21] . St. Gregory Palamas. Triads. 1, 2, 3. CWS p. 43
[22] . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 178
[23] . Acrostics, 108. Writings, p. 60

وهكذا يجب علينا أن نؤكد بشدة على أن طريقة التدريب على السكون ترتبط بالتوبة والدموع والحزن والإنسحاق. ويكون السكون بدون هذه الأشياء زائفاً وبالتالي عديم الفائدة، إذ أن هدف السكون هو تنقية العقل والقلب. ولا يمكن أن يتولد ذلك بدون الدموع والحزن. وبالتالي تكون الدموع بالنسبة للسكون العقلي طريقة حياة. ويصبح المرء قادراً على رؤية بؤسه من خلال تركيز عقله في قلبه، وعندئذ تذرف عيناه وقلبه ذاته دموع التوبة على الفور. وإذ تنمو التوبة فإنه يتطهر ويكتسب معرفة الله.

ولكن السكون يرتبط أيضاً بصورة وثيقة بحفظ وصايا المسيح. إن أعظم أسلحة أي شخص يجاهد ليصل إلى حياة السكون الداخلي بصبر هي "ضبط النفس والمحبة واليقظة والقراءة الروحية"[٢٤]. وبحسب القديس غريغوريوس السينائي فإن أياً من يمارس السكون يجب عليه أن يمتلك، كأساس له فضائل "الصمت وضبط النفس والسهر والإتضاع والصبر". ويجب عليه بالمثل أن يمتلك ثلاثة أنشطة ترضي الله وهي: "المزامير والصلاة مع القراءة وعمل اليدين"[٢٥]. ويؤكد نفس القديس في موضع آخر على أن "أول متطلبات السكون هو إمتلاك الإيمان والصبر والحب والرجاء بكل القلب والقوة والقدرة"[٢٦].

ويؤكد ثانية، في موضع آخر، على فضائل أخرى مثل ضبط النفس والصمت وملامة النفس "التي هي الإتضاع إذ أن هذه تدعم وتحمي بعضها البعض، وتتولد منها الصلاة وتنمو للأبد"[٢٧]. ويجب بلا شك على المرء أن ينتبه أيضاً للطعام، ممارساً كل كبح لئلا يظلم العقل بالطعام: "يجب على الذي يمارس السكون أن يكون في إحتياج بإستمرار وغير شبعان لأن المرء لا يستطيع أن يصلي بطهارة وثبات بمعدة ثقيلة وعقل مظلم بهذه الطريقة". يأتي النوم من الطعام الكثير ويمتلأ الذهن بأحلام لا تحصى[٢٨].

تُظهر هذه الأشياء أن طريقة الحياة السكونية تفترض حفظ وصايا المسيح طالما أن هذا يولد الفضائل. وبالتالي فإن الفضائل أيضاً معتمدة على السكون والسكون معتمد على حفظ وصايا المسيح وأحكامه".

وعلى النقيض لا يشكل عدم حفظ الوصايا وإمتلاك الأهواء السكون الأرثوذكسي، ولو بدأ السكون في الظهور فإنه يبيد ويختفي. "لا يوجد شيء له قدرة عظيمة على إرباك

---

24 . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313, 11
25 . Acrostics, 99. Writings, p. 57
26 . Acrostics, 103. Writings, p. 58
27 . St. Gregory of Sinai. Writings, p. 83
28 . Gk. Philok. 4, p. 84

حالة السكون وعلى حرمانها من معونة الله أكثر من الآتي: الوقلحة والنهم والثرثرة والإهتمامات الباطلة والتصلف والخيال الذي هو رئيس كل الأهواء"[29].

تُظهر كل هذه الأشياء أن السكون العقلي المقدس ضروري لحفظ النفس طاهرة من الأهواء وللشركة مع الله. إنه ليس رفاهية في حياة المرء وليس تدريباً لقليل من الناس فقط وليس طريقة لكي يتبناها الرهبان فقط، ولكنه موضوع لكل أحد فهو أمر لا غنى عنه للوصول لتأمل الله والاتحاد به الذي هو هدف الإنسان. وتوجد على أية حال عدة درجات للسكون العقلي. لقد علم الرب عدة مرات كما هو واضح في البشائر عن تطهير القلب من الأهواء، وعن الصلاة الداخلية، وعن التحرر من قوة الأفكار وما إلى ذلك. لقد أوضح هو بنفسه لتلاميذه قيمة البرية. فهي تساعد المرء على هزيمة العدو. من أجل ذلك إشتمل تعليم الرسل على العديد مما يدعى مواضيع نسكية.

ليس هنا الموضع الملائم للحديث عن كل هذه المواضيع ولكننا نتمنى فقط أن نذكر القليل

من المعروف أن الرب بعد عماده "أصعد إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس" (مت٤ : ١). لقد غلب الشيطان هناك في البرية الذي جربه بالتجارب الثلاثة المعروفة. ونجد أن الرب في أحيان كثيرة يعتزل في البرية لكي يستريح، ولكن أيضاً لكي يعلم تلاميذه بهذه الطريقة قيمة الصحراء "... إنصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفرداً" (مت١٤ : ١٣). وبعد معجزة مباركة الخمس خبزات والسمكتين "بعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده" (مت١٤ : ٢٣).

إنه أمر ذو أهمية كبرى أنه عندما إجتمع التلاميذ "وأخبروه بكل شيء كل ما فعلوا وكل ما عملوا" أنه قال لهم: "تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء وإستريحوا قليلاً" (مر٦: ٣٠-٣١). ولقد قضى الرب الليل كله في الصلاة، وأوضح لوقا الإنجيلي هذه المعلومة قائلاً: "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة" (لو٦ : ١٢).

وأكد الرب في تعليمه على قيمة السكون العقلي، والتحرر من الأهواء الموجودة في داخلنا.

وإذ علّمنا طريقة الصلاة الحقيقية قال: "متى صليت فأدخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء" (مت٦:٦). ويكتب القديس غريغوريوس بالاماس في تفسيره لموعظة الرب تلك قائلاً: ".... إن مخدع النفس هو الجسد وأبوابنا هي حواس

[29]. St. Gregory of Sinai. Acrostics, 104. Writings, p. 59

الجسد الخمسة. وتدخل النفس مخدعها عندما لا يتجول الذهن هنا وهناك في طواف بين أشياء وأمور العالم، ولكنه يبقى (الذهن) في الداخل في قلبنا. تصبح حواسنا مغلقة وتبقى مغلقة عندما لا ندعها تتعلق بالأشياء الحسية الخارجية، ويبقى بهذه الطريقة عقلنا حراً من كل إرتباط عالمي ويتحد مع الله أبيه بالصلاة الذهنية السرية، وكما يضيف الرب : "وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية". إن الله الذي يعلم كل الأشياء الخفية يرى الصلاة الروحية ويجازيها علانية بمواهب عظيمة. من أجل ذلك تكون الصلاة التي تملأ النفس بالنعمة الإلهية والمواهب العقلية حقيقية وكاملة. وكما أنه كلما كانت قارورة الطيب مغلقة بإحكام أكثر كلما كانت أكثر تعطراً، هكذا أيضاً الصلاة كلما كانت حبيسة داخل القلب أكثر نمت في النعمة الإلهية"[30].

لقد قال الرب لتلاميذه الذين كانوا نياماً في بستان جثسيماني: "إسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" (مت٢٦ : ٤١). وبالإضافة إلى ذلك فإنه نصحنا أن نحفظ عقلنا وبالأخص قلبنا طاهراً من الأهواء والأفكار المتعددة: "فشعر يسوع بأفكارهم وأجاب وقال لهم: "ماذا تفكرون في قلوبكم؟" (لو٥ : ٢٢). وإذ إتهم الكتبة والفريسيين قال : "أيها الفريسي الأعمى نق أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً" (مت٢٣ : ٢٦).

تشير أيضاً رسائل الرسل للقيمة العظمى للبرية والسكون العقلي والتطهير الداخلي واليقظة. وأود هنا أيضاً أن أذكر بعض النصوص القليلة المتعلقة بهذا الأمر.

بعد مجيء بولس الرسول للمسيح أقام في الصحراء العربية، وهناك تاب عن سلوكه السابق (غل١ : ١٧). وإذ كان هذا الرسول يعرف هذا السكون الداخلي الذي للعقل أعطى نصيحة عظيمة لتلاميذه. وإذ كان يشعر أن المسيحيين الذين إتحدوا بالمسيح يمتلكون فكر المسيح كتب قائلاً: "أما نحن فلنا فكر المسيح" (١كو٢ : ١٦). وينصح في موضع آخر قائلاً: "أميتوا أعضاءكم التي على الأرض" (كو٣ : ٥). ورأى الرسول بنعمة الله ناموس أعضائه الداخلي الذي يقاوم ناموس عقله (رو٧ : ٢٣).

ويعطي الرسول في تعليمه أهمية كبرى لليقظة التي هي السهر الروحي، بحيث لا يسمح المرء لعقله أن يُسبى بقوة شريرة خارجية: "فلا ننم إذاً كالباقين بل لنسهر ونصحُ.. وأما نحن الذين من نهار فلنصحُ...." (١تس٥: ٦-٨). وينصح تيموثاوس الرسول قائلاً: "وأما أنت فإصح في كل شيء" (٢تي٤ : ٥).

---

[30]. EF p. 413f. Gk. Philok. 5, p. 111

وأما عن موضع الصلاة فهو واضح. يجب على الصلاة أن تستمر بغير إنقطاع في قلوب المسيحيين: "واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر"(كو٤ : ٢) و"صلوا بلا إنقطاع"(١تس ٥ : ١٧).

يعطي بطرس الرسول نفس الوصايا مظهراً بذلك أن أعضاء الكنيسة لهم حياة مشتركة: "إصحوا وإسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو"(١بط٥ : ٨).

تظهر كل هذه الأمور أن كل المسيحيين يستطيعون بصورة عملية أن يصلوا للسكون وبالتالي لرؤية الله أيضاً، ويعبر الآباء عن هذه النقطة أيضاً.

فبطرس الدمشقي يكتب قائلاً: "لأن كل الناس يحتاجون لهذا التكريس والسكون سواء كان ذلك كلياً أم جزئياً، ويكون من المستحيل الوصول لأي إتضاع ومعرفة روحية بدونه"[31].

إننا نحتاج أن نلاحظ في تعليم بطرس الدمشقي هذا الكلمات القائلة: "يحتاج كل الناس لهذا التكريس والسكون" ولو كان من المفترض أن تكون هذه هي حالة كل الناس، فإنها تكون إذاً أكثر من ذلك بكثير مع الرهبان. إنه أمر لا يمكن تصوره أنه يوجد راهب لا يكرس وقتاً للمشاركة في السكون الإلهي. إننا نقول ذلك لأنه كان هناك دائماً أفكار مختلفة في دوائر قليلة، وبالأخص بين أولئك الذين عندما يأتون لموضوع جهاد الرهبان لتحقيق هذا السكون الإلهي، فإنهم يسمونهم مختلين. ومن أجل ذلك سوف ننتهز الفرصة لكي نتحدث عن العديد من الأشياء الأخرى في الفصل القادم. والنقطة الأخرى التي يجب علينا أن نؤكد عليها هي أنه "من المستحيل الوصول لأي إتضاع ومعرفة روحية بدونه". إنه الطريقة الوحيدة والوسيلة الوحيدة لمعرفة الله بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس كما ذكرنا من قبل.

يصر البعض على أن السكون الموصوف من قبل الآباء هو لاعمل وليس عملاً، ولكن العكس هو الصحيح في الواقع. **فالسكون هو عمل عظيم جداً في الخفاء والصمت.** يكون المرء في هدوء وسكون بهدف الكلام مع الله وبهدف أن يحصل على حريته ويتلقى الله ذاته. **ولو أننا أخذنا في الإعتبار حقيقة أن أعظم المشاكل التي تقهرنا تكون نفسية وداخلية، ولو أننا فكرنا في أن معظم الأمراض النفسية والعضوية تنبع من عمل الأفكار أي من نجاسة العقل والقلب، فإننا نستطيع أن نفهم القيمة العظمى**

---

[31]. Philok. 3, p. 194

للسكون العقلي. السكون هو إذاً عمل وحياة. يقدم السكون الحالات التي لا غنى عنها من محبة المرء لأخوته بدون أهواء، وإكتساب الحب العديم الأنانية والعديم الهوى. "إن ذاك الذي يكون غير مرتبط بالأشياء العالمية يتعلق بالسكون، والذي لا يحب أي شيء بشرى بالمرة يحب كل الناس" (القديس مكسيموس المعترف)[٣٢]. كيف يستطيع المرء أن يمتلك حباً غير أناني الذي هو أحد أهداف الحياة الروحية، بينما تسيطر عليه الأهواء؟

حياة السكون إذاً هي حياة نشاط مكثف، ولكن نشاط أصيل وجيد. "لا يجب علينا أن ننظر لسلوك القديسين على أنه تراخي ولكن على أنه صورة من نشاط مكثف. بالإضافة إلى ذلك فإن الله يُستعلن في علاقاته مع البشر بطريقة مشابهة. **فحركة الله تجاه البشر هي ليست فقط حركة ظهور ولكنها أيضاً حركة إعلان. إنها ليست فقط إعلاناً لكلمة ولكنها تعبير عن سكون. من أجل ذلك لا يرضى الإنسان بأن يتلقى فقط طاقات الله المعلنة لكي يقترب إليه أكثر، ولكن يجب عليه أن يتقدم نحو صمت سكونه**. يقود هذا الجزء الثاني للكمال، وهكذا يكون الأول مفترضاً مسبقاً. وفي الواقع لقد نوه القديس أغناطيوس حامل الإله إلى أن "ذاك الذي إكتسب كلمة المسيح بحق فهو فقط الذي يستطيع أن يسمع أيضاً سكونه بحيث يكون بذلك كاملاً". **لا يجب بالتالي على حركة الإنسان نحو الله أن تكون مجرد حركة فعل، ولكنها أيضاً حركة خفاء**. "لا يجب أن تكون شاهداً على الإعتراف فقط، وإنما شاهداً على الصمت والسكون أيضاً"[٣٣].

من أجل ذلك يتكلم الآباء عن "السكون المثمر"، الذي عندما يُمارس بطريقة صحيحة يقدم عوناً عظيماً للشخص، إذ يعيد تشكيل شخصيته ويجدد كيانه ويجعله يتحد بالله. وتصبح بالتالي علاقاته الإجتماعية أيضاً سليمة. عندما يكتسب المرء محبة لله فإنه يكتسب أيضاً محبة للجنس البشري.

٢- حركة السكون

لقد شرحنا على قدر إستطاعتنا ما هو السكون وما هي خصائصه، وكيف أنه لا غنى عنه لحياتنا الروحية. لقد أوصى به كل الآباء كأفضل طريقة للتنقية وللعودة لله. وبالإضافة إلى ذلك، وكما أشرنا من قبل، فإن الأرثوذكسية هي علم علاجي يهدف إلى شفاء أمراض

---

32 . Philok. 2, p. 89, 37

33 . G. Mantzarides. Palamika. P. 15. In Gk.

الإنسان. ولا يجب علينا أبداً أن نتغاضى عن ذلك لأننا لـو فعلنـا ذلـك، لـدمرنا كـل جـوهر ومحتوى المسيحية. يحصل المرء على التطهير، الذي هو إعداد ضروري للإتحاد بالله، مـن خـلال طريقة التكريس الأرثوذكسي الذي يجد فيه السكون مكاناً مهماً جداً.

تسمى هذه الطريقة بجملتها وطريقة الحياة بهـا حركـة الـسكون. أي أن الـشخص إذ يجاهـد في منـاخ مـن الـسكون يـسمى "سـكونياً" وطريقـة الحيـاة هـذه تـسمى "حركـة السكون". إننا بالتأكيد نعرف حركة السكون على أنها حركـة لاهوتيـة في القـرن الرابـع عشر كانت ممثلة بصورة رئيسية في القديس غريغوريوس بالاماس، الذي يـستعمل طريقـة نفسجسمية خاصة ويطلب بمعونة النعمة الإلهية أن يوحد العقـل مـع القلـب، وأن يعـيش بالتالي في شركة مع الله. لقد أصـر القـديس غريغوريـوس علـى أن هـذا يحـدث أيـضاً في الجسد بالمثل، بمعنى أن الجسد أيضاً يستطيع أن يكتسب خبرة حياة الله. وعلى العكـس مـن ذلك أصبح برلعام مناهضاً لهذه الحركة، دون أن يعرف هذه الطريقة، وكان نتيجة ذلـك أنـه أدين من قبل الكنيسة وفي النهاية عزل من المجال الأرثوذكسي. وإنتهى الـصراع الـسكوني كما كان يسمى بالمجامع التي إنعقدت في القسطنطينية في١٣٤١و١٣٤٦و١٣٥١ . ويعتـبر المجمـع الأخير الذي "برأ " القديس غريغوريوس بالاماس وأيد السكون مجمعـاً مـسكونياً: "إننـا نعتقد أن مجمع القسطنطينية المنعقـد في زمـن القـديس غريغوريـوس بالامـاس عـام ١٣٥١ يستطيع ويستحق أن يكون من بين المجامع المسكونية للكنيـسة الأرثوذكـسية علـى أسـاس عمله اللاهوتي العظيم، والذي لا يقل عنها بأي حال من الأحوال، بسبب المعنى الخلاصي الذي للاهوته. يشكل هذا المجمع الدليل علـى المجمعيـة المـستمرة للكنيـسة الأرثوذكـسية، وعلى الخبرة واللاهوت المعاش، الخاص بالخلاص، في المسيح"[٣٤].

على أية حال، لم تظهر حركة السكون هذه لأول مرة في القرن الرابـع عـشر، ولكنهـا كانت موجودة منذ القرون الأولى لحياة الكنيسة. إننا نجد السكون في الكتـاب المقـدس وفي كتابات آباء الكنيسة الأولين. لقد ذكرنا بالفعل أمثلـة مـن لآبـاء مـن كـل عـصور تـاريخ الكنيسة. فلقـد ذكرنـا القـديس أغنـاطيوس حامـل الإلـه، والقـديس باسـيليوس الكـبير، والقديس غريغوريوس اللاهوتي، والقديس مكسيموس المعترف، والقـديس ثالاسـيوس، والقديس يوحنـا الـدرجي، والقـديس سمعـان اللاهـوتي الجديـد، والقـديس غريغوريـوس بالاماس. ولم يكن القديس غريغوريوس بالاماس هو أول من أدخل حركة السكون ولكنـه

[34] . Athanasius Gievtits. Christ Beginning and End. P. 195. In Gk.

كان مؤيداً لها، ذاك الذي عاش وإختبر رحلة النفس الكاملة هذه. تُشكل إذاً حركة السكون الصورة الأصيلة للحياة المسيحية.

وعلى أية حال، فنحن أيضاً نستعمل تعبير حركة السكون، لكي نميز الطريقة المستخدمة لتركيز العقل في القلب. وهذا موضوع كبير وكنت أود فقط أن أشير لعناصر قليلة منه.

في محاولة الإنسان للتطهير "يقف عقله مُفعماً بالصلاة في قلبه" مردداً بإستمرار صلاة يسوع ذات الكلمة الواحدة. إنه لا ينشغل بكلمات كثيرة، فهو يذكر إسم يسوع المسيح بغير إنقطاع. وفي نفس الوقت، ينتبه العقل حتى لا تدخل الأفكار من باب القلب. وهكذا وكما يقول القديس مكسيموس المعترف فإن يقظة العقل تتحد بالصلاة.

"ولكن العقل يستطيع أن يتغلغل بصورة أكثر عمقاً إلى ما داخل القلب، وذلك عندما يتحد مع القلب بدافع إلهي، بحيث يكون متجرداً من كل صور ومفاهيم ذهنية، ليظل القلب مغلقاً في مواجهة أي عنصر غريب. وبعد ذلك تتغلغل النفس في "سرِّية" طبيعتها الخاصة فتصبح بالتالي مستحقة للوقوف بطريقة تفوق الوصف أمام الله بعقل نقي"[35].

تستخدم عدة طرق للوصول لهذا التركيز، ولإستعادة العقل المتجول إلى القلب. ومن الضروري أن تكون الطريقة التي نستعملها ممتزجة بالتوبة، لأنها، بخلاف ذلك، تتحول إلى طريقة آلية.

يقوم القديس غريغوريوس بالاماس في موعظته في أحد الفريسي والعشار، بتقديم صلاة العشار والطريقة التي كان يصلي بها على أنها نوع صلاة سكوني. إنه يستشهد بقول الإنجيل: "وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً اللهم إرحمني أنا الخاطئ" (لو١٨ : ١٣). ويقول القديس غريغوريوس مفسراً هذا النص، أن الكلمة التي إستعملت هنا "فوقف" تظهر الإستمرار الطويل للوقوف بالإضافة إلى المثابرة في التضرع وكلمات التوبة. لقد قال العشار "اللهم إرحمني أنا الخاطئ" ولم يضف أي شيء آخر. "وإذ لم يكن يتظاهر ولا يعطي إعتباراً لأي شيء آخر، كان منتبهاً فقط لنفسه ولله، محولاً صلاته إلى نفسه مكرراً فقط التضرع البسيط الذي هو نوع الصلاة الأكثر فاعلية".

---

[35] . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 145

يرى المرء هنا قيمة الصلاة البسيطة "يا ربي يسوع المسيح إبن الله إرحمني". يفكر السكوني مثل العشار في لا شيء بالمرة، ولكنه يركز عقله في كلمات الصلاة. يفسر القديس غريغوريوس بالاماس كلمات المسيح عن أن الفريسي "لم يكن يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء" أن ذلك يشير إلى صورة السكوني: "لقد كان هذا الوقوف وقوفاً وخضوعاً في نفس الوقت، ولم يكن يعني فقط خادماً حقيراً ولكنه كان يعني أيضاً شخصاً محكوماً عليه". وبهذه الصورة والطريقة أظهر العشار "الحكم السليم وملامة النفس، إذ كان يرى نفسه أنه غير مستحق لكل من السماء والهيكل الأرضي".

تُظهر أيضاً حقيقة قرعه لصدره إشتراك جسله في ألم وحزن نفسه "وإذ كان يقرع صدره من فرط إنسحاقه مظهراً نفسه بذلك كمستحق للعقاب، وإذ كان يئن بحزن عميق ويحني رأسه مثل شخص محكوم عليه سمى نفسه خاطئاً وإستعطى الرحمة بإيمان"[٣٦].

يبدو أنه من الواضح هنا أن السيد المسيح إستعمل مثل الفريسي والعشار، وإستعمله كذلك القديس غريغوريوس بالاماس مفسراً إياه بطريقة "سكونية"، لكي يقدم السكون والصلاة كأفضل طريقة للحصول على الرحمة من الله. إنها الصلاة الأكثر كمالاً، فهي صلاة الكلمة الواحدة التي تحتوي على ندم عميق ويشترك فيها الجسد طالما أنه هو أيضاً يتلقى نعمة الله، وهي الصلاة التي تقتني مناخاً من لوم النفس والحكم السليم عليها.

وإذ سخر برلعام الهرطوقي من السكونيين في عصره، بسبب إستعمالهم إنحناءة خاصة للرأس والجسد لكي يحققوا تركيز العقل ونمو متوازن لقوى النفس، أشار القديس غريغوريوس لحالة إيليا النبي الذي صلى لله وهو واضع رأسه بين ركبتيه: "وإيليا هذا الكامل في رؤية الله إذ وضع رأسه بين ركبتيه، وبالتالي جمع عقله إلى ذاته وإلى الله بجهد شديد، خلّص الشعب من سنين الجفاف العديدة"[٣٧].

وبعد ذلك أوصى القديس غريغوريوس بطريقة لتركيز العقل "... فلا تدر العينين هنا وهناك ولكن لتستقر إلى حد ما على الثدي الأيمن أو البطن، من أجل إرسال قوة العقل التي كانت قد تشتتت من خلال النظر خارجاً إلى القلب ثانية من خلال بقاء الجسد في هذا الوضع...."[٣٨].

---

36. St. Gregory Palamas. Homily 2, 13f. EPe vol. 9, p. 62ff. In Gk.
37. Letter to Barlaam, 49. Syggrammata I, p. 288. In Gk.
38. Ibid. 50

ويوصي القديس غريغوريوس السينائي من جهة موضوع كيفية الصلاة هذا قائلاً: "إجلس في الصباح على كرسي منخفض وإجبر عقلك على النزول من رأسك إلى قلبك وإبقِ عليه هناك. ثم إنحن بألم واصرخ بلا إنقطاع في نفسك وروحك مستعملاً صدرك وكتفيك ورقبتك بتوجع شديد قائلاً: يا ربي يسوع المسيح إرحمني". إنه يقول أيضاً أنه يجب علينا أن نحد من التنفس لكي نركز العقل: "حد من إستنشاق النفس بحيث لا تتنفس بدون توقف لأن الهواء المتحرك والخارج من القلب يُظلِم العقل ويُضيّع الحكمة ويحمل العقل بعيداً عن القلب"[39].

توجد شهادات آبائية أخرى عن هذا الموضوع[40]:

يصف القديس غريغوريوس السينائي، في موضع آخر أيضاً، طريقة الصلاة التي تركز العقل والتي تسمى حركة السكون: "إجلس في بعض الأحيان على كرسي لأنها غالباً ما تكون مضنية، وفي أحيان أخرى، وبطريقة عشوائية، تمدد مؤقتاً من أجل بعض الإسترخاء. يجب أن يكون جلوسك في صبر مثابراً على الصلاة، ولا تستسلم للجبن بسبب العمل المضني، ولكن إعمل في قلبك ووجه جسدك طالباً الرب في قلبك. إغصب نفسك بكل طريقة لكي تفعل ذلك لأن النبي قال:" أنظر لقد أخذتني الآلام مثل إمرأة في مخاض" ولكن إنحن إلى أسفل وإجمع عقلك في قلبك إن كان قد إنفتح بالفعل وأطلب الرب يسوع ليساعدك. وحتى لو كانت كتفاك مرهقتين ورأسك متألمة بإستمرار، ثابر على هذه الأشياء بجهاد وحب طالباً الرب في قلبك. إذ أن ملكوت الله يغتصب والغاصبون يختطفونه. لقد أظهر لنا الله بهذه الكلمات كيف يجب علينا أن نثابر في هذه المهام بحق. "لأن الصبر والمثابرة في كل شيء يولدان مجهوداً لكل من الجسد والنفس"[41].

يجب علينا أن نؤكد على حقيقة أن قيمة كل من السكون العقلي والصلاة الدائمة، وترديد صلاة يسوع وطريقة تركيز العقل الخاصة وتوحيده مع القلب، ووقوف الجسد أثناء الصلاة وتقييد الحواس، والتعليم بأن نعمة الله غير مخلوقة وأن المرء يستطيع أن يتلقاها في قلبه، وأن نور طابور أعلى من المعرفة البشرية وليس "أدنى من الفكر" وكل ما يُعَرِّف ما يسمى بحركة السكون كان قد "تبرر" من قِبل مجمع القسطنطينية، وبالتالي فإن من يتكلم ضد هذه الأشياء لا يعود بعد داخل التقليد الأرثوذكسي، ويخلق أسباباً لكي يُقطع من حياة الأرثوذكسية.

---

39. Gk. Philok. 4, p. 71f
40. Ibid. p. 72, 3
41. Ibid. p. 80

٣- الحركة المناهضة لحركة السكون

حيث أننا رأينا بإيجاز ما هو السكون وما هي حركة السكون وأن حركة السكون كانت قد تأكدت بمجمع نستطيع أن نسميه سكونياً بحق فدعونا نلقي نظرة موجزة على طريقة "معرفة الله" المناهضة للسكون والمنتشرة مع الأسف في عصرنا والتي تظهر أن هذه هي الأيام الشريرة.

"لقد واجه السكون معارضة مستمرة وخصوصاً في الغرب. وإذ كان ينقص معارضيه الخبرة الضرورية جادلوا في ما هو تجريدي وذهبوا إلى حد أن رأوا شيئاً آلياً فيما هو عملي، وإعتبروا بضعة تقنيات روحية تؤدي إلى رؤية الإلهي"[42].

ومع الأسف أثرت حياة الغرب هذه على اليونان ذاتها بحيث تشوه التقليد الأرثوذكسي بطريقة غريبة. من المؤكد أن العديد من الناس يؤكدون على أننا تغيرنا بروح الغرب، وحددوا مواضع هذا التغيير في عدة نقاط أخرى مثل العادات والتقاليد. ولكنني مع ذلك أعتقد أن التغيير العظيم حدث في طريقة السكون وحركته. ينظر للسكون على أنه طريقة أثرية وعلى أنه حياة اللاعمل وأنه غير مناسب لعصرنا الذي هو عصر العمل. وتنتشر هذه المفاهيم مع الأسف حتى بين الذين يريدون أن يعيشوا في التقليد الأرثوذكسي. إن وقتنا هو وقت العمل. "عالمنا المعاصر ليس عالم الذكريات والسكون ولكنه عالم العمل والكفاح"[43]. **لا تستطيع حركة السكون أن تجد صدى في عصرنا هذا الذي هو مرتبط باللذة وإرضاء الذات.** ومثلما قال القديس يوحنا الدرجي: "كما تستدير السمكة برشاقة من الخطاف هكذا تستدير النفس ذات الأهواء من الوحدة"[44]. يكون العصر المحب للذة مقاوماً لحركة السكون بشدة. لقد قال لي راهب أن في عصرنا هذا تعصف "ريح حارة مضادة لحركة السكون" وتحرق كل شيء. وأنا أعتقد أن هذا الحكم صائب تماماً. فهذا هو الواقع المعاصر فالمناخ السائد اليوم هو بالأحرى مناخ برلعام وليس مناخ القديس غريغوريوس بالاماس.

وينمو علم اللاهوت اليوم من خلال الإستطراد في المنطق. لقد أصبح ببساطة نظاماً منطقياً. إنني أود أن أصفه بأنه فلسفي. إنه تاريخ علم اللاهوت وليس ثمرة السكون

---

42 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 143
43 . G. Mantzarides. Palamika. P. 25. (In Gk.)
44 . Ladder. Step 15. CWS p. 176, 45

والشركة في الله. من أجل ذلك ظهرت أخطاء عديدة وإختلافات متعددة في الأفكار والآراء اللاهوتية. لا يعيش غالبيتنا علم اللاهوت اليوم على أنه علم علاجي مثلما قلنا من قبل. فنحن لا ندرك طريق التكريس الأرثوذكسي. إننا لو قرأنا الفيلوكاليا حيث تتركز النصوص الأكثر تعبيراً عن طريقة علم اللاهوت لرأينا أن أغلبها يتكلم عن كيفية شفاء الأهواء. إنهم لا يقدمون تحليلات ولا يكتفون بوصف الحالات العليا ولكنهم في نفس الوقت يصفون الطرق التي يجب علينا أن نستعملها من أجل شفاء الأهواء. **إنني أعتقد أن النقيصة الأساسية لعلم اللاهوت المعاصر هي أنه لم يهتم بدرجة كافية بالفيلوكاليا**. ربما يجب علينا أن نؤسس مجلساً خاصاً لكي نقدم حركة النسك وحركة السكون القائمتين على مراجع الفيلوكاليا.

وتوجد، بخلاف هذه الأشياء، حاجة لخبرة شخصية عن طريقة علم اللاهوت الأرثوذكسي كما هي موصوفة في المراجع. وما يقوله الأرشمندريت صوفرونيوس عن إظهار الفرق بين علم اللاهوت الحدسي وعلم اللاهوت الذي يحدث في الله، متميز جداً: "ما لم يتطهر القلب فإنه من المستحيل على المرء أن يصل للتأمل الحقيقي. القلب المتطهر من الأهواء هو القادر وحده على هذه الرعدة الخاصة وهذا الدهش أمام الله الذي يقمع العقل في صمت مبهج.

"يهدف اللاهوتي إلى رؤية الله بطريقة ما والراهب الناسك بطريقة أخرى. إن هدف الراهب الرئيسي هو أن يحقق سكون الصلاة في القلب وبقاء العقل حراً من الأفكار والحفاظ على يقظة هادئة مثل الخفير لكي يتأكد أن لا شيء يدخل القلب من الخارج. وأينما توجد حالة السكون المقدس هذه فإن العقل والقلب يتغذيان على إسم المسيح ووصاياه. إنهما يعيشان كما لو كانا واحداً متحكمين في كل ما يحدث داخلهما، لا بالتقصي المنطقي ولكن بطريقة بديهية وبواسطة حس روحي خاص". وبمقدار السرعة التي يتحد بها العقل مع القلب فإنه يستطيع أن يرى في كل لحظة في عالم اللاشعور(إننا نستعمل هنا هذا التعبير من علم النفس المعاصر بطريقة تقليدية). وعلى حين يقيم العقل في القلب فإنه يدرك الصور والأفكار المحيطة به النابعة من عالم الوجود الكوني الذي يحاول أن يمسك بالقلب والعقل. إن هجمة الأفكار الدخيلة تكون ضارة ويجبرالراهب طول النهار على ألا يقبل أي هوى وألا يسمح لنفسه بأي ولع من أي نوع وذلك لكي يضعف من حدوث هذه الأفكار. إن هدفه الدائم هو أن يقلل عدد الإنطباعات الخارجية للحد الأدنى. وما لم يفعل ذلك فإنه

في وقت الصلاة الداخلية العقلية سوف تتزاحم كل إنطباعات اليوم داخل القلب بلا قيود مسببة إضطراباً عظيماً.

"إن غرض الراهب هو تحقيق يقظة مستمرة للعقل في القلب. وبعد سنين طويلة من جهاد مثل هذا، الذي هو أصعب كل البطولات النسكية وأشق من أي جهاد آخر، يصبح القلب أكثر حساسية، على حين أن العقل من كثرة البكاء يتلقى قوة لكي يطعن أي إشارة لفكر هوى وعندئذ تستطيع حالة الصلاة هذه أن تبقى غير متزعزعة، ويصبح الإحساس بوجود الله، كحاضر وعامل، قوياً وواضحاً"[45].

يحتاج علم اللاهوت الأرثوذكسي لأن يتشبع بطريقة السكون هذه لكي يكون أرثوذكسياً بحق وليس أكاديمياً. وتبذل مجهودات في هذا المضمار، ولكن تبقى المشكلة كمشكلة بطريقة رئيسية. هل يتكلم علم اللاهوت المعاصر عن الدموع والحزن ولوم النفس والإتضاع؟ وهل يعتبرها طريقة لمعرفة الله "أن يجعل المرء العقل والعالم واقفاً، وأن ينسى كل الأمور الأرضية... وأن يضع جانباً المعاني من أجل ما هو أفضل"؟ هل يفترض أنه يجب علينا لكي نصل للشركة مع الله "أن نتخلى عن كل شيء حسي بالإضافة إلى الحواس، مرتفعين عالياً فوق الأفكار والمعقولات وكل معرفة، وفوق الفكر نفسه وأن نستسلم كلية لطاقة الإحساس الروحي الذي سماه سليمان الإحساس بما هو إلهي، وأن نصل للامعرفة التي هي فوق المعرفة، أي فوق كل صورة للفلسفة التي يتحدث عنها الناس كثيراً...؟"[46].

إنني أعتقد أن علم اللاهوت المعاصر على النقيض من ذلك حدسي ومنطقي. إنه مبنى على "الثروة" التي هي الحكمة. إن ما يقوله الأرشمندريت صوفرونيوس متميز: "يوجد نوع آخر من التصور، والذي نتمنى أن نتحدث عنه، وهو محاولة الذكاء لتخلل سر الوجود ولإدراك العالم الإلهي. إن مثل هذه المحاولات لا يمكن أن تتجنب أن تشتمل على التصور الذي ينحني له الجميع معطين إياه اللقب الرفيع أي الوحي الإلهي. وأما الناسك فإذ يكرس نفسه للصمت الداخلي النشط وللصلاة النقية، يحارب في داخله هذا الدافع' الخلاق' بتصميم لأنه يرى فيه 'عملية' مضادة لنظام الوجود الحقيقي **حيث 'يخلق' الإنسان صورة عن الله على صورته ومثاله هو"**[47].

---

[45]. Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 139
[46]. St. Gregory Palamas. Homily 53. EPE vol. 11, p. 326ff. In Gk.
[47]. Archim. Sophrony. Saint silouan. P. 155

يكتب أيضاً الأرشمندريت صوفرونيوس قائلاً: "يبني علم اللاهوت العقلاني نظامه كما يبني المهندس المعماري قصراً أو كنيسة. والمواد التي يستعملها هي المفاهيم التجريبية والغيبية ويهتم بالأكثر بالفخامة والتناغم المنطقي لصرحه المثالي أكثر من عنايته بالنظام الفعلي للأشياء".

" وإذ قد يبدو الأمر غريباً لم يستطع العديد من الرجال العظماء أن يحتملوا هذه المحاولة الساذجة التي يكون سببها الخفي هو الكبرياء".

" **يصبح المرء متعلقاً بثمار ذكائه كما تتعلق الأم بطفلها. يحب الإنسان العقلاني إبتكاره كما يحب نفسه ويتوحد معه ويغلق على نفسه معه. وعندما يحدث ذلك فلا يستطيع أي تدخل بشري أن يساعده وما لم يتراجع عما يعتقد أنه غنى فإنه لن يصل قط للصلاة النقية ورؤية الله الحقيقية"**[48]. علم اللاهوت هذا هو علم لاهوت برلعامي وليس علم لاهوت بالاماسي أرثوذكسي.

بالإضافة إلى ذلك يوجد اليوم تحيز ضد صلاة يسوع والطريقة التي تقال بها. ويجب علينا بالتأكيد أن نقول أننا نمتلك إنتعاشاً للصلاة وللمجهودات لنشر أعمال وكتابات الآباء عن الصلاة، ولكننا في نفس الوقت نلاحظ أن الناس يجهلون هذه الأشياء وأنهم غير قادرين على الإقتراب من حياة الصلاة. فأغلب القراءات تُقرأ لكي يساير المرء الموضة، أو أننا نجد ثانية أن الناس "الروحيين" يسخرون من حياة السكون، أو أسوأ من ذلك يمنعون الناس الذين تحت مشورتهم من الإنخراط في هذه الأشياء. إننا نسمع بإستمرار عن الرأي القائل "بأن هذه الأشياء ليست لنا" وما إلى ذلك. يظن الكثيرون أنه يكفي أن يأخذ المرء بضعة دقائق في الصباح وبضعة دقائق في المساء ليقول صلاة إرتجالية أو يقرأ بعض الخدمات ذات النصوص الملائمة. والأكثر من ذلك أنه حتى المناخ المقدس الذي للسكون أي الإنسحاق ولوم النفس والحزن يُنظر إليه على أنه غير ملائم لعامة الشعب، على عكس ما يقوله الآباء كما أوضحنا.

والأسوأ من الكل أن هذا الإتجاه 'العالمي' المناهض لحركة السكون يسود حتى بين الرهبان، ودب حتى داخل الأديرة التي كان من المفترض أن تكون "مدارس مكرسة لله" وأن تكون مدارس طبية حيث يجب أن يدرس العلم الطبي. **ينتشر إتجاه ذهني ينادي بأنه يجب علينا أن نعرف عن هذه الأشياء ولكنها ليست لنا!** توجد لديّ معرفة شخصية عن أن رهباناً

---

48. Ibid. p. 160f

"بارزين" مسئولين عن الإرشاد الأرثوذكسي لرهبان صغار يصفون كل المواضيع المرتبطة بحياة السكون على أنها "خرافات" ولا تستحق الكلام عنها إذ أنها حالات من الضلال!!!

إن هذا محزن حقاً. " لقد كان السكون من البداية علامة مميزة للحياة الرهبانية الأرثوذكسية. والرهبنة الأرثوذكسية هي في نفس الوقت حركة سكون أيضاً"[49].

ولحسن الحظ نستطيع أن نرى الآن محاولة للعودة للآباء. ونعني بذلك محاولة لأن نحيا حياة الآباء التي هي حياة السكون بصورة رئيسية. يوجد العديد من الشباب الغير راضي عن جو الصراع والقلق المعاصر وعن العمل بدون سكون والرسالة بدون صمت، والذين يتجهون بالأكثر نحو حياة السكون والذين يتغذون بها. يأتي العديد من الأشخاص إلى الرهبنة بهذه الإشتياقات ويستمرون على الحياة بواسطة نبع الآباء القديسين الذي هو التقليد الأرثوذكسي. بل وحتى في العالم تقام الآن مراكز للحياة في سكون.

يجب على هذه الحياة أن تنمو وأن تزيد في المدن أيضاً. هذه هي الطريقة التي أرى بها تنظيم الكنيسة والحياة الإبروشية. وهكذا فإننا سوف نصل لفهم أن **الكنيسة هي المكان حيث تشفى النفوس ولكنها أيضاً مكان للظهور الإلهي**. وهناك داخل التطهير تأتي معرفة الله ورؤية الله. ربما يجب على كل شخص وبقدر إستطاعته أن يتعهد صلاة يسوع التي من الممكن أن تكون المعلم لكل حياته الروحية. إنها سوف تعلمنا متى نتكلم ومتى نصمت، متى نقطع الصلاة لكي نساعد أخانا ومتى نكملها، متى كنا مخطئين ومتى حصلنا على مباركة الله. ويجب علينا بالمثل أن نجاهد لكي نحفظ ونحتفظ بعقل نقي.

يجب أن تصير عظة القديس ثالاسيوس قاعدة للحياة: "إغلق على حواسك في قلعة السكون بحيث لا تستطيع هذه الحواس أن تجعل عقلك ينخرط في شهواتها"[50].

ويجب علينا أن ننظر لكلمات القديس غريغوريوس اللاهوتي التي أوردناها في البداية على أنها هدف رئيسي للحياة: "إنه من الضروري أن يحافظ المرء على الصمت لكي يصل لإتحاد كامل مع الله ولكي يقلل أي ضلال للنفس"[51].

49 . G. Mantzarides. Tradition and Renewal in the Theology of Gregory Palamas. P. 9. In Gk.

50 . Philok. 2, p. 313, 10

51 . PG 95, 1245C

يجب علينا أن نعي جيداً أن هذا السكون هو "في الواقع طريقة الحياة مع الله الحقيقية والسديدة كما سُلمت لنا من قبل الآباء" وذلك بحسب قول الآباء كاليستوس وأغناطيوس الزانثوبولوس.

إنني أود أن أختم هذه الأفكار عن السكون بتعليم كاليستوس وأغناطيوس: "هذا الطريق، هذه الحياة الروحية في الله، هذه الممارسة المقدسة التي للمسيحيين الحقيقيين هي الحياة السرية في المسيح الحقيقية والسديدة والأصيلة. إن يسوع العذب، الإله الإنسان قاد هذا الطريق وأعطاه إرشاده السري، ولقد وطأه الرسل الإلهيون بالإضافة إلى أولئك الذين أتوا بعدهم. منذ البداية الأولى ومنذ المجيء الأول للمسيح على الأرض وحتى وقتنا هذا نقل معلمونا الممجدون الذين تبعوا المسيح والذين أضاءوا مثل المصابيح في العالم بلمعان حياتهم الحاملة للكلمات والأفعال الرائعة، نقلوا بعضهم لبعض منذ ذلك الحين حتى اليوم هذه البذار الجيدة، هذا الشراب المقدس ، هذا الزرع المقدس، هذا التذكار الذي لا ينتهك، هذه النعمة والقوة الفوقانية، هذه اللؤلؤة الثمينة، هذا الميراث الآبائي الإلهي، هذا الكنز المخفي في الحقل ، هذا العرس الذي للروح، هذا الرمز الملوكي، نبع المياه الذي للحياة هذا، هذه النار الإلهية، هذا الملح الثمين، هذه الموهبة، هذا الختم، هذا النور وما إلى ذلك.

سوف يستمر هذا الميراث في الإنتقال هكذا من جيل إلى جيل حتى بعدما ينتهي زماننا وحتى مجيء المسيح الثاني. لأن وعده أمين القائل: "' ها أنا معكم ... وإلى إنقضاء الدهر آمين؛ "[٥٢].

---

52 . Writings. P. 267f, 97

الباب السادس

علم المعرفة الأرثوذكسي

ينتمي موضوع علم المعرفة لهذا الكتاب ويشكل الفصل الأخير منه وهو مرتبط إرتباطاً وثيقاً بشفاء نفس الإنسان. لقد أظهرت الفصول السابقة أن سقوط ومرض وموت الإنسان هم بالضبط موت نفسه وعقله وقلبه وفهمه تحت تأثير الأفكار الشريرة. **إن السقوط هو سقوط العقل بصفة رئيسية.** ويحصل المرء على معرفة الله عندما تشفى النفس والعقل والقلب. وفي الواقع لا تعتمد معرفة الله على تحقق الشفاء فقط وإنما على مقداره أيضاً، فعندما تشفى النفس والعقل والقلب، بصورة تامة على قدر المستطاع، يحصل المرء على معرفة الله لا في كلمات عنه ولكن معرفة الله في ذاته. وبتعبير آخر، **فإن الله يُستعلن في القلب المتعافي وفيه يهب الله معرفة عن ذاته.** ويكون بالتالي من الواضح أن علم المعرفة الأرثوذكسي يرتبط إرتباطاً وثيقاً بعلاج النفس. فكلما إزداد الشفاء كلما إزدادت معرفة الله وتعطي معرفة الله التامة لذاك الذي يكون قد تنقى وحصل على الشفاء.

ولكي نرى ذلك بصورة أكثر وضوحاً فإننا نركز على تعاليم إثنين من آباء الكنيسة وهما القديس إسحق السرياني والقديس غريغوريوس بالاماس. وسوف نلقي نظرة أولاً على درجات المعرفة الثلاثة بحسب القديس إسحق السرياني، ثم بعد ذلك على معرفة الله بحسب القديس غريغوريوس بالاماس.

درجات المعرفة الثلاثة

بحسب القديس إسحق السرياني

تكلم القديس إسحق السرياني عن موضوع الدرجات الثلاثة للمعرفة في الفصل الثاني والخمسين والثالث والخمسين من عظاته النسكية.

إنه يبدأ بالمقارنة بين المعرفة والإيمان. فالمعرفة البشرية تتميز بحقيقة أنها لا تملك السلطة لفعل أي شيء "بدون تقصي وفحص" ولكن يجب عليها أن تفحص عما إذا كان ما ترغبه ممكناً أم لا (ص ٢٥٤). يوجد دور كبير للإدراك في المعرفة البشرية وعادة ما يكون العامل فيها هو الإدراك الساقط الذي يتجاوز حدوده الطبيعية بمعنى أنه إدراك يسود على العقل أيضاً. أما الإيمان فله حدود مختلفة ويبدو هنا الفرق الكبير بينه وبين المعرفة البشرية، بالإضافة إلى قيمته العظيمة. يقول القديس إسحق أنه عندما نستعمل كلمة

"إيمان" فنحن لا نعني أن نضع جانباً الحقائق العقائدية عن أقانيم الثالوث القدوس وعن تجسد المسيح وعن الإرتقاء بالطبيعة البشرية بواسطة الأقنوم الثاني من الثالوث "وعلى الرغم من أن هذا الإيمان أيضاً عالي جداً" ولكن المعنى الرئيسي لما نسميه إيماناً هو "ذاك النور الذي يشرق في النفس بواسطة النعمة، مقوياً القلب بشهادة الذهن جاعلاً إياه غير مرتاب بتأكيد الرجاء". لا يعلم هذا الإيمان الروحي الأسرار بواسطة التقليد المسموع" ولكنه يُبصر الأسرار المختفية في النفس بواسطة أعين روحية وكذلك الكنوز السرية الإلهية المخبأة بعيداً عن أعين أبناء الجسد، والتي يكشف عنها النقاب بواسطة الروح القدس لأولئك الذين يربضون على مائدة المسيح من خلال دراستهم لنواميسه (ص ٢٦٢). وهذا يعني **أنه على حين أن المعرفة البشرية تكتسب من خلال نشاط الإدراك ومن خلال البحث الإنساني إلا أن المعرفة الروحية تكتسب من خلال الإيمان**. وهذا الإيمان هو بصورة رئيسية ذاك الذي يشرق في النفس من نور النعمة، ومن خلال هذه القوة يتعلم المرء كل الأسرار المخفية عن أعين أبناء هذا الدهر الجسدانيين. إذاً "الإيمان أكثر سمواً من المعرفة تماماً مثلما تكون المعرفة أكثر سمواً من الأشياء الملموسة"(ص٢٦٢).

يشرح القديس إسحق الفرق بين المعرفة البشرية والإيمان. لا تستطيع المعرفة البشرية أن تتعلم بدون فحص على حين أن الإيمان "يتطلب طريقة تفكير واحدة طاهرة بسيطة محمولة بعيداً عن أي تعريج أو إختراع لطرق... إن منزل الإيمان هو فكر شبيه بالطفل وقلب بسيط"(ص ٢٥٤). وعلى حين أن المعرفة البشرية تقتني إدراكاً كمركز لها، فإن الإيمان له قلب بسيط وبريء. تبقى المعرفة البشرية "داخل حدود الطبيعة" على حين أن الإيمان "يصنع رحلته فوق الطبيعة" (ص ٢٥٤). وهذا يعني أن المعرفة البشرية هي حالة طبيعية تماماً تعمل داخل حدود طبيعية، على حين أن الإيمان هو حالة فائقة للطبيعة. بالإضافة إلى ذلك فإن المعرفة البشرية هي غير قادرة على فعل أي شيء بدون مادة فهي تتحرك في عالم مادي، على حين أن الإيمان له سلطان لإبداع جديد على شبه الله (ص ٢٥٤). لا تجرؤ المعرفة البشرية ولا ترغب أن تتجاوز حدود الطبيعة، على حين أن الإيمان "يتجاوزها بسلطان" (ص ٢٥٥). يظهر ذلك في حياة كل القديسين الذين بقوة الإيمان "دخلوا في النار وأطفأوا قوتها المحرقة ومشوا في وسطها دون أن تؤذيهم وعبروا عبر البحر كما فوق أرض يابسة" (ص ٢٥٥). وكل هذه الأمور التي يفعلها الإيمان هي فوق الطبيعة ومضادة لطرق المعرفة البشرية. تبقى المعرفة البشرية "داخل حدود الطبيعة" على حين أن الإيمان "يعبر فوق الطبيعة" (ص ٢٥٥). دائماً ما تطلب المعرفة البشرية وسائل "لحماية أولئك الذين

إكتسبوها"، أي أنها دائماً ما تتخذ وسـائل واقيـة وتطلـب حمايـة الإنـسان بطـرق بـشرية. ولكن الإيمان يترك الأمر برمته لله". فالإنسان الـذي يـصلي في إيمـان لا يـستعمل قـط ولا ينخرط في طرق ووسائل" (ص٢٥٥). لا تبدأ المعرفة البشرية أي عمـل بـدون أن تفحـص كيف سينتهي على حين أن الإيمان يقول: "كل شيء مستطاع للمؤمن لأنه ليس شيء غـير مستطاع لدى الله" (ص ٢٥٦).

ويرى القديس إسحق أنه أمر حقيقي أن المعرفة البشرية ليست مخطئة ولكـن الإيمـان أعلى منها (ص ٢٥٦). تـصبح المعرفـة كاملـة بالإيمـان طالمـا أن "المعرفـة هـي درجـة سـلم يستطيع الإنسان أن يصعد عليهـا إلى إرتفـاع الإيمـان الـشامخ" (ص ٢٥٧). وعنـدما يـأتي الإيمان يُلغى ما هو جزء. وبعد ذلك "نتعلم بواسـطة إيماننـا تلـك الأشـياء الـتي لا يمكـن إستيعابها بالفحص والقوة اللذين للمعرفـة" (ص ٢٥٧). إن كـل أعمـال الـبر الـتي هـي الفضائل أي الصوم والصدقة والسهر والقداسة وكل "باقي الأعمال التي تؤدى بالجـسد" وكل تلـك الـتي تـؤدى بـالنفس أي محبـة القريـب وتواضـع القلـب والمغفـرة "لأولئـك المسيئين" وتذكر الأشياء الصالحة والفحـص عـن الأسـرار المختبئـة في الأسـفار المقدسـة وإنشغال الذهن بالأعمال الصالحة وكبح أهواء النفس وبـاقي الفـضائل المـشابهة... "كـل هذه الأعمال تتطلب معرفة". "فالمعرفة تصونها وتعلم تدبيرها". وتكون كل هذه الأشـياء درجات تصعد عليها النفس" إلى إرتفاع الإيمان الأكثـر علـواً". وعلـى أيـة حـال "يكـون طريق الحياة الذي للإيمان أكثر رفعة من عمل الفضيلة، ولا يكون عملاً ولكن راحـة تامـة وتعزية ويتحقق في القلب وداخل النفس"(ص ٢٥٦-٧).

تشير كل هذه الأشياء إلى أنه بحسب تعليم القـديس إسـحق وآبـاء قديـسين آخـرين يكون الإيمان أعلى من المعرفة البشرية، بل وأعلى حتى مـن المعرفـة المكتـسبة مـن خـلال ممارسة الفضيلة. إذ أن الإيمان هو حالة فائتة وشركة مع الله. إنه "فهم ورؤية القلب". وهو الحياة التي تنمو في النفس مع مجيء نور النعمة الإلهية. إننا سـوف نلقـي نظـرة في الفـصل القادم في تعليم القديس غريغوريوس بالاماس على معرفة الله هذه التي هـي حقـاً "شـركة في الوجود" أي شركة وإتحاد الإنسان بالله. إنها إذاً معرفة أعلى من أي معرفة بـشرية حتـى من المعرفة المكتسبة من خلال ممارسة الفضائل، لأننا نجد بواسطتها المسيح ذاته المختبـئ في عمق الوصايا.

يتكلم القديس إسحق عن ثلاثة أنواع من المعرفة. ودعونا نفحص كيف تختلف بعضها عن بعض لأني أعتقد أن ذلك سيوضح لنا كيف يختلف التقليد الأرثوذكسي عن التقليد البشري الثقافي، وكيف تختلف المعرفة الإلهية عن المعرفة البشرية.

توجد ثلاثة طرق يمكن أن نتصورها تصعد وتنزل فيها المعرفة. هذه الطرق هي جسد ونفس وروح(ص ٢٥٨). وفي الواقع عندما يتكلم الآباء عن جسد ونفس وروح فإنهم لا يعنون أجزاء الإنسان الثلاثة ولكنهم يعنون بكلمة 'روح' موهبة النعمة، تلك النعمة الإلهية التي يتبارك بها الإنسان. **وبدون نعمة الله يسمى الإنسان إنساناً نفسانياً أو جسدانياً على حين أنه يسمى روحانياً في وجود النعمة.** وعلى حين أن طبيعة المعرفة واحدة فإنها تتهذب وتغير طرقها بحسب هذه المجالات المُدرِكة والحساسة (ص ٢٥٨).

وبالتالي فإنه تماماً مثلما توجد ثلاثة طرق واعية ومُدركة التي هي جسد ونفس وروح فبالمثل أيضاً توجد ثلاثة أنواع من المعرفة مرتبطة بها. ويظهر الإنسان تقدمه الروحي وحالته الروحية بحسب نوع المعرفة التي يمتلكها. وبالإضافة إلى ذلك يكون نوع المعرفة التي يمتلكها البشر مؤشراً على تطهيره وشفائه. إن الذي تكون نفسه غير صحيحة يمتلك معرفة جسدية، على حين أن الذي يكون في حالة شفاء يمتلك معرفة نفسانية وأما الذي قد شفي بالفعل فله معرفة روحية. ويعرف الأخير أسرار الروح القدس التي هي غير معروفة وغير مفهومة للإنسان الجسداني.

تكتسب المعرفة الأولى بالدراسة المستمرة والإجتهاد في التعلم، وتأتي المعرفة الثانية عن طريق حياة نقية وصالحة ومن إيمان الذهن، وأما المعرفة الثالثة " فهي مخصصة للإيمان وحده. لأن المعرفة تُلغى بالإيمان وينتهي العمل ويصبح إستعمال الحواس غير ضروري" (ص ٢٦٤).

دعونا نلقي نظرة أكثر تحليلاً على أنواع المعرفة الثلاثة هذه والتي تدل على مرض أو صحة نفس الإنسان، وذلك على أساس تعليم القديس إسحق.

* الأولى هي المعرفة الجسدية:

إن بعض الخصائص المميزة للمعرفة البشرية والتي ترتبط بشهوات الجسد هي الثروة والمجد الباطل، والتزين وراحة الجسد، والإجتهاد في الحكمة المنطقية بحيث تكون ملائمة للتسلط على العالم وللإكتشافات الجديدة، والفنون والعلوم (ص ٢٥٨). تتعارض

هذه المعرفة مع الإيمان مثلما شرحنا من قبل لأنها تعتقد أن "كل الأشياء تقوم بواسطة تدبيرها الخاص" (ص ٢٥٨). إن حكمة ومعرفة أشياء هذا العالم، بدون النوعين الآخرين من المعرفة، عديمة الفائدة وتخلق عدة مشاكل للإنسان. إن هذه المعرفة ضحلة وساذجة لأنها " متجردة من كل إهتمام بالله" (ص ٢٥٨) ويكون إهتمامها فقط بهذا العالم، ولأنها تحت سلطان الجسد "فإنها تُدخل في الذهن ضعفاً بهيمياً" (ص ٢٥٨).

يمتلك أغلب الناس في عصرنا، والذين هم مرضى النفس، هذه المعرفة ويتعهدونها بإستمرار. وتكون الحضارة المعاصرة بجملتها والتي تخلق عدة تشوهات للنفس والجسد في هذه الحالة، ومن ثم تخلق هذه المعرفة ذات الجانب الواحد عدة مشاكل. ويصفها القديس إسحق هنا. يكون إنسان هذه المعرفة الجسدية فريسة للجبن والحزن واليأس، والخوف من الشياطين والذعر أمام الناس وأمام الشائعات عن اللصوص والقتل، والقلق والمرض الزائد، والإهتمام بالعوز ونقص الضروريات، والخوف من الموت والخوف من الآلام ومن الحيوانات المفترسة، ومن أشياء أخرى شبيهة والتي يتكون منها بحر الحياة الحاضرة(ص ٢٥٨). **لا يعرف الإنسان الذي يمتلك هذه المعرفة البشرية والجسدية كيف يترك نفسه لمراحم الله، ولكنه يحاول بطرقه الخاصة أن يحل المشاكل المتعددة.** ولكنه عندما لا يستطيع أن يجد حلاً وذلك لعدة أسباب فإنه "يصارع الأشخاص كما لو كانوا قد قاوموا وعارضوا" هذه المعرفة(ص ٢٥٨). إنه يتخاصم مع الناس لأنهم منعوا إمتلاك خيرات المعرفة الجسدية.

تنتزع هذه المعرفة الجسدية، التي هي إهتمام عالمي، المحبة تماماً. فهي تجعل المرء يفحص أخطاء الآخرين الصغيرة وخطاياهم وأسبابها وضعفاتهم، وتجعل الإنسان يمتحن ويناقض أقوال الآخرين ويصبح خبيثاً في كل أعماله، ويبتكر طرقاً لإهانة الناس. تحتوي هذه المعرفة على وقاحة وكبرياء(ص ٢٥٩).

إننا نرى أن المعرفة البشرية تميز الحضارة المعاصرة بوضوح. يعرض القديس إسحق ببصيرة نبوية أسباب وسلوكيات هذا الإنسان الجسداني ويصف صراعه وضيقه، ويعرض أيضاً النتائج المخيفة لهذه المعرفة الجسدية. **إن ما يُعَّرف الإنسان المعاصر المريض النفس والبعيد عن الله هو إضطراب علاقاته الشخصية، ونقص المحبة وعناد ومكر في كل الأفعال.**

* المعرفة الثانية هي معرفة النفس:

عندما يتخلى الإنسان عن المعرفة الأولى، التي هي جسدية ولحمية، ويتجه نحو رغبات ومحاورات النفس، فإن كل الأفعال الصالحة التي للمعرفة النفسانية تتحقق. وهذه الأفعال الصالحة هي الصوم والصلاة والإحسان وقراءة الأسفار المقدسة وطرق الفضيلة ومصارعة الأهواء وغيرها (ص ٢٥٨). تصبح هذه الأعمال كاملة بواسطة الروح القدس وهي لا تحدث بقوة الإنسان ولكن بالعمل المشترك للإنسان مع الروح القدس . توجد مراحل لإكتساب المعرفة، وتصبح الدرجة الثانية كاملة "عندما تؤسس عملها على الإنعزال عن الناس وقراءة الكتاب المقدس والصلاة" (ص ٢٦٠). وهذا يعني أن الشخص الذي يمتلك المعرفة النفسية هذه يحيا في السكون بكل متطلباته التي شرحناها في الفصل السابق. إنه يصلي لله بدون إنقطاع ويدرس الكتاب المقدس في هذا الجو المقدس من السكون بهدف تعلم كلمات الله النابع عن حب الإستطلاع. تشتمل هذه الفئة على أولئك الذين هم في حالة شفاء من القرح النفسية وجراحات النفس. **يقدم هذا الشفاء معرفة يمكن تسميتها مرحلة تمهيدية وحجرة إنتظار للمعرفة الروحية والتي سوف يمنحها مجيء نعمة الله في قلب الإنسان.**

* المعرفة الثالثة الروحية:

عندما ترتفع معرفة الإنسان فوق الإهتمامات العالمية وتبدأ في أن تبصر داخلياً "ما هو مخفي عن الأعين"، وعندما تلفظ الأشياء "التي تنبع منها إنحرافات الأهواء" وتمدد نفسها إلى أعلى في رغبتها في وعود الدهر الآتي وفي بحثها في الأسرار الخفية "فعندئذ يبتلع الإيمان المعرفة ويحولها ويلدها من جديد بحيث تصبح روحية تماماً" (ص ٢٦١).

وعندئذ تستطيع المعرفة الروحية أن تحلق إلى أماكن الملائكة الغير متجسمة وتعرف الأسرار الروحية التي تحكم الطبائع الروحية والحسية. **وهذا يعني أنها تعرف الطبائع الداخلية للموجودات.** وبعد ذلك تستيقظ الحواس الداخلية وتقبل النفس القيامة، التي تعطي تأكيداً للقيامة العتيدة للبشر. لقد كتب القديس إسحق الذي إمتلك هذه المعرفة الروحية التي هي حياة الإيمان قائلاً: "وعندئذ تستطيع أن تحلق في أمكنة اللامتجسمين وأن تلمس عمق البحر غير المدرك لأنها تفهم بأي طريقة عجيبة إلهية تدار الطبائع العقلية والحسية. إنها تبحث عن الأسرار الروحية التي تدرك بالعقل البسيط الشفاف. وعندئذ تستيقظ الحواس الداخلية للعمل الروحي بحسب النظام الذي سيكون للحياة

الأزلية الغير فاسدة، لأنها منذ الآن قد قبلت في سر القيامة الأدراك، كشهادة حقيقية لتجديد الكل" (ص ٢٦١).

لقد إمتلك كل قديسي الله هذه المعرفة، مثل موسى وداود وأشعياء وبطرس الرسول وبولس الرسول وكل القديسين الذين حسبوا أهلاً لهذه المعرفة الكاملة "بالدرجة الممكنة للطبيعة الإنسانية" (ص ٢٥٩). تأتي هذه المعرفة في الواقع من رؤية الله والنور الغير مخلوق ومن الإعلانات الإلهية، أو كما يصفها القديس إسحق "بواسطة تأملات عديدة وإعلانات إلهية بواسطة الرؤية العالية للأشياء الروحية، وبواسطة الأسرار التي تفوق الوصف..." (ص ٢٥٩). وعندئذ تُبتلع المعرفة برؤى الله هذه ويشعر المرء أنه تراب ورماد(ص ٢٥٩). إنه يكتسب حالة الإتضاع والبساطة المباركة. تكون إذاً المعرفة الروحية التي هي معرفة الله، ثمرة الثيئوريا (رؤية الله) ويقبلها الشخص الذي تقدم من المعرفة الجسدية إلى المعرفة النفسية وبعد ذلك إلى المعرفة الروحية.

ونستطيع أن نقول بإختصار أن المعرفة الأولى "تجعل النفس باردة من جهة الأعمال التي تذهب وراء الله". والمعرفة الثانية تجعل النفس حارة في الطريق السريع "على مستوى الإيمان" وأما المعرفة الثالثة فهي راحة من العمل "التي هي نوع الدهر الآتي لأن النفس تتمتع فقط بتأمل الذهن في أسرار الخيرات العتيدة" (ص ٢٦٢) .

يرتبط تعليم القديس إسحق هنا بصورة كبيرة بالموضوع الذي نتناوله للأسباب الآتية: لقد ذكرنا في بداية الكتاب أن أعضاء الكنيسة لا يصنفون صالحين وأشرار، أو أخلاقيين وعديمي الأخلاق على أساس الأخلاقيات البشرية، ولكن إلى مرضى النفس وأولئك الذين في طريقهم للشفاء وأولئك الذين شفوا. وتتطابق هذه الفئات الثلاثة بدقة مع الدرجات الثلاثة للمعرفة. فأولئك الذين نفوسهم مريضة هم أناس المعرفة الجسدية العالمية، وأولئك الذين في طريقهم للشفاء هم أولئك الذين يكتسبون حكمة ومعرفة النفس بدرجات مختلفة، وأولئك الذين شفوا هم قديسو الله الذين يمتلكون معرفة روحية أي معرفة حقيقية لله. **إن أغلب أناس عصرنا هم مرضى النفس بسبب كونهم لا يعرفون شيئاً عن العقل والقلب في المعرفة الجسدية اللحمية الأولى.** وينتمي الآخرون للمعرفة الثانية لأنهم يصارعون لكي يشفوا بواسطة كل الطريقة النسكية المتاحة في الكنيسة الأرثوذكسية. وينتمي القديسون الذين هم موجودون حتى في يومنا هذا إلى المعرفة الثالثة طالما أنهم كانوا قد شفوا من أمراضهم وإكتسبوا بالتالي معرفة الله.

معرفة الله بحسب
القديس غريغوريوس بالاماس

والآن، وبعد أن شرحنا تعليم القديس إسحق السرياني عن درجات المعرفة الثلاثة، نستطيع أن نمضي لنلقي نظرة على معرفة الله بحسب القديس الآثوسي غريغوريوس بالاماس. عندما يرتفع شخص ما من المعرفة الجسدية لمعرفة النفس ومن معرفة النفس للمعرفة الروحية فإنه يرى الله عندئذ ويمتلك معرفة الله التي هي خلاصه. **ولا تكون معرفة الله كما سنشرح فيما بعد ذهنية ولكن كيانية**. بمعنى أن كيان الإنسان بكليته يمتلىء بمعرفة الله هذه. ولكن لكي يحصل المرء عليها يجب أن يكون قلبه قد تنقى أي يجب أن تكون النفس والعقل والقلب قد شفوا: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت٥ : ٨).

دعونا نفحص الأشياء بطريقة أكثر تحليلاً.

لقد أصر برلعام، كما أشرت أن معرفة الله لا تعتمد على رؤية الله ولكن على فهم الإنسان. لقد قال أننا نستطيع أن نكتسب معرفة الله من خلال الفلسفة وبالتالي أن النور الغير مخلوق الذى رآه الأنبياء والرسل اعتبره حسياً ومخلوقاً "وأدنى من فهمنا". وعلى أية حال دعم القديس غريغوريوس بالاماس الحامل للتقليد ورجل الإعلان الرأي المعاكس. لقد عرض في لاهوته تعليم الكنيسة بأن النور الغير مخلوق الذي هو رؤية الله هو ليس مجرد رؤية رمزية ولا حسية مخلوقة ولا أدنى من الفهم، ولكنها إتحاد بالله. يصبح الإنسان مستحقاً لرؤية الله من خلال الإتحاد به. وهذا الإتحاد هو ليس حالة تجريدية ولكنه شركة للإنسان مع الله. بمعنى أن الإنسان الذي يبصر النور الغير مخلوق يراه لأنه يكون متحداً بالله. إنه يبصره بعينيه الداخليتين وأيضاً بعينيه الجسديتين التي تكون على أية حال قد تغيرت بعمل الله. وبالتالي تكون الثيئوريا (رؤية الله) إتحاداً بالله، وهذا الإتحاد هو معرفة الله. وفي هذا الوقت يُمنح المرء معرفة الله التي هي فوق المعرفة البشرية وفوق الحواس.

يشرح القديس غريغوريوس كل هذا اللاهوت في عدة مواضع تتخلل كتاباته. وحيث أننا لا ننوي في هذا الفصل أن نقدم عرضاً منظماً لكل تعليمه عن معرفة الله، فسوف نكتفي بتحليل النقطة الرئيسية فيه كما هي مقدمة في كتابه الرئيسي "عن السكونيين المقدسين" المعروف "بالثلاثيات". ويجب علينا أيضاً أن نضيف أننا سوف لا

نقدم كل التعليم كما هو موضوع في ذلك الكتاب، ولكن النقط الرئيسية فقط. وسوف نعطي المرجع بعد كل إقتباس. ونورد هنا نصاً مميزاً يقدم فيه هذا التعليم بإيجاز:" إن الذي نقى نفسه من كل إرتباط بأشياء هذا العالم والذي نزع نفسه من كل شيء بواسطة حفظ الوصايا وبواسطة اللاهوى الذي ينتج عن ذلك، والذي تجاوز كل نشاط معرفي خلال صلاة دائمة أمينة غير مادية، والذي إستنار بصورة وفيرة بالنور الذي لا يمكن الوصول إليه، في إتحاد غير مدرك، هو وحده إذ يصبح نوراً ويتأمل بالنور ويبصر النور يدرك بحق في رؤيته وتمتعه بهذا النور أن الله فائق اللمعان وفوق كل فهم. إنه يمجد الله ليس فقط بما هو فوق قدرة العقل البشري على الفهم، حيث أن العديد من الأشياء المخلوقة هي فوق هذه القدرة، ولكن أيضاً بما هو فوق الأشياء المدركة 'مشابهاً بصورة إلهية العقول السماوية العلوية' " (٢،٥٧،٣).

إننا نجد التعليم الرئيسي للقديس غريغوريوس في هذا النص. يجب على المرء لكي يحصل على رؤية النور الغير مخلوق أن يقطع كل إرتباط بين النفس وبين ما هو أرضي، وأن ينتزع نفسه من كل شيء بأن يحفظ وصايا المسيح، ويجب عليه من خلال اللاهوى الناتج عن ذلك أن يتجاوز كل نشاط معرفي "من خلال صلاة دائمة أمينة وغير مادية". وبالتالي فإنه حتماً يكون قد شفي بالفعل من خلال حفظ وصايا المسيح، ومن خلال تطهير نفسه من كل إرتباط خاطيء بالأشياء المخلوقة. إنه يستنير بالنور الذي لا يمكن الوصول إليه "بصورة وفيرة في إتحاد غير مدرك". إنه يرى الله من خلال الإتحاد. وبالتالي يصبح نوراً ويبصر بالنور وإذ يرى النور الغير مخلوق فإنه يدرك الله ويكتسب معرفة عنه لأنه الآن "يدرك بحق أن الله فوق الطبيعة وفوق الفهم".

يقدم أيضاً القديس غريغوريوس هذا التعليم في مواضع أخرى من كتابه "الثلاثيات".

إن رؤية الله، أي ثيئوريا، النور الغير مخلوق ليست رؤية حسية، ولكنها إتحاد الإنسان بالله . وإذ يتكلم عن رؤية موسى لله "وجهاً لوجه وليس في ألغاز" فإنه يذكر نص القديس مكسيموس المعترف الذي يقول : "إتحاد الإنسان بالله هو إستنارة مباشرة وليس لها بداية ولكنها تظهر في أولئك المستحقين كشيء يتجاوز فهمهم. إنها في الواقع إتحاد باطني مع الله، يفوق العقل والحكمة، في الدهر الذي سوف لا تعرف فيه الخليقة فساداً" (٢٨،١،٣ / ص ٨٤). رؤية النور الغير مخلوق هي إذاً إتحاد الإنسان بالله . إنه يرى الله خلال الإتحاد به وليس من خلال صقل الإدراك. تسمى رؤية النور الغير مخلوق موهبة الإتحاد بالله.

إنها ليست موهبة من طبيعة بشرية ولكن من الروح القدس: "وبالتالي فإن موهبة الروح القدس المؤدية إلى الإتحاد بالله هي نور خفي تحول الذين يقبلون ثروتها إلى نور. إنها لا تملأهم فقط بنور أبدي، ولكنها تمنحهم أيضاً معرفة وحياة تليق بالله" (٣،١،٣٥ / ص ٩٠). وهكذا فإن رؤية الله ليست خارجية ولكنها تأتي من خلال الإتحاد به (٢،٣،٢٥).

هذا هو الإتحاد والشركة مع الله. ويرى القديس غريغوريوس أن "رؤية النور الغير مخلوق ليس هو مجرد تجريد وعدمية ولكنه إتحاد يحدث باطنياً وبصورة تفوق الوصف بواسطة نعمة الله بعد التخلي عن كل شيء سفلي يطبع نفسه في العقل، أو بالأحرى بعد الكف عن كل نشاط عقلي. إنها شيء يتجاوز التجريد" (١،٣،١٧ /ص ٣٤ف). يحدث تأمل النور الغير مخلوق "بواسطة شركة الروح القدس المؤلهة" (١،٣،٥/ ص ٣٣). "يكون إذاً تأمل هذا النور إتحاداً، حتى على الرغم من أنه لا يخوض في الغير كامل، ولكن هل يكون الإتحاد بهذا النور شيئاً آخر بخلاف الرؤية؟" (٢،٣،٣٦/ ص ٦٥).

يتكلم القديس غريغوريوس عن الدهش. ولكن هذا الدهش الموجود في تعليم الآباء لا علاقة له بالدهش الموجود في Pythia وفي الديانات الأخرى. يأتي الدهش عندما يتخلى العقل في الصلاة عن كل إرتباط بالأشياء المخلوقة: أولاً "بكل شيء شرير وسيء ثم بكل الأشياء الحيادية" (٢،٣،٣٥/ ص ٦٥). إن الدهش هو بصورة رئيسية الإبتعاد عن رأي العالم والجسد. وبالصلاة الأمينة "يتخلى العقل عن كل الأشياء المخلوقة" (٢،٣،٣٥/ ص ٦٥). هذا الدهش أعلى من علم اللاهوت التجريدي، أي أعلى من علم اللاهوت المنطقي، وينتمي فقط لأولئك الذين حصلوا على اللاهوى. ولكنه لا يكون إتحاداً بعد. بمعنى أن الدهش الذي هو صلاة للعقل بغير إنقطاع والتي يتذكر فيها العقل الله بإستمرار ولا تكون له علاقة "بعالم الخطية" هو ليس بعد إتحاداً بالله. يأتي هذا الإتحاد عندما "ينير الباراقليط من أعلى الإنسان الذي يصل في الصلاة إلى المرتبة التي هي أسمى من الإمكانيات الطبيعية، والذي ينتظر وعد الآب. ويسحره بإعلانه لكي يتأمل النور" (٢،٣،٣٥/ ص ٦٥). الإستنارة بالله هي ما يُظهر إتحاده بالإنسان.

إن الرؤية والإتحاد بالله هي الأشياء التي تمنح الإنسان المعرفة الكيانية لله. وبالتالي يمتلك الإنسان معرفة حقيقية لله. تُحول عطية الروح القدس المؤلّهة والتي هي نور خفي، أولئك الذين حصلوا عليها إلى نور إلهي" ولا تملأهم فقط بالنور الأبدي "ولكنها تهبهم أيضاً معرفة وحياة تليق بالله" (٣،١،٣٥/ ص ٨٩). ويمتلك الإنسان في هذه الحالة معرفة لله. يرد القديس غريغوريوس بالاماس على تعليم برلعام أن الله يُعرف بالمتأملين والفلاسفة

العظماء وأن معرفة الله المنقولة " بواسطة إستنارة عقلية... هي ليست حقيقية بأية حال" (٧٨،٣،٢). إذاً أياً من يتجاهل ويحتقر رؤية الله التي تمنح معرفة حقيقية هو في الحقيقة جاهل بالله.

تُظهر هذه الأمور أن رؤية الله والإتحاد به ومعرفته ترتبط ببعضها البعض إرتباطاً وثيقاً. ولا يمكن فهمها بدون بعضها البعض. وكسر هذه الوحدة يحمل الإنسان بعيداً عن معرفة الله. **وأساس علم المعرفة الأرثوذكسي هو الإستنارة وإعلان الله داخل قلب الإنسان المتطهر.**

وكما رأينا فإن معرفة الله تفوق المعرفة البشرية. تتجاوز رؤية النور الغير مخلوق كل نشاط معرفي وتفوق "النظر والمعرفة"(٥٠،٣،٢). وحيث أن رؤية النور الغير مخلوق تُمنح لقلوب المؤمنين والكاملين " فإنها تكون أعلى من نور المعرفة" (١٨،٣،٢/ ص٦٣). وهي ليست فقط أعلى من نور المعرفة البشرية "المستمدة من الدراسات اليونانية" ولكن نور هذه الثيئوريا يختلف عن "النور الحاصل من الأسفار المقدسة" حيث أن نور الأسفار المقدسة يشبه" مصباحاً ينير في مكان مظلم على حين أن رؤية النور الغير مخلوق يشبه نجمة الصبح التي تسطع في النهار أي الشمس" (١٨،٣،٢/ ص ٦٣). تتجاوز إذاً نعمة الإتحاد بالله الطبيعة، والفضيلة، والمعرفة البشرية (٢٧،١،٣).

رؤية النور الغير مخلوق والمعرفة الناتجة عنه هي ليست تجلياً للقوة المنطقية ولا كمالاً للطبيعة المعقولة كما أكد برلعام، ولكنها أعلى من المنطق. إنها معرفة مقدمة من الله لنقي القلب. **إن أياً من يؤكد على أن الموهبة المؤدية للإتحاد بالله هي نمو للطبيعة المنطقية يضع نفسه في تعارض مع إنجيل المسيح.** لو كان التأمل موهبة طبيعية لكان كل الناس متحدين بالله الواحد أقل والآخر أكثر. ولكن "يتجاوز القديسون المتحدين بالله الطبيعة". إنهم مولودون من الله وأعطاهم الله قوة ليصيروا ' أبناء الله'" (٣٠،٣،١/ص٨٥).

رؤية النور الغير مخلوق التي تمنح معرفة الله للإنسان هي حسية وفائقة للحواس. يعاد تشكيل عيني الجسد بحيث تريان النور الغير مخلوق "هذا النور السري الذي لا يمكن الوصول إليه والغير مادي والغير مخلوق والأبدي "هذا " اللمعان الذي للطبيعة الإلهية وهذا المجد الذي للألوهية وهذا الجمال الذي للملكوت السماوي" (٢٢،١،٣/ ص ٨٠). يسأل القديس غريغوريوس بالاماس قائلاً: "هل ترى أن النور لا يمكن الوصول إليه بالحواس التي لم تتحول بالروح القدس؟"(٢٢،٣،٢). يقول القديس مكسيموس الذي

يستشهد القديس غريغوريوس بتعليمه، أن الرسل رأوا النور الغير مخلوق "بتحول نشاط حواسهم الحاصل فيهم بواسطة الروح القدس" (٢،٣،٢٢).

تتجاوز رؤية النور الغير مخلوق والمعرفة الناتجة عنها ليس فقط الطبيعة والمعرفة البشرية ولكن الفضيلة أيضاً. **تعُدّنا الفضيلة والتشبه بالله للإتحاد الإلهي ولكن الإتحاد السري نفسه يحدث بواسطة النعمة** (٣،١،٢٧/ ص ٨٣).

وهكذا يكون الإتحاد بالله، الذي هو هدف الحياة الروحية، هو إعلان الله لقلب الإنسان النقي. ورؤية النور الغير مخلوق هذه هي التي تخلق بهجة روحية في النفس. لأن القديس غريغوريوس يرى أن برهان هذا النور هو أن النفس تكف عن إعطاء ذاتها للملذات الخاطئة والأهواء، وأنها تكتسب سلام وهدوء الأفكار، وراحة وفرحاً روحياً وإزدراءً للمجد البشري وتواضعاً ممتزجاً ببهجة سرية، وكراهية للعالم وحب للأشياء السماوية أو بالأحرى حب لإله السماء وحده ورؤية للنور الغير مخلوق حتى لو كانت أعين المرء مغطاة أو غير موجودة (٣،١،٣٦/ ص ٩٠).

يتضح مما قيل أن نهاية شفاء الإنسان هي رؤية النور الغير مخلوق. ولكن حيث أننا نتكلم في هذا الفصل عن الثيئوريا، فإننا قد نلقي نظرة أيضاً على تعليم القديس غريغوريوس بالاماس عن وجود عدة درجات للثيئوريا. إنه يقول أن هذه الثيئوريا لها بداية وأن الأشياء التي تتبع هذه البداية تختلف في درجة الإعتام أو الوضوح ولكن لا توجد أبداً نهاية لأن تقدمها هو لا نهائي مثل السعادة المفرطة في الإعلان. إن الإستنارة هي شيء وإستمرار رؤية النور هي شيء آخر، وشيء ثالث هو رؤية الأشياء في ذاك النور الذي بواسطته تصبح حتى الأشياء البعيدة قابلة لأن تصل إليها الأعين، ويُظهر المستقبل كما لو كان موجوداً بالفعل (٢،٣،٣٥/ ص ٦٥). توجد إذاً درجات للثيئوريا ومعها درجات للمعرفة.

وقد نلقي نظرة أيضاً على هذه النقطة في تعليم القديس بطرس الدمشقي عن الدرجات الثمانية للثيئوريا (فيلوكاليا ٣، ١٠٨). تنتمي السبعة الأوائل لهذا الدهر على حين تنتمي الثامنة للدهر الآتي. الثيئوريا الأولى هي معرفة تجارب ومحن هذه الحياة، والثانية هي "معرفة خطايانا وصلاح الله". والثالثة هي معرفة الأشياء الرهيبة قبل وبعد الموت. والرابعة هي فهم عميق لحياة ربنا يسوع في هذا العالم وتلاميذه والقديسين الآخرين أي أقوال وأعمال الشهداء والآباء القديسين. والخامسة هي ثيئوريا الكائنات المخلوقة أو

معرفة وفهم خليقة الله المنظورة. والسابعة هي فهم خليقة الله الروحية أي الملائكة. والثامنة هي معرفة تخص الله أو ما نسميه "علم اللاهوت".

وللثيئوريا بالتالي عدة مراحل ودرجات ويجب أن تأتي العديد منها قبل رؤية النور الغير مخلوق الذي هو"جمال الدهر الآتي" و "طعام الملكوت". ويوجد بين درجات الثيئوريا تذكر الموت الذي هو عطية من الله، والصلاة الدائمة، والوحي بحفظ وصايا المسيح كاملة، ومعرفة فقرنا الروحي أي فهم خطايانا وأهوائنا والتوبة المترتبة عليه. تحدث هذه الأشياء من خلال عمل النعمة الإلهية. وبالتأكيد فإن الثيئوريا الكاملة هي رؤية النور الغير مخلوق الذي ينقسم هو ذاته إلى رؤية ورؤية مستمرة كما يقول القديس غريغوريوس بالاماس (٣،١،٣٠).

وهكذا يخلق التطهير الذي يحدث بواسطة نعمة الله الشروط اللازمة للوصول للثيئوريا التي هي شركة مع الله وإتحاد به ومعرفته. تقود طريقة الكنيسة النسكية لهذه النقطة. إنها لا تقوم على صفات بشرية ولا تهدف لجعل المرء "حسناً وصالحاً" ولكن لشفائه تماماً ولتجعله يحقق الشركة مع الله. وبمقدار ما يكون الإنسان بعيداً عن الشركة والإتحاد بالله بمقدار ما يكون قد حصل على خلاصه بعد. يسمى الشخص المدرب روحياً الذي يرى النور الغير مخلوق في لغة الآباء "متحداً بالله". يستعمل هذا التعبير من قبل القديس ديونيسيوس الأريوباغي والقديس يوحنا الدمشقي وأيضاً كما رأينا من قبل القديس غريغوريوس بالاماس بصورة متكررة (٣،١،٣٠/ ص ٨٥).

يقود شفاء النفس والعقل المرء لرؤية الله، ويجعله يعرف الحياة الإلهية. هذه المعرفة التي لخلاص الإنسان.

يجب علينا أن نصلي بحرارة لله لكي يمنحنا أن نصل لمعرفة الله تلك، والعظة واضحة:

" تعال لنصعد إلى جبل الرب،

حتى إلى بيت إلهنا،

وأنظر مجد تجليه،

مجد الإبن الوحيد لأبيه.

فلنتلقى نوراً من نوره،

وبأرواح مرتفعة

فلنسبح إلى الأبد تسابيح الثالوث ذي الطبيعة الواحدة".

وهنا نقوم ونرنم:

"يا إلهنا المسيح يا من تجليت على الجبل مظهراً المجد للتلاميذ على قدر إحتمالهم. وبشفاعة والدة الإله إجعل نورك الأبدي يشرق علينا نحن الخطاة. أيها المعطي النور المجد لك".

(عيد التجلي - Festal Menaion ص ٤٧٥- ٤٧٧).

E. 20.11.2012

صلاة لطلب معالج روحي

"أيها الرب الذي لا يشاء موت الخاطئ بل أن يرجع ويحيا، الذي نزل إلى الأرض لكي يعيد الحياة لأولئك الموتى بالخطية، ولكي يجعلهم مستحقين لرؤية النور الحقيقي بالقدر المستطاع لدى الإنسان. أرسل لي رجلاً يعرفك بحيث أنني إذ أخدمه وأخضع ذاتي له بكل قوتي كما لو كنت خاضعاً لك وإذ أتمم إرادتك من خلاله أستطيع أن أرضيك أيها الإله الحقيقي وأصبح أنا الخاطئ مستحقاً لملكوتك".

القديس سمعان اللاهوتي
الجديد

(فصل ١٢٩: ١٨٦-١٨٨)

صلاة من أجل معرفة الله ومحبته

"يا رب إجعلني مستحقاً لمعرفتك ومحبتك ؛ ليست معرفة متأتية من خلال عقل مشتت، ولكن إجعلني مستحقاً لتلك المعرفة التي بواسطتها يبصرك عقلي فيمجد طبيعتك من خلال رؤية إلهية تفقد الذهن الوعي بالعالم.

إحسبني مستحقاً لأن أتحرر من عين إرادتي المتجولة في كل مكان والمولدة للخيالات، ولأن أراك في قيود الصليب وفي صلب العقل الذي يكف عندئذ عن تخيلاته الذهنية لكي يثبت في رؤيتك المستمرة التي تفوق الطبيعة. إزرع في قلبي نمواً في حبك بحيث يرتد عن هذا العالم بواسطة حبك المتقد فيه. أيقظ في داخلي فهماً لإتضاعك الذي من خلاله عشت في العالم ملتحفاً بالجسد الذي إتخذته من أعضائنا بواسطة العذراء القديسة مريم. هذا الإتضاع الذي إذ أتذكره بإستمرار أستطيع قبول حقارة طبيعتي بإبتهاج".

القديس إسحق السرياني

(عظة ١٦)

يطلب من:

مكتبة مجلة مـــــرقس

٢٨ شارع شبرا – القاهرة : تليفون ٥٧٧٠٦١٤

٨ شارع جرين – الإسكندرية : محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
ومن جميع المكتبات المسيحية



« إن كل حضارة هي حضارة تنادي بفقدان القلب. ولا يستطيع المرء أن يفهم ماهو ليس موجوداً داخل قلبه. وبالتالى يجب على المرء أن يجد قلبه لكى يحصل على الخلاص ... لأن نعمة الله تصنع خلاص الإنسان فى قلبه سراً ...

وعندما يترك العقل القلب ويبتعد عن الله. فإنه يمرض ويموت ومن ثَمَّ تموت كل النفس ... لذلك تكون عودة العقل المشتت إلى القلب التى هى عودة الطاقة إلى الجوهر. هى شفاء العقل ...

من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يقدِّموا معونة بدرجة كبيرة طالما أن المسيح وحده هو الذى يستطيع أن يستعيد العقل المائت بالأهواء ... »

متروبوليت
إيروثيئوس س. فلاخوس

الثمن : ٢٠ جنية

(٧٠١)